المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الدعوة وأصول الدين
قسم الكتاب والسنة

تم إجراء التصويبات حسب
توجيهات لجنة المناقشة
د / أحمد محمد نور سيف
د / أحمد ناصر محمد الحمد
د / الشريف منصور بن عون العبدلي
د / سيد عبد العزيز السيلي

موقف المدرسة العقلية من السنة النبوية

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الكتاب والسنة

إعداد الطالب

الأمين الصادق الأمين

إشراف

الدكتور
أحمد محمد نور سيف

الدكتور
أحمد ناصر محمد الحمد

١٤١٤ هـ

الجزء الأول



الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الأمين وبعد ..

عنوان الرسالة : موقف المدرسة العقلية من السنة النبوية.

وقد تمت الدراسة من خلال تمهيد وثلاثة أبواب .

أما التمهيد فقد كان عن السنة النبوية ، والعلاقة بين الشرع الإسلامي والعقل .

وأما الباب الأول فكان عن المعتزلة التي هي مثال للمدرسة العقلية القديمة ، حيث تناولت الدراسة موقفهم من العقل وعلاقة ذلك بأصولهم الخمسة ، ثم موقفهم العقلي من الحديث المتواتر وحديث الآحاد.

وأما الباب الثاني فكان عن المستشرقين وشبههم حول الوحي النبوي وحول صحة الحديث مع الجواب عنها .

وأما الباب الثالث فكان عن المدرسة العقلية الحديثة حيث تناولت الدراسة اعتمادها على المعتزلة والمستشرقين في التعامل العقلي مع الأحاديث وإثارة الشبه حول السنة مع الجواب عن ذلك .

وملخص ما عولج من خلال الدراسة :

أهمية السنة ، وإجماع الأمة على الأخذ بها وعدم معارضتها بعقل أو رأي ، وحفظ الله لها في كل زمان بما هيأ من علماء أفاضل قاموا بخدمتها ودفع الشبه عنها حتى دونت في كتب الحديث المختلفة وبيان اهتمام الإسلام بالعقل ، حيث لم ينقصه حقه ولم يرفعه فوق مقامه ، وأن العقل السليم لا يخالف النصوص الصحية لعجزه عن إدراك كثير من الحقائق ، وعقول الخلق ناقصة متباينة فلا تجعل حاكمة على شرع الله تعالى .

والمعتزلة جعلوا العقل أصلاً في الاستدلال فدفعهم ذلك إلى رد كثير من نصوص السنة رداً عقلياً ، وقد بان ذلك جلياً من خلال منهجهم في صفات الله تعالى ، ورؤيته ، وأفعال العباد ، وصاحب الكبيرة ، والشفاعة ، وعذاب القبر .

وورث المستشرقون عنهم شيئاً من ذلك الرفض فلم يصدقوا بنبوة النبي صلى الله عليه وسلم عداء للإسلام فأثاروا الشبه حول الوحي النبوي والتشكيك في صحة الحديث بالوضع والاختلاف والطعن في رجاله لينفذوا بعد ذلك إلى الطعن في القرآن ، إذ همهم محو الإسلام وإذلال أهله والاستيلاء على ثروات بلادهم .

وورثت المدرسة العقلية الحديثة منهج المعتزلة العقلي في معاملة النصوص ، كما ورثت شبه المستشرقين التي أثاروها حولها ، فتمخض من ذلك تهوين أمر السنة وتهميشها تطبيقياً في حياة بعض المسلمين .

وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه ،،

الطالب	المشرف	العميد
الأمين الصادق الأمين	~~الدكتور أحمد محمد نور سيف~~ والدكتور أحمد ناصر محمد الحمد	عبدالله بن عمر الدميجي

كلمة شكر وتقدير

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين .
وبعد :

اعترافا بالفضل وإسداء للجميل أتقدم بجزيل الشكر ووافره إلى جامعة أم القرى ، وأخص بالشكر كلية الدعوة وأصول الدين على ماتقدمه من خدمة جليلة ، ورعاية كريمة لطلبة العلم فجزى الله القائمين عليها خير الجزاء.

كما أخص بالشكر رابطة العالم الإسلامى والقائمين عليها لما لها من دور مهم فى تيسير السبل لتعليم أبناء المسلمين .

كما أتقدم بوافر الشكر للدكتورين الفاضلين ، الدكتور أحمد محمد نور سيف والدكتور أحمد ناصر محمد الحمد على ماأولياني من رعاية وعناية وتوجيهات كريمة ، ونصائح نافعة ، وإرشادات قيمة ، واستدراكات مفيدة كان لها أبلغ الأثر فى خروج هذا الموضوع بهذه الصورة.

فجزاهما الله خير الجزاء على ماقاما به من جهد مشكور ، وتضحية وبذل ، وجعل الله ذلك فى ميزان حسناتهما ، ونضر الله به وجهيهما وأعلى منزلتهما ، ورفع درجاتهما فى عليين .

كما أتقدم بجزيل الشكر للإخوة الذين ساعدونى فى هذا العمل بتوجيه أو إشارة أو نصيحة أو غير ذلك .

ولايفوتنى كذلك أن أزجى شكرى وتقديرى للدكتورين الفاضلين الدكتور الشريف منصور بن عون العبدلى والدكتور سيد عبد العزيز السيلى اللذين تكرما بقبول مناقشة الرسالة وتكبدا المشاق فى متابعتها وتقويمها . فجزاهما الله خيرا على ماقاما به ، وأسأل الله أن يرزقهما دوام الصحة والعافية فى الدنيا والآخرة .

والله تعالى أسأل أن أكون قد وفقت فى هذا الموضوع ووفيته حقه كاملا ، وأن يجزينى به الجزاء الأوفر ، ويجعله عملا صالحا متقبلا ، إنه ولى ذلك وهو على كل شىء قدير .

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلامضل له ، ومن يضلل فلاهادى له ، وأشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

وإن أصدق الحديث كتاب الله ، وخير الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار .

أما بعد : فإن الله عز وجل بعث محمدا صلى الله عليه وسلم على فترةمن الرسل ، حين انغمست الإنسانية فى لجج الضلال ، وانحرفت عن نهج الأنبياء وسلكت سبل الغواية ، فأنار الله ببعثته العقول وأحيا بها القلوب ، فظهر الحق بعد أن كان عافيا ، وأضاء الكون بعد أن كان مظلما ، وأنزل عليه وحيين عظيمين :

أولهما : كتاب الله تعالى الذى وصفه بقوله : {وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ماكنت تدرى ماالكتاب ولاالإيمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم}(١).

فهو الروح لأن به الحياة الحقة ، وهو النور لتوقف الهداية عليه . وهو المحفوظ من التبديل والتغيير كما قال تعالى : {لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه تنزيل من حكيم حميد}(٢).

وثانيهما : السنة الغراء ، التى أبان الله بها كتابه ، وفصل فيها مجمله وأوضح فيها مشكله ، وحفظها كما حفظ كتابه ، ولم يفرق بينهما فى إقامة الحجة على العباد .

---

(١) سورة الشورى : آية ٥٢

(٢) سورة فصلت : آية ٤٢

وقد وجد هؤلاء بين أبناء الإسلام من انخدع بأفكارهم وآرائهم ، وتأثر بثقافتهم ومناهجهم ، وبعض هؤلاء يمثلون رموزا بارزة فى بلدانهم مما كان له أبلغ الأثر فى نشر تلك الأفكار بين المسلمين ، فاستجاب لها السذج ، وتفلت بعض منهم بسببها من الالتزام بالشرع وأحكامه .

ومن المؤسف حقا أن يتبنى فكرة رد السنة بالعقل أناس يحسبون من أهل العلم ويشار إليهم بالبنان ، ويثق بهم وبعلمهم كثير من المسلمين .

ولقد أصبح هؤلاء فى هذا العصر حجر عثرة أمام موكب الإسلام المتقدم الذى بدأت ثماره فى جيل الصحوة الإسلامية ، كما أنهم أصبحوا أداة تخريب وتشكيك لهذا الجيل . ويبقى خطرهم عظيما وشرهم جسيما ، إن لم يجدوا رادعا ، وكاشفا ومبينا لضلالهم .

وقد بذلت فى ذلك جهود لايستهان بها من علماء أفاضل حرصا منهم على حماية السنةالنبوية من أن يتطاول إليها من جهل مقامها وأخطأ فى فهمها ، وقصرت به همته أن يساير ركب العلماء .

ولقد دفعنى إلى خوض غمار هذا البحث الخطير أمور أردت أن أسجلها لكى تكون شافعة لى فى تناول هذا الموضوع .

أولا : كثرة الأعاصير التى تهب فى وجه السنة النبوية مستهدفة محو أثرها وقلع جذورها ، وخاصة فى هذا العصر ، فأحببت أن تكون لى مشاركة فى صد تلك الأعاصير وإيقاف زحفها مع من بذلوا جهودا فى الدفاع عن السنة لحماية حصنها من التهديم والتخريب ، راجيا بذلك المثوبة من الله تعالى .

ثانيا : بيان أن العقل السليم لايمكنه أبدا أن يخالف نصا صحيحا ، وبيان خطورة مسلك من رد السنة بالعقل ، وتحذير المسلمين منه مع العلم بأنه لم تسبق فيه دراسة مستوفاة حسب علمى(١).

ثالثا : تأثر عدد من أبناء الإسلام الذين قلت بضاعتهم وثقافتهم من علم الكتاب والسنة ، بتيار رد السنة بالعقل ، ووقوعهم فريسة لهذا النهج الخاطىء المنحرف عن جادة الصواب مما يوجب على من عرف الحق أن يأخذ بأيديهم إلى بر الأمان .

---

(١) من تلك الدراسات : القرآنيون وشبهاتهم حول السنة لخادم حسين إلهى بخش ، منهج المدرسة العقلية الحديثة فى التفسير لابن الرومى .

رابعـا : إرادة الإسهام فى كشف القناع عن مخططات أعـداء الإسلام من المستشـرقين الـذين يحيكون الـدسائس لأبناء ديننا الحنيـف ، وتحذير المسلمين من الوقوع فى شراكهم والتأثر بشبهاتهم .

خامسـا : إرادة الإسهام فى تنبيـه أبناء الإسلام الـذين يسـايرون ركب الغرب بعلة المدنية والحضارة كى يعودوا إلى دينهم الحق حيث تكمن سعادة الدنيا والآخرة ، وليعلموا أن الإسلام صالح لكل زمان ومكان .

سـادسا : تعظيم وتبجيـل بعـض من رموز المدرسـة العقليـة وعدم قبول الطعن فيهم ممن جهل حقيقتهم من المسلمين ، فأردت أن أكشف تلك الأقنعـة المزيفة التى تنكر بهـا أولئك ، لتظهر حقيقتهـم ، ويبـدو عوارهم ، ويتضـح أمـرهم ، والحق لايعـرف بالـرجال ، وإنما يعـرف الـرجال بالحق .

سـابعا : الـرغبة فى المشاركـة فى دفع عجلة الصحوة الإسلاميـة بإرجاع أمـة الإسلام إلى التمسك بالسنـة النبوية وتعظيمها وتوقيرهـا وعدم الاستهانة بأمرها .

ولكـن ثمة عقبـات اعترضت مسـارى وأنا فى بداية هـذا البحـث ، من ذلك :

(١) عدم وضوح الرؤية الكافية ، للسير بين ثنايا هذا الموضوع ، والتهيب من اقتحام لججه ، لما يحدثه مـن آثار فى نفوس كثير ممـن ينتسب إلى الإسلام .

(٢) اتساعه وتشعبه ، وكثرة الشبه وتداخلها مما دفعنى لمطـالعة العديد من الكتـب فى أنواع العلـوم المختلفـة مما أدى إلى استنفـاد جهـد ووقت ليس بالقليل .

ولكن أحمد الله الذى أعاننى على ذلك ، فيسر تلك الصعوبات وأزال تلـك العقبات وهيأ لى من أعـاننى على اجتيازها وتخطيهـا ، وهما الدكتوران الفـاضلان ، الدكتور أحمد محمـد نور سيف ، والدكتـور أحمـد ناصر محمد الحمـد اللذان شجعانى على السير قـدما فى هذا الموضـوع ، وكـان لإشرافهما أكبر الأثر وأطيبه فى إخراج هذا البحث بصورته الحالية .

وقد قسمت هذا الموضوع إلى مقدمة وتمهيد وثلاثة أبواب وخاتمة .

أما التمهيد فهو فى مطلبين :

المطلب الأول : أتناول فيه الحديث عن السنة النبوية من حيث تعريفها ، وحجيتها ومنزلتها من القرآن الكريم .

المطلب الثانى : أتناول فيه العلاقة بين الشرع الإسلامى والعقل ، وأبين فيه أهمية العقل فى الإسلام حتى لايفهم أحد أن الإسلام يحارب العقل أو ينقص من مقامه ، كما أتناول الصلة التى يجب أن تكون بين الشرع والعقل ، وأوضح أن العقل لايمكن أن ينافى نصا صحيحا .

وأما الباب الأول :

وقد جعلته فى فصلين :

وهو عن المدرسة العقلية القديمة ، وسيكون الحديث منصبا على طائفة المعتزلة لأنها أهم الطوائف الإسلامية التى أعطت العقل سلطانا واسعا وحكمته فى النصوص ، وأجعلها مثالا للمدرسة القديمة ، وأتناول فى حديثى عنها موقفها من العقل وعلاقة ذلك بالأصول الخمسة عندهم ، وهو الفصل الأول . ثم أتناول فى الفصل الثانى أثر ذلك الموقف فى رد الأحاديث الصحيحة ، وأمثل لذلك بعدة أمور كى يتبين هذا المنهج الخاطىء . وهى : صفات الله تعالى ، رؤية الله سبحانه وتعالى ، أفعال العباد ، صاحب الكبيرة ، الشفاعة ، عذاب القبر .

وأما الباب الثانى :

فهو خاص بالحديث عن المستشرقين .

وقد جعلته فى فصلين :

الأول : أمهد له بالحديث عن صلة المستشرقين بالفكر الإسلامى وأثر تلك الصلة فى إثارة الشبهات حول السنة النبوية .

وأضمن ذلك الحديث عن مفهوم الاستشراق ، وتاريخه وأهدافه ، ومنهجه . ثم أعرض شبهاتهم حول الوحى النبوىء التى هى عنوان الفصل، مع الإجابة عنها .

الثانى : موقفُ المستشرقين من صحةِ الحديثِ النبويِ .

وأتنـاولُ من خلالِه شبَهَ المستشـرقين حولَ صحةِ الحديثِ مـع الجوابِ عن كلِ شبهةٍ .

وأما البابُ الثالثُ :

فهو عن المدرسةِ العقليةِ الحديثةِ . وفيه فصلان :

الأولُ : علاقةُ المدرسةِ العقليةِ الحديثةِ بالمدرسةِ العقليـةِ القديمةِ ، وأثرُ تلـك العلاقةِ فى ردِّ الأحاديثِ النبـويةِ ، وسأتناولُ ذلـك مـن خلالِ مجموعةٍ مِن الأحاديثِ التى ردها هؤلاءِ بعقـولِهم مع اختيارِ ثلاثةٍ منهـا للـدراسةِ حتى يتبينَ منهجُ هذه المدرسةِ وتنكشفَ حقيقتُهُ .

الثانى : تأثرُ المدرسةِ العقليةِ الحديثةِ بالمستشرقين ، وأثرُ ذلـك فى إثارةِ الشبـهِ حولَ السنةِ . سأبينُ فى هذا الأثرَ والتأثرَ ثم أُوردُ تلـك الشبهاتِ مع الجوابِ عنها .

وأما الخاتمةُ :

فأُبْرِزُ فيها أهمَ النتائجِ التى أتوصلُ إليها مِن خلالِ البحثِ .

وسـوفَ أسيرُ فى هذا البحثِ على المنهجِ الذى يَسيرُ عليـه الباحثون فى الغالبِ ، مع التنبيهِ على أمورٍ منها :

(١) قد أستخدمُ طبعاتٍ مختلفةً فى توثيقِ المعلوماتِ ، ففى هذه الحالةِ أُوثقُ الطبعةَ التى أستخدمُها نادراً بين ثنايا البحثِ ، وأُوثقُ الأخرى فى ثَبَتِ المراجع .

(٢) قـد أُوثقُ بعـضَ الكتـبِ بين ثنـايا البحـثِ ولو لم أستخـدمْ إلا طبعـةً واحدةً ، وهذا يكونُ غالباً فى الكتبِ التى أخذتُ عنها نادراً .

(٣) سـوفَ أتعاملُ مع طبعتين مختلفتين مـن كتابِ العقيـدةِ والشريعةِ لجولدِ زيهر ، وهما الطبعةُ الأولى والثانيةُ ، وأَرْمُزُ للأولى بعبـارةِ "الأولى" ، وأتركُ الثانيةَ بغيرِ رمزٍ .

(٤) كذلك سوفَ أتعاملُ مع نسختين من شرحِ النخبةِ للحـافظِ ابن حجرٍ ، أحدُهما باسمِ نزهةِ النظرِ ، والأخرى باسمِ شرحِ نخبةِ الفِكَرِ .

التمهيد

وفيه مطلبان :

المطلب الأول : السنة النبوية

المطلب الثاني : العلاقة بين الشرع والعقل في الدين الإسلامي

المطلب الأول

السنّة النبوية

(١) **السنّة في اللغة** : السنة في الأصل مأخوذة من السنن وهو الطريق والوجه والقصد[١].

وقد أطلقت على عدة معاني . من ذلك :

أ – السيرة : حسنة كانت أو قبيحة .

قال خالد بن عتبة الهذلي :

لا تـــجزعن من سيرة أنت سرتها   فـــأول راض سنة من يسيرها

وفي الحديث : « من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده ... ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها بعده ....» الحديث [٢] يريد من عمل بها ليقتدي به فيها [٣] .

وكل من ابتدأ أمرًا فعمل به أحد بعده ، قيل هو الذي سنه .

قال نصيب :

كأني سننت الحب أول عاشق   من الناس أو أحببت من بينهم وحدي [٤]

وسن فلان طريقًا من الخير يسُنُّه إذا ابتدأ أمرًا لم يعرفه قومه فاستنوا به واتبعوه فيه [٥] .

ويقال : فلان من أهل السنة : إذا كان على الطريقة المحمودة المستقيمة [٦] .

ب – الطبيعة والخلق والوجه والصورة [٧] .

قال ذو الرمة :

تريك سنة وجــه غـــير مُقرِفَة   ملساء ليس بـــها خـــالٌ ولانـــدب

(١) انظر لسان العرب : ١٣/٢٢٦ .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه . من حديث جرير . كتاب الزكاة : (١٢) . باب الحث على الصدقة : (٢٠) . برقم : (١٠١٧) . ٢/ ٧٠٤– ٧٠٥ .

وبلفظ مقارب في كتاب العلم : (٤٧) . باب من سن سنة حسنة أو سيئة : (٦) . برقم (١٠١٧) . ٤/٢٠٥٩

(٣) انظر : لسان العرب : ١٣ / ٢٢٥ .

(٤) انظر : تهذيب اللغة : ١٢/٣٠٦، لسان العرب : ١٣/٢٢٥ . وبيت الشعر في كتاب شعر نصيب بن رباح ص: ٨٤

(٥) انظر : لسان العرب : ١٣/٢٢٦ .

(٦) انظر : تهذيب اللغة : ١٢/ ٢٩٨ .

(٧) المعجم الوسيط : ١/٤٥٦ .

يريد بذلك صورة الوجه ودوائره [١] .

وسنة الخد : صفحته [٢] .

د - الإمام المتبع المؤتم به .

هـ - الأمة ، والسنن الأمم .

ومن ذلك قول المفضل :

ما عاين الناس من فضل كفضلهم   ولا رأوا مثلهم في سالف السنن [٣]

و - العادة المتبعة :

ومن ذلك قول الله عز وجل :

(وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلا أن تأتيهم سنة الأولين أو يأتيهم العذاب قبلا) [٤] .

قال القرطبي :

« سنة الأولين عادة الأولين في عذاب الاستئصال » [٥]

وقد استخدم الجاهليون لفظ السنة بأنها العادة المتبعة سواء كانت حميدة أو ذميمة .

قال لبيد :

مـــن معشر سنت لهم أباؤهم   ولـــكل قـــوم سنة وإمامها [٦]

وقال حسان بن ثابت :

إن الـــذوائب مـــن فهر وإخوتهم   قـــد بينوا سنة للناس تتبـــع [٧]

---

(١) الصحاح للجوهري : ٥/٢١٣٩ . وبيت الشعر في ديوان ذي الرمة ١/٢٩
(٢) الفائق في غريب اللغة : ٢/٢٠١ .
(٣) انظر : الجامع لأحكام القرآن : ٤/٢١٦ .
(٤) سورة الكهف : الآية : (٥٥) .
(٥) الجامع لأحكام القرآن : ١١/٦ .
(٦) شرح ديوان لبيد : ص : ٣٢٠ .
(٧) انظر : دراسات في الحديث النبوي : ١/٢ والبيت في ديوان حسان بن ثابت : ص : ١٤٥ .

ز - الخط الأسود على متن الحمار [١]

وضرب من تمر المدينة ، معروفة [٢] .

وقد كثر استعمال السنة في القرآن بمعنى الطريقة والعادة المتبعة [٣] .

قال الراغب :

« السنن . جمع سنة ، وسنة الوجه طريقته ، وسنة النبي طريقته التي كان يتحراها ، وسنة الله تعالى قد تقال لطريقة حكمته وطريقة طاعته نحو :(سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً) [٤] (ولن تجد لسنة الله تحويلاً)[٥] [٦].

وقد صار في عرف كثير من علماء أهل الحديث أن السنة عبارة عما سلم من الشبهات في الاعتقادات ، خاصة في مسائل الإيمان والقدر ، وفضائل الصحابة . وبالتالي صنفوا في هذا العلم تصانيف متعددة وسموها : كتب السنة [٧] .

وأهل السنة والجماعة هم سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ومن سار على نهجهم ، الذين اجتمعوا على الحق من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ [٨] .

[٢] السنة في الشرع :

قال ابن الأثير : « وإذا أطلقت في الشرع فإنما يراد بها ما أمر به النبي ﷺ ونهى عنه وندب إليه قولاً وفعلاً مما لم ينطق به الكتاب العزيز . ولهذا يقال في أدلة الشرع الكتاب والسنة : أي القرآن والحديث » [٩] .

قال الإمام الشاطبي رحمه الله :

« يطلق لفظ السنة على ماجاء منقولاً عن النبي ﷺ على الخصوص مما لم ينص عليه في

---

(١) تهذيب اللغة : ١٢/ ٣٠٤ .

(٢) المرجع السابق : ١٢/ ٣٠٦ .

(٣) انظر : دراسات في الحديث النبوي : ١/ ٥ ، السنة والعلم الحديث : ص : ١٣ .

(٤) سورة الفتح : الآية : (٢٣) .

(٥) سورة فاطر : الآية : (٤٣) .

(٦) المفردات في غريب القرآن : ص : ٢٤٥ .

(٧) انظر : أهل السنة والجماعة معالم الإنطلاقة الكبرى : ص : ٤٤ .

(٨) انظر : شرح العقيده الواسطية : ص : ١٦ ، أهل السنه والجماعة : ص : ٤٥ .

(٩) النهاية في غريب الحديث : ٢/ ٤٠٩ .

الكتاب العزيز بل إنما نص عليه من جهته عليه الصلاة والسلام كان بيانًا لما في الكتاب أولا » [١] .

وإذا أريد سنة غير النبي ﷺ فإنها تقيد بذلك ولا تطلق .

روى البخاري بسنده إلى ابن شهاب [٢] عن سالم [٣] بن عبد الله عن أبيه في قصته مع الحجاج[٤] حين قال له : « إن كنت تريد السنة فهجر بالصلاة » .

قال ابن شهاب : « فقلت لسالم : أفعله رسول الله ﷺ؟ قال : وهل تتبعون في ذلك إلا سنته» ؟ [٥] .

وقد نقل السيوطي هذا الحديث ثم قال عقبه :

« فنقل سالم وهو أحد الفقهاء السبعة من أهل المدينة وأحد الحفاظ من التابعين عن الصحابة أنهم إذا أطلقوا السنة لا يريدون بذلك إلا سنة النبي ﷺ »[٦] .

وقال الإمام الشافعي رحمه الله : « مطلق السنة يتناول سنة رسول الله ﷺ فقط »[٧].

---

(١) الموافقات في أصول الفقه : ٤/٢ .

(٢) ابن شهاب : هو محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب الزهري ، القرشي ، أبو بكر ، الفقيه الحافظ ، متفق على جلالته واتقانه . روى عن أنس بن مالك ، والسائب بن يزيد ومحمود بن الربيع ، وعنه عطاء وعمر بن عبد العزيز وعمرو بن دينار . مات سنة ١٢٥ وقيل قبل ذلك .

انظر : الجرح والتعديل : ٨/٧١ ، تذكره الحفاظ : ١/١٠٨ ، ١١٣ ، تهذيب التهذيب : ٩/٤٤٥ ، تقريب التهذيب : ٢/٢٠٧ .

(٣) سالم : هو سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب القرشي العدوي ، أبو عمر أو أبو عبد الله ، المدني ، أحد الفقهاء ، السبعة ، وكان ثبتًا عابدًا فاضلاً ، يشبه بأبيه في الهدى والسمت . روى عن أبيه وأبي هريرة . وعنه الزهري ، وصالح بن كيسان . مات سنة ١٠٦هـ .

انظر : الجرح والتعديل : ٤/١٨٤ ، الكاشف : ١/٣٤٤ ، تقريب التهذيب : ١/٢٨٠ .

(٤) الحجاج : هو الحجاج بن يوسف بن أبي عقيل الثقفي ، الأمير ، المشهور ، الظالم ، المبير ، وقع ذكره وكلامه في الصحيحين وغيرهما ، وليس بأهل أن يروى عنه ، ولي إمرة العراق عشرين سنة . روى عن أنس بن مالك . وعنه مالك بن دينار وثابت . مات سنة ٩٥هـ .

انظر : الجرح والتعديل : ٣/١٦٨ ، ميزان الاعتدال : ١/٤٦٦ ، تقريب التهذيب : ١/١٥٤ .

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه . كتاب الحج : (٢٥) . باب الجمع بين الصلاتين بعرفة : (٨٩) ، ٢/١٧٤ - ١٧٥ .

(٦) تدريب الراوي : ١/١٨٩ .

(٧) أصول السرخسي : ١/١١٤ .

وقد تطلق السنة على ماعمل عليه الصحابة رضوان الله عليهم وجد ذلك في الكتاب أو السنة أو لم يوجد لكونه اتباعًا لسنة ثبتت عندهم لم تنقل إلينا ، أو اجتهادا مجمعًا عليه منهم أو من خلفائهم . وذلك كحد شارب الخمر ، وجمع المصحف وحمل الناس على القراءة بحرف واحد من الحروف السبعة وتدوين الدواوين . والدليل على ذلك قوله ﷺ « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين »[1][2] .

ومما يدل على ذلك أيضًا قول علي رضي الله عنه في حد شارب الخمر : « جلد النبي ﷺ أربعين ، وأبو بكر أربعين ، وكملها عمر ثمانين ، وكل سنة »[3] .

كما تطلق السنة في مقابلة البدعة ، أي فيما يحدثه الناس من قول أو عمل في الدين مما لم يؤثر عنه ﷺ أو عن أصحابه[4] .

يقول الإمام الشاطبي رحمه الله : « فيقال فلان على سنة إذا عمل على وفق ما عمل عليه النبي ﷺ وكان ذلك مما نص عليه في الكتاب أولا . ويقال فلان على بدعة إذا عمل على خلاف ذلك . وكان هذا الإطلاق إنما اعتبر فيه عمل صاحب الشريعة فاطلق عليه لفظ السنة من تلك الجهة وإن كان العمل بمقتضى الكتاب »[5] .

وقد تطلق السنة على النوافل من العبادات غير المفروضة مما جاء عن النبي ﷺ سواء

---

(١) جزء من حديث أخرجه : أبو داود في سننه . من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه . كتاب السنه . باب في لزوم السنة . رقم : (٤٦٠٧) . ٤/٢٠٠-٢٠١ والترمذي في سننه . كتاب العلم : (٤٢) . باب ماجاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع : (١٦) . برقم (٢٦٧٦) . وقال : « هذا حديث حسن صحيح » ٥/٤٣-٤٤ وابن ماجه في سننه . المقدمة . باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين : (٦) .برقم : (٤٢) ، (٤٣) ، (٤٤) . ١/١٥-١٧ .

والدرامي في سننه . المقدمة . باب اتباع السنة : ١/٤٤-٤٥ .

وأحمد في المسند : ٤/١٢٦ ، ١٢٧ . والحاكم في المستدرك . بطرق إلي العرباض .

وقال : « هذا حديث صحيح ليس له علة » ووافقة الذهبي . ١/٩٥-٩٧ .

وقال الشيخ ناصر الدين الألباني : « صحيح » إرواء الغليل : برقم (٢٤٥٥) . ٨/١٠٧-١٠٩ ، سلسلة الأحاديث الصحيحة : برقم : (٩٣٧) . ٢/٦٤٧ - ٦٤٨ ، صحيح الجامع : برقم (٢٥٤٦) ١٠/٣٤٦ .

صحيح سنن أبي داود : ٣/٨٧١ ، صحيح سنن ابن ماجة : ١/١٣ - شرح العقيدة الطحاوية : ص : ٣٨٣ هامش : (٥٠١) ، وص : ٤٨٥ هامش : (٧١٥) .

(٢) انظر : الموافقات : ٤/٢-٣ .

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه . كتاب الحدود : (٢٩) . باب حد الخمر : (٨) .

برقم : (١٧٠٧) . ٣/١٣٣١ - ١٣٣٢ .

(٤) انظر : توثيق السنة : ص : ١٦ .

(٥) الموافقات : ٤/٢ .

كانت مؤكدة يكره تركها أو غير ذلك [١] .

وإذا نظرنا إلى علماء الحديث والأصول والفقه نجد أن كل فئة اطلقت اصطلاحًا معينًا لتعريف السنة حسب ما تقتضيه اغراض كل فئه :

فالسنة عند المحدثين ما أثر عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة أو سيرة ، سواء كان قبل البعثة أو بعدها [٢] .

والسنة عند الأصوليين :

هي ما صدر عن النبي ﷺ غير القرآن الكريم من قول أو فعل أو تقرير مما يصلح أن يكون دليلاً لحكم شرعي [٣] .

والسنة عند الفقهاء :

هي كل ماثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم ولم يكن من باب الفرض ولا الواجب[٤].

ويتضح مما سبق من تعريفات أن اصطلاح المحدثين أوسع الاصطلاحات لتعريف السنة وأجمع لجوانبها وأشمل .

فأقواله ﷺ كحديث « قل آمنت بالله فاستقم » [٥] وأفعاله ، كأداء الصلوات[٦] ومناسك الحج [٧] .

---

(١) انظر : توثيق السنة : ص : ١٦ ، ١٧ .

(٢) انظر : السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي : صـ : ٧٤ أصول الحديث : ص : ١٩ .

(٣) انظر : أصول الحديث ، ص : ١٩ . أصول الفقه لعبد الوهاب خلاف : ص : ٣٦ .

(٤) انظر : إرشاد الفحول : ص : ٣٣ .

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه . من حديث سفيان بن عبد الله الثقفي .
كتاب الإيمان : (١) . باب جامع أوصاف الإسلام : (١٣) . برقم : (٣٨) . ١/٦٥ .

(٦) قال صلى الله عليه وسلم في حديث مالك بن الحويرث : « صلوا كما رأيتموني أصلي .... الحديث » أخرجه البخاري في صحيحه : كتاب الأذان : (١٠) باب الأذان للمسافر : (١٨) . ١/١٥٥ . وفي كتاب الأدب : (٧٨) . باب رحمة الناس بالبهائم : (٢٧) . ٧/٧٧ . وفي كتاب أخبار الآحاد : (٩٥) . باب ماجاء في إجازة خبر الواحد : (١) . ٨/١٣٣ .

(٧) قال رسول الله ﷺ في حديث جابر بن عبد الله : « لتأخذوا مناسككم فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه ».
أخرجه مسلم في صحيحه . كتاب الحج : (١٥) . باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكبًا : (٥١) . برقم : (١٢٩٧) . ٢/٩٤٣ .

وتقريراته كإقراره للعب الأحباش بالحراب في المسجد أيام الأعياد (١) .

وأما صفاته فمنها غير الاختيارية كحركات الأعضاء مما وضح فيه أمر الجبلة ولا يتعلق بالعبادات كالقيام والقعود ، ومنها ما يحتمل أن تخرج من الجبلة إلى التشريع بمواظبته ﷺ عليها على هيئة مخصوصة كالأكل والشرب والنوم واللبس وتكون في هذه الحالة داخلة في أفعاله (٢) .

وأما سيرته قبل البعثة كتحنثه في غار حراء الليالي ذوات العدد (٣) .

والسنة بتعريف علماء الحديث ترادف تعريف الحديث وذلك عند كثير من علماء الحديث.

مع أن فريقًا من العلماء فرق بيْن مدلول لفظ السنة والحديث فأطلق «الحديث » على مانقل عن النبي ﷺ من قول ، أو فعل أو تقرير ، أو صفة .

واطلق السنة على الواقع العملي في تطبيق الشريعة من عصر الرسول ﷺ إلى آخر عهد الصحابة رضوان الله عليهم (٤) .

وعلى هذا يحمل قول عبد الرحمن بن مهدي (٥) في الإمام الثوري (٦) إذ يقول : « الناس

---

(١) روى البخاري بسنده إلى عائشة رضي الله عنها قالت : « رأيت النبي ﷺ يسترني بردائه وأنا انظر إلى الحبشة يلعبون في المسجد حتى أكون أنا الذي أسأم ....» الحديث .

صحيح البخاري : كتاب النكاح : (٧٦) . باب نظر المرأة إلى الحبشة . (١١٤) . ٦/١٥٩ .

(٢) انظر : نزهة النظر : ص : ٧ .

(٣) انظر : صحيح البخاري : كتاب بدء الوحي : (١) . باب (٣) . ١/٣ .

كتاب التفسير : (٦٥) . تفسير سورة اقرأ : (٩٦) . باب (١) . ٦/٨٨ .

كتاب التعبير : (٩١) . باب التعبير : (١) . ٨/٦٧ .

صحيح مسلم : كتاب الإيمان : (١) . باب بدء الوحي : (٧٣) . برقم : (١٦٠) ، ١/١٤٠ .

(٤) انظر ، أدب الحديث النبوي : ص : ١٠ .

(٥) عبد الرحمن بن مهدي :

هو عبد الرحمن بن مهدي بن حسان العنبري ، مولاهم ، أبو سعيد البصري ، ثقة ثبت ، حافظ عارف بالرجال والحديث . قال ابن المدني : « ما رأيت اعلم منه » انظر : الجرح والتعديل : ٥/٢٨٨- ٢٩٠ ، الكاشف ٢/١٨٧-١٨٨ ، تقريب التهذيب : ١/٤٩٩ .

(٦) الثوري :

هو سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري ، أبو عبد الله الكوفي ، ثقة حافظ فقيه ، عابد إمام حجة . روى عن أيوب السختياني ، وثور بن يزيد ، وحميد وعنه شعبه ومعمر ، وأبو اسحاق الفزاري وخلق.مات سنة ١٦١ انظر : الجرح والتعديل : ١/٥٥-١٢٦ ، ٤/٢٢٢ ، ٢٢٥تذكرة الحفاظ : ١/٢٠٣ - ٢٠٧ تهذيب التهذيب : ٤/١١١-١١٥ ، تقريب التهذيب : ١/٣١١

على وجوه ، فمنهم من هو إمام في السنة إمام في الحديث ، ومنهم من هو إمام في السنة وليس بإمام في الحديث ، ومنهم من هو إمام في الحديث ليس بإمام في السنه ، فأما من هو إمام في السنة وإمام في الحديث فسفيان الثوري » (١) .

وكقوله « لم أر أحدًا قط أعلم بالسنة ولا بالحديث الذي يدخل في السنة من حماد بن زيد » (٢) (٣) .

وهذا لايناقض قوله رحمه الله الآخر إذ يقول :

« سفيان الثوري إمام في الحديث والأوزاعي (٤) إمام في السنة ، ومالك إمام فيهما جميعًا »

فهو يريد أن الثوري كان إمامًا في استحضار الأحاديث والآثار في كل باب من أبواب الفقه فيفتي بها . والأوزاعي كان إمامًا في معرفة قواعد السلف في كل باب من أبواب الفقه فيفتي بموجبها . ومالك كان إمامًا في كلا الأمرين فيفتي بموجبهما. (٥) .

[٣] حجية السنة :

لاشك إن السنة النبوية هي المصدر التشريعي الثاني بعد كتاب الله تعالى ، ولايمكن لدين الله أن يكتمل ، ولالشريعته أن تتم إلا بأخذ سنة النبي ﷺ جنبًا إلى جنب مع كتاب الله تعالى .

ولقد جاءت آيات القرآن الكريم المتكاثرة وأحاديث الرسول ﷺ المتواترة تأمر بطاعة رسول الله ﷺ والتمسك بسنته والاحتجاج بها . إضافة إلى ماورد من إجماع من الأمة ،

(١) الجرح والتعديل : ١ / ١١٨ .

(٢) حماد بن زيد :

هو حماد بن زيد بن درهم الأزدي ، الجهضمي ، أبو اسماعيل البصري ، ثقة ثبت فقيه . قال عنه الذهبي : « أحد الأعلام ، أضر ، وكان يحفظ حديثه كالماء » . روى عن أبي عمران الجوني وثابت وأبي جمرة . وعنه مسدد وعلي . مات سنة : ١٧٩هـ .

انظر : الجرح والتعديل : ٣ / ١٣٧- ١٣٩ ، الكاشف : ١ / ٢٥١ ، تقريب التهذيب : ١ / ١٩٧ .

(٣) الجرح والتعديل : ١ / ١٧٧ .

(٤) الأوزاعي :

هو عبد الرحمن بن عمرو بن أبي عمرو الأوزاعي ، أبو عمرو ، الفقيه ، ثقة جليل . قال عنه الذهبي : « وكان رأسًا في العلم والعبادة » . روى عن عطاء ومكحول والتيمي ، وعنه قتادة ويحى بن أبي كثير وغيرهم . مات سنة ١٥٧هـ .

انظر : الجرح والتعديل : ٥ / ٢٦٦- ٢٦٧ ، الكاشف : ٢ / ١٧٩ ، تقريب التهذيب : ١ / ٤٩٣ .

(٥) نزهة النظر : ص ٧- ٨ .

وأقوال الأئمة ، في إثبات حجيتها ووجوب الأخذ بها .

ونذكر من ذلك شيئاً يسيرًا على سبيل المثال لا الحصر .

أولاً : الأدلة من القرآن الكريم :

١ - قال الله تعالى : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجًا مما قضيت ويسلموا تسليماً) [(١)] .

قال الإمام ابن كثير رحمه الله في بيان هذه الآية :

« يقسم تعالى بنفسه الكريمة المقدسة أنه لايؤمن أحد حتى يحكم الرسول ﷺ في جميع الأمور فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطنًا وظاهرًا ولهذا قال : « ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجًا مما قضيت ويسلموا تسليماً » أي إذا حكموك يطيعونك في بواطنهم فلا يجدون في أنفسهم حرجًا مما حكمت به وينقادون له في الظاهر والباطن فيسلمون لذلك تسليماً كليًا من غير مما نعة ولا مدافعة ولا منازعة» [(٢)] .

٢ - وقال سبحانه : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه » الآية [(٣)] قال الإمام ابن القيم رحمه الله :

« فإذا جعل الله من لوازم الإيمان أنهم لا يذهبون مذهبًا إذا كانوا معه إلا باستئذانه ، فالأولى أن يكون من لوازمه أن لا يذهبوا إلى قول ولا مذهب علمي إلا بعد استئذانه ، وإذنه يعرف بدلالة ما جاء به على أنه أذن فيه » [(٤)] .

٣ - وقال جل ذكره : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً » [(٥)] .

قال الشاطبي رحمه الله : « وسائر ماقرن فيه طاعة الرسول بطاعة الله فهو دال على أن

---

(١) سورة النساء : الآية : (٦٥) .
(٢) تفسير القرآن العظيم : ١/٥٢٠ .
(٣) سورة النور الآية : (٦٢) .
(٤) أعلام الموقعين : ١/٥٤-٥٥ .
(٥) سورة النساء : الآية : (٥٩) .

طاعة الله ما أمر به ونهى عنه في كتابه ، وطاعة الرسول ما أمر به ونهى عنه مما جاء به مما ليس في القرآن إذا لو كان في القرآن لكان من طاعة الله » [١] والرد إلى الله هو الرد إلى كتابه ، والرد إلى الرسول هو الرد إليه في حياته وإلى سنته بعد موته [٢] .

٤ - وقال تعالى : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم » [٣] .

قال المباركفوري :

« أمر الله سبحانه وتعالى في هذه الآية كل من يدعي محبته أن يتبع محمدًا ﷺ ، وما معنى اتباعه إلا اتباعه ﷺ في جميع أقواله وأفعاله وأحواله وهديه . ومجموع أقواله وأفعاله وأحواله وهديه هو المعنى بالأحاديث النبوية . فثبت أن من لم يتبع الأحاديث النبوية ولم ير العمل بها واجبًا فهو في دعوى محبته لله تعالى كاذب ، ومن كان في هذه الدعوى كاذبًا فهو في دعوى إيمانه بالله تعالى كاذب بلامرية » [٤] .

٥ - قال سبحانه وتعالى : (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) [٥] .

قال ابن كثير رحمه الله :

(فليحذر الذين يخالفون عن أمره) أي عن أمر رسول الله ﷺ وهو سبيله ومنهاجه وطريقته وسنته وشريعته ، فتوزن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله ، فما وافق ذلك قبل ، وما خالفه فهو مردود على قائله وفاعله كائناً من كان ... فليحذر وليخش من خالف شريعة الرسول باطنًا وظاهرًا « أن تصيبهم فتنة » أي في قلوبهم من كفر أو نفاق أو بدعة « أو يصيبهم عذاب أليم » أي في الدنيا بقتل أو حد أو حبس أو نحو ذلك » [٦] .

---

(١) الموافقات : ٤/ ٧ .

(٢) انظر : الجامع لأحكام القرآن : ٥/ ٢٦١ .

(٣) سورة آل عمران : الآية (٣١) .

(٤) مقدمة تحفة الأحوذي : ص : ٤١ .

(٥) سورة النور : الآية (٦٣) .

(٦) تفسير القرآن العظيم : ٣/ ٣٠٧ .

ثانيًا : الأدلة من السنة النبوية :

١ - روى البخاري بسنده إلى أبي موسى عن النبي ﷺ قال : « إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قومًا فقال يا قوم إني رأيت الجيش بعيني وإني النذير العريان فالنجاء فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا فانطلقوا على مهلهم فنجوا وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم فذلك مثل من أطاعني فاتبع ماجئت به ومثل من عصاني وكذب بما جئت به من الحق» [١] .

٢ - وروى بسنده إلى أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال :"وكل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى » قالوا يارسول الله : ومن يأبى ؟ قال : « من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى»[٢] .

٣ - روى ابن ماجه بسنده إلى المقدام بن معد يكرب الكندي أن رسول الله ﷺ قال : « يوشك الرجل متكئًا على أريكته يحدث بحديث من حديثي فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله عز وجل . فما وجدنا فيه من حلال استحللناه ، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه . ألا وإن ما حرم رسول الله ﷺ مثل ما حرم الله » [٣] .

٤ - قال ﷺ (نضر الله امرءًا سمع مقالتي فحفظها فوعاها فأداها كما سمعها فرب مبلغ

---

(١) صحيح البخاري : كتاب الاعتصام : (٩٦) . باب الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم : (٢) . ٨/١٤٠ . وبلفظ مقارب في كتاب الرقاق : (٨١) . باب الانتهاء عن المعاصي : (٢٦) . ٧/١٨٦ .

وأخرجه مسلم في صحيحه . كتاب الفضائل : (٤٣) . باب شفقته صلى الله عليه وسلم على أمته : (٦) . برقم : (٢٢٨٣) . ٤/١٧٨٨ - ١٧٨٩ .

(٢) صحيح البخاري . كتاب الاعتصام : (٩٦) . باب الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم : (٢) . ٨/١٣٩ .

(٣) سنن ابن ماجه : المقدمة : باب تعظيم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(٢) ، برقم : (١٢) . وأخرج نحوه من حديث أبي رافع : برقم (١٣) . ١/٦-٧ وأخرج ، أبو داود نحوه من حديث المقدام . برقم (٤٦٠٤) ، وأبي رافع برقم : (٤٦٠٥) . كتاب السنة ، باب في لزوم السنة . ٤/٢٠٠ .

والترمذي نحوه من حديث أبي رافع . كتاب العلم : (٤٢) . باب مانهي عنه أن يقال عند حديث النبي صلى الله عليه وسلم : (١٠) . برقم . (٢٦٦٣) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » . ٥/٣٦-٣٧ .



أوعى من سامع) (١) .

ثالثًا : الإجماع :

قال الإمام الشافعي رحمه الله :

« لم أسمع أحدًا نسبه الناس أو نسب نفسه إلى علم ، يخالف في أن فرض الله عز وجل اتباع أمر رسول الله ﷺ والتسليم لحكمه بأن الله عز وجل لم يجعل لأحد بعده إلا اتباعه وأنه لايلزم قول بكل حال إلا بكتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ ، وأن ماسواهما تبع لهما ، وأن فرض الله علينا وعلى من بعدنا وقبلنا في قبول الخبر عن رسول الله ﷺ واحد ، لايختلف في أن الفرض والواجب قبول الخبر عن رسول الله ﷺ » (٢) .

وقال الإمام ابن حزم رحمه الله في قوله تعالى : « فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » (٣) .

= والدرامي . بلفظ مقارب عن المقدام . المقدمة باب السنة قاضية على كتاب الله ، ١/١٤٤ وأحمد بلفظ مقارب عن المقدام . ٤/١٣٢ .

ونحوه عن أبي رافع ٦٠/٨ .

والحاكم بلفظ مقارب عن المقدام ، ١/١٠٩ . ونحوه عن أبي رافع .

وقال : وهو صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه » ووافقه الذهبي . ١/١٠٨ - ١٠٩ والحديث صحيح كما نص على ذلك الترمذي والحاكم ، والشيخ ناصر الدين الألباني . انظر : صحيح الجامع الصغير : برقم : (٨٠٣٨) . ٦/٣٦٥ .

صحيح سنن أبي داود : ٣/٨٧١ .

(١) حديث متواتر : انظر دراسة وافية عنه في كتاب « دراسة حديث نضر الله امرءًا سمع مقالتي ... رواية ودراية » للشيخ عبد المحسن بن حمد العباد . فإنه ذكر له أربعة وعشرين صحابيًا ممن رواه عن الرسول صلى الله عليه وسلم .

وذكره السيوطي في قطف الأزهار المتناثره ص : ٢٨ .

وانظر بعض طرقه في :

سنن أبي دواد : عن زيد بن ثابت في كتاب العلم ، باب فضل نشر العلم برقم ٣٦٦٠ /٣/٣٢٢ ، سنن الترمذي . عن زيد بن ثابت برقم ٢٦٥٦ ، وعبد الله بن مسعود برقم ٢٦٥٧ ، ورقم ٢٦٥٨ .

وقال الترمذي « وفي الباب عن .... ومعاذ بن جبل وجبير بن مطعم وأبي الدرداء وأنس »٥/٣٣-٣٤ .

سنن ابن ماجه ، من حديث زيد بن ثابت برقم ٢٣٠ ، وجبير بن مطعم برقم ٢٣١ وابن مسعود برقم ٢٣٢ ، وعن أنس برقم ٢٣٦ .

المقدمة ،باب من بلغ علمًا (١٨) ، ١/٨٤ - ٨٦ .

(٢) الأم : ٧/٢٧٣ .

(٣) سورة النساء الآية : ٥٩ .

قال : « الأمة مجمعة على أن هذا الخطاب متوجه إلينا وإلى كل من يخلق ويركب روحه في جسده إلى يوم القيامة من الجنة والناس ، كتوجهه إلى من كان على عهد رسول الله ﷺ وكل من أتى بعده عليه السلام وقبلنا ولافرق » [١] .

رابعًا : أقوال الأئمة :

١ - قال حسان بن عطية :

« كان جبريل ينزل على النبي ﷺ بالسنة كما ينزل عليه بالقرآن » [٢] .

٢ - قال الشافعي رحمه الله :

« وضع الله رسوله من دينه وفرضه وكتابه الموضع الذي أبان جل ثناؤه أنه جعله علمًا لدينه بما افترض من طاعته وحرم من معصيته وأبان من فضله بما قرن من الإيمان برسوله مع الإيمان به » [٣] .

٣ - وقال ابن حزم رحمه الله :

« والقرآن والخبر الصحيح بعضها مضاف إلى بعض وهما شيء واحد في أنهما من عند الله تعالى ، وحكمهما حكم واحد في باب وجوب الطاعة لهما ...قال تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » [٤] .

وقال تعالى : « قل إنما أنذركم بالوحي » [٥] فأخبر تعالى ... أن كلام نبيه صلى الله عليه وسلم كله وحي ، والوحي بلا خلاف ذكر ، والذكر محفوظ بنص القرآن » [٦] .

[٤] **منزلة السنة** : تتبوأ السنة المشرفة منزلة عظيمة من كتاب الله العزيز فهي التطبيق

---

(١) الإحكام في أصول الأحكام : ١/ ٩٧ .
(٢) سنن الدرامي : ١/ ١٤٥ .
(٣) الرسالة : ص : ٧٣ .
(٤) سورة الحجر : الآية : (٩) .
(٥) سورة الأنبياء : الآية : (٤٥) .
(٦) الإحكام في أصول الأحكام : ١/ ٩٨ .

العملي لما جاء فيه وذلك لأنها معضدة لآياته كاشفة لغوامضه ، مجلية لمعانيه ، شارحة لألفاظه ، موضحة لإبهامه كما جاءت بأحكام لاتوجد في كتاب الله ولم ينص عليها فيه وهي لاتخرج عن قواعده وغاياته، فلا يمكن الاستغناء عنها بحال من الأحوال أو إهمالها في وقت من الأوقات ، وذلك لأهميتها القصوى في فهم دين الله والعمل به .

وقد أوضح العلماء أوجه السنة من القرآن وأنها معه على ثلاثة أنواع :

النوع الأول :

أنها تأتي مؤكدة لآياته مقررة لأحكامه معضدة لها ، ومثاله أحاديث وجوب الصلاة والزكاة والصوم والحج ، من ذلك قوله ﷺ في حديث ابن عمر رضي الله عنهما « بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والحج وصوم رمضان » [١] .

فهو مؤكد لقوله سبحانه وتعالى في شأن الصلاة والزكاة « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » [٢] وفي شأن الصوم لقوله تعالي : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » [٣] .

وفي شأن الحج لقوله تعالى : « ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ، ومن كفر فإن الله غني عن العالمين » [٤] [٥] .

وهذا القسم هو الذي عناه الإمام الشافعي رحمه الله بقوله : « ما أنزل الله فيه نص كتاب فبين رسول الله مثل ما نص الكتاب » [٦] .

النوع الثاني :

أنها تأتي مبينة لكتاب الله عز وجل كما قال سبحانه في شأن رسوله ﷺ :

---

(١) أخرجه : البخاري في صحيحه كتاب الإيمان : (٢) . باب قول النبي صلى الله عليه وسلم : «بني الإسلام على خمس » : (١) ، ١/ ٨ . وبلفظ مقارب . موقوفاً على ابن عمر . في كتاب التفسير : (٦٥) . تفسير سورة البقرة : (٢) ، باب « وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة » : (٣٠) ، ٥/ ١٥٧ ومسلم في صحيحه . كتاب الإيمان : (١) . باب بيان أركان الإسلام ودعائمه العظام : (٥) برقم : (١٦) . ١/ ٤٥ .

(٢) سورة البقرة : الآية : (٨٣) .

(٣) سورة البقرة : الآية : (١٨٣) .

(٤) سورة آل عمران : الآية (٩٧) .

(٥) انظر : معالم على طريق السنة : ص : ٢٣ .

(٦) الرسالة : ص : ٩١ - ٩٢ .

«وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون » [١]وهي ماعناه الشافعي بقوله : « مما أنزل الله فيه جملة كتاب فبين عن الله معنى ما أراد » [٢] ويتمثل بيانها للقرآن في عدة جوانب من ذلك :

١ - **بيان مجمله** والمجمل هو : ما لم تتضح دلالته [٣] .

ولقد جاءت كثير من أحكام القرآن العملية مجملة **فبينت** السنة إجمالها ، من ذلك أن الله أمر بأداء الصلاة من غير بيان [٤]فبينت السنة كل ذلك بتطبيق رسول الله ﷺ ذلك عمليًا وبتعليمه كيفيتها للمسلمين كما قال ﷺ « صلوا كما رأيتموني أصلي » [٥] .

وفرض الله الزكاة من غير بيان لمقاديرها وأوقاتها وانصبتها وتعيين ما يزكي مما لا يزكي ، فجاءت السنة وافية ببيان كل ذلك وتفصيله .

وشرع الحج من غير أن يبين مناسكه ، فبين ﷺ تلك المناسك فقال في حجة الوداع « لتأخذوا مناسككم .... » الحديث [٦] .

وكذلك بيانه ﷺ لأحكام الصوم مما لم ينص عليه في الكتاب ، والطهارة والذبائح والصيد والأنكحة .

وأحكام البيوع والجنايات والحدود مما وقع مجملاً في القرآن ففصله النبي ﷺ [٧].

٢ - تخصيص عامه :

العام : هو اللفظ المستقرق لما يصلح له من غير حصر .

والتخصيص : هو إخراج بعض ما تناوله اللفظ العام [٨] .

---

(١) سورة النحل : الآية : (٤٤) .

(٢) الرسالة : ص : ٩٢ .

(٣) الاتقان في علوم القرآن : ٢/ ٣٩ .

(٤) لأوقاتها وأركانها وركوعها وسجودها وعدد ركعاتها

(٥) انظر : أصول الفقه الإسلامي لبدران أبي العينين : ص : ١٠٣ والحديث : سبق تخريجه . انظر : ص : ٦

(٦) انظر : أصول الحديث : ص : ٤٧ . والحديث سبق تخريجه . انظر : ص : ٦

(٧) انظر : الموافقات : ٤/ ١٤ .

(٨) مباحث في علوم القرآن : ص : ٢٢١ .

وفي القرآن وردت أحكام عامة جاء في السنة تخصيصها من ذلك قوله تعالى «يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين » [١] فالآية عامة في كل أصل موروث ، فخصص ﷺ ذلك بغير الأنبياء فقال : « لانورث ما تركنا صدقة [٢] [٣] .

ومن ذلك قوله تعالى « وأحل الله البيع » [٤] فهي عامة في كل بيع فخصصت السنة جميع البيوع الفاسدة وهي كثيرة [٥] .

٣ - تقييد مطلقه :

المطلق هو مادلَّ على الحقيقة بلا قيد .

ويعارضه المقيد الذي يدل عليها بقيد [٦] .

فمما ورد في القرآن مطلقًا فقيدته السنة . قوله تعالى : « من بعد وصية يوصى بها أو دين »[٧] فأمرت الآية بإخراج الوصية من مال الميت ولم تحدد مقدارها ، فجاءت السنة مقيدة للوصية

---

(١) سورة النساء : الآية : (١١) .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه . كتاب فرض الخمس : (٥٧) . باب فرض الخمس : (١) . ٤/٤٢ ، ٤٣ . وفي كتاب المغازي : (٦٤) باب حديث بني النضير : (١٤) ٥/٢٣ . وفي كتاب النفقات : (٦٩) . باب حبس نفقة الرجل : (٣) . ٦/١٩٠ . وفي كتاب الاعتصام : (٩٦) باب مايكره من التعمق والتنازع في العلم : (٥) . ٨/١٤٦ .

وأخرجه مسلم في صحيحه . كتاب الجهاد والسير : (٣٢) . باب حكم الفيء : (١٥) . برقم : (١٧٥٧) . ٣/١٣٧٨ - ١٣٧٩ . وفي باب قول النبي صلى الله عليه وسلم : « لانورث ما تركنا فهو صدقة » : (١٦) برقم : (١٧٥٨) ، (١٧٥٩) . ٣/١٣٧٩ - ١٣٨١ .

(٣) انظر : أصول الفقه الإسلامي لبدران : ص : ١٠٣ ، ١٠٤ ، أصول الحديث : ص : ٤٨ .

(٤) سورة البقرة : الآية : ٢٧٥ .

(٥) انظر : الاتقان في علوم القرآن : ٢/٣٦ .

(٦) انظر : مباحث في علوم القرآن : ص : ٢٤٥ ، ٢٤٦ .

(٧) سورة النساء : الآية : (١١) .

بالثلث (١) .

٤ - توضيح المشكل :

لقد كانت بعض الآيات يشكل فهمها على بعض الصحابة رضوان الله عليهم فيوضح رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يشكل عليهم .

من ذلك مارواه البخاري بسنده إلى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال : « لما نزلت هذه الآية : « الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم » (٢) شق ذلك على أصحاب النبي ﷺ وقالوا : أينا لم يلبس إيمانه بظلم ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إنه ليس بذلك ألا تسمعون إلى قول لقمان : « إن الشرك لظلم عظيم » (٣)(٤) .

فقد فهم الصحابة أن المراد بالظلم في الآية عموم الظلم ويدخل في ذلك ظلم الإنسان نفسه بتقصيره في بعض الحقوق فأزال الرسول ﷺ الإشكال بإيضاحه لهم أن الظلم ليس على عمومه وإنما المقصود نوع من الظلم وهو الشرك بالله وهو أعظم أنواع الظلم .

---

(١) انظر : المدخل إلى توثيق السنة : ص : ١٣ .

روى البخاري بسنده إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : مرضت فعادني النبي صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله ادع الله أن لايردني على عقبي قال : « لعل الله يرفعك وينفع بك ناساً » قلت أريد أن أوصي وإنما لي ابنة ، قلت أوصي بالنصف ؟ قال : « النصف كثير » قلت : فالثلث ؟ قال : « الثلث والثلث كثير أو كبير » قال : فأوصي الناس بالثلث وجاز ذلك لهم ».

صحيح البخاري : كتاب الوصايا : (٥٥) . باب الوصية بالثلث : (٣) . ٣/١٨٧ وانظر : باب أن يترك ورثته أغنياء : (٢) ، ٣/١٨٦ . كتاب الجنائز : (٢٣) ، باب رثى النبي صلى الله عليه وسلم سعد بن خولة : (٣٧) ، ٢/٨٢ . كتاب مناقب الأنصار :(٦٣) ، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم : « اللهم امضي لأصحابي هجرتهم » : (٤٩) ٤/٦٣ .

كتاب النفقات : (٦٩) ، باب فضل النفقة على الأهل : (١) ، ٦/١٨٩ .

كتاب المرضى : (٧٥) ، باب وضع اليد على المريض : (١٣) ، ٧/٦ .

وباب قول المريض إني وجع : (١٦) ، ٧، ٩ . كتاب الدعوات : (٨٠) .

باب الدعاء برفع الوباء والوجع : (٤٣) ، ٧/١٦٠ . كتاب الفرائض : (٨٥) ، باب ميراث البنات : (٦) ، ٨/٥ .

صحيح مسلم : كتاب الوصية : (٢٥) ، باب الوصية بالثلث : (١) . برقم : (١٦٢٨) ، ٣/١٢٥٠ - ١٢٥٣ .

(٢) سورة الأنعام : الآية : (٨٢) .

(٣) سورة لقمان : الآية : (١٣) .

(٤) صحيح البخاري : كتاب استتابة المرتدين : (٨٨) ، باب : (١) ، ٨/ ٤٨ وأخرجه بلفظ مقارب : في كتاب الأنبياء : (٦٠) ، باب قول الله تعالى : « ولقد آتينا لقمان الحكمة » الآية : (٤١) ، ٤/١٣٧ . وفي كتاب التفسير : (٦٥) تفسير سورة الأنعام : (٦) ، باب « ولم يلبسوا إيمانهم بظلم » : (٣) ، ٥/١٩٣ وأخرجه مسلم في صحيحه بلفظ مقارب ، وفيه ، قالوا : « أينا لايظلم نفسه » ، كتاب الإيمان : (١) ، باب صدق الإيمان وإخلاصه : (٥٦) برقم : (١٢٤) ، ١/١١٤-١١٥ .

٥ – بسط مختصره :

تشير بعض آيات القرآن الكريم إلى بعض الحوادث التي وقعت في عهد النبي ﷺ أو في العهود السابقة وتتناولها بشيء من الإيجاز ، فيأتي في السنة بسط لما أشار إليه القرآن ، وإيضاح لبعض الجوانب التي لم تذكر فيه .

مثال ذلك حادثة الثلاثة : الذين خلفوا عن غزوة تبوك فقد تعرض القرآن لذكرها باختصار بالغ في قوله تعالى : « وعلى الثلاثة الذين خلفوا .... » الآية [١] .

وقد جاء بسطها في حديث كعب بن مالك رضي الله عنه وهو حديث طويل استوعب جزءيات تلك القصة [٢] .

ومثال ذلك في العهود السابقة ما ذكره الله عز وجل في شأن أصحاب الأخدود ، فأورده باختصار فذكر رسول الله ﷺ جانباً مما وقع لهم وما لا قوه من ابتلاء وامتحان [٣] .

٦ – ناسخة لحكم ثبت بالقرآن :

النسخ هو : رفع الحكم الشرعي بخطاب شرعي متراخ عنه[٤] ونسخ السنة للقرآن موضع اختلاف بين العلماء .

ومن يجوز ذلك يستند في ذلك لقوله تعالى : « كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين »[٥] .

فقد نصت الآية بالوصية للوالدين ، وهما من الورثة ، ولهما حق مقرر معلوم ، فجاءت السنة ناسخة : حكم الوصية لكل وارث وذلك في قوله ﷺ :

---

(١) سورة التوبة : الآية : (١١٨) .

(٢) انظر : في الحديث النبوي : ص : ٢٨ .

وانظر : صحيح البخاري : كتاب المغازي : (٦٤) ، باب حديث كعب ابن مالك : (٧٩) ، ٥/١٣٠-١٣٥ .

صحيح مسلم : كتاب التوبة : (٤٩) ، باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه : (٩) : (٢٧٦٩) . ٤/٢١٢٠-٢١٢٩ .

(٣) انظر : صحيح مسلم : كتاب الزهد والرقاق : (٥٣) . باب قصة أصحاب الأخدود : (١٧) . برقم : (٣٠٠٥) ، ٤ ، ٢٢٩٩-٢٣٠١ .

(٤) مباحث في علوم القرآن : ص : ٢٣٢ .

(٥) سورة البقرة : الآية : (١٨٠) .

« إن الله قد أعطى لكل ذي حق حقه فلا وصية لوارث »[1] فنسخت الآية بالسنة الثابتة لا بالإرث على الصحيح من أقوال العلماء ، لأن الكل حكم الله تعالى وأمره عنده وإن اختلفت الأسماء [2] .

٧ - مفرعة على أصل تقرر في الكتاب :

مثال ذلك منع بيع الثمار قبل أن يبدو صلاحها ، ففي قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراضٍ منكم» [3] .

تحريم على الناس أكل أموالهم بينهم بالباطل وبغير حق وإباحة الأكل بشرط عقد التراضي .

فجاء النبي ﷺ إلى المدينة فوجد الناس قد وقعوا في أعراف وعادات آباحوا بها أكل أموالهم بصور كانت مصدراً لنزاع دائم.من ذلك،بيع الثمار قبل أن يبدو صلاحها ، فقد يأتي مرض أو جائحة على ذلك الثما ر فتفسده فيقع الخصام والنزاع . فلذلك حرم رسول الله صلى

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه عن أبي أمامة . كتاب الوصايا ، باب ماجاء في الوصية للوارث . برقم (٢٨٧٠) . ٣/١١٤ . وفي كتاب البيوع ، باب في تضمين العارية ، برقم (٣٥٦٥) ، ٣/٢٩٦ - ٢٩٧ .

والترمذي في سننه ، عنه رضي الله عنه ، برقم : (٢١٢٠) ، وعن عمرو ابن خارجة برقم : (٢١٢١) ، كتاب الوصايا : (٣١) ، باب ماجاء لا وصية لوارث : (٥) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » . ٤/٣٧٦ - ٣٧٨ .

والنسائي في سننه عن عمرو بن خارجة ، في كتاب الوصايا ، باب إبطال الوصية للوارث ، ٦/٢٠٧ .

وابن ماجة في سننه عنه رضي الله عنه برقم : (٢٧١٢) ، وابي أمامة برقم (٢٧١٣) وأنس برقم : (٢٧١٤) . كتاب الوصايا : (٢٢) ، باب لا وصية لوارث : (٦) ، ٢/٩٠٥-٩٠٦ .

والدارمي في سننه ، عن عمرو بن خارجة، كتاب الوصايا ، باب الوصية للوارث ٢/٤١٩ .

والبيهقي في سننه ، عن أبي أمامة وعمرو بن خارجة وأنس . ٦/٢٦٤ - ٢٦٥ وأحمد في المسند عن عمرو بن خارجة : ٤/١٨٦، ١٨٧ .

وقال الشيخ ناصر الدين الألباني عنه : « صحيح » صحيح الجامع : ١/٩٦ برقم (١٧١٦) صحيح سنن أبي داود : ٢/٥٥٤ ، ٦٨٠ . وأورده في أرواء الغليل برقم : (١٦٥٥) . وذكر طرقه ثم قال : « إن الحديث صحيح لاشك فيه ، بل هو متواتر كما جزم بذلك السيوطي وغيره من المتأخرين » . ٦/٨٧ - ٩٦ .

(٢) انظر : الجامع لأحكام القرآن : ٢/٢٦٣ .

(٣) سورة النساء : الآية : (٢٩) .

الله عليه وسلم بيع الثمار قبل أن يبدو صلاحها (١) وقال في ذلك أيضاً : « أرأيت إذا منع الله الثمرة بم يأخذ أحدكم مال أخيه » (٢)(٣) .

قال الإمام الشافعي بعد ذكره للنوعين السابقين - أي السنة المؤكدة والسنة المبينة - قال : « وهذان الوجهان اللذان لم يختلفوا فيهما » (٤) .

النوع الثالث :

أن تكون موجبة لحكم سكت القرآن عن إيجابه ، أو محرمة لما سكت عن تحريمه (٥) .

وهي القسم الذي عناه الشافعي بقوله :«ما سن رسول الله فيما ليس فيه نص كتاب »(٦) .

ومثالها الأحاديث التي تحرم نكاح المرأة على عمتها أو خالتها (٧) .

وهذا النوع هو الذي وقع الخلاف فيه بين العلماء.فهل تعتبر أحكاماً مستقلة عما في

---

(١) انظر : صحيح البخاري : كتاب الزكاة : (٢٤) ، باب من باع ثماره .. (٥٨) ، ٢/١٣٤ كتاب البيوع ، (٣٤) ، باب بيع المزابنة : (٨٢) ، وباب بيع الثمر على رؤوس النخل : (٨٣) ، وباب بيع الثمار قبل أن يبدو صلاحها : (٨٥) ، وباب بيع النخل قبل أن يبدو صلاحها : (٨٦) ، وباب إذا باع الثمار قبل أن يبدو صلاحها : (٨٧) . ٣/٣١ - ٣٤ . وكتاب المساقاة : (٤٢) ، باب الرجل يكون له ممر أو شرب في حائط : (١٧) ، ٣/٨١ .

صحيح مسلم : كتاب البيوع : (٢١) ، باب النهي عن بيع الثمار قبل بدء صلاحها : (١٣) حديث رقم : (١٥٣٤) ، (١٥٣٨) ، ٣/١١٦٥- ١١٦٨ .

وفي باب تحريم بيع الرطب بالتمر إلا في العرايا : (١٤) . برقم : (١٥٣٩) ، ٣/١١٦٨ .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك في كتاب البيوع : (٣٤) ، باب إذا باع الثمار قبل أن يبدو صلاحها : (٨٧) . ٣/٤٣) ، وبلفظ مقارب في باب بيع المخاضرة : (٩٣) . ٣/٣٦ .

وأخرجه مسلم في صحيحه بألفاظ مقاربة ، كتاب المساقاة : (٢٢) ، باب وضع الجوائح : (٣) ، برقم : (١٥٥٥) . ٣/١١٩٠ .

(٣) انظر : بداية المجتهد : ٢/١٤٩-١٦٣ ، المدخل إلى علم أصول الفقه : ص : ٧٢ ، ٧٣ .

(٤) الرسالة : ص : ٩٢ .

(٥) أعلام الموقعين : ٢/٣١٤ .

(٦) الرسالة : ص : ٩٢ .

(٧) روى البخاري بسنده إلى جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال :

« نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تنكح المرأة على عمتها أو خالتها » وروى قريبا منه عن أبي هريرة . في كتاب النكاح : (٦٧) ، باب لاتنكح المرأة على عمتها : (٢٧) . ٦/١٢٨ .

وأخرجه مسلم في صحيحه . من حديث أبي هريرة ، في كتاب النكاح : (١٦) ، باب تحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها في النكاح ، (٤) ، برقم : (١٤٠٨) ، ٢/١٠٢٨ - ١٠٣٠ .

القرآن؟ أو هي داخلة تحت نصوصه ، ولو اتبع في ذلك شيء من التأويل والتكلف؟ذهب المحدثون وأكثر العلماء على أن السنة قد تستقل بالتشريع وتأتي بما ليس في كتاب الله تعالى لأنها من عند الله حقيقة فهي موحى بها من الله إلى رسوله ﷺ (١) فوحي الله إلى رسوله قسمان ، قال عنهما الإمام ابن حزم : « أحدهما وحي متلو مؤلف تأليفًا معجز النظام وهو القرآن ، والثاني وحي مروي منقول غير مؤلف ولا معجز النظام ولا متلو ولكنه مقروء وهو الخبر الوارد عن رسول الله ﷺ »(٢) .

وذهب آخرون على أن السنة لاتستقل بالتشريع وإنما تدخل أحكامها تحت نصوص القرآن .

قال الشاطبي : « السنة راجعة في معناها إلى الكتاب فهي تفصيل مجمله ، وبيان مشكله، وبسط مختصره . وذلك لأنها بيان له وهو الذي دل عليه قوله تعالى « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم »(٣) .

فلا تجد في السنة أمرًا إلا والقرآن قد دل على معناه دلالة إجمالية أو تفصيلية » (٤) .

وقال أبو زهرة : « لانكاد نجد مثالاً لحكم أتت به السنة إلا وجدنا له أصلاً قرآنيًا قريبًا كان أو بعيدًا » (٥) .

وقد استند كل فريق على أدلة تؤيد ما ذهب إليه(٦) مع اتفاقهما على وجود أحكام جديدة لم ترد في القرآن صراحة ، وهذا ماعناه الفريق الأول باستقلال السنة في التشريع ، بينما عني الفريق الثاني أن عدم وجودها صراحة في القرآن لا يخرجها عن دخولها تحت نصوص أو قواعد عامة دل عليها القرآن (٧) .

وفي الحقيقة إرجاع كل ماورد في السنة إلى القرآن الكريم وإدخاله تحت نصوصه فيه

---

(١) انظر : مقاييس نقد متون السنة : ص : ٢٦٩ .
(٢) الإحكام في أصول الأحكام : ١/ ٩٧ .
(٣) سورة النحل : الآية : (٤٤) .
(٤) الموافقات : ٤/ ٦ .
(٥) أصول الفقه : ص : ١١٣ .
(٦) انظر : الموافقات : ٤/ ٦-٨ . السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي : ص : ٣٨١ .
(٧) المرجع السابق : ص : ٣٨٥ .

نوع من التكلف والتأويلات البعيدة ، وقد اعترف الإمام الشاطبي بذلك.

فبعد إيراده لمجموعة من الأحاديث التي حاول بعض العلماء إدخالها تحت نصوص القرآن ، قال :

« ولكن القرآن لايفي بهذا المقصود على النص والإشارة العربية التي تستعملها العرب أو نحوها ..... فالملتزم بهذا لايفي بما ادعاه إلا أن يتكلف في ذلك مآخذ لا يقبلها كلام العرب ولا يوافق على مثلها السلف الصالح ولا العلماء الراسخون في العلم » (١) .

ويتبين مما سبق من خلاف ، أنه لا يتعدى أن يكون لفظيًا إذ الكل مقر بوجود أحكام ثابتة في السنة لم ترد في القرآن بل إن الجميع اتفقوا على حجيتها (٢) .

ولذلك قال الإمام الشافعي بعد ذكره للخلاف السابق :

« وأي هذا كان فقد بين الله أنه فرض فيه طاعة رسوله ، ولم يجعل لأحد من خلقه عذراً بخلاف أمر عرفه من أمر رسول الله وأن قد جعل الله بالناس كلهم الحاجة إليه في دينهم .... إن سنته ﷺ إذا كانت سنة مبينة عن الله معنى ما أراد من مفروضه فيما فيه كتاب يتلونه ، وفيما ليس فيه نص كتاب أخرى : فهي كذلك أين كانت ، لا يختلف حكم الله ثم حكم رسوله ، بل هو لازم بكل حال »(٣) .

وهذا القسم على اعتبار أنه زائد على القرآن فهو تشريع مبتدأ من رسول الله ﷺ يجب طاعته فيه ولا تحل معصيته ، امتثالاً لما أمر الله به من طاعة رسوله ، ولو كان لايطاع في هذا القسم ، لم يكن لطاعته معنى ، وسقطت طاعته المختصة به ، لأنه إذا لم تجب طاعته إلا إذا وافق القرآن لا فيما زاد عليه لم يكن له طاعة خاصة تختص به ، وقد قال تعالى « من يطع الرسول فقد أطاع الله »(٤)(٥).

---

(١) الموافقات : ٤/٢٨ .

(٢) انظر : أعلام الموقعين . ٢/٣١٥، ٣١٦ .

(٣) الرسالة : ١٠٤ - ١٠٥ .

(٤) سورة النساء الآية : (٨٠) .

(٥) انظر : أعلام الموقعين : ٢/٣١٤ ، ٣١٥ .

المطلب الثانى
العلاقة بين الشرع والعقل فى الدين الإسلامى

ماهية العقل :

العقل صفة قائمة بنفس الإنسان التى تعقل ، وأما من البدن فهو متعلق بالقلب لقوله تعالى : {أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها}(١)(٢).

وظيفته :

العقل شرط فى معرفة العلوم ، وفى الأعمال وصلاحها ، وبه يكمل الدين والعمل ، ولكنه لايستقل بذلك ، إذ هو غريزة فى النفس وقوة فيها كقوة البصر ، إن اتصل به نور الإيمان والقرآن كان كنور العين إذا اتصل به نور الشمس والنار ، وإن انفرد لم يبصر الأمور التى يعجز وحده عن إدراكها وإن أبعد بالكلية كانت الأقوال والأفعال أمورا حيوانية(٣).

موقف أرباب المذاهب منه :

لقد تباينت أقوال الناس وأحكامهم فى العقل ودلالته على الحق ، وذهب فيه كل منهم مذهبا .

فأهل الكلام والفلسفة (٤)جعلوا العقل من أصول العلم

---

(١) سورة الحج : آية ٤٦

(٢) انظر : مجموع الفتاوى ٣٠٣/٩ .

(٣) انظر المرجع السابق ٣٣٩،٣٣٨/٣ .

(٤) الفلسفة : لفظ الفلسفة مشتق من اليونانية وأصله (فيلا ـ صوفيا) ومعناه محبة الحكمة . ويطلق على العلم بحقائق الأشياء ، والعمل بما هو أصلح . وتعنى عند الأوائل جميع العلوم ، وأما فى الحديث فهى تطلق على دراسة المبادىء الأولى التى تفسر المعرفة تفسيرا عقليا كفلسفة العلوم ، وفلسفة الأخلاق .
انظر : المعجم الفلسفى ١٦٠/٢-١٦٥ .

وجعلوا الوحي تابعاً له ، بل حكموه في نصوص الوحي فلا يقبل منها إلا ما أيده العقل ووافقه ويدفع منها ما عارضه وخالفه (١) .

وكثير من المتصوفة يذمون العقل ويعيبونه ، ويرون أن الأحوال والمقامات لا تكون إلا مع عدم وجوده ، ويقرون ويصدقون بما يكذب به صريح العقل ، ويمدحون الأمور التي تؤدي إلى زواله كالسكر والجنون (٢) .

وظن الأولون أن دلالة الكتاب والسنة قاصرة فقط على الأخبار المجردة الخالية من الدلالات العقلية ، وهذه الأخبار موقوفة على العلم بصدق المخبر، ويجعلون ما يبني عليه صدق المخبر معقولات محضة (٣) .

فهؤلاء عظموا عقولهم وقدسوها وأخضعوا لها نصوص الوحي . فالحق عندهم ما جاءت به ، والباطل ما رفضته ، وجردوا كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم عن الدلائل العقلية ، بل جعلوا الشرع والعقل ضدين استحكمت بينهم العداوة والتنافر .

وأما الذين عطلوا عقولهم وكبلوها ، وذموا العقل وعابوه فهؤلاء ذمهم الله ، ووصفهم بأنهم شر الخليقة في الأرض ، وذلك في قوله تعالى : ﴿إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون . ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون﴾ (٤) .

ولذا كان جوابهم يوم القيامة عندما يطرحون في النار : ﴿ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير . فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير ﴾ (٥) .

١- سوف يأتي بسط الكلام عن هذه الفئة ، وما يؤيد ما ذكرت من أقوالهم وشبههم ، والجواب عنها .

٢- انظر : مجموع الفتاوي : ٣/٣٣٨ ، ٣٣٩ .

٣- انظر : درء تعارض العقل والنقل : ١/٢٨، ٢٩ .

٤- سورة الأنفال : الآيات : (٢٢) ، (٢٣) .

٥- سورة الملك : الآيات : (١٠) ، (١١) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

"عدم العقل والتميز ... لايحمد لحال من جهة نفسه ،فليس في كتاب الله ولاسنة رسوله مدح وحمد لعدم العقل والتمييز والعلم . بل قد مدح الله العلم والعقل والفقه ونحو ذلك في غير موضع وذم عدم ذلك في مواضع"(١).

فقد مدح الله وأثنى على أصحاب العقول السليمة التي أحسن أصحابها استخدامها فهداهم الله بها إلى الحق . تلك العقول التي تتدبر في خلق الله وتجول بفكرها في مخلوقاته تتلمس فيها قدرة الخالق وربوبيته لجميع الخلق ، {إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب . الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ماخلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار}(٢). ولم تعارض شرع الله ودينه ، وإنما وقفت عند حدودها التي حدها الله لها ، فلم تنتهك حرمة النصوص ، ولم تغفل تدبرها وفهمها . فهي التي عرفت الحق وصارت على الصراط المستقيم حيث لاإفراط ولاتفريط .

---

(١) الاستقامة ١٥٧/٢ .

(٢) سورة آل عمران : آية ١٩٠،١٩١

اهتمام الإسلام بالعقل :

إن الإسلام اهتم بالعقل اهتماماً بالغاً فجعله مناط التكليف ، فإذا فقد ارتفع التكليف وعد فاقده كالبهيمة لاتكليف عليه(١).

بل جعله الإسلام أحد الضروريات الخمس التى أمر الشارع بحفظها ورعايتها ، لأن مصالح الدين والدنيا مبنية على المحافظة عليها(٢).

والعقل الذى يستطيع أن يؤدى وظيفته على أكمل وجه هو الذى تجرد من الهوى وخلص من ربقة التقليد ، فلم يتأثر بالآراء والأفكار المنحرفة التى تدفعه للوقوع فى الضلال ، كماأنه لم يعطل قواه باتباع أعمى فينجر إلى الانحراف والزيغ .

فهذا هو العقل الذى يمكنه أن يحمل رسالة الإسلام حملاً صحيحاً ، منصاعاً لتكاليف الإسلام ، منقاداً لأوامره ، منتهياً عن نواهيه .

وأحكام الإسلام كلها معقولة لم تخاطب إلا العقل ، ولم توجه إلا إليه، فحث الإسلام العقل على التفكير والتدبر والتبصر ونهاه عن التقليد ،

والخضوع الأعمى للسادة والكبراء ، ووجه الدعوة إليه معزولة عن وسائل الضغط والشدة والقصر والإكراه كما قال تعالى : {لاإكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى}(٣)(٤).

والقرآن والسنة مملوءان بالأدلة العقلية التى تقصر عنها عقول أهل الكلام والفلسفة .

---

(١) انظر : الموافقات ١٣/٣ .

(٢) المرجع السابق ٨/٢ .

(٣) سورة البقرة : آية ٢٥٦

(٤) انظر : لمحات فى وسائل التربية الإسلامية ـ وغايتها ص١٢٣-١٢٧ .

فالله سبحانه وتعالى قد ضمن كتابه العزيز من الأدلة العقلية والحجج البينة الباهرة والأقيسة التي هي الأمثال المضروبة ما يتضح لكل ذي عقل، فخاطب بذلك أولى الألباب، والنهي، والحجى، ومن يعقل ويسمع. فضمنه سبحانه وتعالى من الأدلة العقلية ما أخبر به عن نفسه وأسمائه وصفاته، وأمر المعاد، وثبوت الأوامر والنواهي، والوعد والوعيد (١).

قال شيخ الإسلام بن تيمية:

« قد تدبرت عامة ما يذكر المتفلسفة والمتكلمة، والدلائل العقلية فوجدت دلائل الكتاب والسنة تأتي بخلاصته الصافيةُ عن الكدر، وتأتي بأشياء لم يهتدوا لها، وتحذف ما وقع منهم من الشبهات والأباطيل مع كثرتها واضطرابها » (٢).

وقال: « إنما عند النظار أهل الكلام والفلسفة من الدلائل العقلية على المطالب الإلهية. فقد جاء القرآن الكريم بما فيها من الحق، وما هو أبلغ وأكمل منها على أحسن وجه، مع تنزهه عن الأغاليط الكثيرة الموجودة عند هؤلاء، فإن خطأهم فيها كثير جداً، ولعل ضلالهم أكثر من هداهم، وجهلهم أكثر من علمهم »(٣).

وقد جاءت البراهين العقلية في القرآن الكريم في أعظم المطالبة الإلهية؛ ففي الدلالة على توحيد الله وتفرده بالعبادة دون سواه، خاطب الله أصحاب العقول مبيناً لهم بطلان الآلهة التي اتخذت من دونه فقال: ﴿ يا آيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف

١- انظر: « بيان تلبيس الجهمية » ١/ ٢٤٦ - ٢٤٧.

٢- مجموع الفتاوي ١٩/٢٣٢-٢٣٣.

٣- المرجع السابق ٩/٢٢٥.

الطالب والمطلوب﴾(١) .

فهذه الآلهة التي عبدت مع الله عز وجل آلهة ضعيفه عاجزة لا تملك لمعبوديها نفعاً ولا ضراً .

فإذا كان الذباب وهو أضعف الحيوان وأحقره ، لا يقدر من عبدوه من دون الله على خلق مثله ، ودفع أذيته ، فكيف يجوز أن يكونوا آلهة معبودين وأربابا مطاعين ، وهذا من أقوى الحجج وأوضح البراهين(٢) .

وقال تعالى ﴿ ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء في ما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون ﴾ (٣) .

وهذا من أقوى الأدلة في نفي الشريك عن الله سبحانه وتعالى ، فهو خطاب موجه إلى المشركين الذين صرفوا العبادة لغير الله سبحانه .

فهل يرضى أُحدهم أن يكون مملوكه في نفسه وماله مثله ، فإذا لم يرضوا هذا لأنفسهم فكيف جعلوا لله شركاء ؟ (٤) .

وهذا مثل ضربه الله لكي ينتفع به أصحاب العقول السليمة كما قال تعالى ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ (٥) .

فالأمثال المضروبة في القرآن أورد الله فيها خلاصة الحجج والأقيسة العقلية التي ينتفع بها أصحاب العقول النيرة ، والأفهام المدركه ، قال تعالى

١- سورة الحج الآية (٧٣).

٢- انظر الجامع لأحكام القرآن ١٢/٩٧ .

٣- سورة الروم الآية (٢٨) .

٤- انظر المرجع السابق ١٤/٢٣ .

٥- سورة العنكبوت الآية (٤٣) .

﴿ ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون (١)﴾ . (٢)

وقد دل الله عز وجل على معاد الأجسام بأبلغ الأدلة التي يقف العقل أمامها متحيراً بعظم الاستدلال وقوة الحجة ، وذلك في قوله تعالى ﴿ أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين . وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحى العظام وهي رميم . قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم . الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون . أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم . إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون . فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون ﴾ (٣) .

فقد ذكر الله في هذه الآيات عدة أدلة عقلية على المعاد : فبين أنه خلق الإنسان من نطفة وهي ماء مهين حقير ضعيف في غاية من الضعف والعجز فصار خلقاً سوياً تام العقل والإدراك والقدرة على التصرف وكسب المصالح لنفسه ودفع المضار عنها .

فإذا هو يخاصم ويجادل في نشأته ومن يقدر على إعادة خلقه .

ألا يقدر من أوجده من ذلك الأصل الموغل في الضعف والعجز أن يعيد نشأته إذا توفاه وصار رميماً ؟

وإذا سلم بهذه الحقيقة ، وأصل نشأته فما الذي يستبعده عقله من القدرة على الإعادة ؟ أليس من الأمر البدهي أن إعادة الشيء بعد تلفه وتفرقه أهون من إنشائه أول مرة من العدم ؟

١- سورة الزمر الآية (٢٧) .

٢- انظر درء تعارض العقل والنقل ١/٢٩ .

٣- سورة يس الآيات (٧٧-٨٣) .

ولتقرير هذا المعنى وإثبات قدرة الخالق المطلقة على هذا وعلى ما هو أعجب من ذلك ضرب لذلك مثلاً بالنار التي تخالف طبيعتها الرطب والماء حيث لا يجتمعان،وفي ذلك دلالة على عظمة قدرة الخالق الذي لا يعجزه شيء(١) .

ثم أخبر عن عظم قدرته في خلق السموات وما فيها من كواكب ، والأرض وما فيها من جبال ورمال وبحار وقفار وما بين ذلك ، وهذا أعظم في الإيجاد من خلق الأجساد كما قال تعالى ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ﴾ (٢) . (٣)

والعلوم والأعمال التي يستفيد منها الخلق نوعان : نوع يحصل بالعقل كعلم الحساب والطباعة والصناعة والحياكة وغير ذلك .

ونوع لا يعلم بمجرد العقل : كالعلوم الإلهية ، وعلوم الديانات ، وهذه منها ما يمكن أن يقام عليه أدلة عقلية ، والرسل عليهم السلام هم الذين هدوا الخلق وأرشدوهم إلى دلالة القدرة عليها ، وهي عقلية شرعية (٤) .

١- انظر : موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول : ١/٤٧ ، ٤٨ .

٢- سورة غافر الآية (٥٧) .

٣- انظر : تفسير القرآن العظيم : ٣/٢٨٢ .

٤- انظر : مجموع الفتاوي ٤/٢١٠، ٢١١ .

لاتعارض بين الشرع والعقل :

وقد وضع علماء الكلام قاعدة عامة سموها قانونا كليا يرجع إليه فى جميع أمور الدين . فقالوا : إذا تعارضت الأدلة السمعية والعقلية ، أو النقل والعقل فإما أن يجمع بينهما وهو محال ، لأنه جمع بين النقيضين ، وإما أن يردا جميعا ، وإما أن يقدم السمع وهو محال ، لأن العقل أصل النقل ، فلو قدمناه عليه كان ذلك قدحا فى العقل الذى هو أصل النقل ، والقدح فى أصل الشىء قدح فيه ، فكان تقديم النقل قدحا فى النقل والعقل جميعا ، فوجب تقديم العقل ، ثم النقل إما أن يقال بعدم صحته ، وإما أن يتأول أو يفوض(١).

فبهذه القاعدة الباطلة استطاع هؤلاء أن يردوا نصوص الوحى الثابتة وأن يجعلوا لعقولهم سلطانا عليها يجول فى النصوص فيرد ماشاء ويقبل ماشاء ويدعى معارضته لما شاء ، وحكموها على النصوص وقدموها عليها .

وماكانت الشريعة الغراء بقسميها الكتاب والسنة تعارض العقول أو تخالفها .

لأن كل مافيها يوافق العقل ، والمعقول الصحيح دائر مع أخبارها وجودا وعدما ، فلم يخبر الله ورسوله بما يناقض صريح العقل ، ولم يشرع مايناقض الميزان والعدل(٢).

---

(١) انظر أساس التقديس فى علم الكلام ص١٧٢،١٧٣ .

(٢) انظر أعلام الموقعين ٧١/٢ .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية :

« ما علم بصريح العقل لا يتصور أن يعارضه الشرع البتة ، بل المنقول الصحيح لا يعارضه معقول صريح قط ...

وقد تأملت ذلك في عامة ما تنازع الناس فيه ، فوجدت ما خالف النصوص الصحيحة الصريحة شبهات فاسدة يعلم بالعقل بطلانها ، بل يعلم بالعقل ثبوت نقيضها الموافق للشرع ... ووجدت ما يعلم بصريح العقل لم يخالفه سمع قط ، بل السمع الذي يقال إنه يخالفه : إما حديث موضوع ، أو دلالة ضعيفة ، فلا يصلح أن يكون دليلاً لو تجرد عن معارضة العقل الصريح ، فكيف إذا خالفه صريح المعقول ؟

ونحن نعلم أن الرسل لا يخبرون بمحالات العقول بل بمحارات العقول ، فلا يخبرون بما يعلم العقل انتفاءه ، بل يخبرون بما يعجز العقل عن معرفته »(١) .

فكيف ينقدح في ذهن المؤمن أن في نصوص الوحي المنزلة من عند الله عز وجل ما يخالف العقول السليمة ، بل كيف ينفك العقل الصريح عن ملازمة النص الصحيح؟ بل هما أخوان لا يفترقان وصل الله بينهما في كتابه فقال ﴿ ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون ﴾(٢) .

فذكر ما يتناول به العلوم وهي السمع والبصر والفؤاد الذي هو محل العقل (٣) .

١- درء تعارض العقل والنقل ١٤٧/١ .

٢- سورة الأحقاف الآية (٢٦) .

٣- انظر : مختصر الصواعق المرسلة ص ٦١ .

وكيف بعد هذا يجوز لأحد أن يقول إن في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم الثابتة الصحيحة ما يعلم أحد من الخلق أنه باطل ، وأن كل من اشتبه عليه شيء مما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم قدم رأيه عليه ودفعه به ، خاصة في أنباء الغيب التي ضل فيها عامة من دخل فيها بمجرد رأيه ، بدون الاستهداء بهدي الله ، والاستضاء بنوره الذي بعث بـه رسله ، وأنزل به كتبه ، مع علم كل أحد بقصـوره . وتقصيـره في ذلـك؟(١) .

وعلى المعتزلة الذين حكموا عقولهم في نصوص الوحي ومن سار على نهجهم وتتبع خطاهم ، أن يعلموا أنه لا يوجد حديث واحد على وجه الأرض يخالف العقل إلا أن يكون ضعيفاً أو موضوعاً ، بل لا يعلم حديث صحيح في الأمر والنهي أجمع المسلمون على تركه إلا إذا كان منسوخاً ، بل لا يعلم حديث أجمعوا على نقيضه ، فضلاً أن يكون نقيضه معلوماً بالعقل الصريح البين لعامة العقلاء . فإن ما يعلم بالعقل الصريح أظهر وأوضح مما يعلم بالإجماع (٢) .

فـالعقـلاء متفقـون عـلى أن العقـل الصريـح لا يخـالـف نقـلاً صحيحـاً (٣) .

وواجب على هؤلاء أن يخالفوا قاعدتهم ، فمتى ما تعارض الشرع والعقل عندهم . وجب عليهم تقديم الشرع ، وذلك لأن العقل مصدق للشرع في كل ما أخبر به ، والشرع لم يصدقـه في كل ما أخبر به ، ولا العلـم

١- انظر درء تعارض العقل والنقل ١/١٥٥ .

٢- انظر المرجع السابق ١/١٥٠، ١٥١ .

٣- انظر الصفات الإلهية ص ١٥ .

بصدق الشرع موقوف على كل ما يخبر به العقل .

فالعقل متول ، ولي الرسول ثم عزل نفسه ، لأن العقل دل على أن الرسول صلى الله عليه وسلم يجب تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر (١) .

ولذا قال الإمام ابن القيم رحمه الله :

« إذا تعارض النقل وهذه العقول أخذ بالنقل الصحيح ، ورمى بهذه العقول تحت الأقدام ، وحطت حيث حطها الله وأصحابها » (٢) .

وجوب انقياد العقل واستسلامه للشرع :

لقد بعث الله رسوله بالهدي ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وجعله خاتم الأنبياء ، وإمام الأتقياء ، فأقام به الملة بعد إعوجاجها ، وأوضح به الحجة بعد اندثارها ، فأرسله كافة للناس بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً .

وقد أغلق الله جميع الطرق إلا طريقاً واحداً هو الموصل إليه ، كما قال ﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾ (٣) .

والرسول صلى الله عليه وسلم هو الدليل الهادي إلى هذا الصراط كما قال تعالى : ﴿ إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً الى الله بإذنه وسراجاً منيرا ﴾ (٤) .

١- انظر : درء تعارض العقل والنقل ١/١٣٨ .

٢- مختصر الصواعق ص ٨٢ ، ٨٣ .

٣- سورة الأنعام الآية (١٥٣) .

٤- سورة الأحزاب الآية (٤٥) ، (٤٦)

وقال : ﴿ وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم ، صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ﴾ (١) . (٢)

وقد ألزم الله العباد بطاعته فيما أمر ، وتصديقه فيما أخبر والانتهاء عما عنه نهى وزجر وألا يعبد الله إلا بما شرعه على لسانه صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى ﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدي ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا ﴾ (٣) .

فالواجب على كل مسلم كمال التسليم له ، والانقياد لأمره ، وتلقي خبره بالقبول والتصديق ، دون أن نعارض خبره بخيال باطل نسميه معقولاً ، أو نحمله شبهة أو شكاً ، أو نقدم عليه آراء الرجال وذبالة أذهانهم ، فنوحده بالتحكيم والتسليم والانقياد والإذعان ، كما نوحد المرسل بالعبادة والخضوع والذل والإنابة والتوكل (٤) .

قال الطحاوي رحمه الله : « ولا تثبت قدم الإسلام إلا على ظهر التسليم والاستسلام ، فمن رام علم ما حظر عنه علمه ، ولم يقنع بالتسليم فهمه ، حجبه مرامه عن خالص التوحيد ، وصاف المعرفة ، وصحيح الإيمان، فيتذبذب بين الكفر والإيمان ، والتصديق والتكذيب ، والإقرار والإنكار ، موسوساً تائهاً ، شاكاً ، لا مؤمناً مصدقاً ، ولا جاحداً مكذباً »(٥) .

١- سورة الشورى الآية (٥٢) .

٢- انظر : مجموع الفتاوي ٤/٥٦،٥٧ .

٣- سورة النساء الآية (١١٥) .

٤- انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٠٠ .

٥- متن العقيدة الطحاوي ص ١٠ .

أي لا يثبت إسلام من لم يسلم لنصوص الوحيين ، وينقاد إليها ، ولا يعترض عليها ، ولا يعارضها برأيه ومعقوله وقياسيه ، كما قال ابن شهاب : « من الله الرسالة ، ومن الرسول البلاغ ، وعلينا التسليم»(١) .

وقد ضرب العلماء مثلين في انقياد العقل واستسلامه للرسول صلى الله عليه وسلم .

الأول :أن العقل مع خبره صلى الله عليه وسلم كالعامي المقلد مع الإمام المجتهد-بل هو دون ذلك بكثير - فلو عرف العامي المقلد عالماً مجتهداً فدل عليه مستفتياً ثم اختلف الدال والمفتي فعلى المستفتي قبول خبر المفتي دون الدال ، لأن الدال شهد للمفتي بالعلم دونه وأنه أعلم منه ، بل على العامي الدال التصديق بفتية العالم والتسليم له بذلك وعدم الاعتراض (٢) .

الثاني : مثله كمثل استسلام الصبي الصغير لأستاذه ومربيه ، فإنه لا يعارضه ولا يخالفه بل يجب أن يكون استسلام العقل للرسول صلى الله عليه وسلم أكثر من ذلك بكثير ، فإن التباين بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين صاحب المعقول أضعاف أضعاف التباين بين الصبي وأستاذه .

ومن العجب ، أن هؤلاء المقدمين عقولهم على الوحي ، خاضعون لأئمتهم وسلفهم ، مستسلمون لهم في أمور كثيرة ، ويقولون : هم أعلم فيها منا ، وعقولهم أكمل من عقولنا ، فليس لنا أن نعترض عليهم ، فكيف جوزوا الاعتراض على الوحي بعقولهم مع أن النسبة بين عقولهم وبين الوحي أدنى بكثير من نسبة عقولهم إلى عقول أئمتهم؟(٣) .

١- انظر : شرح العقيدة الطحاوية ٢٠١ .

٢- انظر : درء تعارض العقل والنقل ١/١٣٨، ١٣٩، شرح العقيده الطحاويه ٢٠١، ٢٠٢ .

٣- انظر : الصواعق المرسله ٣/٨٩٣، ٨٩٤ .

إكمال الديـن :

قد أكمل الله دينه على يدي نبيه صلى الله عليه وسلم ولم يحوجه هو ولا أمته من بعده إلى عقل ولا إلى نقل ولا إلى رأي سوى ما جاء به .

فقال سبحانه وتعالى : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾ (١) .

«وأنكر على من لم يكتف بالوحي المبين ولجأ إلى شبهات العقول وترهاتها فقال : ﴿ أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ﴾ (٢) ، (٣)

فما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمور الدين كامل كاف لا يحتاج إلى مزيد تقذف به عقول ناقصة ولا آراء واهمة ، كما أنه ليس فيه نقصان ولا تقصير . لأنه لا يجوز أن يخلو كتاب الله وسنة رسوله من مهمات الدين ، فما خلى عنهما فليس من مهام الدين بل ذلك زيادة في الدين محرمة (٤) .

وكذا النقص يعد خللاً في الدين ، ولو كان ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ناقصاً ما حكم الله له بالكمال وشهد لرسوله بالبلاغ كما قال تعالى ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغـــت رسالتـــه والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدي القوم الكافريـــن﴾ (٥) .

١- سورة المائدة : الآية ٣ .

٢- سورة العنكبوت : الآية ٥١ .

٣- انظر : مختصر الصواعق المرسلة : ٩ .

٤- انظر : إيثار الحق على الخلق : ص ١٠٨ .

٥- سورة المائدة : الآية ٦٧ .

وقد أشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه بتبليغه الدين بعد أن شهد له أفضل هذه الأمة في أفضل يوم ، في حجة الوداع فقال لهم : « هل بلغت ؟ قالوا : نعم . قال : اللهم اشهد » (١) .

فما أوحاه الله لرسوله صلى الله عليه وسلم من كتاب وسنة مغنى عما سواه ، ولا حاجة للناس لزيادة عليه .

قال الخطيب البغدادي رحمه الله : « ولو أن صاحب الرأي المذموم شغل نفسه من العلوم ، وطلب سنن رسول رب العالمين ، واقتضى آثار الفقهاء والمحدثين ، لوجد في ذلك ما يغنيه عما سواه ، واكتفى بالأثر عن رأيه الذي رآه » (٢) .

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله في كتابه القيم « أعلام الموقعين » تحت عنوان : « لا حاجة للناس بعد رسول الله ودينه » .

قال : « وبالجملة فجاءهم بخير الدنيا والآخرة برمته ، ولم يحوجهم الله إلى أحد سواه ، فكيف يظن أن شريعته الكاملة التي ما طرق العالم شريعة أكمل منها ناقصة تحتاج إلى سياسة خارجة عنها تكملها ، أو إلى قياس أو حقيقة

١- اخرجه البخاري في صحيحه . عن ابن عباس ، وأبي بكرة وابن عمر رضي الله عنهم. في كتاب الحج : (٢٥) . باب الخطبة أيام منى ، (١٣٢) . ٢/١٩١ - ١٩٢ . وفي كتاب الفتن : (٩٢) باب قول النبي صلى الله عليه وسلم : « لا ترجعوا بعدي كفارا... » (٨) ، ٨/٩١ . وأخرجه مسلم في صحيحه : كتاب القسامة : (٢٨) ، باب تغليظ تحريم الدماء : (٩) برقم : (١٦٧٩) . ٣/١٣٠٧ .

٢- شرف أصحاب الحديث : ص ٧-٨ .

أو معقول خارج عنها ، ومن ظن ذلك فهو كمن ظن أن بالناس حاجة إلى رسول آخر بعده﴾(١) .

فماء جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم هو النعمة المهداة الى الخليقة جمعاء بل هو العلم الحق والهدى والرحمة كما قال تعالى ﴿ ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ (٢) .

وإنما يظن عدم اشتمال الكتاب والسنة على بيان ذلك من كان ناقصاً في عقله وسمعه ومن له نصيب من قول أهل النار : ﴿ لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير ﴾ (٣) ، (٤)

فليس العلم في الحقيقة إلا ما أخبرت به رسل الله عن الله عز وجل طلباً وخبراً ، فهو العلم الذي زكى الله به النفوس ، وكمل به الفطر وصحح به العقول وأزال به الشكوك ، ودحض به الشبه وأقام به الحجة وهدى به الخلق ، كما قال تعالى في شأن رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾(٥) .

وقال : ﴿ وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما ﴾ (٦) وأمـــا ما عند هؤلاء المعارضيـــن

١- أعلام الموقعين ٤/٢٧٦ .

٢- سورة يوسف الآية (١١١) .

٣- سورة الملك الآية (١٠) .

٤- انظر : مجموع الفتاوي ٣/٢٩٥ ، ٢٩٦ .

٥- سورة البقرة الآية (١٥١) .

٦- سورة النساء الآية (١١٣) .

لنصوص الوحي بعقولهم فهو ظن لا يغني من الحق شيئا ، وتخرص وكذب مناف للحق ومجاف للعلم كما قال تعالى ﴿ قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون ﴾ (١) وقال ﴿ وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً . فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا . ذلك مبلغهم من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى﴾(٢) .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : « ولولا الرسالة لم يهتد العقل إلى تفاصيل النافع والضار في المعاش والمعاد ، فمن أعظم نعم الله على عباده ، وأشرف منة عليهم ، أن أرسل إليهم رسله ، وأنزل عليهم كتبه، وبين لهم الصراط المستقيم ، ولولا ذلك لكانوا بمنزلة الأنعام والبهائم بل أشر حالاً منها،فمن قبل رسالة الله واستقام عليها فهو من خير البرية ، ومن ردها وخرج عنها فهو من شر البرية ، وأسوأ حالاً من الكلب والخنزير والحيوان البهيم»(٣) .

فإذا كان عقل رسول الله صلى الله عليه وسلم أكمل عقول أهل الأرض على الإطلاق ، بل لو وزن عقله بعقولهم جميعاً لرجح عقله عليها ، ومع ذلك فقد أخبر الله أنه قبل الوحي ما كان يدري ما الكتاب والإيمان كما قال تعالى : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك

١- سورة الأنعام الآية (١٤٨) .

٢- سورة النجم الآية (٢٨-٣٠) وانظر الصواعق المرسلة ٣/٨٧٨ - ٨٧٩ .

٣- مجموع الفتاوي ١٩/١٠٠ .

لتهدي إلى صراط مستقيم ﴾ (١) . بل ما حصل له الهدي إلا بالوحي كما قال تعالى : ﴿ قل إن ضللت فإنما أضل على نفسي وإن اهتديت فبما يوحي إلى ربي إنه سميع قريب ﴾ (٢) . فكيف يحصل لسفهاء العقول وأخفاء الأحلام الاهتداء إلى حقائق الإيمان بمجرد عقولهم دون الوحي،حتى اهتدوا بتلك الهداية إلى معارضة النصوص بالعقل : ﴿ لقد جئتم شيئاً إدا ، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا ﴾ (٣) ، (٤) .

فهل يعتقد هؤلاء أنهم أعلم من رسول الله صلى الله عليه وسلم بحقائق الأمور وأحرص منه على هداية العباد ، وأنه قد يأتي بالمتناقضات التي تدفعها العقول ولا تقبلها القلوب ، فإذا كان الأمر كذلك فكيف يكون رسولاً لله ، ويأمنه الله على رسالته ودينه ويأمره بتبليغ ذلك للإنس والجن ؟ .

بل هو رسول الله حقاً ، وهو أعلم الخلق بالحق ، وأقدر الناس على بيان الحق ، وأنصح الخلق للخلق ، وأفصحهم لساناً وأصحهم بياناً ، وأحرصهم على هدى العباد كما قال تعالى : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم ﴾ (٥) ، بل كلامه وبيانه أكمل وأتم من كلام وبيان غيره ، فلا يجوز عليه صلى الله

١- سورة الشورى الآية (٥٢) .

٢- سورة سبأ الآية (٥٠) .

٣- سورة مريم الآية (٨٩ - ٩٠) .

٤- انظر : مختصر الصواعق المرسلة ص ٧٥ ، ٧٦ .

٥- التوبة الآية (١٢٨) .

عليه وسلم أن يتكلم بالكلام الذي مفهومه ومدلوله باطل ، ويسكت عن بيان الحق المراد ، ولا يجوز أن يريد من الخلق أن يفهموا من كلامه ما لم يبينه لهم ويدلهم عليه لإمكان معرفة ذلك بعقولهم ، لأن ذلك يعد قدحاً فيه صلى الله عليه وسلم (١) .

وعجب من هؤلاء المعارضين لنصوص الوحي بعقولهم ، كيف يوجب أحدهم على عقله أن ينقاد إلى طبيب يهودي فيما يأمره به من علاجات وطرق استعمالها بما فيها من كلفة وألم ومشقة ، لظنه أن ذلك الطبيب أعلم بهذا منه ، وأن ذلك العلاج قد يؤدي إلى شفائه ، مع علمه بأن الطبيب قد يخطىء ، بل قد يكون ما وصفه له سبباً في هلاكه ، ومع ذلك يقبل قوله ويقلده . فكيف برسول الله صلى الله عليه وسلم الذي لا يقول إلا الحق ، ولا يخبر إلا بالحــق ، ولا يمكن أن يكون في خبره ما يخالف الواقع والحــق . ؟ (٢) .

فرسل الله معصومون فيما يبلغونه عن الله ، فلا يجوز أن يستقر في خبرهم شيء من الخطأ كما أتفق على ذلك جميع المقرين بالرسل من المسلمين واليهود والنصارى وغيرهم ، فليس عندهم ما يناقض العقل ، فمتى ما علم المؤمن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبر بشيء جزم جزماً قاطعاً أنه حق ، وأنه لا يكون في الباطن خلاف ما أخبر به ، وأنه يمتنع أن يعارضه دليل قطعي ، عقلي أو سمعي ، وإن كل ما ظن أنه عارضه فإنما هو حجج داحضة وشبه باطلة (٣) .

١- انظر : درء تعارض العقل والنقل ١/٢٣ .

٢- انظر : المرجع السابق ١/١٤١ ، ١٤٢ .

٣- انظر : موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول ١/١٣٧ ، ١٣٨ .

فمن قال : يجب تصديق ما أدركته بعقلي ، ورد ما جاء به الرسول لرأي وعقلي ، وتقديم عقلي على ما أخبر به الرسول ، مع تصديق بأن الرسول صادق فيما أخبر به ، فهو متناقض ، فاسد العقل ، ملحد في الشرع . وأما من قال : لا أصدق ما أخبر به حتى أعلمه بعقلي ، فكفره ظاهر ، وهو ممن قيل فيه :

﴿ وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتي مثل ما أوتي رسل الله الله أعلم حيث يجعل رسالته سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون ﴾ (١) وممن قيل فيه : ﴿ فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون . فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون ﴾ (٢) ، (٣) .

وقد أقسم الله سبحانه بنفسه على نفي الإيمان عن هؤلاء الذين يقدمون العقل على ما جاء به الرسول ، لأنه لا يثبت لأحد إيمان حتى يحكم رسوله في جميع أموره ولا يبقى في نفسه حرج لحكمه ويسلم لذلك تسليماً كاملاً فلا يعارضه بعقل ولا رأي لقوله تعالى : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما (٤) ﴾ (٥) .

١- سورة الأنعام الآية (١٢٤) .

٢- سورة غافر الآية (٨٣ - ٨٥) .

٣- انظر : درء تعارض العقل والنقل ١/١٨٩ ، ١٩٠ .

٤- سورة النساء الآية (٦٥) .

٥- انظر : مختصر الصواعق المرسلة ص ٩٠ .

وتحكيم ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم هو الذي يعصم الأمة من الزيغ والانحراف والاختلاف ، فالناس لا يفصل بينهم في النزاع إلا كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وإذا ردوا إلى عقولهم فلكل واحد عقل (١) . ولذلـــك أمرهم بالرد عند التنازع إلى الكتاب والسنة فقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا ﴾ (٢) .

والأمة متفقة على أن المراد بالرد إلى الله ورسوله الرد إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولو لم يكونا وافيين ببيان مهمات الدين ما أمرهم الله بالرجوع إليهما عند الاختلاف (٣) .

والله عز وجل قد أقام الحجة على البشرية ببعثة الرسل لا بحجج العقول كما قال تعالى ﴿ رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيما ﴾ (٤) .

وقال : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ (٥) .

فلو كانت الحجة لازمة بنفس العقل لم يكن بعثة الرسل شرطاً لوجوب العقوبة (٦) .

١- انظر : مجموع الفتاوي ١٦٣/٢٠ ، بيان تلبيس الجهمية ٢٤٨/١ .

٢- سورة النساء الآية (٥٩) .

٣- إيثار الحق على الخلق : ص ١١١ بتصرف .

٤- سورة النساء الآية (١٦٥) .

٥- سورة الإسراء الآية ١٥ .

٦- انظر : المرجع السابق ص ١١٠ .

وفي الجملة فالناس محتاجون إلى شرع الله أكثر من احتياجهم إلى الطعام والشراب ، لأنه لاصلاح في الآخرة إلا به ، ولا سعادة في الدنيا إلا به، كما قال شيخ الإسلام : « فإن الإنسان مضطر إلى الشرع ، فإنه بين حركتين ، حركة يجلب بها ما ينفعه ، وحركة يدفع بها ما يضره ، والشرع هو النور الذي يبين ما ينفعه وما يضره ، والشرع نور الله في أرضه وعدله بين عباده ، وحصنه الذي من دخله كان آمنا » (١) .

والشرع ثابت في نفسه لا يحتاج في إثباته إلى عقول البشر . بل العقول هي التي تحتاج إلى أن تعلمه ، فإن العقل إذا علم ما هو عليه الشرع في نفسه صار عالماً به ، وبما تضمنه من الأمور التي يحتاج إليها في دنياه وآخرته ، وانتفع بعلمه به ، وأعطاه ذلك صفة لم تكن له قبل ذلك ، ولو لم يعلمه لكان جاهلاً ناقصاً (٢) .

١- مجموع الفتاوي : ١٩/٩٩ .

٢- انظر : درء تعارض العقل والنقل ١/٨٨ ، ٨٩ .

الصحابة والسلف الصالح لم يعارضوا الشرع بالعقل :

والصحابة رضوان الله عليهم كيف كانوا يتلقون الوحي من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وهل كانوا يعارضونه بعقولهم وآرائهم أم كانوا ينقادون له ، ويستسلمون لأحكامه ويصدقون بأخباره ؟ وهل كانوا يدفعون من النصوص ما رفضته عقولهم ؟ ويقدمون العقل عليها ؟

فإن العقل لا يجب أن يتقدم بين يدي الشرع ، فإنه من التقدم بين يدي الله ورسوله ، بل يكون ملبياً من وراء وراء .

وهذا هو مذهب الصحابة رضي الله عنهم الذي عليه دأبوا ، وإياه اتخذوا طريقاً إلى الجنه فوصلوا ، ولم ينكروا ، بل أقروا وأذعنوا لكلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم ولم يصادموه ، ولا عارضوه بإشكال ، ولو كان شيء من ذلك لنقل إلينا ، فلما لم ينقل دل على أنهم آمنوا به وأقروه كما جاء من غير بحث ولا نظر (١) .

فلم يعارضوا ما جاء في السنن بآرائهم وعقولهم علموا معناه أو جهلوه ، جرى لهم على معهودهم أولا ، فليعتبر بذلك من قدم الناقص وهو العقل على الكامل وهو الشرع (٢) .

وقد اكتفوا رضوان الله عليهم بما جاءهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلمهم أن الحق فيه ووفقهم الله للعمل به ففتحوا البلاد شرقاً وغرباً ، وشمالاً وجنوبياً ، فتفتقت لعلمهم الأذهان ، واستنارت بهم القلوب ، فنشروا دين الله في الأرض صافياً نقياً ، خالياً من الشبه والشكوك والأوهام والظنون .

١- انظر الاعتصام ٢/٣٣١ ، ٣٣٢ .

٢- المصدر السابق ٢/٢٣٦ بتصرف .

بل كانوا من أشد الناس بغضاً لاعتراض الشرع بالآراء والعقول ، لأنهم يعلمون أن ذلك مناف للإيمان والتسليم لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولذلك حذروا منه أيما تحذير .

عن سهل بن حنيف رضي الله عنه قال « يا أيها الناس اتهموا رأيكم على دينكم لقد رأيتني يوم أبي جندل ولو أستطيع أن أرد أمر رسول الله صلى الله لرددته .. » (١) .

وقد كانوا يستشكلون بعض النصوص ويوردون استشكالاتهم على النبي صلى الله عليه وسلم فيجيبهم عنها .(٢) وكانوا يسألونه عن الجمع بين النصوص التي يوهم ظاهرها التعارض ، فيوفق بينها لهم ، وما كان أحد فيهم يورد عليه معقولاً ليعارض به نصاً من النصوص ، ولاعرف عن أحد منهم-وهم أكمل الأمة عقولاً- أنه عارض نصاً بعقله . (٣)

وانظر إلى عائشة رضوان الله عليها عندما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك » فقلت : يا رسول الله : إليس قد قال الله تعالى : ﴿ فأما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً ﴾ (٤) ، فقال رسول الله

١- أخرجه البخاري في صحيحه . كتاب الاعتصام : (٩٦) ، باب ما يذكر من ذم الرأي وتكلف القياس : (٧) ، ٨/١٤٨ . ومسلم في صحيحه . كتاب الجهاد والسير : (٣٢) ، باب صلح الحديبية : (٣٤) . برقم : (١٧٨٥) . ٣/١٤١٢، ١٤١٣ .

٢- انظر : ما سبق في الحديث عن السنة في توضيح المشكل ص : ١٧

٣- انظر : مختصر الصواعق المرسلة . ص ١٤٣ .

٤- سورة الإنشقاق : الآيات : (٧-٨) .

صلى الله عليه وسلم : « إنما ذلك العرض وليس أحد يناقش الحساب يوم القيامة إلا عذب » (١) .

فعائشة رضوان الله عليها لم تعترض على النص بعقلها ورأيها ، وإنما أوهم في ذهنها أنه يخالف ما في الآية فاستفسرت رسول الله صلى الله عليه وسلم رجاء أن يزيل الإشكال من ذهنها ، وقد فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فأين هؤلاء الذين جعلوا نصوص الوحي ألعوبة تتقاذفها العقول ، وتتجاذبها الأهواء وتتحكم فيها الآراء ، من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين عظم في نفوسهم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وهانت عليهم عقولهم أن يقدموها عليه . بل قد بلغ من تعظيم الصحابة لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم لا يرضون ترك سنة كان عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يقبلون مع سنته رأي أحد مهما بلغ شأنه وعظمت مكانته بل كانوا يغضبون غضباً شديداً ، وينكرون إنكاراً قوياً على من لا يستجيب لسنته ولو كان من أقرب الناس إليهم (٢) .

١- أخرجه : البخاري في صحيحه في كتاب الرقاق : (٨١) ، باب من نوقش الحساب عذب : (٤٩) . ٧/١٩٨ . وبلفظ مقارب في كتاب التفسير : (٦٥) تفسير سورة إذا السماء انشقت : (٨٤) ، باب فسوف يحاسب حساباً يسيرا : (١) . ٦/٨١ . ومسلم في صحيحه ، بلفظ مقارب ، في كتاب الجنة وصفة نعيمها : (٥١) باب إثبات الحساب : (١٨) ، برقم : (٢٨٧٦) . ٤/٢٢٠٤-٢٢٠٥ .

٢- انظر : السنة قبل التدوين : ص ٨٧ .

إن قريباً لعبد الله بن مغفل خذف (١) . فنهاه وقال : « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن الخذف وقال : « إنها لا تصيد صيداً ولا تنكأ (٢) عدواً . ولكنها تكسر السن وتفقأ العين » قال فعاد ، فقال : « أحدثك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عنه ثم تخذف لا أكلمك أبداً » (٣) .

وروى الإمام أحمد بسنده إلى ابن عباس قال :« تمتع النبي صلى الله عليه وسلم » فقال عروة بن الزبير (٤) « نهى أبو بكر وعمر عن المتعة » فقال ابن عباس « ما يقول عرية ؟» قال : يقول « نهى أبو بكر وعمر عن المتعة » فقال ابن عباس :« أراهم سيهلكون » أقول :« قال النبي صلى الله عليه وسلم : ويقول نهى أبو بكر وعمر » (٥) .

١- خذف : الخذف هو : وضع الحصاة أو النواة بين السبابتين ثم الرمي بها . انظر النهاية في غريب الحديث : ١٦/٢ .

٢- تنكأ : ويكتب بغير همز ، والمعنى : تكثر الجراح والقتل في العدو . انظر : المرجع السابق : ١١٧/٥ .

٣- أخرجه البخاري في صحيحه . بلفظ مقارب : في كتاب الذبائح والصيد : (٧٢) ، باب الخذف والبندقة : (٥) . ٢١٩/٦ . وفي كتاب الأدب : (٧٨) ، باب النهي عن الخذف : (١٢٢) ، ١٢٤/٧ . ومسلم في صحيحه . واللفظ له ، في كتاب الصيد والذبائح : (٣٤) ، باب إباحة ما يستعان به على الاصطياد والعدو وكراهة الخذف : (١٠) برقم : (١٩٥٤) . ١٥٤٨/٣.

٤- عروة بن الزبير : هو ابن الزبير بن العوام بن خويلد الأسدي ، أبو عبد الله المدني ، ثقة ، فقيه مشهور ، كثير الحديث . روى عن أبويه وخالته عائشة وعلي ، وعنه بنوه والزهري . مات سنة ٩٤هـ على الصحيح . انظر : الجرح والتعديل : ٣٩٥/٦ ، الكاشف : ٢٦٢/٢ تقريب التهذيب : ١٩/٢ .

٥- مسند أحمد : ٣٣٧/١ . قال الشيخ أحمد محمد شاكر « إسناده صحيح » مسند أحمد بتحقيق أحمد محمد شاكر : ٤٨/٥ هامش : (٣١٢١) .

هكذا كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يعظمون حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقفون عنده ولا يتعدونه ، وينصاعون له ويلتزمونه مع سعة علمهم ، ورجاحة عقولهم ، وصفاء أذهانهم ، حتى رفع الله منزلتهم ، وأعلى من شأنهم ، ورضي عنهم في قوله : « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات ... » (١) الآية .

أفما وجد أذيال الغرب ، والمقتفون آثار المستشرقين في صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة لهم وقدوة ، فيكفوا عقولهم القاصرة عن العبث بنصوص الشرع والتهجم عليها • قال ابن مسعود رضي الله عنه : « من كان منكم متأسياً فليتأس بأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوباً ، وأعمقها علماً ، وأقلها تكلفاً ، وأقدمها هدياً ، وأحسنها خلالاً ، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم وإقامة دينه ، فأعرفوا لهم فضلهم ، وأتبعوهم في آثارهم ، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم »(٢) .

والصحابة رضوان الله عليهم مع أنهم أكمل الأمة عقولاً ومعارف لم يسألوا نبيهم : لما أمر الله بكذا ؟ ولم نهى عن كذا ؟ ولم قال كذا ؟ ولم فعل كذا ؟ لعلمهم أن ذلك مضاد للإستسلام والإيمان . فأول مراتب تعظيم الأمر : التصديق به ، ثم العزم على امتثاله ، ثم المسارعة والمبادرة إليه ، والحذر عن القواطع والموانع ، ثم بذل الجهد والنصح في الإتيان به على أكمل الوجوه ، ثم فعله لكونه مأموراً به ، فلا يتوقف

١- سورة التوبة : الآية : (١٠٠) .

٢- الاعتصام ١/٣٣٧ . وقد أخرجه أبو نعيم بلفظ مقارب عن عبد الله بن عمر في حلية الأولياء ١/٣٠٥ - ٣٠٦

الإتيان به على معرفة حكمته ، لأن مبنى العبودية والإيمان بالله على التسليم وعدم الأسئلة والتفصيل عن الحكمة في الأوامر والنواهي والشرائع (١) .

وأما المعارضون للشرع بعقولهم فهمهم أن يقحموا هذه العقول بين ثنايا النصوص لاستكشاف الحكم ، فإن عجزوا عن الوصول إلى ذلك سارعوا بردها، وحجتهم أنها تخالف العقول .

وقد سار السلف الصالح والأئمة رضوان الله عليهم على منهج الصحابة رضوان الله عليهم في الاعتصام بالكتاب والسنة والتمسك بهما، وعدم معارضتهما بآراء وشبه ، وعقول وأوهام .

بل يجعلون كلام الله ورسوله هو الأُصل الذي يعتمد عليه ويرد ما يتنازع فيه الناس إليه ، فما وافقه كان حقاً وما خالفه كان باطلاً ، ونصوص الوحي أكبر وأعظم في صدروهم من أن يقدموا عليها عقلاً أو شبهاً (٢) .

وهم رحمهم الله لا ينكرون العقل والتوصل به إلى المعارف والتدبر في الآيات الكونية ، ولكنهم لا يسلكون في شأنه مسلك أهل الكلام في الاستدلال به وحده والاكتفاء به ، ولا يقرون بالتعارض الذي يزعمه أهل الكلام بين العقل والشرع ، ولا يقدمون العقل على نصوص الوحي لإيمانهم بأن الله أرسل الرسل ليبينوا للناس دين الله عز وجل ، وبيانهم يغنى عن كل شيء ، ولا يغني عنه غيره (٣) .

١- انظر : شرح العقيده الطحاوية : ٢٦١ .

٢- انظر : الصواعق المرسله ٣/٩٩١ ، ٩٩٢ .

٣- انظر : الصفات الإلهية : ص ٥٨، ٥٩ .

فقد كان سلف الأمة وأئمتها يجعلون كلام الله ورسوله هو الإمام والفرقان الذي يجب اتباعه ، فيثبتون ما أثبته الله ورسوله ، وينفون ما نفاه الله ورسوله ، وأنه حق يجب قبوله ، وإن لم يفهم معناه ، وكلام غير المعصوم لا يجب قبوله حتى يفهم معناه (١) .

فالمتمسكون بالحديث هم أخص الناس بالرسول وأتباعه ، فلهم من فضل الله وتخصيصه إياهم بالعلم والحلم وتضعيف الأجر ما ليس لغيرهـــم .

لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أكمل الخلق وأعلمهم بالحقائق وأقومهم قولاً وحالاً ، فلزم أن يكون أعلم الناس به ، أعلم الخلق بذلك، وأن يكون أعظمهم موافقة له واقتداء به أفضل الخلق ، وهم أهل الحديث وشيعته (٢) .

ولهذا جاءت أقوالهم رحمهم الله تترا تأمر بالتمسك بالسنة ، والالتزام بها ، والاهتداء بالأحاديث وعدم الاعتراض عليها ، قال عمر بن عبد العزيز (٣) رحمه الله :

١- انظر : درء تعارض العقل والنقل : ١/٧٦ .

٢- انظر : مجموع الفتاوي : ٤/١٤٠-١٤٣ .

٣- عمر بن عبد العزيز : هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص الأموي ، أمير المؤمنين ، أمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب ، ولي إمرة المدينة للوليد ، وكان مع سليمان كالوزير ، وولي الخلافة بعده ، فهو من الخلفاء الراشدين . مدة خلافته سنتان ونصف . روى عن عبد الله بن جعفر وأنس وابن المسيب ، وعنه ابناه وأيوب . انظر : الجرح والتعديل :٦/١٢٢، الكاشف : ٢/٣١٧ ، تقريب التهذيب : ٢/٥٩ - ٦٠ .

« سن رسول الله صلى الله عليه وسلم وولاة الأمر من بعده سنناً، الأخذ بها اتباع لكتاب الله عز وجل ، واستكمال لطاعة الله عز وجل ، وقوة على دين الله ، ليس لأحد من الخلق تغييرها ولا تبديلها ولا النظر في شيء خالفها ، من اهتدى بها فهو المهتد ، ومن انتصر بها فهو منصور ، ومن تركها اتبع غير سبيل المؤمنين ، وولاه الله تعالى ما تولاه ، وأصلاه جهنم وساءت مصيرا » (١) .

وقال الشافعي رحمه الله :

« أجمع الناس على أن من استبانت له سنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن له أن يدعها لقول أحد من الناس » (٢) .

كما جاءت عنهم الآثار تذم الرأي المعارض للحديث ، وتحذر من معارضة السنة بالعقل . كتب عمر بن عبد العزيز إلى الناس « إنه لا رأي لأحد مع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم » (٣) .

وقال الأوزاعي :

« عليك بآثار من سلف ، وإن رفضك الناس ، وإياك وآراء الرجال، وإن زخرفوا لك القول » (٤) .

وقال ابن عبد البر :

« ليس لأحد من علماء الأمة يثبت حديثاً عن النبي صلى الله

١- الشريعة للآجرى ص : ٤٨ ، ٦٥ .

٢- أعلام الموقعين : ٢/٢٨٢ .

٣- الشريعة للآجرى : ص : ٥٣ ، جامع بيان العلم : ٢/٤٢ .

٤- الشريعة للآجري : ص : ٥٨ ، جامع بيان العلم : ٢/٢٧٧ .

عليه وسلم ثم يرده دون إدعاء نسخ عليه بأثر مثله ، أو إجماع ، أو بعمل يجب على أصله الانقياد إليه ، أو طعن في سنده ، ولو فعل ذلك أحد سقطت عدالته ، فضلاً أن يتخذ إماماً ، ولزمه إثم الفسق» (١).

مزالق من عارض الشرع بالعقل :

قد بين العلماء رحمهم الله الطوائف التي عارضت الوحي بعقولها وآرائها وأنهم خمس فرق :

طائفة عارضته في الخبريات ، وقد منّ عليه العقل ، فقالوا لأصحاب الحديث لنا العقل ولكم النقل .

وطائفة عارضته بآرائهم وقياساتهم فقالوا : لكم الحديث ولنا الرأي والقياس .

وطائفة عارضته بحقائقهم وأذواقهم ، وقالوا : لكم الشريعة ولنا الحقيقة .

وطائفة عارضته بسياستهم وتدبيرهم ، فقالوا : أنتم أصحاب الشريعة ونحن أصحاب السياسة .

وطائفة عارضته بالتأويل الباطل ، فقالوا : أنتم أصحاب الظاهر ونحن أصحاب الباطن .(٢)

والحديث هنا ينحصر في الطائفة الأولى التي قدست العقل وأعطته سلطاناً يتحكم في الشرع ويعترض عليه ، من المعتزلة (٣) ومن نحا

١- المرجع السابق : ٢/١٨٢ .

٢- انظر : الصواعق المرسلة ٣/١٠٥١ .

٣- سوف يأتي الحديث عنهم : انظر ص : ٦٨ فما بعدها

منحاهم في رد النصوص بالعقل من المستشرقين (١) وأذنابهم ممن سقط في براثن الحضاره الغربية ، وانبهر بوميضها الكاذب فانعكست أمامه الموازين ، وتشعبت عليه السبل ، وانطفأ أمامه نور الهدى . فظل في ظلام دامس لو أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور .

ولعلى ها هنا أحاول جاهداً أن أبين خطورة موقف هؤلاء ، والعظائم التي تلزم من معارضتهم لنصوص الوحي بعقولهم ، والمزالق التى وقعوا فيها بسبب سلوك هذا النهج الخاطىء والمسلك المنحرف .

فأول مزلق سقط فيه أولئك هو مضاهاتهم لإبليس لعنه الله حين اعترض على الله عز وجل ولم يسلم لأمره بالسجود لآدم وعارضه بعقله فقال : « أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين » (٢) . فكانت العاقبة : الطرد من رحمة الله والخلود في جهنم ، قال تعالى : ﴿ قال اخرج منها مذءوماً مدحوراً لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين ﴾(٣) ، (٤) .

ثانياً : مشابهة الكفار في اعتراضهم على الشرع في أكثر من موضع ، بل ذلك من أخص صفاتهم التي أوضحها الله في القرآن ، من ذلك :معارضتهم لنبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » (٥) . ومعارضتهم لقدر الله،

١- سوف يأتي الحديث عنهم انظر ص : ٣٤٣ فما بعدها

٢- سورة الأعراف الآية (١٢) .

٣- السورة السابقة الآية (١٨) .

٤- انظر : شرح العقيده الطحاوية : ص : ٢٠٧ .

٥- سورة الزخرف الآية (٣١) .

في قوله سبحانه : ﴿ سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون . قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين ﴾ (١) . وعارضوا تحريم الربا بعقولهم بتسويته بالبيع ، قال تعالى : ﴿ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا ، وأحل الله البيع وحرم الربا» (٢)،(٣) .

ثالثاً : يلزم من ذلك تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم وتخطئته ، وإبطال دلالة السمع ، وسد طريق العلم بما أخبر به الأنبياء والمرسلون ، بل تكذيب بالكتاب وبما أرسل الله تعالى به رسله ، ومنع الاستدلال بخبر الرسول صلى الله عليه وسلم على شيء . لأنه من علم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صادق ، وأن ما أخبر به ثابت ، وأن إخباره لنا بالشيء يفيد تصديقاً بثبوت ما أخبر به ، فمن كان هذا معلوماً له امتنع أن يجعل العقل مقدماً على خبر الرسول صلى الله عليه وسلم ، بل يضطره الأمر إلى أن يقع في هذه اللوازم السابقة (٤) .

رابعاً : إنما تأتي معارضة العقل لنصوص الوحي لمن يقر بالنبوة على قواعد الفلسفة ، إذ الوحي عندهم تابع لا متبوع ، ولا تأتي على قواعد المسلمين المؤمنين بالنبوة حقاً .

١- سورة الأنعام الآية (١٤٨ - ١٤٩) .

٢- سورة البقرة الآية (٢٧٥) .

٣- انظر : الصواعق المرسلة : ٨٩٥/٣ ، ٨٩٧ .

٤- انظر : موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول ١٤٠/١ .

وكل طائفة ممن تنتسب إلى الإسلام وجدوا الوحي على خلاف مذهبهم وقول من قلدوه فلجأوا الى معارضته بعقولهم واعتصموا بها دونه، وهذا يناقض الإيمان بالنبوة .

وأمر النبوة وما يخبر به النبي صلى الله عليه وسلم فوق مدارك الحس والعقل والخيال والوهم .

فالعقل معزول عما يدرك بنور النبوة وطرق الوحي كعزل الحواس عن إدراك المعقولات (١) .

قال شيخ الإسلام :

« والداعون إلى تمجيد العقل ، إنما هم في الحقيقة يدعون إلى تمجيد صنم سموه عقلاً ، وما كان العقل وحده كافياً في الهداية والإرشاد، وإلا لما أرسل الله الرسل » (٢) .

خامساً : لم يستند هؤلاء من جهة الرسول شيئاً ، لأنهم لا يرجعون إليه صلى الله عليه وسلم في المطالب الإلهية ، فصار وجوده عندهم كالعدم ، بل أضر من العدم ، لأنهم لم ينتفعوا منه شيئاً ، واحتاجوا أن يدفعوا ما جاء به إما عن طريق التكذيب أو التعريض أو التأويل (٣) .

سادساً : من حكمة الله عز وجل في خلقه إفساد عقول من خالفوا رسله (٤) .

١- انظر : الصواعق المرسله ٣/٩٥٥ - ٩٥٧ .

٢- موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول ١/٢١ .

٣- انظر : درء تعارض العقل والنقل : ١/١٣٥، ١٣٦ .

٤- انظر : الصواعق المرسلة ٣/٨٦١ .

وكلما كان الرجل عن الرسول صلى الله عليه وسلم أبعد كان عقله أقل وأفسد ، ولذلك كان أكمل الناس عقولا أصحاب الرسل ، وأفسدهم عقولا المعرضين عنهم ، وعما جاءوا به ، ولهذا كان أهل السنة والحديث أعقل الأمة ، وهم فى الطوائف كالصحابة فى الناس .

ومن أعظم معصية العقل إعراضه عن كتاب الله ووحيه الذى هدى به رسله ، والمعارضة بينه وبين كلام غيره ، فأى فساد أعظم من فساد هذا العقل (١).

سابعا : اتباع الهوى ، وهو ينتج من عدم الاهتداء بشرع الله والاستجابة لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى : {فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لايهدى القوم الظالمين}(٢).

وأهل الهوى فى الحقيقة هم الذين لم يأخذوا الأدلة الشرعية مأخذ الافتقار إليها ، والتعويل عليها حتى يصدروا عنها ، بل قدموا أهواءهم ، واعتمدوا على آرائهم ، ثم جعلوا الأدلة الشرعية منظورا فيها من وراء ذلك . فردوا كثيرا من الأحاديث الصحيحة بعقولهم ، وأساءوا الظن بما صح عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وحسنوا ظنهم بآرائهم الفاسدة ، حتى ردوا كثيرا من أمور الآخرة وأحوالها من الصراط والميزان ، وحشر الأجساد ، والنعيم والعذاب الجسمى ، وأنكروا رؤية البارى ، وأشباه ذلك ، بل صيروا العقل شارعا ، جاء الشرع أو لا . بل إن جاء فهو كاشف لمقتضى ماحكم به العقل (٣)، وإن لم يجىء فإنهم يكتفون بالعقل بناء على قاعدتهم فى التحسين والتقبيح .

---

(١) انظر المصدر السابق ٨٦٥،٨٦٤/٣ .

(٢) سورة القصص : آية ٥٠

(٣) انظر الاعتصام ١٧٦/٢ .

قال ابن القيم رحمه الله :

« وكل من له مسكة عقل يعلم أن فساد العالم وخرابه إنما نشأ من تقديم الرأي على الوحي ، والهوى على العقل ، وما استحكم هذان الأصلان الفاسدان في قلب إلا استحكم هلاكه ، وفي أمة إلا فسد أمرها ، أتم فساد فلا إله إلا الله كم نفى بهذه الآراء من حق ، وأثبت بها من باطل ، وأميت بها من هدى ، وأحيي بها من ضلالة وكم هدم بها من معقل الإيمان وعمر بها من دين الشيطان ، وأكثر أصحاب الجحيم هم أهل هذه الآراء الذين لا سمع لهم ولا عقل ، بل هم شر من الحمر ، وهم الذين يقولون يوم القيامة : ﴿ لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير ﴾ (١)»، (٢) .

ثامناً : دفعهم هذا النهج الخاطىء على القول على الله وعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بغير علم .

لأن الذي يعارض الوحي بعقله ليس عنده علم ولا هدي ولا كتاب مبين كما قال تعالى : ﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ﴾ (٣) فمعارضته باطلة ، وليس عنده إلا الجهل والضلال ، لأن العلم هو ما جاء به الوحي كما قال تعالى : ﴿ فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم ﴾ (٤) ، (٥) .

١- سورة الملك الآية (١٠) .

٢- أعلام الموقعين ١/٦٨- ٦٩ .

٣- سورة الحج الآية (٨) .

٤- سورة آل عمران الآية ٦١ .

٥- انظر : الصواعق المرسلة ٣/١٠٨٦ .

وقال عز وجل في حق الذين يؤمنون بالوحي ويعترفون بأنه الحق ولم يعارضوه برأي ولا عقل قال في شأنهم : ﴿ ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميد ﴾ (١) .

وهذا دليل ظاهر في أن الذي نراه معارضاً للوحي ، ويقدم العقل عليه ليس من الذين أوتوا العلم في شيء (٢) .

فلما فارق هؤلاء الوحي وانصرفوا عنه إلى عقولهم كان حرى بهم أن يقولوا على الله ورسوله صلى الله عليه وسلم بغير علم . يقول ابن قتيبة رحمه الله :

« وقد تدبرت ... مقالة أهل الكلام فوجدتهم يقولون على الله ما لا يعلمون ، ويفتنون الناس بما يأتون ، ويبصرون القذي في عيون الناس، وعيونهم تطرف على الأجذاع ، ويتهمون غيرهم في النقل ، ولا يتهمون آراءهم في التأويل ومعاني الكتاب والحديث ... ولو ردوا المشكل منهما إلى أهل العلم بهما ، وضح لهم المنهج ، واتسع لهم المخرج ، ولكن يمنع من ذلك طلب الرياسة ، وحب الاجتماع ، واعتقاد الإخوان بالمقالات .. » (٣) .

وقد حرم الله القول عليه بغير علم فقال : ﴿ قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾ (٤) . ولذلك نهى وحذر عنه في قوله ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع

١- سورة سبأ الآية (٦) .

٢- انظر : المرجع السابق ٣/٨٥٠، ٨٥١ .

٣- تأويل مختلف الحديث ١٣-١٤ .

٤- سورة الأعراف الآية (٣٣) .

والبصر والفؤاد كل أولائك كان عنه مسئولا ﴾ (١) .

تاسعاً : من أميز الصفات والسمات التي وصم بها أولائك واتسموا بها التفرق والاختلاف والتنازع .

بل هم من أكثر الناس اختلافاً ، لا يجتمع اثنان من رؤسائهم على أمر واحد في الدين (٢) .

فلما كانت صفة الاختلاف لازمة لهم لا تنفك عنهم ، أشار الى ذلك الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله في خطبة كتابه « الرد على الجهمية » فقال :

« الذين عقدوا ألوية البدعة ، وأُطلقوا عقال الفتنة ، فهم مختلفون في الكتاب ، مخالفون للكتاب ، مجمعون على مفارقة الكتاب ، ويقولون على الله ، وفي الله ، وفي كتاب الله بغير علم يتكلمون بالمتشابه من الكلام ، ويخدعون جهال الناس بما يشبهون عليهم ، فنعوذ بالله من فتن المضلين » (٣) .

وذلك لأن العقول التي حكموها في الشرع متفاوته متباينة ، فقد يعلم زيد بعقله ما لا يعلمه بكر ، بل ما يعلمه الإنسان بعقله في وقت ما قد يجهله في وقت آخر . فلو قدم العقل على الشرع والعقول بهذه المثابة من التباين والاضطراب لوجب أن يحال الناس على شيء لا سبيل إلى ثبوته ومعرفته ، ولا اتفاق للناس عليه . ولهذا وقع بينهم التنازع في أصول المسائل والعلوم الضرورية فكيف بسواها . أما الشرع فهو صادق

١- سورة الإسراء الآية (٣٦) .

٢- انظر : تأويل مختلف الحديث ص ١٤ .

٣- الرد على الجهمية ضمن عقاد السف ص ٥٢ .

في نفسه ، لا يختلف صدقه باختلاف أحوال الناس للزوم صفة الصدق له. ولذا أمر الله المؤمنين عند التنازع بالرد إليه فقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا ﴾ (١) إذ لو ردوا الى غير ذلك من عقول الرجال وآرائهم ومقاييسهم وبراهينهم لم يزدهم هذا الرد إلا اختلافاً واضطراباً وشكاً وارتياباً (٢) .

ويزداد تنازعهم واختلافهم كلما بعدوا عن سنة النبي صلى الله عليه وسلم كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية : « كل من كان من السنة أبعد كان التنازع والاختلاف بينهم في معقولاتهم أعظم » (٣) .

عاشراً : وقوعهم في الشك والحيرة :

إن أساطين الفلسفة الذين بلغوا في الذكاء والنظر الغاية ، ودأبوا ليلاً ونهاراً في التعمق ودراسة هذه العقليات لم يصلوا إلى معقول صريح واحد يناقض الوحي ، بل وصلوا إلى الحيرة والشك أو الاختلاف والارتياب ، فكيف بمن سواهم ممن لم يبلغ ذكاؤه ذكاءهم ومعرفته معرفتهم (٤) .

١- سورة النساء الآية (٥٩) .

٢- انظر : موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول ١/١٢٠-١٢٢ .

٣- درء تعارض العقل والنقل : ١/١٥٧ .

٤- انظر : موافقة صحيح المنقول : ١/١٣٤ ، ١٣٥ .

ولقد اعترفوا بحيرتهم وشكوكهم .

فالرازي (١) مع سبقه في باب المعقول ، وفرط ذكائه يشكو حيرته وعجزه فيقول :

« نهاية إقـــدام العقول عقـــال	وغايـــة سعى العالمين ضـــلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا	وحاصل دنيانـــا أذى ووبـــال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا	سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا
فكم قد رأينا في رجال ودولـــة	فبـــادوا جميعاً مسرعين وزالوا
وكم من جبال قد علت شرفاتها	رجـــال فزالوا والجبال جبـــال

لقد تأملت الطرق الكلامية ، والمناهج الفلسفية ، فما رأيتها تشفى عليلاً ،ولا تروى غليلاً ، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن ، أقرأ في الإثبات : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ (٢) .

﴿إليه يصعد الكلم الطيب ﴾ (٣) وأقرأ في النفي : ﴿ ليس كمثله

١- الرازي : هو محمد بن عمر بن الحسين القرشي ، فخر الدين الرازي ، ويقال له : ابن خطيب الرى ، الإمام المفسر ، الأصولي ، المتكلم ، له كثير من التصانيف منها : « مفاتيح الغيب » ، و « أساس التقديس » ، « المحصول في علم الأصول » . مات سنة ٦٠٦ هـ . انظر : الكامل في التاريخ : ١٢/ ١٢٠ ، وفيات الأعيان : ٤/ ٢٤٨-٢٥٢ ، سير أعلام النبلاء : ٢١/ ٥٠٠ - ٥٠١ ، البداية والنهاية : ١٣/ ٥٥-٥٦ ، طبقات الشافعية :٥/ ٣٣ - ٤٠ ، الأعلام : ٦/ ٣١٣ .

٢- سورة طه الآية (٥) .

٣- سورة فاطر الآية (١٠) .

شيء﴾ (١) ﴿ ولا يحيطون به علما ﴾ (٢) . ثم قال : « ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي » (٣) .

وقال الشهرستاني (٤) :

« فقد أشار إلى من إشارته غنم ، وطاعته حتم ، أن أجمع له مشكلات الأصول ، وأحل له ما انعقد من غوامضها على أرباب العقول لحسن ظنه بي أني وقفت على نهاية النظر ، وفزت بغايات مطارح الفكر ، ولعله استسمن ذا ورم ، ونفخ في غير ضرم لعمرى :

لقد طفت في تلك المعاهد كلها وسيرت طرفي بين تلك المعالم

فلـــم أر إلا واضعاً كف حائر على ذقن أو قارعاً سن نادم» (٥)

١- سورة الشورى الآية (١١) .

٢- سورة طه الآية (١١٠) .

٣- شرح العقيدة الطحاوية : ص ٢٠٨-٢٠٩ وانظر : سير أعلام النبلاء : ٥٠١/٢١ .

٤- الشهرستاني : هو محمد بن عبد الكريم بن أحمد أبو الفتح الشهرستاني ، الملقب بالأفضل ، كان إماماً في علم الكلام وأديان الأمم ومذاهب الفلاسفة ، له معرفة بالأصول والأدب ، وكان يغلو في التشيع ، وينصر مذهب الفلاسفة . مات سنة ٥٤٨هـ . من آثاره : « الملل والنحل » ، و « نهاية الإقدام » ، « الإرشاد إلى عقائد العباد » وغير ذلك . انظر : وفيات الأعيان : ٢٧٣/٤ - ٢٧٥ ، تذكرة الحفاظ : ١٣١٣/٤ ، سير أعلام النبلاء : ٢٨٦/٢٠ - ٢٨٨ ، طبقات الشافعية : ١٢٨/٦- ١٣٠ لسان الميزان : ٢٦٣/٥-٢٦٤ ، الوافي بالوفيات : ٢٧٨/٣ - ٢٧٩ ، شذرات الذهب : ١٤٩/٤ ، الأعلام : ٢١٥/٦ .

٥- نهاية الإقدام في علم الكلام : ص : ٣ .

وغير هذين كثيرون ممن سلكوا هذا المسلك فآل أمرهم إلى الحيرة والشك والضلال (١) .

والحق يقال : إن أهل الكلام المقدسين للعقل المعظمين له المحتكمين إليه، قد أطالوا الكلام ، ووعروا الطريق في إثبات علوم قل نفعها وفائدتها فهي كلحم جمل غث على رأس جبل وعر ، لا سهل فيرتقى ، ولا سمين فينتقل ، وأحسن ما عندهم فهو في القرآن أصح تقريراً ، وأحسن تفسيراً، وليس عندهم إلا التكلف والتطويل والتعقيد (٢) .

ولعل السائرين على منهجهم ، المقتفين آثارهم ، يعرفون حقيقة ما هم فيه ، وما وصل إليه أولائك من الانحراف والضياع ، فينتبهون لأمرهم ، ويعيدون النظر فيما عندهم ، فينصاعون إلى الحق ، ويلتزمون بالشرع ، ويدعون هذه المغالطات والشبهات التي لا تسمن من جوع ، وإنما تقذف بصاحبها إلى هوة سحيقة حيث لا نجاة ولا فلاح . فالحق هو ما جاء به الله ورسوله صلى الله عليه وسلم والنجاة إنما تكمن في شرع الله لا في شبه الأذهان وظلمات الأفكار ، وترهات العقول .

ورحم الله ابن القيم إذ يقول :

« فعلى عقولكم العفاء فإنكــــم	عاديتم المعقول والمنقــــولا
وطلبتم أمراً محالاً وهـــو إدراك	الهدى لا تبتغون رســـولا
وزعمتم أن العقـــول كفيلـــــة	بالحق أين العقل كان كفيلا
وهو الذي يفضى فينقــض حكمه	عقل ترون كليهما معقــولا

١- انظر الى طائفة من أقوال أولئك في شرح العقيدة الطحاوية : ص٢٠٩- ٢١٠ .

٢- انظر : المرجع السابق ص : ٢٠٦ بتصرف .

وتراه يجزم بالقضاء وبعـــد ذا　　يلقـى لديـه باطلاً معلـــولا

لا يستقل العقل دون هدايـــة　　بالوحي تأصيــلاً ولا تفصيــلاً

فإذا النبوة لم ينلك ضياؤهـــا　　فالعقل لا يهديـك قط سبيــلا

نور النبوة مثل نور الشمـــس　　للعين البصيرة فاتخـذه دليـلا

طرق الهـــدى محدودة إلا على　　من أم هذا الوحي والتنزيـــلا

فإذا عدلت عن الطريق تعمـداً　　فاعلم بأنك ما أردت وصـولا

يا طالبـاً درك الهدى بالعقـل　　دون النقـل لن تلق لذاك دليلا

كم رام قبلك ذاك من متلـــذذ　　حيران عاش مدى الزمان جهولا

مازالت الشبهـات تغـزو قلبه　　حتى تشحط بينهن قتيلا» (٢)

١- الصواعق المرسله ٣/٩٧٨ - ٩٨٠ .

الباب الأول

موقف المدرسة العقلية القديمة

- المعتزلة - من السنة النبوية

وفيه فصلان :

الفصل الأول : موقف المعتزلة من العقل وعلاقة ذلك بالأصول الخمسة .

الفصل الثاني : موقف المعتزلة من الحديث المتواتر وحديث الآحاد .

الفصل الأول
موقف المعتزلة من العقل وعلاقة ذلك بالأصول الخمسة

إن المعتزلة[١] من أهم الفرق الكلامية فى الإسلام ، وقد احتلت مكانة بارزة فى تاريخ علم الكلام ، وذلك بسبب النزعة العقلية التى غلبت عليها وأثرت فى منهجها تأثيراً بالغاً .

ولما كانت المعتزلة تتبوأ مركز الصدارة بين فرق الإسلام فى تمجيد العقل وتعظيمه وإعطائه منزلة فوق منزلة الكتاب والسنة ، ووضوح ذلك فى منهجها ،تم اختيارى لها كفرقة قديمة تمثل المدرسة العقلية القديمة تمثيلاً واضحاً .

ولاشك أن السنة النبوية وهى المصدر التشريعي الثانى وجدت مواجهات سافرة وحملات عنيفة من طائفة أهل الاعتزال . مما كان سبباً فى رد كثير من نصوصها وعدم الاعتماد على حجيتها وتقديم العقل عليها .

وسوف يتبين ذلك كله من خلال عرضي لشبه هذه المدرسة والرد عليها .

---

(١) ذكر الشهرستانى سبب تسميتهم بالمعتزلة فقال :
"دخل واحد على الحسن البصرى فقال : ياإمام الدين ، لقد ظهرت فى زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر .والكبيرة عندهم كفر يخرج به عن الملة ، وهم وعيدية الخوارج ، وجماعة يرجئون أصحاب الكبائر . والكبيرة عندهم لاتضر مع الإيمان ، بل العمل على مذهبهم ليس ركناً من الإيمان ، ولايضر مع الإيمان معصية كما لاينفع مع الكفر طاعة ،وهم مرجئة الأمة . فكيف تحكم لنا فى ذلك إعتقاداً؟ فتفكر الحسن فى ذلك، وقبل أن يجيب قال واصل بن عطاء : أنا لاأقول إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلقاً ، ولاكافر مطلقاً ، بل هو فى منزلة بين المنزلتين : لامؤمن ولاكافر ، ثم قام واعتزل إلى اسطوانة من اسطوانات المسجد يقرر ماأجاب به على جماعة من أصحاب الحسن . فقال الحسن : اعتزل عنا واصل . فسمى هو وأصحابه معتزلة" . الملل والنحل ٤٨/١ .
وذكر فى تسميتهم غير ذلك . انظر : المعتزلة لزهد جار الله ص٢-٥ .

(١) موقف المعتزلة من العقل :

(أ) العقل هو أول الأدلة :

قال القاضى عبد الجبار(١) فى معرض حديثه عن الأدلة :

"أولها دلالة العقل ، لأن به يميز بين الحسن والقبح ، ولأن به يعرف أن الكتاب حجة وكذلك السنة والإجماع .

وربما تعجب من هذا الترتيب بعضهم ، فيظن أن الأدلة هى الكتاب والسنة والإجماع فقط ، أو يظن أن العقل إذا كان يدل على أمور فهو مؤخر ، وليس الأمر كذلك، لأن الله تعالى لم يخاطب إلا أهل العقل ، ولأن به يعرف أن الكتاب حجة ، وكذلك السنة والإجماع ، فهو الأصل فى هذا الباب "(٢).

والقرآن والسنة موقوفان فى صحة دلالتهما على العقل ، لأن صحة معرفة الشىء من جهتهما موقوف على أنه تعالى على صفة معها لايختار فعل القبيح ، وهذه لاتعلم إلا من جهة العقل ، ومتى أمكن معرفة ذلك صح أن يعلم بخبره سائر مايخبر به(٣).

---

(١) القاضى عبد الجبار :
هو عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار الهمذانى ، الأسدبادى ، أبو الحسين ، قاضي ، أصولي ، كان شيخ المعتزلة فى عصره . يلقبونه قاضى القضاة ، ولايطلقون ذلك على غيره ، كان من كبار فقهاء الشافعية . ولى قضاء الرى . وله كثير من التصانيف . مات سنة ٤١٥هـ .
من آثاره : "تنزيه القرآن عن المطاعن" ، "شرح الأصول الخمسة" ، "المغنى فى أبواب التوحيد والعدل" وغير ذلك.
انظر : تاريخ بغداد ١١/١١٣-١١٥ ، الأنساب ١/٢١١-٢١٢ ، ميزان الاعتدال ٢/٥٣٣ ، سير أعلام النبلاء ١٧/٢٤٤-٢٤٥ ، طبقات السبكى ٥/٩٧-٩٨ ، لسان الميزان ٣/٣٨٦-٣٨٧ ، شذرات الذهب ٣/٢٠٢-٢٠٣ ، الأعلام ٣/٢٧٣-٢٧٤ .

(٢) فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ص١٣٩ .

(٣) انظر : المحيط بالتكليف ٤/١٧٣ .

وقال أبو على الجبائى[١]:

"إن سائر ماورد به القرآن فى التوحيد والعدل ورد مؤكدا لما فى العقول . فأما أن يكون دليلا بنفسه يمكن الاستدلال به فمحال"[٢].

وقال عبد الجبار :

"وإذا وجدنا فى كتابه المحكم والمتشابه . عرضنا ذلك على ماركبه فى قلوبنا ، لنحمل أحدهما على وفاق الآخر ، فكيف يصح فيما طريقه الدين أن نتبع قول الكثير ، وقد آتانا الله من العقل مانعرف به البصيرة"[٣].

(ب) حجة العقل وإعماله أول الواجبات على العباد ، وأن معرفة الله لاتكون إلا بالعقل :

قال عبد الجبار :

"إن سأل سائل فقال :ماأول ماأوجب الله عليك؟

فقل النظر[٤]المؤدي إلى معرفة الله تعالى ، لأنه تعالى لايعرف ضرورة ولابالمشاهدة ، فيجب أن نعرفه بالتفكر والنظر"[٥].

وقال :

---

(١) أبو على الجبائى :
هو محمد بن عبد الوهاب بن سلام الجبائى أبو على . ينسب إلى جبى - من قرى البصرة - كان من أئمة المعتزلة ، ورئيس علماء الكلام فى عصره . وإليه تنسب الطائفة الجبائية . له مقالات وآراء انفرد بها . مات سنة ٣٠٣هـ.
من آثاره : "كتاب الأصول" ، "التعديل والتجوير" ، "التفسير الكبير" وغير ذلك.
انظر : وفيات الأعيان ٢٦٧/٤-٢٦٩ ، سير أعلام النبلاء ١٨٣/١٤-١٨٤ ، البداية والنهاية ١٢٥/١١ ، الوافى بالوفيات ٧٤/٤-٧٥ ، لسان الميزان ٢٧١/٥ ، شذرات الذهب ٢٤١/٢ ، الأعلام ٢٥٦/٦ .

(٢) المحيط بالتكليف ١٧٤/٤ .

(٣) فضل الاعتزال ص١٨٩ .
وسوف يأتى بيان للمحكم والمتشابه .

(٤) قال عبد الجبار فى تعريفه للنظر :
"النظر هو التفكير فى الأدلة ليتوصل بها إلى المعرفة" . شرح الأصول ص٤٥ .

(٥) المرجع السابق ص٣٩ .

"سائر الشرائع من قول وفعل لاتحسن إلا بعد معرفة الله تعالى ، ومعرفة الله لاتحصل إلا بالنظر فيجب أن يكون النظر أول الواجبات"(١).

وقال فى معرض ذكره لأنواع الأدلة مرتبا إياها الأهم فالمهم :

"حجة العقل ، والكتاب ، والسنة ، والإجماع ، ومعرفة الله لاتنال إلا بحجة العقل"(٢).

(٢) الأصول الخمسة هى التى كلف الله بها العباد :

قال عبد الجبار :

"فأما جملةماكلف المرء به ... يلزمه أن يعرف التوحيد ، والعدل ، والوعد والوعيد ، والمنزلة بين المنزلتين ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"(٣).

وقال أبو الحسين(٤):

"وليس يستحق أحد اسم الاعتزال حتى يجمع القول بالأصول الخمسة"(٥).

---

(١) المصدر السابق ص٦٩ .

(٢) المصدر نفسه ص٨٨ .

(٣) المصدر نفسه ص١٩ .

وسوف يأتى بيان لهذه الأصول عند المعتزلة .

(٤) أبو الحسين :

هو محمد بن على بن الطيب البصرى ، أبو الحسين ، أحد أئمة المعتزلة . قال الخطيب البغدادى : له تصانيف وشهرة بالذكاء والديانة على بدعته . مات سنة ٤٣٦هـ .

من آثاره : "المعتمد فى أصول الفقه" ، "تصفح الأدلة" ، "غرر الأدلة" .

انظر : طبقات المعتزلة ص١١٨ ، تاريخ بغداد ١٠٠/٣ ، الكامل فى التاريخ ٥٢٧/٩ ، وفيات الأعيان ٢٧١/٤ ، ميزان الاعتدال ٦٥٤/٣-٦٥٥ ، سير أعلام النبلاء ٥٨٧/١٧-٥٨٨ ، البدايةوالنهاية ٥٣/١٢-٥٤ ، لسان الميزان ٢٩٨/٥ ، الوافى بالوفيات ١٢٥/٤ ، شذرات الذهب ٢٥٩/٣ ، الأعلام ٢٧٥/٦ .

(٥) فضل الاعتزال ص١٧ .

الجواب على ذلك :

ولكى أجيب على هذه الشبه لابد من وقفة نعرف من خلالها الدافع الذى دفع أهل الاعتزال إلى إحاطة العقل بهذه الهالة من التعظيم والتقديس والتمجيد الذى خرج به عن حده الذى حده له رب العالمين .

ذلك الدافع هو وقوعهم فى براثن الفلسفة اليونانية التى ارتضعوا من ثديها ، وتغذوا بلبانها ، فجرت فى عروقهم ، وأثرت فى منهجهم تأثيرا بالغا صرفهم عن الصراط المستقيم .

قال أحمد أمين :

"وكان المعتزلة أسرع الفرق للاستفادة من الفلسفة اليونانية وصبغها صبغة إسلامية ، والاستعانة بها على نظرياتهم وجدلهم ، وكان من أشهر من استخدم الفلسفة فى ذلك أبو الهذيل العلاف (١)، والنظام (٢) ،

---

(١) أبو الهذيل العلاف :

هو محمد بن الهذيل بن عبيد الله البصرى العلاف ، من أئمة المعتزلة ، وشيخ الكلام . له مقالات فى الاعتزال ، وانفرد بآراء . مات سنة ٢٣٥هـ وقيل غير ذلك . وله تصانيف كثيرة .

انظر : طبقات المعتزلة ص٤٤-٤٩ ، تاريخ بغداد ٣٦٦/٣ ، وفيات الأعيان ٢٦٥/٤-٢٦٧ ، سير أعلام النبلاء ٥٤٢/١٠-٥٤٣ ، ١٧٣/١١-١٧٤ ، لسان الميزان ٤١٢/٥-٤١٣ ، الوافى بالوفيات ١٦١/٥-١٦٣ ، شذرات الذهب ٨٥/٢ ، الأعلام ١٣١/٧ .

(٢) النظام :

هو إبراهيم بن سيار بن هانىء البصري ، أبو اسحاق النظام ، شيخ المعتزلة ، تبحر فى علوم الفلسفة ، وانفرد بآراء تابعته فرقة من المعتزلة سميت "النظامية" . اتهم بالزندقة ، وكفره جماعة . مات سنة بضع وعشرين ومائتين ، وله كتب فى الفلسفة والاعتزال .

انظر : طبقات المعتزلة ص٤٩-٥٢ ، تاريخ بغداد ٩٧/٦-٩٨ ، سير أعلام النبلاء ٥٤١/١٠-٥٤٢ ، لسان الميزان ٦٧/١ ، الوافى بالوفيات ١٤/٦-١٩ ، الأعلام ٤٣/١ .

والجاحظ "(١)(٢) .

وهؤلاء الثلاثة هم من قادة المعتزلة وزعمائها ، الذابين عن حماها ، المدافعين عن منهجها .

يقول الشهرستانى عن الأول فى معرض نقده لبعض آرائه :

" وإنما اقتبس هذا الرأى من الفلاسفة " (٣) .

وعن الثاني : " قد طالع كثيراً من كتب الفلاسفة وخلط كلامهم بكلام المعتزلة " (٤) .

---

(١) الجاحظ :

هو عمرو بن بحر بن محبوب الكنانى ، مولاهم ، أبو عثمان ، المشهور بالجاحظ، البصري ، المعتزلي ، كان متبحرا فى الأدب ، ورئيس الفرقة الجاحظية من المعتزلة ، مات سنة ٢٥٥ هـ .

له تصانيف كثيرة منها : " الحيوان " ، " البيان والتبيين " ، " مجموع رسائل" وغيرها الكثير .

أنظر : تاريخ بغداد ١٢/٢١٢-٢٢٠ ، وفيات الأعيان ٣/٤٧٠-٤٧٥، ميزان الإعتدال ٣/٢٤٧، سير أعلام النبلاء ١١/٥٢٦-٥٣٠، البداية والنهاية ١١/١٩-٢٠ ، لسان الميزان ٤/٣٥٥-٣٥٧ ، شذرات الذهب ٢/١٢١-١٢٢، الأعلام ٥/٧٤ .

(٢) فجر الإسلام ص ٢٢٩ ، وانظر : مشكل الحديث وبيانه ص ٧ الهامش .

(٣) الملل والنحل ١/٥٠ .

(٤) المرجع السابق ١/٥٣، ٥٤ .

وعـن الثالث : "وقد طالـع كثيرا من كتب الفلاسفـة ، وخلـط وروج كثيرا من مقالاتهم بعباراته البليغة ، وحسن براعته اللطيفة"(١).

وقـد بين الشيـخ أبو زهـرة الأسبـاب التى أدت إلى وقـوع المعتزلـة فى أحضان الفلسفة فقال :

"وقد دفعهم إلى دراسة الفلسفة أمران :

أحدهما : أنهم وجدوا فيها مايرضى نهمهم العقلى وشغفهـم الفكرى ، وجعلوا فيها مرانا عقليا جعلهم يلحنون بالحجة فى قوة .

وثانيهما : أن الفلاسفة وغيرهم لما هاجموا بعض المبـادىء الإسلامية ، تصـدى هـؤلاء للرد عليهم ، واستخـدموا بعـض طرقهم فى النظـر والجدل ، وتعلموا كثيرا منها ليستطيعوا أن ينالوا الفوز عليهم"(٢).

فقد حاول المعتزلة مناهضة الفلاسفة والرد عليهـم ولكنهم علموا أنهم لاقـدرة لهم عليهم إلا بدراسـة الفلسفة ، والانكباب عليهـا ، لـدعم حججهم وتقـوية أقوالهم ، إذ الأدلـة النقلية من الكتاب والسنـة غير كافية وحدها ـ هكـذا زعموا ـ لإفحام الغير والـزامه الحجة ، وإنما يفتقـر ذلـك إلى البراهين العقلية(٣).

ولقــد كـان المعتزلـة يفخـرون بغـوصهم فى بحور الفلسفــة والجدل ، وخوضهم لجج تلك المفاوز والوهاد .

يقول أبو الحسين الخياط(٤):

"والكلام فى الأصــوات على أى وجه تسمــع؟ مــن لطيــف الكلام وغـامضه وليس لأحد فيه قول يعرف إلا المعتزلة لأنهـم أرباب الكلام وأهل النظر والمعرفة بدقيق الكلام وغامضه بعد إحكام جليـل الكلام وظاهره"(٥).

---

(١) الملل والنحل ٧٥/١ .

(٢) تاريخ المذاهب الإسلامية ص١٣١ .

(٣) انظر : علم الكلام ومدارسه ص١٧٢-١٧٣ .

(٤) أبو الحسين الخياط : هو عبد الرحيم بن محمد بن عثمان ، شيخ المعتزلة البغدادية ، من نظراء الجبائى ، وله مكانة عند المعتزلة .
من آثاره : كتاب الاستدلال ، كتاب الانتصار .
انظـر : الأنساب ٢٥٠/٥ ، الفرق بين الفرق ص١٧٩-١٨٠ ، تاريخ بغـداد ٨٧/١١ ، سير أعلام النبلاء ٢٢٠/١٤ ، لسان الميزان ٨/٤-٩ .

(٥) كتاب الانتصار ص٤٣ .

وقد فتحوا بذلك باب شر عظيم على أمة الإسلام دخل من خلاله جحافل من أبناء المسلمين ، انغمس الكثير منهم فى بحور الفلسفة ولم يفلت منهم إلا القليل .

يقول دكتور خفاجى :

"ماتميزت به المعتزلة على غيرها من الفرق الكلامية مما أثارت من مسائل وبسطت من شرح ووضعت من أصول ، وكان المنفذ الأول الذى دخل منه فلاسفة المسلمين إلى الفلسفة اليونانية ، لأن المعتزلة أول من استعان بالفلسفة اليونانية"(١).

ونتيجة لذلك تكونت عقائد ، ونشأت مناهج ، وظهرت إلى السطح أقوال وآراء ، وكثر الجدل ، وتشعبت السبل بسالكيها .

(أ) زعمهم أن العقل هو أول الأدلة وتقديمه على الكتاب والسنة :

زعم مخالف لما دل عليه الكتاب والسنة ، وماكان عليه سلف الأمة رحمهم الله .

قال تعالى : {ياأيها الذين آمنوا لاتقدموا بين يدى الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم}(٢).

وقال سبحانه : {وماكان لمؤمن ولامؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا}(٣).

فكيف يؤخر ماأمر الله بتقديمه ، ويقدم مامن شأنه التأخير ، بل الكتاب والسنة لهما الحكم المطلق على سواهما ، وسواهما لاحكم له عليهما بل هو تابع لهما .

---

(١) فى العقيدة الإسلامية ص٣٨ .
(٢) سورة الحجرات : آية ١
(٣) سورة الأحزاب : آية ٣٦

قال الإمام الشاطبي رحمه الله :

"هنالك أمران مما يقتضيهما العاقل :

أحدهما : أن لايجعل العقل حاكما باطلاق ، وقد ثبت عليه حاكم باطلاق وهو الشرع ، بل الواجب عليه أن يقدم ماحقه التقديم - وهو الشرع - ويؤخر ماحقه التأخير - وهو نظر العقل - لأنه لايصح تقديم الناقص حاكما على الكامل ، لأنه خلاف المعقول والمنقول ، بل ضد القضية هو الموافق للأدلة فلامعدل عنه ، ولذلك قال : اجعل الشرع في يمينك والعقل في يسارك ، تنبيها على تقدم الشرع على العقل .

والثاني : أنه إذا وجد في الشرع أخبار تقتضي ظاهراً خرق العادة الجارية المعتادة ، فلاينبغي له أن يقدم بين يديه الإنكار باطلاق"(١).

والسلف رحمهم الله لم يستعيضوا نصوص الوحي بغيرها ، ولم يقدموا عليها سواها ، ولم يطلقوا لعقولهم الأعنة لتنتهك حرمة النصوص ، بل وقفوا بها عند الحد الذى حده الله لها ، والقيد الذى قيده بها ، فلامجاوزة لحدودها ولاقصور بها عن موضعها ، فأعملوها حيث جاز لها أن تعمل ، وأوقفوها حيث حق لها أن تقف ، فلاإفراط ولاتفريط .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله في معرض رده على الفلاسفة والمتكلمين:

"وأما السلف والأئمة فكانوا في ذلك من العدل والاستقامة وموافقة المعقول الصريح والمنقول الصحيح بحال آخر ، فالعصمة وإن كانت شاملة لجماعتهم فآحادهم مع ذلك لايجترؤون في مخالفة النصوص المشهورة والمعقولات المعروفة على مايجترىء عليه هؤلاء المسفسطون(٢)، وكانوا

---

(١) الاعتصام ٣٢٦/٢-٣٢٧ .

(٢) المسفسطون : أو "السوفسطائية" :

وهم الذين ينسبون إلى السفسطة ، وهى كلمة يونانية تعنى عند الفلاسفة الحكمة المموهة ، وعند المنطقيين القياس المركب من الوهميات ، والغرض منه تغليط الخصم واسكاته . وقد صارت هذه الكلمة ينسب إليها كل من ركب شبها من الباطل يريد أن يدحض بها الحق .

انظر : المعجم الفلسفي ٦٥٨/١-٦٦٠ ، إحصاء العلوم ص٢٤ ، مفاتيح العلوم ص٩١ التعريفات للجرجاني ، مادة (سفسطة) ص١٥٨ .

يستعملون القياس العقلي(١) على النحو الذى ورد به القرآن فى الأمثال التى ضربها الله تعالى للناس ، فإن الله ضرب للناس فى القرآن من كل مثل ، وبين الأقيسة العقلية المقبولة بالعقل الصريح من المطالب الإلهية والمقاصد الربانية مالاتصل إليه آراء هؤلاء المتكلمين فى المسائل"(٢).

فهذا هو الانصاف والعدل من دلالة العقل ، وهو الموقف الوسط الذى لاإجحاف فيه ولاغلو ، فأين موقف طائفة أهل الاعتزال من هذاالموقف فانهم يقفون على النقيض منه ، فلاسلطان عندهم يكبح جماح عقولهم التى أطلقوا لها القياد لتعصف بنصوص الوحي ، منتهكة لحرمتها ، عابثة بقدسيتها ونائلة من شرفها ورفعتها ، فكم من آية أولوها ، وكم من حديث صحيح ردوه ، وإن سلم من الرد ووجه بسلاح التأويل الذى هو تحريف وتعطيل .

ويمكن أن نرد على هؤلاء المعتزلة فى تقديمهم لحجية العقل على النصوص ، وإخضاع النصوص له بأمور نجملها فيما يأتى :

(١) العقل الصريح لايمكنه أن يناقض نصا صحيحاً ، لأن العقل متى ماكان سليما معافى أذعن لسلطان النصوص وخضع لأدلة الوحى ، وتجرد من الكبر والغرور لعلمه بأن نصوص الوحي معصومة عن الخطأ ، محفوظة بحفظ الله لها ، كما قال تعالى : {إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون}(٣).

---

(١) القياس العقلي :
القياس فى اللغة هو : رد الشىء إلى نظيره .
وهو نوعان عقلي وشرعي .
قال شيخ الإسلام ابن تيمية :
"فإن القياس عند أصحابنا والجمهور ينقسم إلى : عقلي وهو مايكتفي فيه بالعقل . وإلى شرعي وهو مالابد فيه من أصل معلوم بالشرع" . مجموع الفتاوى ٩/٢٥٩ .
والقياس العقلي هو الذى يسمونه بالمنطقي وهو : قول مؤلف من أقوال إذا وضعت لزم عنها بذاتها قول آخر غيرهااضطرارا .
انظر : التعريفات ص٩٦ ، المعجم الفلسفي ٢/٢٠٧-٢١١ .

(٢) بيان تلبيس الجهمية ١/٣٢٦-٣٢٧ .

(٣) سورة الحجر : آية ٩

(٢) العقل عاجز عن إدراك كثير من الحقائق بل عاجز عن إدراك حقيقة نفسه لضعفه وقصوره فكيف يجعل حكما على الوحي الكامل الذى جاء من عند الله سبحانه وتعالى الذى لاتخفى عليه خافية ولاتغيب عنه غائبة ، وصدق الله إذ يقول : {وعنده مفاتح الغيب لايعلمها إلا هو ويعلم مافى البر والبحر وماتسقط من ورقة إلا يعلمها ولاحبة فى ظلمات الأرض ولارطب ولايابس إلا فى كتاب مبين}(١).

وقال عن هذا الإنسان الضعيف : {ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وماأوتيتم من العلم إلا قليلاً}(٢)، والآية فيها مثال قوى لبيان عجز العقل وضعفه . فهذه الروح التى هى مادة الحياة فى الأجساد وهى مخلوقة لله سبحانه ، هل استطاع العقل أن يدرك كنهها أو حقيقتها؟ إنه عاجز عن كل ذلك فكيف يجعل أصلا لشرع تقوم عليه سعادة الدنيا والآخرة؟

(٣) العقول مختلفة متباينة فى إدراكاتها وفهمها فما هو العقل الأمثل الذى يمكن أن يختار من بينها ليحكم على النصوص؟

وهل بامكان طائفة المعتزلة أن تنتخب لنا من أساطينها من يكون عقله فى منزلة من الكمال والنضوج حتى تخضع له نصوص الوحي؟ بل بان ضعف عقولهم جلياً فى تناقضهم وكثرة اختلافهم فى أمور هى من أظهر وأبرز مايكون ، قال شيخ الإسلام رحمه الله :

"المتكلمون والفلاسفة كلهم على اختلاف مقالاتهم هم فى قياس الغائب على الشاهد مضطربون كل منهم يستعمله فيما يثبته ، ويرد على منازعه مااستعمله فى ذلك، وإن كان قد استعمل هو فى موضع آخر ماهو دونه ، وسبب ذلك أنهم لم يمشوا على صراط مستقيم ، بل صار قبوله ورده هو بحسب القول لابحسب مايستحقه القياس العقلي ، كما نجدهم أيضا فى

(١) سورة الأنعام : آية ٥٩
(٢) سورة الإسراء : آية ٨٥

النصوص النبوية كل منهم يقبل منهاماوافق قوله ويرد منها ماخالف قوله ، وإن كان المردود من الأخبار المقبولة باتفاق أهل العلم بالحديث ، والذى قبله من الأحاديث المكذوبة باتفاق أهل العلم والحديث . فحالهم فى الأقيسةالعقلية كحالهم فى النصوص السمعية لهم فى ذلك من التناقض والاضطراب مالايحصيه إلا رب الأرباب"(١).

(٤) مايدعيه هؤلاء من عقليات مخالفة للنصوص لاحقيقة لها عند الاعتبار الصحيح ، بل هى أوهام وخيالات عارية من الصواب .

بل إذا أعطى النظر فى المعقولات حقه من التمام وجدها براهين ناطقة بصدق ماأخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومن نفى فإنما نفى لجهله بحقيقة الأمر وعجزه عن إدراك الحق الجلى البين(٢).

(ب) قولهم بأن حجة العقل أو إعماله هو أول الواجبات التى أوجبها الله على العباد ، وهو مايعرف بالنظر قول عار عن الصحة ولايسنده دليل بل الدليل بخلافه .

فقد عقد الإمام البيهقى رحمه الله فى كتابه "الاعتقاد" بابا قال فيه : "باب أول مايجب على العاقل البالغ معرفته والاقرار به" ، ثم ساق الأدلة التى تدل على أن أول واجب على العبد هو معرفة الله معرفة حقة والإقرار به وهو توحيد الله عز وجل فذكر قوله تعالى : {فاعلم أنه لاإله إلا الله}(٣) وقوله : {فاعلمواأن الله مولاكم}(٤)، وقوله : {فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لاإله إلا هو فهل أنتم مسلمون}(٥)، وقوله : {قولوا آمنا بالله وماأنزل إلينا} الآية(٦).

---

(١) بيان تلبيس الجهمية ٣٢٦/١ .

(٢) انظر المرجع السابق ٦٢٩/١ .

(٣) سورة محمد : آية ١٩

(٤) سورة الأنفال : آية ٤٠

(٥) سورة هود : آية ١٤

(٦) سورة البقرة : آية ١٣٦

ثم قال : "فوجب بالآيات قبلها معرفة الله تعالى وعلمه ، ووجب بهذه الآية الاعتراف به والشهادة له بما عرفه ، ودلت السنة على مثل مادل عليه الكتاب" .

ثم ساق بسنده إلى أبى هريرة وجابر قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لاإله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله عز وجل"(١)، ومن حديث أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : "ياأبا هريرة ـ وأعطاني نعليه ـ اذهب بنعلي هاتين فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لاإله إلا الله مستيقنا بها قلبه فبشره بالجنة"(٢). ومن حديث عثمان بن عفان قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "من مات وهو يعلم أن لاإله إلا الله دخل الجنة"(٣)، ومن حديث معاذ بن جبل أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "من كان آخر كلامه لاإله إلا الله وجبت له الجنة"(٤).

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه ، بلفظ مقارب من حديث ابن عمر رضى الله عنهما . كتاب الإيمان (٢) ، باب فإن تابوا وأقاموا الصلاة (١٧) ، ١/١١-١٢ ومن حديث أنس بن مالك . كتاب الصلاة (٨) ، باب فضل استقبال القبلة (٢٨) ، ١/١٠٢-١٠٣ . ومن حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه معلقا ، كتاب الاعتصام (٩٦) ، باب قول الله تعالى {وأمرهم شورى بينهم} (٢٨) ، ٤/١٦٢ . وأخرجه مسلم فى صحيحه بألفاظ مقاربة من حديث عمر بن الخطاب برقم (٢٠) ، وأبى هريرة برقم (٢١) ، وجابر بن عبد الله ، وعبد الله بن عمر برقم (٢٢) ، كتاب الإيمان (١) ، باب الأمر بقتال الناس (٨) ، ١/٥١-٥٣ .

(٢) جزء من حديث أخرجه مسلم فى صحيحه ، كتاب الإيمان (١) ، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعا (١٠) برقم (٣١) ، ١/٥٩-٦١ .

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه فى الكتاب والباب السابقين برقم (٤٣) ، ١/٥٥ .

(٤) أخرجه أحمد فى مسنده ٥/٢٣٣،٢٤٧ .

وأخرجه أبو داود فى سننه ولفظه : "من كان آخر كلامه لاإله إلا الله دخل الجنة" . فى كتاب الجنائز ، باب فى التلقين برقم ٣١١٦ ، ٣/١٩٠ .

وقال الشيخ ناصر الدين الألبانى : صحيح . صحيح سنن أبى داود ٢/٦٠٢ .

ثم قال رحمه الله : "وفى الحديث الأول بيان مايجب على المدعوأن يأتى به حتى يحقن به دمه ، وفى الحديث الثانى بيان مايجب عليه من الجمع بين معرفة القلب والإقرار باللسان مع الإمكان حتى يصح إيمانه ، وفى الخبر الثالث والرابع شرط الوفاة على الإيمان حتى يستحق دخول الجنان ، بوعد الله تعالى جده"(١).

فهذه الأدلة التى ساقها رحمه الله تدل دلالة واضحة على أن أول مايجب على المكلف توحيد الله تعالى لاالنظر ولاالدعوة إليه . إذ إن التوحيد هو الذى يدخل به الإنسان الإسلام وذلك بنطقه بالشهادتين . والله لايقبل من أحد عملا مالم يحقق التوحيد كما قال تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم {ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين}(٢)

وقد حرم الله الجنة على من أخفق فى تحقيق توحيد ربه فقال تعالى : {إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار ومالظالمين من أنصار}(٣). ولذا أوصد باب التوبةومغفرة الذنوب أمام من انخرم توحيده فقال : {إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء}(٤). ولما كان التوحيد بهذه المثابة من الأهمية بدأرسل الله عليهم السلام أقوامهم فى أول مابدأوا بالدعوة إليه ، فقال تعالى فى شأن نوح عليه السلام : {لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم}(٥). وفى شأن هود عليه السلام : {وإلى عاد أخاهم هوداً قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون}(٦). وهكذا

---

(١) الاعتقاد ص١٩-٢١ .

(٢) سورة الزمر : آية ٦٥

(٣) سورة المائدة : آية ٧٢

(٤) سورة النساء : آية ١١٦،٤٨

(٥) سورة الأعراف : آية ٥٩

(٦) السورة نفسها : آية ٦٥

عن صالح وعن شعيب عليهما السلام ، بل كل الرسل ساروا فى قومهم بهذه الدعوة كما قال تعالى : {ولقد بعثنا فى كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت}(١). وقال : {وماأرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لاإله إلا أنا فاعبدون}(٢).

وقال صلى الله عليه وسلم لمعاذ عندما بعثه إلى اليمن : "يامعاذ إنك تأتى قوما من أهل الكتاب فليكن أول ماتدعوهم إليه أن يوحدوا الله" الحديث(٣).

فتبين من هذا أن التوحيد هو أول مايجب على المكلف وأن الدعوة اليه أول مايجب على الدعاة إلى الله .

وهذا التوحيد لايعرف إلا من جهة الرسل عليهم السلام ، أما العقول فلامجال لها فى معرفته كما تدعى طائفة أهل الاعتزال .

قال الإمام اللالكائى رحمه الله : "سياق مايدل من كتاب الله عز وجل وماروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن وجوب معرفة الله تعالى وصفاته بالسمع لابالعقل" . ثم ذكر قوله تعالى : {فاعلم أنه لاإله إلا الله}(٤). وقوله : {اتبع ماأوحى إليك من ربك لاإله إلا هو وأعرض عن

---

(١) سورة النحل : آية ٣٦

(٢) سورة الأنبياء : آية ٢٥

وانظر : فتح المجيد ص١٦،١٧ ، تيسير العزيز الحميد ص٣٦،٣٧ .

(٣) أخرجه البخارى بألفاظ مقاربة فى كتاب الزكاة (٢٤) ، باب وجوب الزكاة (١) ، ١٠٨/٢ ، وفى باب لاتؤخذ كرائم أموال الناس فى الصدقة (٤١) ، ١٢٥/٢ . وفى باب أخذ الصدقة من الأغنياء (٦٣) ، ١٣٦/٢ . وفى كتاب المغازى (٦٤) ، باب بعث أبى موسى ومعاذ إلى اليمن (٦٠) ، ١٠٩/٥ . وفى كتاب التوحيد (٩٧) ، باب ماجاء فى دعاء النبى صلى الله عليه وسلم أمته إلى توحيد الله (١) ، ١٦٤/٨ . وأخرجه مسلم فى صحيحه بألفاظ مقاربة فى كتاب الإيمان (١) ، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام (٧) برقم (١٩) ، ٥٠/١-٥١ .

(٤) سورة محمد : آية ١٩

المشركين}(١). وقوله تعالى : {وماأرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لاإله إلا أنا فاعبدون}(٢).

ثم قال رحمه الله : "فأخبر الله نبيه صلى الله عليه وسلم فى هذه الآية أن بالسمع والوحى عرف الأنبياء قبله التوحيد"(٣).

وقال السفارينى رحمه الله :

"فإن الله تعالى خلق العقول وأعطاها قوة الفكر وجعل لها حداً تقف عنده من حيث ماهى مفكرة لامن حيث ماهى قابلة للوهب الإلهى ، فإذا استعملت العقول أفكارها فيما هو فى طورها وحدها ووفت النظر حقه أصابت باذن الله تعالى ، وإذا سلطت الأفكار على ماهو خارج عن طورها ووراء حدها الذى حده الله لها ركبت متن عمياء ، وخبطت خبط عشواء ، فلم يثبت لها قدم ولم ترتكز على أمر تطمئن إليه ، فإن معرفة الله تعالى وراء طورها ، مما لاتستقل العقول بإدراكها من طريق الفكر وترتيب المقدمات ، وإنما تدرك ذلك بنور النبوة وولاية المتابعة ، فهو اختصاص إلهى يختص به الأنبياء وأهل وراثتهم مع حسن المتابعة وتصفية القلب من وضر(٤)البدع ، والفكر من نزغات الفلسفة والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

... ومما يوضح ذلك أن العقول لو كانت مستقلة بمعرفة الحق وأحكامه لكانت الحجة قائمة على الناس قبل بعث الرسل وإنزال الكتب ،

---

(١) سورة الأنعام : آية ١٠٦

(٢) سورة الأنبياء : آية ٢٥

(٣) شرح أصول إعتقاد أهل السنة ١/١٩٣-١٩٥ .

(٤) وضر :
قال صاحب القاموس : "الوضر ، محركة : وسخ الدسم واللبن ، أو غسالة السقاء والقصعة ونحوهما" .
القاموس المحيط ص٦٣٣-٦٣٤ .

واللازم باطل بالنص . قال تعالى : {وماكنا معذبين حتى نبعث رسولا}(١). وقال تعالى : {ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى}(٢)، فكذا الملزوم ، فلما بعث الله الرسل وأنزل الكتب وجبت.لله على الخلق الحجة البالغة وانقطعت علقة الاعتذار"(٣).

فمن أين للعقول أن تعرف مايجب لله من أنواع العبادات التى يتم بها توحيده سبحانه؟ ومن أين لها أن تتعرف على أسمائه الحسنى وصفاته العليا لتصفه بها؟ بل هذا باب مغلق وطريق مسدود لايلجه إلا أنبياء الله الذين يوحى إليهم من قبل الله سبحانه .

وأما معرفة ربوبية الله تعالى على العباد ، والإقرار بالصانع الذى يتعب أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم فى حشد الأدلة للوصول إليه ، وإجهاد العقول وكد الأذهان للدلالة عليه ، فهو أمر فطرى فطر الله عليه القلوب والنفوس فهو لايحتاج إلى دليل لأنه مركوز فى الفطر ، مستقر فى القلوب(٤).

والأدلة على ذلك شاهدة من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . من ذلك :

قوله تعالى :{وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين} الآية(٥).

---

(١) سورة الإسراء : آية ١٥

(٢) سورة طه : آية ١٣٤

(٣) لوامع الأنوار ١٠٥/١ .

(٤) انظر : مجموع الفتاوى ٤٨/١ ، ١٦،٦/٢ ، موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول ١٣٥،١٣٤/٢ ، شرح العقيدة الطحاوية ص٢٤٥ .

(٥) سورة الأعراف : آية ١٧٢

فقد أخرج الله ذرية بنى آدم من ظهورهم وأشهدهم على أنفسهم على أنه ربهم ومليكهم فأقروا بذلك ، وقد وردت أحاديث تدل أيضا على أن الله استخرج من صلب آدم ذريته وهم فى عالم الذر فأقروا بربوبية الله تعالى . من ذلك مارواه ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنعمان(١) يعنى عرفة ، فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرهم بين يديه كالذر ثم كلمهم قبلا(٢)، قال : "ألست بربكم؟ قالوا : بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين" أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون"(٣)(٤).

ومن الأدلة قوله تعالى :

{فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لايعلمون}(٥)

---

(١) نعمان : واد بين مكة والطائف . وقيل واد لهذيل على ليلتين من عرفات . انظر : معجم البلدان ٥/٢٩٣ .

(٢) قبلا : أى خاطبهم عيانا ومقابلة لامن وراء حجاب .
انظر : النهاية فى غريب الحديث والأثر ٤/٨ .

(٣) سورة الأعراف : آية ١٧٢،١٧٣

(٤) أخرجه أحمد فى المسند ١/٢٧٢ .
قال الهيثمى : "ورجاله رجال الصحيح" . مجمع الزوائد ٧/٢٥ .
وقال الشيخ أحمد محمد شاكر : "إسناده صحيح". مسند أحمد بتحقيق أحمد محمد شاكر ٤/١٥١ .
ورواه الحاكم فى المستدرك بلفظ مقارب . وقال : "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه" . ووافقه الذهبى ٢/٥٤٤ .
وذكره الشيخ ناصر الدين الألبانى فى سلسلة الأحاديث الصحيحة ٤/١٥٨ ، وأورد له مجموعة من الطرق والشواهد ، وحكم بصحته ، بل قال : "هو متواتر المعنى" . ٤/١٦٢ .
وذكره جماعة من المفسرين عند تفسير الآيات السابقة . انظر : تفسير ابن كثير ٢/٢٦١،٢٦٢ .

(٥) سورة الروم : آية ٣٠

روى البخارى بسنده إلى أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال "مامن مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء؟" . ثم يقول أبو هريرة رضى الله عنه :"فطرة الله التى فطر الناس عليها". الآية (١).

وروى مسلم بسنده إلى عياض بن حمار المجاشعى ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم فى خطبته : "ألا إن ربى أمرنى أن أعلمكم ماجهلتم مما علمنى يومى هذا . كل مال نحلته عبدا ، حلال . وإنى خلقت عبادى حنفاء كلهم . وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ماأحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بى مالم أنزل به سلطانا ..." الحديث (٢).

---

(١) صحيح البخارى ، كتاب الجنائز (٢٣) ، باب اذا أسلم الصبى فمات هل يصلى عليه (٨٠) ، ٩٨،٩٧/٢ .
وبلفظ مقارب : فى باب ماقيل فى أولاد المشركين (٩٣) ، ١٠٤/٢ ، وفى كتاب التفسير (٦٥) ، باب تفسير سورة الروم (٣٠) ، ٢٠/٦ ، وفى كتاب القدر (٨٢) ، باب الله أعلم بما كانوا عاملين (٣) ، ٢١١/٧ .
وأخرجه مسلم فى صحيحه بألفاظ مقاربة فى كتاب القدر (٤٦) ، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة (٦) برقم ٢٦٥٨ ، ٢٠٤٧/٤-٢٠٤٩ .
قال النووى :
"وأما قوله صلى الله عليه وسلم "كما تنتج البهيمة بهيمة" فهو بضم التاء الأولى وفتح الثانية ، ورفع البهيمة ونصب بهيمة ، ومعناه : كما تلد البهيمة بهيمة (جمعاء) بالمد أى مجتمعة الأعضاء سليمة من نقص لاتوجد فيها جدعاء - بالمد - وهى مقطوعة الأذن أو غيرها من الأعضاء . ومعناه : أن البهيمة تلد البهيمة كاملة الأعضاء لانقص فيها ، وإنما يحدث فيها الجدع والنقص بعد ولادتها" . شرح النووى على مسلم ٢٠٨/١٦-٢٠٩ .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٥١) ، باب الصفات التى يعرف بها فى الدنيا أهل الجنة وأهل النار (١٦) برقم ٢٨٦٥ ، ٢١٩٧/٤-٢١٩٨ .
وحنفاء : جمع حنيف وهو المائل إلى الإسلام . وهو عند العرب من كان على دين إبراهيم عليه السلام . والمعنى خلقهم طاهرى الأعضاء من المعاصى ، أو أنهم مؤمنين ومقرين بربوبية الله تعالى . انظر : النهاية فى غريب الحديث ٤٥١/١ . =

والإقرار بربوبية الله ، وبالصانع لاينجى صاحبه من عذاب الله ، ولايكفى للإيمان بالله سبحانه. وهو الذى يحرص أصحاب الكلام من المعتزلة وغيرهم إلى معرفته والإقرار به ، فقد أخبرنا ربنا سبحانه أن المشركين الذين بعث فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وناهضوه العداء وأخرجوه من أرضه وحاربوه فقتل منهم من قتل وأسر من أسر كانوا مقرين بهذا النوع من التوحيد ومع ذلك لم يشفع لهم عند ربهم ، كما قال سبحانه مبينا اعترافهم بربوبيته : {قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون . فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون}(١)

وقال تعالى : {قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون . سيقولون لله قل أفلاتذكرون . قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم . سيقولون لله قل أفلا تتقون . قل من بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولايجار عليه إن كنتم تعلمون . سيقولون لله قل فأنى تسحرون}(٢)

فهم أقروا بالله الخالق الرازق المحيي المميت المدبر لأمر الكون ، وإنما أتوا من اتخاذهم الوسائط بينهم وبين الله وصرفوا لها العبادات التى لاتجوز إلا لله سبحانه ، كما قال تعالى مبينا قولهم فى ذلك : {مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى}(٣).

فهذاهو التوحيد الذى يسعى المعتزلة إلى الإقرار به وسلوك الطرق المتشعبة التى لاتخلو من الخلل والطول وكثرة التعب للوصول إليه(٤).

= واجتالتهم الشياطين : أى استخفتهم فجالوا معها فى الضلال .
المرجع السابق ٣١٧/١ .

(١) سورةيونس : آية ٣١-٣٢

(٢) سورة المؤمنون : آية ٨٤-٨٩

(٣) سورة الزمر : آية ٣

(٤) انظر موافقة صحيح المنقول ١٣٥/٢ .

وأمـا التوحيد الذى علمه السلف الصالح رضوان اللـه عليهم وحدوه وبينـوه ، فهو علم العبد واعترافـه واعتقاده ، وإيمانه بتفـرد الـرب بكل صفة كمـال وتوحيـده فى ذلـك ، واعتقـاده أنه لاشـريك لـه فى كمـاله وأنه ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين(١).

وهو الشامل لأنواعه الثلاثة : الربوبية والألوهيـة والأسماء والصفات وهـو الذى دعت إليه الرسل عليهم السلام ، وأوضحتـه كتب الله المنزلة .

(٢) أمـا الحديث عـن أصـول أهـل الاعتزال الخمسـة التى وضعـوها بإزاء أصول دين الإسلام الخمسة وهى الإيمان بالله وملائكتـه وكتبه ورسله واليـوم الآخر ، وهـدموا بهـا كثيراً مـن دين الإسلام فهـى أصـول مبتدعة(٢) لم تبن على كتاب الله ولاسنة رسوله صلى اللـه عليه وسلم ، وإنما بنيـت على مقاييس عقلية فاسدة ومقدمات منطقية تستلزم رد كثير مما جاء به كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم(٣). ولهذا لما سلـك المعتزلـة الطـرق الفـاسدة والأقيسـة العقليـة المعـوجة التى يعلم بالاضطـرار أن رسـول الله صلى اللـه عليه وسلم لم يدع النـاس بهـا ، فلمـا سلكوها فى بيان أصـول الدين التزموا لأجلهـا كثيراً مـن اللوازم الفـاسدة كنفى صفات الرب سبحانه ، والقول بخلـق القرآن ، وإنكار رؤية الله تعالى ، إلى غير ذلك مما التزموه(٤).

يقول شيخ الإسلام رحمه الله فى معرض حديثه عن طرق المعتزلة التى يثبتون بها أصولهم :

"وهـذه الطـرق فيهـا فساد كثير مـن جهـة الوسائل ، والمقـاصد . أمـا المقاصد فإن حاصلها بعد التعب الكثير والسلامة خير قليـل ، فهى لحم جمل

---

(١) الكواشف الجلية ص٤١٧ .

(٢) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص٢٩٩ .

(٣) انظر : مجموع الفتاوى ٨/٢ .

(٤) انظر : موافقة صحيح المنقول ٥١/١-٥٣ .

غث ، على رأس جبل وعر ، لاسهل فيرتقى ، ولاسمين فينتقل . ثم إنه يفوت بها من المقاصد الواجبة والمحمودة مالاينضبط هنا .

وأما الوسائل : فإن هذه الطرق كثيرة المقدمات ، ينقطع السالكون فيها كثيراً قبل الوصول ، ومقدماتها فى الغالب إما مشتبهة يقع النزاع فيها ، وإما خفية لايدركها إلا الأذكياء . ولهذا لايتفق منهم اثنان ... على جميع مقدمات دليل إلا نادراً . فكل رئيس من رؤساء الفلاسفة ، والمتكلمين له طريقة فى الاستدلال ، تخالف طريقة الرئيس الآخر ، بحيث يقدح كل من أتباع أحدهما فى طريقة الآخر ، ويعتقد كل منهما أن الله لايعرف إلا بطريقته ، وإن كان جمهور أهل الملة ، بل عامة السلف يخالفونه فيها"(١).

والعجب من هؤلاء المبتدعة الذين يبتدعون فى دين الله ماليس منه ، ثم يجعلونماابتدعوه أصول الدين ، ثم يلزمون الناس بالتزامها، ويوالون ويعادون عليها ، بل ويكفرون من خالفهم فيما ابتدعوه(٢).

بل والعجب من هؤلاء الذين يتكلمون فى أصول الدين وهم لايتلقون ذلك من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، أترى الله سبحانه يترك أصول دينه التى يقوم عليها بنيان الإسلام وينبنى عليها صرحه ، ويدع ذلك رسوله صلى الله عليه وسلم فلايبينها للناس حتى يأتى أهل الاعتزال ليشرعوا للناس دينا ماأنزل الله به من سلطان ، وأصولا ليس عليها دليل ولابرهان ، ويزعموا أنها أصول الدين الذى شرعه الله لرسوله صلى الله عليه وسلم . سبحانك هذا بهتان عظيم . بل كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم بينا أصول الدين وفروعه أتم بيان وأوضحا ذلك أكمل توضيح بحيث لم يدعا لأحد منفذاً ينفذ من خلاله ليبتدع فى دين الله ماليس منه .

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٢/٢ .

(٢) انظر موافقة صحيح المنقول ٢٠٥/١ .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله :

"وذلك أن أصول الدين إما أن تكون مسائل يجب اعتقادها قولا ، أو قولا وعملا كمسائل التوحيد ، والصفات ، والقدر ، والنبوة ، والمعاد . أو دلائل هذه المسائل .

... فكل مايحتاج الناس إلى معرفته ، واعتقاده ، والتصديق به من هذه المسائل قد بينه الله ورسوله بياناً شافياً قاطعاً للعذر . إذ هذا من أعظم مابلغه الرسول البلاغ المبين ، وبينه للناس ، وهو من أعظم ماأقام الله به الحجة على عباده فيه بالرسل الذين بينوه وبلغوه . وكتاب الله الذى نقل الصحابة ثم التابعون عن الرسول لفظه ومعانيه ، والحكمة التى هى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم التى نقلوها أيضا عن الرسول مشتملة من ذلك على غاية المراد ، وتمام الواجب ، والمستحب"(١).

قال : "وأما مايدخله بعض الناس فى هذا المسمى من الباطل فليس ذلك من أصول الدين ، وإن أدخله فيه مثل المسائل والدلائل الفاسدة مثل نفى الصفات ، والقدر ، ونحو ذلك من المسائل"(٢).

وقال رحمه الله :

"وإذا عرف أن مسمى أصول الدين فى عرف الناطقين بهذا الاسم فيه إجمال وإيهام - لما فيه من الاشتراك بحسب الأوضاع والاصطلاحات - تبين أن الذى هو عند الله ورسوله وعباده المؤمنين أصول الدين فهو موروث عن الرسول ، وأما من شرع دينا لم يأذن به الله فمعلوم أن أصوله المستلزمة له لايجوز أن تكون منقولة عن النبى صلى الله عليه وسلم إذ هو

---

(١) مجموع الفتاوى ٣/٢٩٥ ، وانظر موافقة صحيح المنقول ١/٤٣ .

(٢) مجموع الفتاوى ٢/٣٠٣ .

باطل وملزوم الباطل باطل كما أن لازم الحق حق"(١).

وقد بين صلى الله عليه وسلم أصول دين الإسلام فى حديث جبريل عليه السلام عندما سأله عن الإسلام والإيمان والإحسان فبين رسول الله صلى الله عليه وسلم أركان الإسلام وأركان الإيمان وركن الإحسان(٢).

بعد هذا يتبين لنا أن المعتزلة بابتداعهم أصول دين لم يعرفها سلف الأمة الأخيار بل علموا نقيضها ، ارتكبوا عظائم أربع :

أولها : ردهم النصوص .

الثانى : ردهم مايوافق النصوص من معقول العقلاء .

الثالث : جعل ماخالف ذلك من أقوالهم المجملة أو الباطلة هى أصول الدين .

الرابع : تكفيرهم ، أو تفسيقهم ، أو تخطئتهم لمن خالف هذه الأقوال المبتدعة المخالفة لصحيح المنقول وصريح المعقول(٣).

---

(١) المرجع نفسه ٣/٣٠٥-٣٠٦ .
وانظر فى بيان الله ورسوله لأصول دين الإسلام : بيان تلبيس الجهمية ١/١٠١،٢٤٦ موافقة صحيح المنقول ١/٥١-٥٣،١٧٩-١٨٠ ، شرح العقيدة الطحاوية ص١٩٥-١٩٦ الرياض الناضرة ص١٧٩-١٨٠ .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه من حديث أبى هريرة كتاب الإيمان (٢) ، باب سؤال جبريل النبى صلى الله عليه وسلم عن الإيمان والإسلام والإحسان (٣٧) ، ١/١٨ ، وفى كتاب التفسير (٦٥) ، تفسير سورة لقمان (٣١) ، باب قوله "إن الله عنده علم الساعة" (٢) ، ٦/٢٠-٢١ .
وأخرجه مسلم فى صحيحه من حديث عمر بن الخطاب برقم (٨) ، ومن حديث أبى هريرة برقم (٩) ، كتاب الإيمان (١) ، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان (١) ، ١/٣٦-٤٠ .

(٣) انظر : موافقة صحيح المنقول ١/٢٠٦ .

الفصل الثانى
موقفهم من الحديث المتواتر وحديث الآحاد .

١ ـ ذم تعلم الحديث وأهله :

لقد ذم أهل الاعتزال من تعلم الحديث ، وحذروا من تعلمه وقللوا من فائدته والاستدلال به ، ونصوا على أنه لاحاجة إليه ، إذ العقول تغنى عنه والأذهان تكتفى بغيره .

ويستدل عبد الجبار على ذلك بإيراده أقوال بعض أهل الحديث التى يزعم أنها تبين كراهيتهم لطلبه ، وذمهم لمن أكثر منه .

فنقل عن شعبة (١) أنه قال : "ماأنا من شىء أخوف منى أن يدخلنى النار من الحديث" .

وعن أبى إسحاق الفزارى (٢) قال : "كتبت إلى سفيان الثورى إياك والحديث" .

وذكر أن الواحد من أصحاب الحديث يحب الاستكثار من طريق حديث واحد ، ولايكون فيه كبير فائدة ، إلا تخيير الزيادات فيه .

ثم علل ماسبق من نقول فقال :

---

(١) شعبة :
هو شعبة بن الحجاج بن الورد العتكى مولاهم ، أبو بسطام الواسطى ، ثم البصرى ، ثقة ، حافظ متقن ، أول من فتش بالعراق عن الرجال ، وذب عن السنة . وكان عابداً . مات سنة ١٦٠هـ .
انظر : التاريخ الكبير ٢٤٤/٤-٢٤٥ ، الجرح والتعديل ٣٦٩/٤ ، تاريخ بغداد ٢٥٥/٩-٢٦٦ ، الكاشف ١١/٢ ، تذكرة الحفاظ ١٩٣/١-١٩٧ ، سير أعلام النبلاء ٢٠٢/٧-٢٢٨ ، تهذيب التهذيب ٣٣٨/٤-٣٤٦ ، تقريب التهذيب ٣٥١/١ .

(٢) أبو إسحاق الفزارى :
هو إبراهيم بن محمد بن الحارث بن أسماء ، الفزارى ، الإمام ، أبو إسحاق ، ثقة حافظ . له تصانيف . مات سنة ١٨٥هـ وقيل بعدها .
انظر : تذكرة الحفاظ ٢٧٣/١ ، سير أعلام النبلاء ٥٣٩/٨-٥٤٣ ، تهذيب التهذيب ١٥١/١ ، تقريب التهذيب ٤١/١ .

"يحمل ماروى عن شعبة وغيره من ذم أصحاب الحديث ، لفساد طريقتهم وقلة تمييزهم" .

وذكر أن المعتزلة لم يشتهروا بالفقه والحديث لأنهم توفروا على ماعندهم ، وهو أجدى فى الدين من طلب الفقه والحديث .

ثم ذيل على ذلك بقوله :

"الحديث بمنزلة سائر مايجب أن يتحرز الإنسان فيه ، لأن من حدث عن غيره بما لايعلم أنه قد سمع منه ، إما على جملة أو تفصيل فهو مقدم على قبيح لايحل منه ذلك ، كما لايحل منه لو علمه كذبا ، فمن يشتد تحرزه ، يرى أن ذلك لو وجب لكان من فروض الكفايات والسعيد فيه قد كفى بغيره"(١).

٢ ـ **الحديث المتواتر**(٢):

ذهب النظام إلى جواز وقوع الكذب فى الخبر المتواتر(٣)، والحجة العقلية عنده كفيلة بنسخ الأخبار(٤). كما جوز إجماع الأمة فى كل عصر وفى جميع الأعصار على الخطأ من جهة الرأى والاستدلال(٥).

وأبو الهذيل العلاف يرى أن الحجة فى طريق الأخبار فيما غاب عن الحواس من آيات الأنبياء عليهم السلام ، وفيما سواها لاتثبت بأقل من عشرين نفسا ، فيهم واحد من أهل الجنة أو أكثر . ولم يوجب بأخبار

---

(١) فضل الاعتزال ص١٩٣-١٩٤ .

(٢) المتواتر :
هو الخبر الذى رواه عدد كثير تحيل العادة تواطؤهم على الكذب ، عن مثلهم إلى منتهاه ، وأن يكون مستند خبرهم الحس وإفادة العلم لسامعه .
انظر : شرح نخبة الفكر ص١٠ ، تيسير مصطلح الحديث ص١٩-٢٠ .

(٣) انظر : الفرق بين الفرق ص١٤٣ .

(٤) انظر : تأويل مختلف الحديث ص ٤٣

(٥) انظر : الفرق بين الفرق ص١٤٣ .

الكفرة والفسقة حجة وإن بلغوا عدد التواتر الذى لايمكن معه تواطؤهم على الكذب ، إذا لم يكن فيهم واحد من أهل الجنة .

وزعم أن خبر مادون الأربعة لايوجب حكما ، ومن فوق الأربعة إلى العشرين قد يصح وقوع العلم بخبرهم وقد لايصح .

واستدل على العشرين حجة بقوله تعالى : {إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين}(١).

وقال : "لم يبح لهم قتالهم إلا وهم عليهم حجة"(٢).

٣ - حديث الآحاد :

(أ) تعريفه ، وأنه لايعد من السنة :

لقد عرف المعتزلة حديث الآحاد بأنه الذى لايعلم كونه كذبا أو صدقا(٣).

ومن هنا يقبح أن يقال عنه إنه سنة تضاف إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، لأن السنة هى ماأمر به النبى صلى الله عليه وسلم ليدام عليه ، أو فعله ليدام الاقتداء به ، وحديث الآحاد لايؤمن فيه من الكذب فلايقال إنه من السنة إلا على وجه التعارف ، وذلك بعد موافقته للعقل ، ولهذا لايجوز فى العقل أن يقال فيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قطعا وإنما يجوز أن يقال روى عنه صلى الله عليه وسلم(٤).

(ب) عدم الاحتجاج به مطلقا فى أمور الدين :

إن الاحتجاج إنما يكون بالإجماع القاطع دون أخبار الآحاد التى قد يتعمد فيها الكذب ، ويقع فيها السهو والنسيان والتغيير والتبديل(٥).

---

(١) سورة الأنفال : آية ٦٥

(٢) انظر : الفرق بين الفرق ص١٢٧-١٢٨ .

(٣) انظر : شرح الأصول ص٧٦٩ .

(٤) انظر : فضل الاعتزال ص١٨٥-١٨٦ .

(٥) انظر : المرجع السابق ص١٩٥ .

قال أبو الحسين :

"وقد كان السلف ينكرون كثرة الرواية . وحكى عن شعبة أنه قال : "ثلث الحديث كذب" ، وكثيراً مايتضمن الجبر والتشبيه(١) مالايمكن تأويله إلا بتعسف شديد ، لايتعذر مثله فى كل كلام متناقض . وذلك يمنع أن يقوله النبى صلى الله عليه وسلم . ولايمنع أن يكون من روى ذلك من المتأخرين قد تعمد الكذب . ولايمتنع أن يثبت أن بعض الصحابة الذى رواها أن يكون لحقه سهو وغلط ، وأن يكون النبى صلى الله عليه وسلم حكاه عن غيره ، وظن الراوى أنه حكاه عن نفسه ، أو خرج عن سبب يغير فائدته ، أو تقدم مايعين حكمه"(٢).

وقد تعلقوا ببعض الشبه التى زعموا أنها تؤيد ماذهبوا إليه فى ردهم لخبر الواحد وعدم قبوله .

من ذلك قصة ذى اليدين وكون النبى توقف فى خبره حتى تابعه عليه غيره(٣).

---

(١) سوف يأتى بيان لمعنى الجبر والتشبيه عند المعتزلة .

(٢) المعتمد فى أصول الفقه ٢/٥٥٠-٥٥١ .

(٣) روى البخارى بسنده إلى أبى هريرة قال : "صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إحدى صلاتى العشى - قال ابن سيرين : قد سماها أبو هريرة ولكن نسيت أنا - قال : فصلى بنا ركعتين ثم سلم فقام إلى خشبة معروضة فى المسجد فاتكأ عليها كأنه غضبان ووضع يده اليمنى على اليسرى وشبك بين أصابعه ، ووضع خده الأيمن على ظهر كفه اليسرى ، وخرجت السرعان من أبواب المسجد ، فقالوا قصرت الصلاة ، وفى القوم أبو بكر وعمر فهابا أن يكلماه ، وفى القوم رجل فى يديه طول يقال له ذو اليدين ، قال : يارسول الله أنسيت أم قصرت الصلاة؟ قال : "لم أنس ولم تقصر". فقال : "أكما يقول ذو اليدين؟" فقالوا : نعم . فتقدم فصلى ماترك ثم سلم ثم كبر وسجد مثل سجوده أو أطول ، ثم رفع رأسه وكبر ، ثم كبر وسجد مثل سجوده أو أطول ثم رفع رأسه وكبر ، فربما سألوه ثم سلم" . صحيح البخارى ، كتاب الصلاة (٨) ، باب تشبيك الأصابع فى المسجد وغيره (٨٨) ، ١/١٢٣-١٢٤ .

=

وقصة أبى بكر حين توقف فى خبر المغيرة فى ميراث الجدة حتى تابعه محمد بن مسلمة(١).

= وأخرج نحوه فى كتاب الأذان (١٠) ، باب هل يأخذ الإمام إذا شك بقول الناس (٦٩) ، ١٧٥/١ ، وفى كتاب السهو (٢٢) ، باب من لم يتشهد فى سجدتى السهو (٤) ، وباب يكبر فى سجدتى السهو (٥) ، ٦٦/٢ ، وفى كتاب الأدب (٧٨) ، باب مايجوز من ذكر الناس نحو قولهم الطويل والقصير (٤٥) ، ٨٥/٧ ، وفى كتاب أخبار الآحاد (٩٥) ، باب ماجاء فى إجازة خبر الواحد (١) ، ١٣٣/٨ .
وأخرجه مسلم فى صحيحه بألفاظ مقاربة من حديث أبى هريرة برقم ٥٧٣ ، وبنحوه من حديث عمران بن حصين برقم ٥٧٤ ، كتاب المساجد (٥) ، باب السهو فى الصلاة (١٩) ، ٤٠٣/١-٤٠٥ .

(١) روى مالك بسنده إلى قبيصة بن ذؤيب أنه قال : جاءت الجدة إلى أبى بكر الصديق تسأله ميراثها . فقال لها أبو بكر : مالك فى كتاب الله شىء . وماعلمت لك فى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً . فارجعى حتى أسأل الناس . فسأل الناس فقال المغيرة بن شعبة : حضرت رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطاها السدس . فقال أبو بكر : هل معك غيرك؟ فقام محمد بن مسلمة الأنصارى فقال مثل ماقال المغيرة .فأنفذها أبو بكر الصديق ، ثم جاءت الجدة الأخرى إلى عمر بن الخطاب تسأله ميراثها ، فقال لها : مالك فى كتاب الله شىء . وماكان القضاء الذى قضى به إلا لغيرك . ومـاأنا بزائد فى الفرائض شيئا . ولكنه ذلك السدس . فإن اجتمعتما فهو بينكما ، وأيتكما خلت به فهو لها".
الموطأ ، كتاب الفرائض (٢٧) ، باب ميراث الجدة (٨) ، ٥١٣/٢ .
وأخرجه أبو داود فى سننه بلفظ مقارب ، كتاب الفرائض ، باب فى الجدة برقم ٢٨٩٤ ، ١٢١/٣-١٢٢ .
والترمذى فى سننه بلفظ مقارب ، فى كتاب الفرائض (٣٠) ، باب ماجاء فى ميراث الجدة (١٠) ، برقم ٢١٠٠،٢١٠١ ، ٣٦٥/٤-٣٦٦ .
وابن ماجه فى سننه بلفظ مقارب ، فى كتاب الفرائض (٢٣) ، باب ميراث الجدة (٤) برقم ٢٧٢٤ ، ٩٠٩/٢-٩١٠ .
وأحمد نحوه فى مسنده ٢٢٥/٤-٢٢٦ .
والحاكم نحوه فى مستدركه ، وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه . ووافقه الذهبى ٣٣٨/٤-٣٣٩ . =

وتوقف عمر فى خبر أبى موسى فى الاستئذان حتى تابعه أبو سعيد الخدرى [١].

(ج) عدم الاحتجاج به اذا خالف العقل :

قال أبو الحسين :

"لم يقبل ظاهر الخبر فى مخالفة مقتضى العقل ، لأنا قد علمنا بالعقل على الاطلاق أن الله عز وجل لايكلف إلا مايطاق ، وأن ذلك قبيح . فلو قبلنا الخبر فى خلافه ، لم يخل إما أن نعتقد صدق النبى صلى الله عليه وسلم فى ذلك فيجتمع لنا صدق النقيضين ، أو لانصدقه فنعدل عن مدلول المعجز . وذلك محال"[٢].

(د) عدم الاحتجاج به فى باب الاعتقاد :

وقد ذهب فريق الاعتزال إلى أن خبر الآحاد لايقبل فيما طريقه الاعتقاد لأن الاعتقاد إنما يبنى على اليقين لاالظن ، وخبر الآحاد إنما يفيد

= وأورده الحافظ ابن حجر فى تلخيص الحبير وقال : "وإسناده صحيح لثقة رجاله ، إلا أن صورته مرسل ، فان قبيصة لايصح له سماع من الصديق" . ٩٥/٣ .

(١) انظر : المعتمد فى أصول الفقه ٦٢٣/٢ ، تدريب الراوى ٧٣/١ .
روى البخارى بسنده إلى أبى سعيد الخدرى قال : كنت فى مجلس من مجالس الأنصار إذ جاء أبو موسى كأنه مذعور فقال : استأذنت على عمر ثلاثاً فلم يؤذن لى فرجعت . فقال : مامنعك؟ قلت استأذنت ثلاثاً فلم يؤذن لى فرجعت . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجع". فقال : والله لتقيمن عليه بينة . أمنكم أحد سمعه من النبى صلى الله عليه وسلم؟ فقال أبى بن كعب : والله لايقوم معك إلا أصغر القوم . فكنت أصغر القوم فقمت معه فأخبرت عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ذلك" .
صحيح البخارى ، كتاب الاستئذان (٧٩) ، باب التسليم والاستئذان ثلاثا (١٣) ، ١٣٠/٧ ، وأخرج نحوه فى كتاب البيوع (٣٤) ، باب الخروج فى التجارة (٩) ، ٦/٣ .
وأخرج نحوه مسلم فى صحيحه ، كتاب الآداب (٣٨) ، باب الاستئذان (٧) برقم ٢١٥٣،٢١٥٤ ، ١٦٩٤/٣-١٦٩٧ .

(٢) المعتمد فى أصول الفقه ٥٤٩/٢ .

الظن (١)، وأما اليقين فانما يؤخذ من حجج العقول . كما قال الجاحظ :
"وماالحكم القاطع إلا للذهن ، وماالاستبانة الصحيحة إلا للعقل"(٢).
وقال : "والاستنباط هو الذى يفضى بصاحبه إلى برد اليقين ، وعز الثقة ، والقضية الصحيحة، والحكم المحمود"(٣).

وقال أبو الحسين :

"وقولنا فى خبر الواحد العدل إنه لايوجب علماً"(٤).

قال عبد الجبار :

"وإن كان - أى خبر الآحاد - مما طريقه الاعتقادات ينظر ، فإن كان موافقاً لحجج العقول قبل واعتقد موجبه ، لالمكانه بل للحجة العقلية ، وإن لم يكن موافقاً لها ، فإن الواجب أن يرد ويحكم بأن النبى لم يقله ، وإن قاله فإنما قاله على طريق الحكاية عن غيره ، هذا إذا لم يحتمل التأويل إلا بتعسف ، فأما إذا احتمله فالواجب أن يتأول"(٥).

وقال بعد ذكره لبعض أحاديث الرؤية :

"وقد قال أصحابنا : إن خبر الواحد لايقبل فى مثل ذلك ، وإنما يقبل خبر الواحد فيما طريقه العمل"(٦).

(هـ) عدم الاحتجاج به فى الأعمال إلا بشروط :

شرط بعض أهل الاعتزال شروطاً لقبول حديث الآحاد فيما طريقه العمل . فأبو على الجبائى لايقبل الخبر إذا رواه العدل الواحد ، إلا إذا انضم إليه خبر عدل آخر ، أو عضده موافقة ظاهر الكتاب ، أو ظاهر خبر آخر ،

---

(١) انظر : المعتمد فى أصول الفقه ٥٧٩،٥٧٨،٥٧٧/٢ ، شرح الأصول ص٧٦٩ .
(٢) رسالة التربيع والتدوير ، ضمن رسائل الجاحظ ٥٨/٣ .
(٣) كتاب المعلمين . ضمن رسائل الجاحظ ٢٩/٣ .
(٤) الانتصار ص٥٥ ، وانظر : المعتمد فى أصول الفقه ٥٦٦/٢ .
(٥) شرح الأصول ص٧٧٠ ، وانظر المعتمد فى أصول الفقه ٥٤٩/٢ .
(٦) فضل الاعتزال ص١٥٨ ، وانظر ص١٥٦ .

أو يكون منتشراً بين الصحابة ، أو عمل به بعضهم(١).

بل زعموا أن من أخبار الآحاد مايعلم أنه بروايته ارتكب عظيماً كما روى فى باب التشبيه والجبر وغيرهما من ضروب الخطأ، ولولا الدلالة على وجوب العمل به على بعض الوجوه لم يكن فى نقله فائدة(٢).

---

(١) تدريب الراوى ٧٣/١ .
وانظر : المعتمد فى أصول الفقه ٦٢٢/٢ ، النكت على ابن الصلاح ٢٤٢/١ .

(٢) انظر : فضل الاعتزال ص١٩٤ .

الجواب على شبه المعتزلة :

لقد فضل الله عز وجل هذه الأمة على الأمم السابقة وجعلها شاهدة عليهم لأنها أمة العدل والإنصاف فقال تعالى : {وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا}(١)، وقال سبحانه : {كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله}(٢).

وحفظ لها دينها من بين سائر الأديان بحفظه لكتابه الذى {لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه تنزيل من حكيم حميد}(٣)، فقال سبحانه : {إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون}(٤)، وأوكل حفظ الكتب الأخرى إلى الربانيين والأحبار كما قال : {بما استحفظوا من كتاب الله}(٥)، ولكنهم بدلوا وغيروا(٦).

وحفظ سنة نبيه صلى الله عليه وسلم كما حفظ كتابه لأنها بيان له كما قال سبحانه : {لتبين للناس مانزل إليهم}(٧). ومن حفظ الكتاب حفظ بيانه معه . وهى وحى من عند الله لقوله تعالى : {ومابنطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى}(٨). وقال : {إن أتبع إلا مايوحى إلى}(٩).

قال ابن حزم : "ولاخلاف بين أحد من أهل اللغة والشريعة فى أن كل وحى نزل من عند الله فهو ذكر منزل وهو محفوظ بحفظ الله تعالى

---

(١) سورة البقرة : آية ١٤٣
(٢) سورة آل عمران : آية ١١٠
(٣) سورة فصلت : آية ٤٢
(٤) سورة الحجر : آية ٩
(٥) سورة المائدة : آية ٤٤
(٦) انظر : روح المعانى ١٦/١٤ .
(٧) سورة النحل : آية ٤٤
(٨) سورة النجم : آية ٣
(٩) سورة الأنعام : آية ٥٠

بيقين . لايضيع منه شيء ولايحرف تحريفا لايأتى البيان ببطلانه"(١).

وحديث النبى صلى الله عليه وسلم مصدر من مصادر التشريع كصنوه القرآن ، وإن كان دونه فى المنزلة فهو مثله فى الحجية وذلك لقوله سبحانه وتعالى : {من يطع الرسول فقد أطاع الله}(٢)، ولقوله صلى الله عليه وسلم "ألا إنى أوتيت القرآن ومثله معه"(٣).

ومـاأثاره المعتزلة حوله من شبه ، فهى شبه واهية ، لاتستند إلى دليل ولاتؤيدها حجة .

ولم يفعلوا غير أنهم أوعروا بتلك الشبه الطريق وأوصدوا بها الأبواب أمام معرفة الله وأسمائه وصفاته ، ومعرفة دينه وأحالوا الناس على أمور وهمية ، ومقدمات خيالية ، سموها قواطع عقلية ، وبراهين يقينية ، وهى فى التحقيق "كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب . أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فماله من نور}(٤).
ومن العجب أنهم قدموها على نصوص الوحى ، وعزلوا لأجلها النصوص ، فأقفرت قلوبهم من الاهتداء بالنصوص ، ولم يظفروا بالعقول الصحيحة المؤيدة بالفطرة السليمة والنصوص النبوية . ولو حكموا نصوص الوحى لفازوا بالمعقول الصحيح ، الموافق للفطرة السليمة(٥).

ويجاب على ماأثاروه من شبه حول الحديث بالآتى :

---

(١) الإحكام فى أصول الأحكام ١٢١/١ .
(٢) سورة النساء : آية ٨٠
(٣) الحديث سبق تخريجه . انظر ص: ١١
(٤) سورة النور : آية ٣٩-٤٠
(٥) شرح الطحاوية ص٣٥٤ بتصرف .

١ - ذمهم تعلم الحديث ، ومن تعلمه واشتغل به من أهل الحديث ينبىء عن جهلهم بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقلة معرفتهم به ، وعدم الاعتناء والاهتمام به ، ولذلك قل استدلالهم بالحديث فى كتبهم . وكثير منهم بل أفضلهم عند أصحابه لايعتقد أنه روى فى الباب الذى يتكلم فيه عن النبى صلى الله عليه وسلم شىء أو يظن أن المروى فيه حديث أو حديثان كما يجده لأكابر شيوخهم كأبى الحسين البصرى فهو لايعتقد أنه روى فى الرؤية إلا حديث جرير ، ولم يعلم أنه فيها مايقارب ثلاثين حديثا(١).

وأما أهل الحديث فهم الذين حفظ الله بهم دينه ، وأيد بهم شرعه ، لأنهم ورثاء نبيه صلى الله عليه وسلم ، والذابون عن سنته . والمطلع على سيرتهم يجدهم من أعظم الناس صدقا وأمانة وديانة ، وأوفر الناس عقولاً ، وأشدهم تحفظاً وتحرياً فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لايحابى أحدهم فيه أباه ولاابنه ولاشيخه ولاأحدا من الخلق ، وأنهم حرروا الرواية عنه صلى الله عليه وسلم تحريرا لم يبلغه أحد سواهم . وهم أصدق الطوائف قاطبة . قال عبد الله بن المبارك(٢):

"وجدت الدين لأهل الحديث ، والكلام للمعتزلة ، والكذب

---

(١) انظر مختصر الصواعق ص٤٧١ . وسوف يأتى الحديث والكلام عنه .

(٢) عبد الله بن المبارك :

هو عبد الله بن المبارك بن واضح ، أبو عبد الرحمن الحنظلى ، مولاهم التركى ، المروزى ، ثقة ثبت فقيه ، عالم جواد مجاهد ، جمعت فيه خصال الخير . مات سنة ١٨١هـ .

انظر : التاريخ الكبير ٢١٢/٥ ، الجرح والتعديل ١٧٩/٥ ، تاريخ بغداد ١٥٢/١٠ ، الكاشف ١٢٣/٢ ، تذكرة الحفاظ ١٧٤/١ ، سير أعلام النبلاء ٣٧٨/٨-٤٢١ ، تهذيب التهذيب ٣٨٢/٥ ، تقريب التهذيب ٤٤٥/١ .

للرافضة[١]، والحيل لأهل الرأى ، وسوء الرأى والتدبير لآل بنى فلان"[٢].

قال القاضى عياض رحمه الله :

"رحم الله سلفنا من الأئمة المرضيين ، والأعلام السابقين ، والقدوة الصالحين ، من أهل الحديث وفقهائهم ، قرنا بعد قرن ، فلولا اهتبالهم بنقله وتوفرهم على سماعه وحمله ، واحتسابهم فى إذاعته ونشره ، وبحثهم عن مشهوره وغريبه ، وتنخيلهم لصحيحه من سقيمه لضاعت السنن والآثار ، ولاختلط الأمر والنهى ، وبطل الاستنباط والاعتبار ، كما اعترى من لم يعتن بها ، وأعرض عنها بتزيين الشيطان ذلك له من الخوارج[٣]والمعتزلة وضعفة أهل الرأى ، حتى انسل أكثرهم عن الدين، وأتت فتاويهم ومذاهبهم مختلفة القوانين ، وذلك لأنهم اتبعوا السبل وعدلوا عن الطريق ، وبنوا أمرهم على

---

(١) الرافضة :
اسم يطلق على كل من تبرأ من الشيخين أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما ، وكذلك على كل من تبرأ من الصحابة .
وإنما سموا رافضة لرفضهم إمامة أبى بكر وعمر ، وهم مجمعون على أن النبى صلى الله عليه وسلم نص على استخلاف على بن أبى طالب باسمه وأظهر ذلك وأعلنه ، وإن أكثر الصحابة ضلوا بتركهم الاقتداء به بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم .
وقد ساقوا الإمامة فى أولاد فاطمة ولم يجوزوا ثبوتها فى غيرهم .
انظر : مقالات الإسلاميين ٨٩/١ ، الملل والنحل ١٥٤/١،١٥٥ .

(٢) انظر : مختصر الصواعق المرسلة ص٤٧١،٤٧٢ .

(٣) الخوارج :
هم الذين خرجوا من جيش أمير المؤمنين على رضى الله عنه بعد وقعة صفين ، ورفضوا التحكيم وقالوا له : لم حكمت الرجال لاحكم إلا لله . وهم المارقة الذين اجتمعوا بالنهروان فقاتلهم على رضى الله عنه ، وتكونت منهم فرق شتى يجمعهم القول بالتبرىء من عثمان رضى الله عنه . وتكفير أصحاب الكبائر ، والخروج على الإمام إذا خالف السنة.
انظر : الملل والنحل ١١٤/١-١١٥ .

غير أصل وثيق . {أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار} الآية"(١).

وقال ابن أبى العز فى فضلهم وتحريهم :

"وكانوا بحيث لو قتلوا لم يسامحوا أحداً فى كلمة يتقولها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولافعلوا هم بأنفسهم ذلك، وقد نقلوا هذا الدين إلينا ما نقل إليهم ، فهم ترك(٢) الإسلام وعصابة الإيمان ، وهم نقاد الأخبار وصيارفة الأحاديث .

فإذا وقف المرء على هذا من شأنهم ، وعرف حالهم ، وخبر صدقهم وورعهم وأمانتهم ، ظهر له العلم فيما نقلوه ورووه . ومن له عقل ومعرفة يعلم أن أهل الحديث لهم من العلم بأحوال نبيهم وسيرته وأخباره ، ماليس لغيرهم به شعور"(٣).

هكذا عرف علماؤنا فضل أهل الحديث وشرفهم وسمو منزلتهم بين أهل العلم كافة ، وكيف لايكونون كذلك وهم الذين دعا لهم رسول الهدى صلى الله عليه وسلم بنضارة الوجه فقال :

"نضر الله امرأً سمع منا شيئا فبلغه كما سمعه فرب مبلغ أوعى من سامع"(٤).

وكيف تكون طريقتهم فاسدة وهم الذين جعلهم الله أوعية لحديث نبيه صلى الله عليه وسلم ، وهو أشرف العلوم وأعظمهامنزلة بعد كتاب الله عز وجل ، وإنما شرف أهل الحديث بشرفه وعظموا بين علماء الأمة لعظمة الحديث وفضله .

---

(١) الالماع ص٧ .
والآية هى ١٠٩ من سورةالتوبة.

(٢) ترك : جمع تريكة . وهى بيضة الحديد . انظر : القاموس المحيط ص١٢٠٧ . شبههم بالبيضة لأنهم حماة الإسلام والذابون عنه .

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ص٣٥٦ .

(٤) سبق تخريجه . انظر ص: ١٢

يقول الإمام الشافعى رحمه الله :

"فإذا كان موجوداً فى العامة وفى أهل الكذب الحالات يصدقون فيها الصدق الذى تطيب به نفس المحدثين . كان أهل التقوى والصدق فى كل حالاتهم أولى أن يتحفظوا عند أولى الأمور بهم أن يتحفظوا عندها ، فى أنهم وضعوا موضع الأمانة ، ونصبوا أعلاما للدين ، وكانوا عالمين بما ألزمهم الله من الصدق فى كل أمر ، وأن الحديث فى الحلال والحرام أعلى الأمور وأبعدها من أن يكون فيه موضع ظنة ، وقد قدم إليهم فى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بشىء لم يقدم إليهم فى غيره ، فوعد على الكذب على رسول الله النار"(١).

فلا يطعن فيهم إلا من جهل مقامهم ، وعلو منزلتهم ، وليس ذلك بغريب على من جهل شرف العلم الذى حملوه ، والتضحية التى بذلوها ، والأمانة التى حفظوها ، والخير الذى قدموه .

قال الرامهرمزى :

"فمن عرف للإسلام حقه ، وأوجب للرسول حرمته أكبر أن يحتقر من عظم الله شأنه ، وأعلى مكانه ، وأظهر حجته ، وأبان فضيلته ، ولم يرتق بطعنه إلى حزب الرسول وأتباع الوحى ، وأوعية الدين ، ونقلة الأحكام والقرآن ، الذين ذكرهم الله عزوجل فى التنزيل ، فقال : {والذين اتبعوهم بإحسان}(٢)(٣)

وكيف يقدح فيهم بإكثارهم من الحديث وتعدد طرقه وتلك محمدة يحمدون عليها لامسبة يذمون بها ، وهذا دليل حبهم لحديث النبى صلى الله عليه وسلم وحرصهم على حفظه ، وقد كان أحدهم يقطع الفيافى والقفار ، ويترك المال والولد والأوطان بحثا عن حديث واحد ، ليحفظ به على الأمة دينها ، وينفع به أمة الإسلام .

---

(١) الرسالة ص٣٩٤ .

(٢) سورة التوبة : آية ١٠٠

(٣) المحدث الفاصل ص١٦٠ ، وانظر الكفاية ص٦ .

يقول الامام الرامهرمزى رحمه الله مخاطبا أهل الحديث ، محذراً اياهم مما يعيرون به :

"فتمسكوا - جبركم الله - بحديث نبيكم صلى الله عليه وسلم وتبينوا معانيه ، وتفقهوا به ، وتأدبوا بآدابه ، ودعوا مابه تعيرون من تتبع الطرق وتكثير الأسانيد ، وتطلب شواذ الأحاديث ، ومادلسه المجانين، وتبلبل فيه المغفلون ، واجتهدوا فى أن توفوه حقه من التهذيب والضبط والتقويم ، لتتشرفوا به فى المشاهد ، وتنطلق ألسنتكم فى المجالس ، ولاتحفلوا بمن يعترض عليكم حسداً على ماآتاكم الله من فضله ، فإن الحديث ذكر لايحبه إلا الذكران ، ونسبه لايجهل بكل مكان ، وكفى بالمحدث شرفا أن يكون اسمه مقرونا باسم النبى صلى الله عليه وسلم ، وذكره متصلا بذكره وذكر أهل بيته وأصحابه"(١).

وتكثير الطرق وجمعها له فائدة عظيمة تقصر عنها عقول المعتزلة . وذلك أن جمع الطرق هو سبيل لمعرفة العلة(٢)فى الحديث المعلل(٣)، وهو نوع من أجل علوم الحديث وأشرفها وأدقها ، ولايتمكن منه إلا أهل الحفظ والخبرة والفهم الثاقب . وهو وسيلة إلى معرفة الحديث المتواتر .

---

(١) المحدث الفاصل ص١٦١ .

(٢) العلة : سبب غامض خفى قادح فى الحديث ، مع أن الظاهر السلامة منه . انظر : تدريب الراوى ٢٥٢/١ ، الباعث الحثيث ص٦٢ ، تيسير مصطلح الحديث ص٩٩ .

(٣) المعلل :
هو الحديث الذى اطلع فيه على علة قادحة ، مع أن ظاهره السلامة منها .
انظر : شرح نخبة الفكر ص٨٣ ، تدريب الراوى ٢٥٢/١ ، الباعث الحثيث ص٦٢ تيسير مصطلح الحديث ص٩٩ .

ولذا قال ابن المديني[(١)] رحمه الله : "الباب إذا لم تجمع طرقه لم يتبين خطؤه"[(٢)].

وأما مانقله عبد الجبار عن بعض أئمة الحديث من أقوال زاعماً أنها تدل على ذم طلب الحديث وتعلمه ، فهي لاتؤيده فيما ذهب إليه ، لأن أهل العلم وجهوها توجيها يناسب ماعرف من أحوال أولئك القوم ، وماعلم من شدة حرصهم على تحمل الحديث وروايته ، وحث طلبة العلم على تعلمه وحفظه . فشعبة الذي يحمل قوله عبد الجبار مالايحتمله هو القائل : "إني لأذاكر الحديث فيفوتني فأمرض"[(٣)].

وقال له الثوري : "ياشعبة أنت أمير المؤمنين في الحديث"[(٤)].

وقال الخطيب البغدادي :

"وليس يجوز لأحد أن يقول : كان شعبة يثبط عن طلب الحديث . وكيف يكون كذلك ، وقد بلغ من قدره أن سمي أمير المؤمنين في الحديث؟ كل ذلك لأجل طلبه له واشتغاله به . ولم يزل طول عمره يطلبه حتى مات على غاية الحرص في جمعه . لايشتغل بشيء سواه ، ويكتب عمن دونه في السن والإسناد ، وكان من أشد أصحاب الحديث عناية بما سمع ، وأحسنهم

---

(١) ابن المديني :
هو علي بن عبد الله بن معمر بن نجيح ، السعدي مولاهم ، أبو الحسن بن المديني البصري ، ثقة ثبت إمام ، أعلم أهل عصره بالحديث وعلله . قال البخاري : مااستصغرت نفسي إلا عند علي . قال شيخه بن عيينة : يلومونني على حب ابن المديني ، والله لأتعلم منه أكثر مما تعلم مني . وقال شيخه ابن مهدي : علي بن المديني أعلم الناس بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .
انظر : الجرح والتعديل ١٩٣/٦-١٩٤ ، الكاشف ٢٨٨/٢-٢٨٩ ، تقريب التهذيب ٣٩/٢-٤٠ .

(٢) انظر : النكت على كتاب ابن الصلاح ٧١٠/٢،٧١١ ، تدريب الراوي ٢٥١/١،٢٥٣ .

(٣) شرف أصحاب الحديث للخطيب ص١١٥ .

(٤) الكامل في ضعفاء الرجال ٧١/١ ، شرف أصحاب الحديث للخطيب ص١١٥ ، سير أعلام النبلاء ٢٢٤/٧ .

اتقاناً لما حفظ "(١).

ومانقله عبد الجبار عنه فيحمل على خوفه على نفسه أن لايكون قد قام بحق الحديث ، والعمل به ، فخشى أن يكون ذلك حجة عليه(٢).

قال الذهبى بعد ذكره لكلمة شعبة السابقة :

"كل من حاقق نفسه فى صحة نيته فى طلب العلم يخاف من مثل هذا ، يود أن ينجو كفافا"(٣). وماقيل فى قول شعبة يقال فى قول أبى إسحاق الفزارى . فليس فيما قيل دلالة على ذم الحديث أو الطعن فيمن طلبه .

٢ - **الحديث المتواتر** :

لقد قسم بعض العلماء الأخبار المقبولة عنه صلى الله عليه وسلم فى أمور الدين إلى أربعة أقسام :

أحدها : متواتر لفظاً ومعنى .

الثانى : متواتر معنى وإن لم يتواتر فى اللفظ .

الثالث : أخبار مستفيضة(٤)متلقاة بالقبول بين الأمة .

الرابع : أخبار آحاد(٥).

ومنهم من قسمه إلى : متواتر ومشهور(٦)وآحاد .

---

(١) شرف أصحاب الحديث للخطيب ص١١٥ .

(٢) انظر المرجع السابق ص١١٧ .

(٣) سير أعلام النبلاء ٢١٣/٧ .

(٤) الخبر المستفيض :

هو فى الاصطلاح : مارواه ثلاثة فأكثر - فى كل طبقة - ولم يبلغ حد التواتر . ويشترط فيه أن يستوى طرفا إسناده . وقيل فى تعريفه غير ذلك .

انظر : شرح نخبة الفكر ص١٤ ، تيسير مصطلح الحديث ص٢٣ .

(٥) انظر : مختصر الصواعق المرسلة ص٤٧٠ .

(٦) الخبر المشهور :

المشهور فى الاصطلاح هو مارواه ثلاثة فأكثر - فى كل طبقة - ولم يبلغ حد التواتر .

وأما فى غير الاصطلاح يقصد به مااشتهر على الألسنة من غير شروط تعتبر .

انظر : تيسير مصطلح الحديث ص٢٣-٢٤ ، وانظر شرح نخبة الفكر ص١٤ .

ومنهم من قسمه إلى متواتر وآحاد(١).

ومن المتيقن أن الصحابة ماكانوا يفرقون بين المتواتر والآحاد فى الأخبار(٢)، ولكنه تقسيم اصطلح عليه فيما بعد وأقره العلماء .

فأما الحديث عن المتواتر فقد تبين لنا موقف أهل الاعتزال منه ، وكيف جوز النظام وقوع الكذب فيه وأبو الهذيل وضع له من الشروط مايؤيد به عقائد الاعتزال . وهو وإن كان فى مرتبة عندهم أفضل من حديث الآحاد إلا أنه مع ذلك عرضة للتأويل والرد متى ماخالف عقولهم .

وأما علماء السلف لم يضعوا الحديث المتواتر تحت طائلة البحث لأنه ليس من مباحث علم الإسناد ، الذى يبحث فيه عن صحة الحديث أو ضعفه ليعمل به أو يترك ، بل يجب العمل به من غير بحث(٣). ولذا لم يختلفوا فى أنه قطعى الثبوت(٤). يفيد العلم اليقينى الذى يضطر الإنسان إليه بحيث لايمكنه دفعه(٥).

يقول أبو محمد بن حزم رحمه الله فى شأن الخبر المتواتر :

"وهو مانقلته كافة بعد كافة حتى تبلغ به النبى صلى الله عليه وسلم . وهذا خبر لم يختلف مسلمان فى وجوب الأخذ به ، وفى أنه مقطوع على غيبه لأن بمثله عرفنا أن القرآن هو الذى أتى به محمد صلى الله عليه وسلم ، وبه علمنا صحة مبعث النبى صلى الله عليه وسلم ، وبه علمنا عدد ركوع كل صلاة ، وعدد الصلوات ، وأشياء كثيرة من أحكام الزكاة ، وغير ذلك مما لم يبين فى القرآن تفسيره ...إن البرهان قائم على صحته ... وإن الضرورة والطبيعة توجبان قبوله ، وإن به عرفنا مالم نشاهد من البلاد ، ومن كان

---

(١) انظر : أصول الحديث ص٣٠١-٣٠٢ .

(٢) انظر : رد شبهات الالحاد ص ٣٢

(٣) انظر : شرح نخبة الفكر ص١٢ ، أصول الحديث ص٣٠١-٣٠٢ .

(٤) انظر : الباعث الحثيث ص٣٥ ، أصول الفقه وابن تيمية ٢٤٩/١ ، المسودة فى أصول الفقه ص٢٣٣ ، إرشاد الفحول ص٤٧ .

(٥) انظر : شرح نخبة الفكر ص١١ ، مختصر الصواعق ص٤٧٠ .

قبلنا من الأنبياء والعلماء والفلاسفة والملوك والوقائع والتواليف ، ومن أنكر ذلك كان بمنزلةمن أنكر مايدرك بالحواس الأول ولافرق . ولزمه أن لايصدق بأنه كان قبله زمان ولاأن أباه وأمه كانا قبله ولاأنه مولود من امرأة"(١).

ولايشترط للتواتر عدد معين كما زعم أبو الهذيل وغيره ، بل الحق ماذكره والد شيخ الإسلام(٢)في قوله : "ولايعتبر فى التواتر عدد محصور ، بل يعتبر مايفيد العلم على حسب العادة فى سكون النفس إليهم وعدم تأتى التواطؤ على الكذب منهم ، إما لفرط كثرتهم ، وإما لصلاحهم ودينهم ونحو ذلك"(٣).

لذا لم تتفق كلمة العلماء فى شرط عدد معين لنقلة التواتر . وسلفنا الصالح رحمهم الله لم يتوقفوا فى قبول الحديث المتواتر والاحتجاج به فى جميع أبواب الدين من عقائد وأحكام وغير ذلك ، بل لم يبحثوا فى إسناده ومتنه لأنه ليس موضعا للبحث والتنقيب ، بل يضطر المرء إلى قبوله اضطراراً . وهذا موقف نأى عنه طائفة الاعتزال فإنهم ردوا كثيراً من الأحاديث المتواترة وأنكروها كالأحاديث الواردة فى عذاب القبر والشفاعة ورؤية الرب سبحانه وتكليمه عباده يوم القيامة وغير ذلك(٤)، والتى سلمت عندهم من الرد لم تسلم من التحريف والتأويل كما سيتبين من ثنايا البحث.

---

(١) الإحكام فى أصول الأحكام ١٠٤/١ .

(٢) هو عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن تيمية الحرانى شهاب الدين أبو المحاسن وأبو أحمد ، ولد بحران سنة ٦٢٧هـ . سمع من والده وغيره ، وكان من أعيان الحنابلة ، عنده فضائل وفنون وباشر بدمشق مشيخة دار الحديث السكرية ، وله تعاليق وفوائد ، وصنف فى علوم عديدة ، توفى بدمشق سنة ٦٨٢هـ .
انظر : ذيل طبقات الحنابلة ٣١٠/٢،٣١١ ، البداية والنهاية ٣٠٣/١٣ .

(٣) المسودة فى أصول الفقه ص٢٣٥ .

(٤) انظر : مختصر الصواعق المرسلة ص٤٧٠ .

٣ - حديث الآحاد :

(أ) تعريفه وأنه لايعد من السنة .

تناول الإمام ابن حزم رحمه الله أوجه النقل عند المسلمين ، فبين نقلهم لكتاب ربهم ، وذكر أنه ليس عند اليهود ولاعند النصارى فى هذا النقل شىء أصلا ، ثم تعرض لنقل الحديث المتواتر الذى نقلته كافة عن مثلها حتى يبلغ الأمر إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، وليس عند اليهود والنصارى كذلك من هذا النقل شىء أصلا . ثم قال :

"والثالث مانقله الثقة عن الثقة كذلك حتى يبلغ إلى النبى صلى الله عليه وسلم يخبر كل واحد منهم باسم الذى أخبره ونسبه وكلهم معروف الحال والعين والعدالة والزمان والمكان على أن أكثر ماجاء هذا المجىء فإنه منقول نقل الكواف إما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من طرق جماعة من الصحابة رضى الله عنهم وإما إلى الصاحب وإما إلى التابع وإما إلى إمام أخذ من التابع ، يعرف ذلك من كان من أهل المعرفة بهذا الشأن . والحمد لله رب العالمين . وهذا نقل خص الله تعالى به المسلمين دون سائر أهل الملل كلها وأبقاه عندهم غضاً جديداً على قديم الدهور منذ أربعمائة عام وخمسين عاماً فى المشرق والمغرب والجنوب والشمال يرحل فى طلبه من لايحصى عددهم إلا خالقهم إلى الآفاق البعيدة ويواظب على تقييده من كان الناقد قريباً منه قد تولى الله تعالى حفظه عليهم . والحمد لله رب العالمين .

فلاتفوتهم زلة فى كلمة فما فوقها فى شىء من النقل إن وقعت لأحدهم ولايمكن لفاسق أن يقحم فيه كلمة موضوعة ولله تعالى الشكر"(١).

وقد عنى ابن حزم رحمه الله بنقل الثقة عن الثقة حتى يبلغ إلى النبى صلى الله عليه وسلم حديث الآحاد الذى وقف منه المعتزلة ذلك الموقف المشين . وأوردوا الشبه من حوله .

---

(١) الفصل فى الملل والأهواء والنحل ٢/٨٢-٨٣ .

وماعرفوه به لم يكن هو التعريف الذى عرفه به علماء الحديث رحمهم الله ، وارتضوه .

فخبر الآحاد عند علماء الحديث هومارواه واحد أو أكثر ولم يجمع شروط المتواتر (١).

وأما أهل الاعتزال إنما عرفوه بذلك التعريف الخاطىء لكى يتسنى لهم رده والقدح فيه وعدم الاحتجاج به ، وحتى يسقطوا بذلك جملة عظيمة من الأحاديث الصحيحة التى تعارض مابتدعوه فى دين الله عز وجل من بدع برىء منها الإسلام .

وأما قولهم إنه لايعد من السنة فقد سبق أن بينت أن السنة ترادف الحديث عند المحدثين ، والحديث يشمل أقواله صلى الله عليه وسلم وأفعاله وتقريراته (٢)، وحديث الآحاد لايخرج عن ذلك .

(ب) زعمهم أنه لايحتج به مطلقا فى أمور الدين .

هذا زعم واه ، وقول مناف للحق والصواب ، ولعل المعتزلة جهلوا أو تناسوا أن خبر الآحاد أصل من أصول الدين وليس سائر الأصول أولى بالقبول منه (٣).

ولو ترك الاحتجاج به لتهاوت أركان الشريعة الإسلامية ، واندثر الحق وغاب الهدى ، وأصبح للباطل صولته ، وللضلال سلطته .

والأدلة شاهدة من كتاب الله عز وجل وحديث النبى صلى الله عليه وسلم ، وأقوال السلف ، بل وإجماعهم على الاحتجاج ، وقبول الاستدلال به ، وهى كثيرة لاتحصى .

وسوف نورد منها مايناسب المقام ، ويتضح به السبيل ، وتستبين به الحجة .

---

(١) انظر : شرح نخبة الفكر ص١٩ ، تيسير مصطلح الحديث ص٢٢ ، أصول الحديث ص٣٠٢ .

(٢) انظر ص٦،٧ .

(٣) انظر : الإحكام فى أصول الأحكام ١١٧/١ .

أولا : القرآن الكريم .

(١) قال تعالى :

{فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون}(١).

أورد الإمام البخارى رحمه الله هذه الآية فى ترجمة أول باب من كتاب أخبار الآحاد ليدلل بها على جواز العمل به والقول بأنه حجة(٢).

ولفظ "طائفة" فى الآية يتناول الواحد فما فوقه ولايختص بعدد معين . وذلك منقول عن ابن عباس وغيره(٣).

فقد أوجب الله بهذه الآية على كل فرقة أن تقبل نذارة النافر منها فى تبليغهم الدين ، وحذرها من مخالفته ، ولو كان النافر واحدا(٤).

(٢) قوله تعالى :

{ياأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا} . فى قراءة أخرى "فتثبتوا"(٥).

ففى الآية دلالة على أن العدل إذا جاء بخبر فالحجة قائمة بخبره ، ولايلزم التثبت فيه ، بل يجب قبوله فى الحال . أما إن كان فاسقا فقد أمرنا بالتثبت فى خبره(٦). وكذلك إذا جهلنا حاله .

(٣) قوله تعالى :

{ياأيها الرسول بلغ ماأنزل إليك من ربك}(٧).

---

(١) سورة التوبة : آية ١٢٢

(٢) انظر : صحيح البخارى ١٣٢/٤ ، فتح البارى ٢٣٣/١٣ .

(٣) انظر المرجع السابق ٢٣٤/١٣ .

(٤) انظر : الإحكام لابن حزم ١١٢،١٠٩/١ ، مختصر الصواعق المرسلة ص٤٩٧ .

(٥) سورة الحجرات : آية ٦ . وانظر : الكشف عن وجوه القراءات السبع لمكى أبى طالب ٣٩٤/١ ، النشر فى القراءات العشر لابن الجزرى ٢٥١/٢ .

(٦) انظر : الإحكام فى أصول الأحكام ١١١/١ ، مختصر الصواعق المرسلة ص٤٩٦ ، فتح البارى ٢٣٤/١٣ ، الحديث حجة بنفسه فى العقائد والأحكام ص٥٠ .

(٧) سورة المائدة : آية ٦٧

فقد أمر صلى الله عليه وسلم بتبليغ الدين للناس كافة ، فلو كان خبر الواحد غير مقبول لتعذر إبلاغ الشريعة إلى الكل ضرورة ولتعذر خطاب الجميع مشافهة ، وتعذر إرسال عدد التواتر إليهم[١]، والتبليغ باق إلى يوم القيامة ، والحجة قائمة به[٢].

ثانيا : السنة النبوية .

(١) عن عبد الله بن مسعود أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

"نضر الله عبداً سمع مقالتى فحفظها ووعاها وأداها ، فرب حامل فقه غير فقيه ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ..." الحديث[٣].

قال الإمام الشافعى رحمه الله :

"فلما ندب رسول الله إلى استماع مقالته وحفظها وأدائها إمرءاً يؤديها والإمرؤ واحد . دل على أنه لايأمر أن يؤدى عنه إلا ماتقوم به الحجة على من أدى إليه ، لأنه إنما يؤدى عن حلال ، وحرام يجتنب ، وحد يقام ، ومال يؤخذ ويعطى ، ونصيحة فى دين ودنيا"[٤].

(٢) روى البخارى بسنده إلى عبد الله بن عمر قال :

"بينا الناس بقباء فى صلاة الصبح إذ جاءهم آت فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أنزل عليه الليلة قرآن وقد أمر أن يستقبل الكعبة ، فاستقبلوها ، وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة"[٥].

---

(١) انظر : فتح البارى ٢٣٥/١٣ .

(٢) انظر : الإحكام فى أصول الأحكام ١٢٤/١-١٢٥،١٢٨-١٣١ .

(٣) الحديث سبق تخريجه . انظر ص: ١٢

(٤) الرسالة ص٤٠٢-٤٠٣ . وانظر : مختصر الصواعق المرسلة ص٥٠١ .

(٥) صحيح البخارى ، فى كتاب الصلاة (٨) ، باب ماجاء فى القبلة (٣٢) ، ١٠٥/١ . وأخرجه بألفاظ مقاربة فى كتاب التفسير (٦٥) ، تفسير سورة البقرة (٢) ، باب {وماجعلنا القبلة التى كنت عليها} الآية (١٤) ، وباب {ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب} الآية (١٦) ، وباب {الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه} الآية (١٧) ، وباب {ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام} الآية (١٩)،(٢٠) ، ١٥١/٥-١٥٣ .

=

والحجة فى هذا الحديث بينة ظاهرة ، فإن أهل قباء كانوا على قبلة فرض الله عليهم التوجه لها ، وهى بيت المقدس ، فتحولوا عنها بخبر الذى قال لهم إن النبى صلى الله عليه وسلم أمر أن يستقبل الكعبة ، فلو لم تكن الحجة قائمة بخبره ماتركوا القبلة التى كانوا عليها ، وهى فرض عليهم(١).

(٣) وروى بسنده إلى أنس بن مالك رضى الله عنه قال :

"كنت أسقى أبا طلحة الأنصارى وأبا عبيدة بن الجراح وأبى بن كعب شراباً من فضيخ وهو تمر ، فجاءهم آت فقال : إن الخمر قد حرمت . فقال أبو طلحة : ياأنس ، قم إلى هذه الجرار فاكسرها . قال أنس : فقمت إلى مهراس(٢)لنا فضربتها بأسفله حتى انكسرت"(٣).

فأبو طلحة ومن معه قبلوا خبر المخبر لهم وهوواحد ، فى تحريم ماكان حلالاً عندهم ، وأكد أبو طلحة ذلك بإتلاف الجرار وهى مال ، وإراقة الخمر وهى سرف ، فلو لم يكن الخبر عندهم حجة لما أقدم على ذلك(٤).

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله :

= وأخرجه فى كتاب أخبار الآحاد (٩٥) ، باب ماجاء فى إجازة خبر الواحد (١) ، ١٣٣/٨-١٣٤ .
وأخرجه مسلم فى صحيحه ، كتاب المساجد (٥) ، باب تحويل القبلة من القدس إلى الكعبة (٢) برقم ٥٢٦ ، ٣٧٥/١ .

(١) انظر : الرسالة ص٤٠٧ ، مختصر الصواعق المرسلة ص٤٩٦ ، فتح البارى ٢٣٧/١٣

(٢) المهراس : صخرة أو حجر منقور كالحوض ، يسع كثيراً من الماء ، يتوضأ فيه ، ولايقدر على تحريكه .
انظر : الفائق ١٠٢/٤ ، النهاية فى غريب الحديث ٢٥٩/٥ .

(٣) صحيح البخارى ، كتاب أخبار الآحاد (٩٥) ، باب ماجاء فى اجازة خبر الواحد (١) ، ١٣٤/٨ .
وأخرجه مسلم فى صحيحه بلفظ مقارب ، فى كتاب الأشربة (٣٦) ، باب تحريم الخمر (١) برقم ١٩٨٠ ، ١٥٧٢/٣ .

(٤) انظر : الرسالة ص٤١٠ ، مختصر الصواعق المرسلة ص٥٠٢ .

"وإن من جملة ماورد فى بعض طرقه "فوالله ماسألوا عنها ولاراجعوها بعد خبر الرجل"(١)وهو حجة قوية فى قبول خبر الواحد لأنهم أثبتوا به نسخ الشىء الذى كان مباحاً حتى أقدموا من أجله على تحريمه والعمل بمقتضى ذلك"(٢).

(٤) وروى بسنده إلى مالك بن الحويرث قال :

"أتينا النبى صلى الله عليه وسلم ونحن شببة متقاربون ، فأقمنا عنده عشرين ليلة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم رقيقاً ، فلما ظن أنا قد اشتهينا أهلنا ـ أو قد اشتقنا ـ سألنا عمن تركنا بعدنا فأخبرناه قال : ارجعوا إلى أهليكم فأقيموا فيهم وعلموهم ومروهم ـ وذكر أشياء أحفظها ولاأحفظها ـ وصلوا كما رأيتمونى أصلى ، فإذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم ، وليؤمكم أكبركم"(٣).

---

(١) أخرج هذه الرواية مسلم فى صحيحه . ولفظ الحديث :
قال عبد العزيز بن صهيب : سألوا أنس بن مالك عن الفضيخ؟ فقال :"وماكانت لناخمر غير فضيخكم هذا الذى تسمونه الفضيخ . إنى لقائم أسقيها أبا طلحة وأبا أيوب ورجالاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيتنا . إذ جاء رجل فقال : هل بلغكم الخبر؟ قلنا : لا . قال : فإن الخمر قد حرمت . فقال : ياأنس أرق هذه القلال . قال : فما راجعوها ولاسألوا عنها ، بعد خبر الرجل".
فى الكتاب والباب السابقين ١٥٧١/٣ .

(٢) فتح البارى ٢٣٨/١٣ .

(٣) صحيح البخارى ، كتاب أخبار الآحاد (٩٥) ، باب ماجاء فى إجازة خبر الواحد (١) ، ١٣٢/٨-١٣٣ .
وأخرج نحوه فى كتاب الأذان (١٠) ، باب من قال ليؤذن فى السفر مؤذن واحد (١٧) ، ١٥٤/١-١٥٥ ، وفى باب الأذان للمسافر (١٨) ١٥٥/١ ، وفى باب اثنان فما فوقهما جماعة (٣٥) ، ١٦٠/١ ، وفى باب إذااستووافى القراءةفليؤمهم أكبرهم (٤٩) ، ١٦٧/١ ، وفى باب المكث بين السجدتين (١٤٠) ، ١٩٩/١ .
وفى كتاب الجهاد (٥٦) ، باب سفر الاثنين (٤٢) ، ٢١٥/٣ .
وبلفظ مقارب فى كتاب الأدب (٧٨) ، باب رحمة الناس بالبهائم (٢٧) ، ٧٧/٧
وأخرجه مسلم فى صحيحه بلفظ مقارب فى كتاب المساجد (٥) ، باب من أحق بالإمامة (٥٣) برقم ٦٧٤ ، ٤٦٥/١-٤٦٦ .

فقد أمر صلى الله عليه وسلم كل واحد من هؤلاء الشببة أن يعلم أهله وأن يأمرهم بشرائع الإسلام التى علمهم إياها ، فلو أن خبر الآحاد لاتقوم به حجة ماكان لهذا الأمر من معنى(١).

(٥) روى الشافعى بسنده إلى عطاء بن يسار :

« أن رجلا قبل امرأته وهو صائم ، فوجد من ذلك وجداً شديداً ، فأرسل امرأته تسأل عن ذلك ، فدخلت على أم سلمة أم المؤمنين ، فأخبرتها فقالت أم سلمة: إن رسول الله يقبل وهو صائم . فرجعت المرأة إلى زوجها فأخبرته ، فزاده ذلك شراً وقال : لسنا مثل رسول الله ، يحل الله لرسوله ماشاء . فرجعت المرأة إلى أم سلمة فوجدت رسول الله عندها فقال رسول الله : مابال هذه المرأة ، فأخبرته أم سلمة ، فقال : ألا أخبرتيها أنى أفعل ذلك؟ فقالت أم سلمة : قد أخبرتها فذهبت إلى زوجها فأخبرته فزاده ذلك شراً ، وقال : لسنا مثل رسول الله ، يحل الله لرسوله مايشاء ، فغضب رسول الله ، ثم قال :"والله إنى لأتقاكم لله ولأعلمكم بحدوده" .

قال الشافعى رحمه الله بعد إيراده للحديث :

"فى ذكر قول النبى صلى الله عليه وسلم : "ألا أخبرتيها أنى أفعل ذلك" دلالة على أن خبر أم سلمة عنه مما يجوز قبوله ، لأنه لايأمرها بأن تخبر عن النبى إلا وفى خبرها ماتكون الحجة لمن أخبرته ، وهكذا خبر امرأته إن كانت من أهل الصدق عنده"(٢).

---

(١) انظر : الحديث حجة بنفسه ص٥٢ .

(٢) الرسالة ص٤٠٤-٤٠٦ ، ورقم الحديث ١١٠٩ .

والحديث أخرجه مالك فى الموطأ بلفظ مقارب مرسلاً فى كتاب الصيام (١٨) ، باب ماجاء فى الرخصة فى القبلة للصائم (٥) ورقم ١٣ ، ٢٩١/١-٢٩٢ .

وأخرج عبد الرزاق فى مصنفه نحوه مرسلاً باب القبلة للصائم برقم ٨٤١٢ ، ١٨٤/٤ .

وقد صحح الحافظ ابن حجر إسناد عبد الرزاق . انظر فتح البارى ١٥١/٤ .

وأخرج نحوه الإمام أحمد فى المسند من طريق عبد الرزاق ٤٣٤/٥ . قال الهيثمى "ورجال أحمد رجال الصحيح" . مجمع الزوائد ١٧٠/٣ . وقال الشيخ أحمد محمد شاكر : "وهو كما قال". الرسالة ص٤٠٥ الهامش .

والأحاديث فى ذلك أكثر من أن تحصر . وقد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رسله إلى ملوك الأرض المجاورين لبلاد العرب وكانوا آحادا وأمرهم بتعليم من أسلم شرائع الدين وألزم كل ملك بقبول ماأخبره به الرسول كما بعث كثيراً من أصحابه إلى جهات متعددة ليعلموا الناس وليقيموا شعائر الإسلام . فبعث معاذاً إلى اليمن ، وأباموسى إلى زبيد ، وأبا بكر على موسم الحج ، وأتبعه بعلى ، وبعث علياً قاضياً إلى اليمن ، وأبا عبيدة إلى نجران ، وبعث أميراً إلى كل جهة أسلمت ، وبعث إلى كل طائفةمعلماً يعلمهم دينهم ، ويبلغهم أحكام الشرع ، وكانت الحجة قائمة بتبليغ كل واحد من هؤلاء على من بلغهم ، وهم ملزمون بقبول ماأمرهم به(١).

قال الشافعى رحمه الله :

"ولم يكن رسول الله ليبعث إلاواحداً الحجة قائمة بخبره على من بعثه إليه ، إن شاء الله"(٢).

وقال الحافظ :

"وهو استدلال قوى لثبوت خبر الواحد من فعله صلى الله عليه وسلم لأن خبر الواحد لو لم يكن قبوله ماكان فى إرساله معنى"(٣).

وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يفتى بالفتيا ويحكم بالحكم لمن حضره من أصحابه ، وإن الحجة قائمة على سائر من لم يحضره بنقل من حضره وهو واحد واثنان وأكثر(٤).

---

(١) انظر : الرسالة ص٤١٣ فما بعدها ، الإحكام فى أصول الأحكام ١١٠/١ ، خبر الواحد وحجيته ص١١٠ .

(٢) الرسالة ص٤١٥ .

(٣) فتح البارى ٢٣٤/١٣ .

(٤) انظر : الإحكام فى أصول الأحكام ١١٤/١ .

وقد أجمع صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعون لهم وسلف الأمة بل والأمة بأسرها على قبول خبر الواحد الثقة عن النبى صلى الله عليه وسلم ، حتى حدث متكلموا المعتزلة بعد المائة فخالفوا الإجماع (١). وقد نقل جماعة من العلماء هذا الإجماع (٢).

وأما ماأثاره أهل الاعتزال من شبه اعتقدوا أنها تدل على عدم قبول خبر الواحد ، فهى شبه واهية لاتؤيد ماذهبوا إليه ، والإجابة عنها واضحة جلية .

فتوقف النبى صلى الله عليه وسلم فى خبر ذى اليدين لظنه خلاف ماأخبر به ، واستبعد انفراده بمعرفة ذلك دون من حضره من الجمع الغفير ، ولذا قال له :"لم أنس ولم تقصر الصلاة" وهذا فى ظنه صلى الله عليه وسلم ، ولايكلف الإنسان بقبول خبر مع ظنه عدم صدقه ، فلما وافقه غيره ارتفع الوهم عنه ، وعمل النبى صلى الله عليه وسلم بموجب خبره (٣).

وتوقف أبى بكر رضى الله عنه فى خبر المغيرة فى ميراث الجدة لم يكن منه رداً لخبر الآحاد ، وإنما قصد الاستظهار بشهادة غيره معه ، وذلك لزيادة التثبت والاحتياط ، فلما شهد محمد بن مسلمة أنه سمع ذلك من النبى صلى الله عليه وسلم لم يتردد أبوبكر رضى الله عنه فى العمل بخبر المغيرة (٤) وشهادة محمد بن مسلمة لم ترفع الخبر عن كونه خبر آحاد .

---

(١) انظر : المرجع السابق ١/١١٣-١١٤ .

(٢) انظر : الرسالة ص٤٥٣ ، المسودة ص٢٣٨ ، فتح البارى ١٣/٢٣٤ ، إرشاد الفحول ص٤٩ .

(٣) انظر : فتح البارى ١٣/٢٣٧ ، السنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى ص١٧٠ ، حديث الآحاد وحجيته ص١٠٨-١٠٩ .
والحديث سبق تخريجه . انظر ص: ٩٥، ٩٦

(٤) انظر : تدريب الراوى ١/٧٣ ، السنة ومكانتها فى التشريع ص١٧٠ ، حديث الآحاد وحجيته ص١٠٩ .
والخبر سبق تخريجه . انظر ص: ٩٦

وقد قبل أبو بكر خبر عائشة فى قدر كفن النبي صلى الله عليه وسلم(١).

وأما عمر رضى الله عنه فإن أبا موسى أخبره بالحديث عقب إنكاره عليه فأراد عمر التثبت والاحتياط سداً للذريعة لئلا يكون الناس كلما توجه لأحدهم لوم وضع حديثاً يرفع به اللوم عن نفسه ، ولذا قال عمر رضى الله عنه لأبى موسى : "أما إنى لم أتهمك ، ولكنى خشيت أن يتقول الناس على رسول الله"(٢)(٣). وتعضيد أبى سعيد لأبى موسى لايخرج الحديث عن دائرة حديث الآحاد(٤).

وقد قبل عمر رضى الله عنه خبر الضحاك بن سفيان فى "توريث المرأة من دية زوجها"(٥).

---

(١) روى البخارى بسنده إلى عائشة رضى الله عنها قالت : دخلت على أبى بكر رضى الله عنه فقال : فى كم كفنتم النبى صلى الله عليه وسلم؟ قالت : فى ثلاثة أثواب بيض سحولية ليس فيها قميص ولاعمامة ... الحديث .
صحيح البخارى ، كتاب الجنائز (٢٣) ، باب موت يوم الاثنين (٩٤) ، ١٠٦/٢ .

(٢) هذه الرواية أخرجها أبو داود فى سننه فى كتاب الأدب ، باب كيف الاستئذان برقم ٥١٨٤ ، ٣٤٧/٤ .
قال الشيخ ناصر الدين الألبانى : "صحيح الإسناد" . صحيح سنن أبى داود ٩٧٤/٣
وأخرجها مالك فى الموطأ ، كتاب الاستئذان (٥٤) ، باب الاستئذان (١) ، ٩٦٤/٢

(٣) انظر : الرسالة ص٤٣٤-٤٣٥ ، فتح البارى ٢٣٥/١٣ ، تدريب الراوى ٧٣/١ ، السنة ومكانتها فى التشريع ص١٧٠-١٧١ ، حديث الآحاد وحجيته ص١٠٩ .

(٤) انظر : فتح البارى ٢٣٥/١٣ ، السنة ومكانتها فى التشريع ص١٧١ .

(٥) روى أبوداود بسنده إلى سعيد بن المسيب قال : كان عمر بن الخطاب يقول : "الدية للعاقلة ، ولاترث المرأة من دية زوجها شيئاً"، حتى قال له الضحاك بن سفيان : "كتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أورث امرأة أشيم الضبابى من دية زوجها"، فرجع عمر .
سنن أبى داود ، كتاب الفرائض ، باب فى المرأة ترث من دية زوجها برقم ٢٩٢٧ ١٢٩/٣-١٣٠ .
قال الشيخ ناصر الدين الألبانى : "صحيح" . صحيح سنن أبى داود ٥٦٥/٢ =.

وقبـل خبر عبد الرحمـن بن عوف فى "أمـر الطاعون"[١]، وقبل غير ذلك من أخبار الآحاد[٢].

فـالصحابة رضـوان اللـه عليهـم لم يتـوقفوا فى الاحتجـاج بخبر الآحاد والعمل به ، بل أجمعوا على قبوله كما سبق ، وتوقف بعضهم أحيانا لبعض الأسباب ، ليس توقفا عن العمل به .

قال ابن دقيق العيد رحمه الله :

"وعلى الجملـة فلم يأت من خالف فى العمل بخبر الـواحد بشىء يصلح للتمسـك به ، ومن تتبع عمـل الصحابة من الخلفاء وغيرهـم وعمـل التابعين فتابعيهم بأخبار الآحاد وجد ذلك فى غاية الكثرة بحيـث لايتسع له إلا مصنف

= وأخرج نحوه الترمذى فى سننه فى كتاب الديات (١٤) ، باب مـاجاء فى المرأة هل ترث من دية زوجها (١٩) ، برقم١٤١٥ .

وقال : "هذا حديث حسن صحيح ، والعمل على هذا عند أهل العلم" ١٩/٤ . وفى كتـاب الفرائض (٣٠) ، باب مـاجاء فى ميراث المرأة من دية زوجهـا (١٨) برقـم ٢١١٠ ، ٣٧١/٤ .

وابن مـاجه فى كتاب الديات (٢١) ، باب الميراث مـن الـدية (١٢) برقـم ٢٦٤٢ ، ٨٨٣/٢ .

وأحمد فى المسند ٤٥٢/٤ .

(١) روى مسلم بسنده إلى عبيد الله بن عامر بن ربيعة أن عمـر خرج إلى الشام . فلما جاء سـرغ بلغه أن الوباء قد وقـع بالشام . فأخبره عبـد الـرحمن بن عوف ، أن رسـول الله صلى الله عليه وسلم قـال : "إذا سمعتم به بأرض ، فلاتقـدموا عليـه . وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلاتخرجوا فراراً منه" فرجع عمـر بن الخطاب من سرغ. وعـن ابن شهاب عن سالم بن عبـد الله ، أن عمر إنما انصـرف بالناس من حديث عبد الرحمن بن عوف .

صحيح مسلم ، كتاب السلام (٣٩) ، باب الطاعون (٣٢) ، ١٧٤٢/٤ .

والحديث أخرجه البخارى فى صحيحه مطولاً من حديث عبد الله بن عباس رضى الله عنه ، كتاب الطب (٧٦) ، باب مايذكر فى الطاعون (٣٠) ، ٢١/٧ .

وأخرجه مسلم كـذلك عن ابن عبـاس ، فى الكتاب والباب السـابقين برقم ٢٢١٩ ، ١٧٤٠/٤-١٧٤١ .

(٢) انظر : فتح البارى ٢٣٥/١٣ .

بسيط ، وإذا وقع من بعضهم التردد فى العمل به فى بعض الأحوال فذلك لأسباب خارجة عن كونه خبر واحد من ريبة فى الصحة أو تهمة للراوى أو وجود معارض راجح أو نحو ذلك"(١).

والإمام الشافعى رحمه الله يضع لنا القاعدة الصحيحة فى قبول الأخبار وردها فيقول :

"فلايجوز عندى على عالم أن يثبت خبر واحد كثيراً ويحل به ويحرم ويرد مثله إلا من جهة أن يكون عنده حديث يخالفه، أو يكون ماسمع ومن سمع منه أوثق عنده ممن حدثه خلافه ، أو يكون من حدثه ليس بحافظ ، أو يكون متهماً عنده ، أو يتهم من فوقه ممن حدثه ، أو يكون الحديث محتملاً معنيين ، فيتأول فيذهب إلى أحدهما دون الآخر ... فإن لم يسلك واحداً من هذه السبل فيعذر ببعضها ، فقد أخطأ خطأ لاعذر فيه عندنا والله أعلم"(٢).

فالشافعى لم يورد فيما ذكر رد الحديث بكونه آحادا ، أو رده بالعقل ، بل اعتبر ذلك من الخطأ الذى لايعذر فيه صاحبه .

وأما امتناعهم عن روايته والاحتجاج به بعلة أنه قد يقع فيه الكذب والخطأ والسهو والنسيان والتغيير والتبديل ، فذلك زعم واه وحجة داحضة يمكن أن يجاب عنها بعدة أوجه :

الأول : لايجوز أن يكون الخبر الذى تعبد الله به الأمة ، وتعرف به إليهم على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم كذباً وباطلاً ، لأنه من حجج الله على عباده، وحجج الله لايمكن أن تكون كذباً أو باطلاً(٣).

وقد قال سبحانه : {هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله}(٤)

---

(١) إرشاد الفحول ص٤٩ .

(٢) الرسالة ص٤٥٨-٤٥٩ .

(٣) انظر : مختصر الصواعق المرسلة ص٤٧٩ .

(٤) سورة الفتح : آية ٢٨ ، سورة الصف : آية ٩

فلابد أن يحفظ الله حججه وبيناته لئلا تبطل تلك الحجج والبينات (١).

الثانى : لايمكن أن يختلط الحق بالباطل ولايتميز ، فالفرق بين الحق والباطل ، والصدق والكذب ، ووحى الملك ووحى الشيطان أظهر من أن يشتبه أحدهما بالآخر ، بل الفرق بينهما كما بين الليل والنهار ، والضوء والظلام ، ولكن إنما يعرف ذلك من كان له عناية بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنته .

وأما الذين عميت بصائرهم وأبصارهم فليس بمستنكر أن يشتبه عليهم الحق والباطل كما اشتبه عليهم الليل والنهار ، فقد جعل الله للحق نوراً كنور الشمس يظهر للبصائر المستنيرة ، وألبس الباطل ظلمة كظلمة الليل .
قال معاذ بن جبل رضى الله عنه :

"تلق الحق ممن قاله ، فإن على الحق نوراً"(٢).

قال الإمام ابن القيم رحمه الله :

"لما أظلمت القلوب وعميت البصائر بالإعراض عما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، وازدادت الظلمة باكتفائها بآراء الرجال ، التبس عليها الحق بالباطل ، فجوزت على أحاديثه الصحيحة التى رواها أعدل الأمة وأصدقها أن تكون كذباً ، وجوزت على الأحاديث الباطلة المكذوبة المختلقة التى توافق أهواءها أن تكون صدقاً فاحتجت بها"(٣).

الثالث : لقد تكفل رب العالمين بحفظ دينه كله ، وإظهاره على الأديان كافة ، ولذلك فضح الله من كذب على رسوله صلى الله عليه وسلم فى حياته وبعد مماته .

---

(١) انظر : المرجع السابق ص٤٨٤ ، شرح الطحاوية ص٣٥٥ .
(٢) انظر : مختصر الصواعق المرسلة ص٤٧٩ .
(٣) المرجع السابق ص٤٧٩ .

قال سفيان بن عيينة[(١)]: "ماستر الله أحداً يكذب فى الحديث" .

وقال عبد الله بن المبارك : "لو هم رجل أن يكذب فى الحديث لأصبح والناس يقولون : فلان كذاب"[(٢)].

ولذا كشف لنا جهابذة الحديث ونقاده عن أسماء الكذابين وفضحوهم وأخرجوا الأحاديث المكذوبة وبينوها ، وألفت الكتب فى ذلك ، فلايعجز طالب للحق أن يقف على حكم أى حديث ليعرف درجته من الصحة أو الضعف أو الوضع .

الرابع : لايمكن لأحد أن يدعى أن رواة الحديث معصومون عن الخطأ أو الغلط أو السهو ، ولكن متى وقع ذلك فلابد أن يعرف ويبان ، وأن يقام دليل على بيانه[(٣)].

وقد هيأ الله لذلك علماء الحديث وجهابذة النقاد الذين ينخلون الأحاديث نخلاً ، ويكشفون مابها من خطأ وسهو وزلة ، قاصدين بذلك وجه الله والدار الآخرة ، وحفظ سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم من أن تشوبها شائبة أو تكدرها كدرة .

---

(١) سفيان بن عيينة :
هو سفيان بن عيينة بن أبى عمران ميمون الهلالى ، مولاهم ، أبو محمد ، الكوفى ثم المكى ، الأعور ، أحد الأعلام ، ثقة حافظ فقيه إمام حجة ، إلا أنه تغير حفظه بآخرة ، وربما دلس ولكن عن الثقات .
روى عن الزهرى وعمرو بن دينار وكان أثبت الناس فيه ، وعنه أحمد ، ومن شيوخه الأعمش وابن جريج . مات فى رجب سنة ١٩٨هـ .
انظر : الجرح والتعديل ٢٢٥/٤-٢٢٧ ، الكاشف ٣٧٩/١ ، تقريب التهذيب ٣١٢/١ .

(٢) انظر : مختصر الصواعق المرسلة ص٤٨٥ ، شرح العقيدة الطحاوية ص٣٥٥،٣٥٦ .

(٣) انظر : مختصر الصواعق المرسلة ص٥٠٠،٥٠١ .

(ج) زعمهم أنه لايحتج به إذاخالف العقل :

سبق أن بينا فى التمهيد(١) أن الحديث الصحيح لايخالف العقل الصريح بحال من الأحوال ، ومتى ماوقعت مخالفة بين نص وعقل ، فإما أن يكون النص غير صحيح أو أن يكون العقل واهماً فيما ذهب إليه مخطأ فيما ظنه ، وحينئذ يصبح ماعارض النص عبارة عن شبه وأوهام لاحقيقة لها من الصحة فلايرد النص بسببها .

(د) زعمهم بأن خبر الآحاد لايحتج به فى العقيدة لأن الاعتقاد يبنى على اليقين لاالظن وخبر الآحاد يفيد الظن .

وفرقوا بين الاعتقاد والعمل فى الاستدلال به .

فانه يجاب عليهم فى ذلك بعدة أوجه :

أولاً : الأدلة من الكتاب والسنة جاءت على العموم والإطلاق فى اتباع النبى صلى الله عليه وسلم والنهى عن عصيانه ، وذلك يشمل العقيدة والأحكام ، فلااستثناء للعقيدة ، فهى داخلة فى العموم ، وتخصيص الأحكام دونها تخصيص بدون مخصص وهو باطل . من تلك الأدلة قوله تعالى :

{وماكان لمؤمن ولامؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم}(٢). فقوله "أمراً" يشمل كل أمر سواء كان فى العقيدة أو الأحكام .

وقوله تعالى :{وماآتاكم الرسول فخذوه}(٣)، هو أيضا على عمومه(٤).

وقوله سبحانه : {وماكان المؤمنون لينفروا كافة ...} الآية(٥).

---

(١) انظر ص: ٣١ فما بعدها

(٢) سورة الأحزاب : آية ٣٦

(٣) سورة الحشر : آية ٧

(٤) انظر : الحديث حجة بنفسه ص٤٦ .

(٥) سورة التوبة : آية ١٢٢

نصت الآية على تعلم الدين ، وذلك ليس خاصاً بالأحكام بل هو يشملها ويشمل العقيدة ، بل هى الأهم ، ولولا أن الحجة تقوم بحديث الآحاد فى العقائد والأحكام ماحض الله الطائفة على التبليغ حضاًعاماً معللاً إياه بقوله "لعلهم يحذرون" الصريح فى أن العلم يحصل بإنذار الطائفة . فالآية نص فى أن خبر الواحد حجة فى التبليغ عقيدة وأحكاماً(١).

ومثل الآية حديث معاذ رضى الله عنه عندما بعثه النبى صلى الله عليه وسلم إلى اليمن وأمره بأن يدعوهم فى أول مايدعوهم إليه "أن يوحدوا الله" وهو من أقوى الحجج فى أن حديث الآحاد حجة فى العقائد والأحكام(٢).

ثانياً : إن الاحتجاج به فى العقائد والأحكام هو الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام لاخلاف فى ذلك(٣).

بل لم يزل الصحابة والتابعون ومن تبعهم وأهل السنة على الاحتجاج به فى مسائل الصفات والقدر والأسماء والأحكام ولم ينقل عن أحدهم خلاف فى ذلك(٤).

وأهل الحديث لايفرقون بين أحاديث الأحكام وأحاديث العقائد، ولايعرفه أيضا أحد من الصحابة ولاالتابعين ولاتابعيهم ولاعن أحد من أئمة الإسلام ، وإنما يعرف ذلك عن أهل البدع ومن تبعهم(٥). بل الإجماع منعقد على وجوب الأخذ به فى العقائد والأحكام قبل الخلاف فى المسألة(٦).

ثالثاً : التفريق بين العقائد والأحكام تفريق بين أمرين متلازمين لأن العقيدة تتضمن حكماً ، والحكم يتضمن عقيدة ، بل التفريق فى ذلك أمر

---

(١) انظر : المرجع السابق ص٤٩،٥٠ .
(٢) انظر : الأدلة والشواهد ص٤٤،٤٥ ، والحديث سبق تخريجه انظر ص: ٨٢
(٣) انظر : المرجع السابق ص٥١ .
(٤) انظر : مختصر الصواعق المرسلة ص٥٠٩ ، أصول الفقه وابن تيمية ص٥٦٥ .
(٥) انظر : مختصر الصواعق المرسلة ص٥٢٥ .
(٦) انظر : لوامع الأنوار ١٩/١ ، الأدلة والشواهد ص٧٩ .

مبتدع حادث لادليل عليه البتة(١). بل هو فلسفة دخيلة على الإسلام لاعهد لسلف هذه الأمة بها(٢).

يقول الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله :

"وبهذا تعلم أن ماأطبق عليه أهل الكلام ومن تبعهم أن أخبار الآحاد لاتقبل فى العقائد ولايثبت بها شىء من صفات الله زاعمين أن أخبار الآحاد لاتفيد اليقين وأن العقائد لابد فيها من اليقين باطل لايعول عليه . ويكفى من ظهور بطلانه أنه يستلزم رد الروايات الصحيحة الثابتة عن النبى صلى الله عليه وسلم بمجرد تحكيم العقل"(٣).

رابعاً : القول بأن "حديث الآحاد لاتثبت به عقيدة ، هو قول فى حد ذاته عقيدة ، فما الدليل على صحته؟" بل هو مجرد دعوى لاأساس لها . ومثله يرد فى الأحكام دعك عن العقيدة(٤).

وهذا قول يحمل بين طياته مؤامرة تسعى للنيل من عقائد الإسلام الحقة التى حملها سلف هذه الأمة ودافعوا عنها دفاعاً مستميتاً ، بل والفتك بها بحجة أنها أسست على شفا جرف هار من الظن والتخمين ، والظن لايغنى من الحق شيئا(٥).

والظن المعاب هنا هو الذى بمعنى الشك والخرص والتخمين ، وهذا لايؤخذ به فى الأحكام فكيف يؤخذ به فى العقائد ، وهو الذى نعاه الله على المشركين بقوله : {إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون}(٦). وبقوله : {إن يتبعون إلا الظن وماتهوى الأنفس}(٧).

---

(١) انظر : مختصر الصواعق المرسلة ص٥١٥،٥١٦،٥٢٥ ، الأدلة والشواهد ص٤٥-٤٦،٨٩

(٢) انظر : الحديث حجة بنفسه ص٤٨،٥٥ .

(٣) مذكرة أصول الفقه ص١٠٥ .

(٤) انظر : الحديث حجة بنفسه ص٤٩ .

(٥) انظر : الأدلة والشواهد ص٤ .

(٦) سورة الأنعام : آية ١١٦ ، سورة يونس : آية ٦٦

(٧) سورة النجم : آية ٢٣

فالله أنكره عليهم إنكاراً مطلقاً لم يخصه بعقيدةدون حكم ، بل قد صرحت بعض الآيات بأن الإنكار يشمل القول به فى الأحكام أيضاً ، وذلك فى قوله سبحانه : {سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ماأشركنا ولاآباؤنا ـ فهذا عقيدة ـ ولاحرمنا من شىء ـ وهذا حكم ـ كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون}(١).

وأماالظن الذى تفيده أحاديث الآحاد-على قول من يقول بذلك-إنما هو الظن الراجح لاالمرجوح الذى عابه الله على المشركين لأنه مبنى على اتباع الهوى والخرص والتخمين فهو أولى بالذم . وأما الراجح فقد مدحه الله فى أكثر من آية . كقوله سبحانه : {إنى ظننت أنى ملاق حسابيه . فهو فى عيشة راضية}(٢) ، وقوله فى وصف المؤمنين : {الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون}(٣).

ومن هنا يتضح خطأ أهل الاعتزال الذين فسروا الظن الذى تفيده أحاديث الآحاد بظن المشركين ، وهو زعم لادليل عليه(٤).

والقول بأن أحاديث الآحاد تفيد الظن ليس موضع اتفاق بين العلماء بل الخلاف بينهم قائم فى ذلك، فجمهور الأصوليين على أنه يفيد الظن ، وذهب جمهور أهل الحديث وأهل الظاهر وجماعة من العلماء على أنه يفيد العلم اليقينى ، وذهب جماعة آخرون على أنه يفيد العلم إذا احتف بالقرائن (٥).

---

(١) انظر : الحديث حجة بنفسه ص٤٧ ، الأدلة والشواهد ص١٦ .
والآية هى ١٤٨ من سورة الأنعام .

(٢) سورة الحاقة : آية ٢١،٢٠

(٣) سورة البقرة : آية ٤٦

(٤) انظر : الأدلة والشواهد ص٢٢ .

(٥) انظر : مذكرة أصول الفقه ص١٠٣ ، الباعث الحثيث ص٣٥-٣٧ ، خبر الواحد وحجيته ص٧٣،٩٢ .

والذى يترجح من أقوال العلماء وتطمئن له النفس أن حديث الآحاد متى ثبتت روايته ولم يكن فيه طعن فانه يفيد العلم اليقينى(١).

قال الشيخ ناصر حفظه الله :

"والحق الذى نراه ونعتقده أن كل حديث آحادى صحيح تلقته الأمة بالقبول من غير نكير منها عليه ، أو طعن فيه ، فانه يفيد العلم واليقين ، سواء كان فى الصحيحين أو فى غيرهما .

وأما ماتنازعت الأمةفيه ، فصححه بعض العلماء وضعفه آخرون فإنمايفيد عند من صححه الظن الغالب فحسب . والله أعلم"(٢).

والأدلة السابقة فى وجوب العمل تدل دلالةواضحة على إفادته للعلم ، إذ العمل بموجبها فرع ثبوت العلم بها(٣).

ويقول الشيخ أحمد شاكر رحمه الله :

"والحق الذى ترجحه الأدلة الصحيحة ماذهب إليه ابن حزم ومن قال بقوله ، من أن الحديث الصحيح يفيد العلم القطعى سواء كان فى أحد الصحيحين أم فى غيرهما . وهذا العلم اليقينى علم نظرى برهانى ، لايحصل إلا للعالم المتبحر فى الحديث العارف بأحوال الرواة والعلل .

وهذا العلم اليقينى النظرى يبدو ظاهراً لكل من تبحر فى علم من العلوم ، وتيقنت نفسه بنظرياته ، واطمأن قلبه إليها . ودع عنك تفريق المتكلمين فى اصطلاحاتهم بين العلم والظن ، فإنما يريدون بهما معنى آخر غير مانريد"(٤).

---

(١) انظر : الإحكام فى أصول الأحكام ١١٩،١٠٨/١ ، أصول الفقه وابن تيمية ٥٦٢-٥٦١/٢ .

(٢) الحديث حجة بنفسه ص١٥ .

(٣) انظر : أصول الفقه وابن تيمية ٥٦٢/٢ .

(٤) الباعث الحثيث ص٣٧ .

وأهل الاعتزال إذ زعموا أن أحاديث الآحاد لاتفيد علماً فإنما تحدثوا عن أنفسهم أنهم لم يستفيدوامنها ذلك ، فهم صادقون فيما أخبروا به عن أنفسهم، وذلك لايقدح فى حصول العلم لغيرهم من أهل الحديث .

قال شيخ الإسلام رحمه الله :

"فإن ماتلقاه أهل الحديث وعلماؤه بالقبول والتصديق فهو محصل للعلم مفيد لليقين ، ولاعبرة بمن عداهم من المتكلمين والأصوليين ، فإن الاعتبار فى الإجماع على كل أمر من الأمور الدينية بأهل العلم به دون غيرهم ، كما لم يعتبر فى الإجماع على الأحكام الشرعية إلا العلماء بها دون المتكلمين والنحاة والأطباء ، وكذلك لايعتبر فى الإجماع على صدق الحديث وعدم صدقه إلا أهل العلم بالحديث وطرقه وعلله ، وهم علماء أهل الحديث العالمون بأحوال نبيهم ، الضابطون لأقواله وأفعاله ، المعتنون بها أشد من عناية المقلدين بأقوال متبوعيهم"(١).

(هـ) ماذهب إليه الجبائى من اشتراط العدد فى قبول الحديث يرد عليه بوجهين :

الأول : إن اشتراط العدد لقبول الحديث لم يصرح به أحد من المحدثين (٢).

الثانى : إن الجبائى قاس الرواية على الشهادة وهذا مذهب باطل بإجماع من يعتد به من العلماء(٣).

والفروق بين الرواية والشهادة فروق ظاهرة لاتخفى على أهل العلم ، من ذلك :

(١) الكذب على الرسول صلى الله عليه وسلم ليس كالكذب على غيره ، كما قال صلى الله عليه وسلم :

---

(١) مختصر الصواعق ص٤٨٣-٤٨٤ ، وانظر ص٤٧٢،٤٨٦ .
(٢) انظر : النكت على كتاب ابن الصلاح ٢٣٨/١ .
(٣) انظر : مذكرة أصول الفقه ص١١١ .

"إن كـذباً على ليـس ككـذب على أحد"(١)، لأنه لـو كذب عليـه ولم يظهر لزم من ذلك إضلال الخلق ، وهذا بخلاف مايقع فى خبر الشاهد.

(٢) الخبر عنـه صلى اللـه عليـه وسلم لابد من اشتراط الثقـة فى رواته(٢).

(٣) إن اللـه تعالى تكفل بحفـظ الدين ، ولم يتكفل بحفـظ دمـائنا وفروجنا وأبشـارنا وأموالنا فى الـدنيا ، بل إن كثيراً من ذلـك يؤخذ بغير وجه حق . كمـا نص عليه رسول اللـه صلى الله عليه وسلم فى قـوله : "إنما أنا بشـر وإنكم تختصمون إلى ولعل بعضكم أن يكـون الحن بحجته من بعض فأقضى نحو ماأسمع فمن قضيت له بحق أخيه شيئاً فلايأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار"(٣).

(٤) رواية المرأة كـرواية الرجل وليس شهادتها كشهادته . وروايـة النسـاء مقبـولة فى الـدماء والحدود ونحو ذلـك ولاتقبـل شهـادتهن فى ذلـك . والشهادة فى الزنا لابد فيها من أربعة بخلاف الرواية .

إلى غير ذلك من الفوارق التى لانزاع فيها بين أهل العلم(٤).

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه من حديث المغيرة بن شعبـة فى كتاب الجنائز (٢٣) ، باب مايكره من النياحة على الميت (٣٤) ، ٨١/٢ .
وأخرجه مسلم فى صحيحـه من حديث المغيرة أيضاً فى المقـدمة، باب تغليظ الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) ، برقم ٤ ، ١٠/١ .

(٢) انظر : الأدلة والشواهد ص٨٠ .

(٣) انظر : الإحكام فى أصول الأحكام ١٣١/١-١٣٢ .
والحديث أخرجه البخـارى فى صحيحـه مـن حديث أم سلمـة ، كتـاب الأحكـام (٩٣) ، باب موعظة الإمام للخصوم (٢٠) ، ١١٢/٨ .
وأخرجه بلفظ مقارب فى كتاب الشهادات (٥٢) ، باب من أقـام البينة بعد اليمين (٢٧) ، ١٦٢/٣ .
وفى كتاب الحيل (٩٠) ، باب (١٠) ، ٦٢/٨ .
وأخرجه مسلم فى صحيحـه بلفـظ مقـارب ، كتـاب الأقضيـة (٣٠) ، باب الحكـم بالظاهر واللحن بالحجة (٣) ، برقم ١٧١٣ ، ١٣٣٧/٣-١٣٣٨ .

(٤) انظر : مذكرة أصول الفقه ص١١١ ، وانظر إلى فوارق أخرى بين الرواية والشهادة فى الرسالة للإمام الشافعى ص٣٧٣ .

والذى دفع أهل الاعتزال إلى رد أخبار الآحاد وعدم الاحتجاج بها فى كثير من الأمور التى قرروها بعقولهم وجعلوها عقيدة يدينون الله بها ويوالون عليها ويعادون عليها . ذلك أن أخبار الآحاد تتعارض مع ماقرروه فى نظرياتهم العقدية تلك التى كانت من إفرازات عقولهم وشبهات أذهانهم .

وسوف أتناول أبرز الأمور التى يتضح من خلالها موقفهم من حديث الآحاد .

(١) **صفات الله تعالى .**

إن أول مـن يذكر عنه أنه تكلم فى صفات الله تعالى فى الإسلام وابتدع القول بنفيها وتعطيلها هو الجعد بن درهم(١)، ثم أخذعنه ذلك تلميذه الجهم بن صفوان(٢)الترمذى ، وتولى كبر نشر تلك المقالة فكثر أتباعه .

فلما ظهرت المعتزلة أخذت عن جهم قوله فى نفى الصفات(٣).

وقد أجمع المعتزلة على نفى صفات الله تعالى الأزلية ، سواء منها ماكان من صفات الذات(٤)، أو صفات الأفعال(٥).

---

(١) الجعد بن درهم :
هو مؤدب مروان الحمار . من الموالى . يعد فى التابعين . زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ، ولم يكلم موسى ، وابتدع القول بخلق القرآن ، وكان زنديقاً . قتله خالد القسرى يوم النحر .
انظر : ميزان الاعتدال ٣٩٩/١ ، سير أعلام النبلاء ٤٣٣/٥ ، البداية والنهاية ٣٥٠/٩ ، لسان الميزان ١٠٥/٢ ، الأعلام ١٢٠/٢ .

(٢) الجهم بن صفوان :
هو أبو محرز الراسبى ، مولاهم ، السمرقندى ، الكاتب المتكلم ، الضال المبتدع ، رأس الجهمية ، كان ينكر الصفات، ويقول بخلق القرآن ، وإن الله فى الأمكنة كلها ، والإيمان عقد بالقلب ، وإن تلفظ بالكفر . قتل بمرو فى عام ١٢٨هـ بعد أن زرع شراًعظيماً .
انظر : تاريخ الطبرى ٢٢٠/٧ ، الكامل فى التاريخ ٣٤٢/٥-٣٤٤ ، ميزان الاعتدال ٤٢٦/١ ، سير أعلام النبلاء ٢٦/٦-٢٧ ، الأعلام ١٤١/٢ .

(٣) انظر : الملل والنحل ص٨٦ مع الهامش ، جهم بن صفوان ومكانته فى الفكر الإسلامى ص٧٢-٧٣ .

(٤) الصفات الذاتية :
هى الصفات الأزلية الثابتة لله تعالى التى لاتنفك عنه كصفة النفس والعلم والحياة والقدرة والسمع . انظر : الكواشف الجلية ص٤٢٩ .

(٥) الصفات الفعلية :
هى الصفات الثابتة لله تعالى التى تتعلق بالمشيئة والقدرة ، وهى قديمة النوع حادثة الآحاد كصفة الاستواء والنزول والضحك والمجىء .
انظر : الكواشف الجلية ص٤٢٩،٤٣٠ .

وزعموا بأنه ليس له سبحانه علم ، ولاقدرة ، ولاحياة ، ولاسمع ، ولابصر ، ولاغير ذلك من الصفات(١).

واتفقوا على أن صفاته سبحانه هى إثبات لذاته(٢). كما اتفق جمهورهم على أن الله تعالى عالم ، قادر ، حى ، بذاته ، لابعلم ، وقدرة ، وحياة ، هى صفات ومعانى قائمة به(٣).

وكانت هذه المقالة فى مبدئها غير ناضجة ، وكان واصل بن عطاء(٤) يشرع فيها على استحالة وجود إلهين قديمين أزليين ، وإنما شرعت أصحابه فيها بعد مطالعة كتب الفلاسفة(٥).

والذى دفعهم إلى نفى صفات الله تعالى ، الخوض فى ذلك بعقولهم والاعتماد عليها فىمعرفة الله سبحانه وصفاته(٦).

ولذا شرطوا فى إثبات الصفة لله أن تكون معقولة ليصح إثباتها لله تعالى ، لأن إيراد الدلالة على إثبات الشىء فرع على كونه معقولاً فى نفسه(٧).

والاستدلال بالسمع على ذلك غير ممكن(٨).

---

(١) انظر : الفرق بين الفرق ص١١٤ ، فى العقيدة الإسلامية ص٢٤٤ .

(٢) انظر المرجع السابق ص٢٤٤ .

(٣) انظر المرجع نفسه ص٣٩٩ .

(٤) واصل بن عطاء :
هو واصل بن عطاء الغزال ، أبو حذيفة ، مولى بنى ضبة أو بنى مخزوم ، ولد بالمدينة ونشأ بالبصرة ، رأس المعتزلة ، ومن أئمة البلغاء والمتكلمين ، تنسب إليه الطائفة الواصلية . له تصانيف . منها : "أصناف المرجئة" ، "المنزلة بين المنزلتين" ، "معانى القرآن" . مات سنة ١٣١هـ .
انظر : وفيات الأعيان ١١،٧/٦ ، ميزان الاعتدال ٣٢٩/٤ ، سير أعلام النبلاء ٤٦٤/٥-٤٦٥ ، لسان الميزان ٢١٤/٦ ، شذرات الذهب ١٨٢/١ ، الأعلام ١٠٨/٨-١٠٩ .

(٥) انظر : الملل والنحل ٤٦/١ .

(٦) انظر : المحيط بالتكليف ص٣٠-٣١،٣٣ .

(٧) انظر المرجع السابق ص١١٠ .

(٨) انظر : شرح الأصول ص٢٠١ .

وبالتـالى لايجوز عندهم الاحتجاج بأحاديث الآحاد فى هـذا الباب لأنه لااعتماد عليها ههنا ، وإنما فارس الميدان فى هذا المقام هو العقل فلامنافس له البتـة ولامشارك له. ولازم ذلـك أن يرد كل حديث مهمـا كـانت صحته قام بمعارضة عقولهم فى إثبات صفة لله تعالى .

ولما كان الاعتماد على العقول فى إثبات صفات اللـه تعالى عند المعتزلة سولت لهم عقولهم شبهتين بهماعطلوا صفات الخالق وجردوه عنها :

الأولى : إن مـن أثبـت للـه صفة قديمة فقد قال بتعـدد القـدماء ، لأن صفـاته لـو شاركته فى القدم لشـاركته فى الألـوهية ، وأدى ذلـك إلى تعـدد القديم سبحانه(١).

قال عبد الجبار :

"فـالقديم تعـالى لـو استحـق هـذه الصفات (الحياة ـ العلم ـ القـدرة ـ الوجود ـ ...) لمعان قديمة لوجب أن تكون مثلاً لله تعالى"(٢).

وقال :

"فلو كان له علم قديم لوجبت مماثلته له فى كل صفة ، لأن الاشتراك فى صفـة من صفات الذات يوجب الشركة فى سائرهـا ويوجب المماثلة"(٣).

الثانية : إن إثبات تلك الصفات يلزم منه أن يكـون الله جسماً محدثاً كما تقتضيه حجة العقل(٤).

وقد علل عبد الجبار ذلك بقوله :

"ومـن جملـة ماينفى عنه تعـالى أن يكـون بصفة الجواهـر والأجسام ، والأصـل فى ذلك أن الكلام فى نفـى الجسمية على الحقيقـة كالوجه فيه ، أنه إذا كـان كذلك لم يكن بد من تحيزه ، فإنه إذا لم يكـن كذلك لم ينفصل عن غيره ، وإذا كـان متحيزاً وجب أن لاينفصل تحيزه عن كونه كـائناً فى جهة ،

---

(١) انظر : الملل والنحل ١/٤٤-٤٦ .

(٢) شرح الأصول ص١٩٧ .

(٣) المحيط بالتكليف ص١٨٠ .

(٤) انظر : فضل الاعتزال ص١٥٣ .

وقـد مضـى الكلام فى أنه لايكـون الكـائن كـائناً فى جهـة إلا لمعنى محدث والقـول بأنه جسم يعيده إلى أنه محدث ، ... وممـا يدل على هـذا أيضـا أن الـدلالة قد دلت على أن الأجسام متماثلة ، وإذا ثبت تماثلهـا لم يصح إلا أن يستوى الكل فى استحقاق الصفة الذاتية"(١).

فـالصفات التى تطلـق ألفـاظهـا على البشـر لايجوز أن تطلـق على اللـه سبحـانه وتعالى لأنه يستوى عندئذ الكل فى استحقاق هـذه الصفات ، ويلزم من ذلك مماثلة الله للبشر وتشبيهه بهم ، وبالتالى يؤدى إلى أن يكـون الله جسماً كالأجسام .

قال عبد الجبار :

"لو كان الله عالما بعلم لكان يجب فى علمه أن يكون مثلاً لعلمنا"(٢).

وقال :

"فكل ماكان مما لايجوز إلا على الأجسام ، فيجب نفيه عنه تعالى"(٣).

لأنه لـو كـان حياً بحياة وقـادراً بقدرة لوجب أن يكـون سبحـانه جسماً محلاً للأعراض(٤).

والموحد لله هو الذى ينفى عنه مشابهة الأجسام .

قال عبد الجبار :

"تمام التوحيد لايكون إلا بأن تنفى عن الله شبه الأجسام"(٥).

وإثبـات الصفات لله تشبيـه لله بخلقه ، وحال صـاحبه أشد من حال من يعبد الأصنام(٦).

وأهـل السنة المثبتون لصفـات الله تعالى مشبهة ، غير مـوحدين لله ، ولايعـرفون ربهـم ، لأنهم وصفـوه بالأعضاء والزوال والاستـواء ويلـزم من

---

(١) المحيط بالتكليف ص١١٨ .
(٢) شرح الأصول ص٢٠١ .
(٣) المحيط بالتكليف ص٢٠٠ .
(٤) انظر : شرح الأصول ص٢٠٠-٢٠١ .
(٥) المحيط بالتكليف ص٣٧ .
(٦) انظر : فضل الاعتزال ص١٥٢ .

ذلك أن يكون جسما(١).

وأما آيات القرآن الكريم التى تثبت صفات الله تعالى فهى آيات متشابهة كما يزعمون ، فيجب أن تأول لموافقة الأدلة القاطعة وهى أدلة العقول ، لأنها موهمة للتشبيه ، ولأنها محتملة الدلالة ، وأما العقل فلااحتمال فى دلالته . وماوقع التشبيه فى الأمة إلا بسبب التعلق بالآيات المتشابهة وترك تأولها على مايوافق دليل العقل والآيات المحكمة(٢).

قال عبد الجبار :

"إذا ورد فى القرآن آيات تقتضى بظاهرها التشبيه ، وجب تأويلها ، لأن الألفاظ معرضة للاحتمال ، ودليل العقل بعيد عن الاحتمال"(٣).

ويورد أبو الحسين عددا من آيات الصفات ثم يقول :

"فكل هذه الآيات وماأشبهها من الآيات ، فإنما يريد عز وجل ذاته ، لأن ثم نفسا ووجها ويدا ، وعينا ويمينا سواء"(٤).

منهج السلف فى صفات الله والرد على المعتزلة :

الكلام عن صفات الله عز وجل له أهمية عظيمة بالنسبة للفرد المسلم وذلك لأن الإيمان بالله الذى هو الركن الأول من أركان الإيمان لايتحقق إلا إذا وصف الله سبحانه بما يستحقه من صفات الكمال اللائقة به ، ونعوت الجلال التى تعرف العبد بربه تعالى . بل لايكون العبد موحدا لله إلا إذا عرف الله سبحانه بأسمائه وصفاته وأقر بذلك، إذ الإقرار بأسماء الله وصفاته تحقيق لأحد أقسام التوحيد الثلاثة(٥)التى لاينفك بعضها عن بعض .

ولما كانت أسماء الله وصفاته بهذه الأهمية كثر ذكرها فى كتاب الله عز وجل وفى حديث رسوله صلى الله عليه وسلم .

---

(١) انظر : فضل الاعتزال ص١٩٦-١٩٧ .
(٢) انظر : المرجع السابق ص١٤٩ .
(٣) المحيط بالتكليف ص٢٠٠ .
وانظر : شرح الأصول ص٢١٢ ، فضل الاعتزال ص١٤٩،١٥٢ .
(٤) رسائل العدل ص١١٥ .
(٥) وهى توحيد : الربوبية ، والألوهية ، والأسماء والصفات .

ولوضوح هذا التوحيد لم يقع خلاف بين صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه ، ولم يتنازع اثنان منهم فى أمر واحد منه ، بل الجميع كانوا على اتفاق تام بالإقرار به والتسليم بما جاء فى القرآن والحديث منه .

يقول ابن القيم رحمه الله :

"وقد تنازع الصحابة فى كثير من مسائل الأحكام ، وهم سادات المؤمنين وأكمل الأمة إيماناً ، ولكن بحمد الله لم يتنازعوا فى مسألة واحدة من مسائل الأسماء والصفات والأفعال ، بل كلهم على إثبات مانطق به الكتاب والسنة كلمة واحدة ، من أولهم إلى آخرهم ، لم يسوموها تأويلا ولم يحرفوها عن مواضعها تبديلا ، ولم يبدوا لشيء منها إبطالاً ، ولاضربوا لها أمثالاً ، ولم يدفعوا فى صدورها وأعجازها ، ولم يقل أحد منهم يجب صرفهاعن حقائقها وحملها على مجازها، بل تلقوها بالقبول والتسليم ، وقابلوها بالإيمان والتعظيم ، وجعلوا الأمر فيها كلها أمراً واحداً ، وأجروها على سنن واحد ، ولم يفعلوا كما فعل أهل الأهواء والبدع حيث جعلوها عضين ، وأقروا ببعضها وأنكروا بعضها من غير فرقان مبين ، مع أن اللازم لهم فيما أنكروه كاللازم فيما أقروا به وأثبتوه"(١).

وقد ظلت القرون الخيرة تنهج نهج صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى إثبات صفات الله والإقرار بها إلى أن نجم التجهم فى الأمة وابتدع القول بنفى صفات الله ، فاحتضن أهل الاعتزال تلك المقالة وجعلوها عقيدة يدينون الله بها(٢).

وأما أهل السنة والجماعة من سلف هذه الأمة فإنهم أثبتوا لله تعالى ماأثبته لنفسه وأثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم من أسمائه الحسنى

---

(١) أعلام الموقعين ٤٩/١ ، وانظر : لوامع الأنوار ٦/١ .

(٢) انظر : الملل والنحل ص٨٦ مع الهامش .

وصفاته العليا من غير تحريف[١]، ولاتعطيل[٢]، ولاتكييف[٣]، ولاتمثيل ، كما نفوا عنه مالايليق به من صفات النقص التى نفاها عن نفسه سبحانه ونفاها عنه رسوله صلى الله عليه وسلم مستندين فى ذلك إلى قوله سبحانه : {ليس كمثله شيء}[٤]إثبات لصفات الله بلاتمثيل . {وهو السميع البصير} تنزيه لله عن صفات النقص بلاتعطيل[٥].

يقول الإمام أبو عثمان الصابونى رحمه الله :

"أصحاب الحديث ، حفظ الله أحياءهم ، ورحم أمواتهم ، يشهدون لله بالوحدانية ، وللرسول صلى الله عليه وسلم بالرسالة والنبوة . ويعرفون ربهم عز وجل بصفاته التى نطق بها وحيه وتنزيله ، أو شهد بها رسوله صلى الله عليه وسلم على ماوردت الأخبار الصحاح به ، ونقلته العدول الثقات عنه ، ويثبتون لله جل جلاله ماأثبته لنفسه فى كتابه ، وعلى لسان رسوله

---

(١) التحريف : هو التغيير . القاموس المحيط ص١٠٣٣ .
وفى الاصطلاح هو تغيير ألفاظ أسماء الله وصفاته ومعانيها . وهو قسمان :
تحريف لفظ : كتحريف اليهود لقوله تعالى "وقولوا حطة" فقالوا : "حنطة" .
وتحريف معنى : كتفسير المبتدعة لصفة الغضب بإرادة الانتقام .
انظر : الكواشف الجلية ص٨٦ .

(٢) التعطيل : هو التفريغ والإخلاء ، وترك الشيء ضياعا .
القاموس المحيط ص١٣٣٥ .
والمراد به هنا : نفى صفات الله تعالى ، وإنكار قيامها بذاته أو إنكار بعضها دون بعض .
انظر : الكواشف الجلية ص٨٧ .

(٣) التكييف : من الكيف وهو القطع .
انظر : القاموس المحيط ص١١٠١ .
والمراد به هنا القطع بحقيقة صفات الله ، وتعيين كنهها ، وأن لها حقيقة معلومة .
انظر : الكواشف الجلية ص٨٩ .

(٤) سورة الشورى : آية ١١

(٥) انظر : مجموع الفتاوى ٣٧٣/٣ ، المنتقى من منهاج الاعتدال ص٨٤،١٠٨-١٠٩ ، لوامع الأنوار ٩٤/١،٩٧،١١٦،١٢٨،١٢٩ ، إيضاح الدليل ص٣٩ ، شرح لمعة الاعتقاد ص٢٢ .

صلى اللـه عليه وسلم ، ولايعتقـدون تشبيهاً لصفاته بصفـات خلقه ، فيقولون إنه خلـق آدم بيده كما نص سبحـانه عليه فى قوله عز مـن قـائل : {ياإبليس مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدى}[1]، ولايحرفون الكلام عن مواضعه بحمل اليدين على النعمتين ، أو القوتين ، تحريف المعتزلة الجهمية ، أهلكهم الله ، ولايكيفـونهما بكيـف ، أو تشبيههمـا بأيدى المخلـوقين ، تشبيـه المشبهـة[2] خذلهـم اللـه ، وقد أعاذ اللـه تعالى أهل السنة من التحـريف والتكييـف ، ومـن عليهـم بالتعـريف والتفهيم ، حتى سلكـوا سبـل التـوحيد والتنزيه ، وتركـوا القـول بالتعليل والتشبيـه ، واتبعـوا قول اللـه عـز وجل : {ليس كمثله شىء وهو السميع البصير}[3][4].

وهنـاك بعض القواعد المهمـة التى يتضح من خلالهـا منهـج السلف فى صفات الله عز وجل . من ذلك :

(١) القول فى الصفات كالقول فى الذات :

فـإذا كـان لله سبحانه ذات حقيقيـة لاتماثل ذوات المخلـوقين ، فـذاته متصفة بصفات حقيقية لاتماثل سائر صفات الخلق .

فمـا يقـال عن ذاته سبحانه يقـال عن صفاته ، إذ الكلام فى الصفـات فرع على الكلام فى الذات يحتذى حذوه[5].

---

(١) سورة ص : آية ٧٥

(٢) المشبهة :
هـم الذين يشبهون الخالق بالمخلوق ، فيقولون له وجه كـوجه المخلوق ويد كيد المخلـوق ونحو ذلك . ومنهم من يزعم أن معبودهم جسـم ذو أبعاض ، محدودة . انظر : مقالات الإسلاميين ١/١٠٦-١٠٧ ، الملل والنحل ١/١٠٣-١٠٥ ، منهـاج السنة النبوية ٢/٥٢٢,٥٢٣ ، الكواشف الجلية ص٨٩ .

(٣) سورة الشورى : آية ١١

(٤) عقيدة السلف أصحاب الحديث ص٧٥ .

(٥) انظـر : مجمـوع الفتاوى ٣/٢٥،١٦٧ ، تلبيـس الجهمية ١/٧٦ ، الكـواشف الجليـة ص٢٣٠،٤٣٠ .

(٢) القول فى بعض الصفات كالقول فى البعض الآخر[١]:

فإثبات صفة لله تعالى يلزم منه إثبات بقية الصفات ، ونفى صفة واحدة يلزم منه نفى بقية الصفات ، إذ لافرق بين صفة وصفة . وإن من نفى شيئاً وأثبت شيئاً مما دل الكتاب والسنة على إثباته فهو متناقض لايستقيم له دليل لامن الشرع ولامن العقل[٢].

(٣) الاتفاق فى الأسماء لايقتضى التساوى فى المسميات :

فالله سبحانه سمى نفسه بأسماء ووصف نفسه بصفات مختصة به لايشركه فيها غيره ، كما سمى بعض مخلوقاته بأسماء ووصفهم بصفات تختص بهم ، فلايلزم من اتفاق الأسماء والصفات تماثل مسماها[٣].

فإن الله سبحانه أخبرنا عن الجنة ومافيها من أصناف المطاعم والملابس والمساكن ، وأن فيها لبناً وعسلاً وخمراً ، ولحماً وحريراً وذهباً وفضة ، وفاكهة وقصوراً ، وهى موافقة لأسماء الحقائق الموجودة فى الدنيا وليست مماثلة لها ، كما قال ابن عباس رضى الله عنهما : "ليس فى الدنيا شىء مما فى الجنة إلا الأسماء" . فإذا كان بينهما من التباين مالايعلمه إلا الله ، وكلاهما مخلوق ، فالخالق سبحانه وتعالى أعظم من مباينة المخلوق للمخلوق[٤].

وهذه الروح التى خلقها فينا وصفت بصفات عدة ، فهى تصعد من سماء إلى سماء ، وتقبض من البدن ، وتسل كما تسل الشعرة من العجينة ، وهى موجودة حية ، ومع ذلك لايدرك كنهها أحد . فإذا كانت متصفة بهذه الصفات مع عدم مماثلتها للمخلوقات ، وهى مخلوقة ، فالخالق عز وجل أولى فى مباينته لمخلوقاته مع اتصافه بما يستحق من الأسماء والصفات[٥].

---

(١) انظر : مجموع الفتاوى ١٧/٣ .
(٢) انظر : الكواشف الجلية ص٢٣٠ .
(٣) انظر : مجموع الفتاوى ١٠/٣ ، الكواشف الجلية ص٤٢٨-٤٢٩ .
(٤) انظر : مجموع الفتاوى ٢٨/٣ ، المنتقى من منهاج الاعتدال ص٨٨ .
(٥) انظر : مجموع الفتاوى ٣٣،٣١/٣ .

(٤) اللـه سبحانه له المثل الأعلى فلايجوز أن يقـاس على غيره بقيـاس تمثيل يستوى فيه الأصل والفرع ، ولابقياس شمول يستوى أفراده فى حكمه ولكـن يستعمل فى حقه قيـاس الأولى ، والمثل الأعلى ، وهـو أن كل مااتصف به المخلوق من كمـال فـالخالق أولى به ، وكـل مـاينزه عنـه المخلوق فالخالق منزه عنه .

فـالله يثبت له من صفات الكمـال مايليق به ، وهـو متصـف بها على وجه لايماثله فيها أحد(١).

وبعـد هذه القواعد المهمـة التى يتضح من خلالها منهـج سلفنا الصالح فى صفات الله عز وجل ، نتتبـع ماأثاره المعتزلة مـن شبـه حول الصفات ، مع بيان ردها وعدم صحتها .

إن السمة البارزة التى يتسم بها أهل الاعتزال والجهميـة وجميع الفرق المنحـرفة عن المنهج السوى فى صفـات الله جل وعلا ، هـذا النفى أى نفى صفاته سبحانه ، الذى جعلوا منه منهجاً لهم يدينون اللـه به ويوحدونه من خلالـه ، وهم أبعد مايكونون عن توحيده سبحانه لأنهـم بهذا النفى المبتدع عطلوا صفات رب العالمين وجردوه منها ، فوقعوا بذلك فى الالحاد الذى حذر الله منه فى قوله : {ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون فى أسمائه سيجزون ماكانوا يعملون}(٢). فإن من الالحاد أن تعطل أسماء الرب سبحـانه عن معانيها وأن تجحـد حقائقها ، وذلك من أعظـم الالحاد فيهـا عقلاً ولغة وشرعا وفطرة(٣). ولادليل معهم يستندون إليه فى هذا النفى ، بل هو أمر حادث مبتدع فى دين الله(٤).

---

(١) انظـر : بيـان تلبيـس الجهميـة ٣٢٧/١-٣٢٨ ، شـرح الطحـاوية ص١١٩ ، لـوامع الأنوار ٢١٦/١-٢١٧ ، الكواشف الجلية ص١٠٢-١٠٣ .

(٢) سورة الأعراف : آية ١٨٠

(٣) انظر : لوامع الأنوار ١٢٨/١ .

(٤) انظر : موافقة صحيح المنقول ١٨٩/١ .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

"الصواب عند السلف والأئمة وجماهير المسلمين أنه لايجوز النفى إلا بدليل كالإثبات ، فكيف ينفى بلادليل مادل عليه دليل : إما قطعى وإما ظاهرى؟ بل كيف يقال مالم يقم دليل قطعى على ثبوته من الصفات يجب نفيه ، أو يجب القطع بنفيه ، ثم يقال فى القطعى إنه ليس بقطعى . فهذه المقدمات الفاسدة هى وسائل الجهل والتعطيل وتكذيب المرسلين"(١).

فنفيهم لصفات الله مخالف لظاهر النصوص التى تدل على إثباتها ، ومخالف لطريقة سلف الأمة ونهجهم(٢).

بل ذلك مخالف لما جاء به رسل الله وأنبياؤه عليهم السلام ، فإنهم جاءوا بإثبات مفصل ، ونفى مجمل ، فأثبتوا الأسماء والصفات لله على طريق التفصيل ونفوا عنه مماثلة المخلوقات على طريق الإجمال ، وأما المعتزلة ومن على نهجهم عكسوا الأمر فجاءوا بنفى مفصل ، وإثبات مجمل ، فيقولون : ليس كذا ، ليس كذا(٣).

وهؤلاء النفاة لصفات الله لم يفهموا منها إلا ماهو لائق بالمخلوق ، ولم تتسع عقولهم للفرق الشاسع بين صفات الخالق وصفات المخلوق ، فشرعوا فى نفيها عن الله ، فجمعوا بين شرين هما التمثيل والتعطيل . فلما وقع فى أذهانهم تمثيل صفات الله بصفات خلقه ، وأن إثباتها يقتضى ذلك، لجأوا إلى نفيها عن الله فوقعوا فى التعطيل(٤). وظنوا أن قوله تعالى : {ليس كمثله شىء}(٥)مستنداً لهم ، وأنه يشفع لهم فيما ذهبوا إليه ، وتناسوا عجز الآية الذى يحوى أبلغ رد عليهم . وذلك قوله تعالى : {وهو السميع البصير} ،

---

(١) بيان تلبيس الجهمية ٧٩/١ .

(٢) انظر : شرح لمعة الاعتقاد ص١٣ .

(٣) انظر : اقتضاء الصراط المستقيم ٨٥٣/٢ ، لوامع الأنوار ١٢٩/١،١٣٠ .

(٤) انظر : طريق الهجرتين ص٢٣٥-٢٣٦ ، لوامع الأنوار ٩٤/١ .

(٥) سورة الشورى : آية ١١

فالله نفى فى الآية مماثلة صفاته لصفات المخلوقات ، ثم أثبت لنفسه مايليق به من الصفات(١). وهذا هو الواجب فى صفاته : أن يوصف بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله من غير تشبيه ولاينفى عنه ماوصف به نفسه ووصفه به رسوله فإن ذلك تعطيل . فالآية ردت بصدرها على من شبه وردت بعجزها على من عطل(٢). وليس فى قوله تعالى : {ليس كمثله شىء} دلالة على نفى الصفات ، بل هى دالة على إثباتها ووصف الله بها .

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله :

"قوله تعالى : {ليس كمثله شىء} وهذا من أعظم الأدلة على كثرة صفات كماله ونعوت جلاله وأنها لكثرتها وعظمتها وسعتها لم يكن له مثل فيها ، وإلا فلو أريد بها نفى الصفات لكان العدم المحض أولى بهذاالمدح منه ، مع أن جميع العقلاء إنما يفهمون من قول القائل فلان لامثل له وليس له نظير ولاشبيه ولامثيل ، أنه قد تميز عن الناس بأوصاف ونعوت لايشاركونه فيها،وكلما كثرت أوصافه ونعوته فات أمثاله وبعد عن مشابهة أضرابه ، فقوله {ليس كمثله شىء} من أدل شىء على كثرة نعوته وصفاته"(٣).

زعمهم أن الصفات لاتثبت إلا بالعقل ، وأن العقل هو الذى يلجأ اليه فى إثبات كل صفة لله تعالى .

يجاب على ذلك :

إن أسماء الله تعالى وصفاته توقيفية ، والمراد بذلك أنها تتلقى من طريق كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم لايتجاوز بها ماورد فى الكتاب والسنة .

---

(١) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص٣٥٦-٣٥٧ .
(٢) انظر المرجع السابق ص٥٢٠ .
(٣) حادى الأرواح ص٢١٨ .

ولذا قال السلف رضوان الله عليهم : لانصف الله إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولانسميه إلا بما سمى به نفسه أو سماه به رسوله صلى الله عليه وسلم(١).

وقد نزه الله نفسه عما يصفه به العباد ، إلا بما وصفه به المرسلون بقوله سبحانه : ﴿سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين﴾(٢).

فنزه نفسه سبحانه فى الآية عما يصفه به الكافرون ، ثم سلم على المرسلين ، لسلامة ماوصفوه به من النقائص والعيوب ، ثم حمد نفسه على تفرده بالأوصاف التى يستحق عليها كمال الحمد(٣).

وأما العقل فلاتثبت به أسماء الله وصفاته ، لأن العقل لايمكنه أن يدرك مايستحقه الله سبحانه من الأسماء والصفات ، فوجب الوقوف على الشرع ، ولأن تسمية الله أو وصفه بما لم يسم أو يصف به نفسه ، أو إنكار ماسمى أو وصف به نفسه جناية فى حقه تعالى ، فيجب سلوك الأدب فى ذلك(٤).

قال الإمام الشافعى رحمه الله :

"لله أسماء وصفات لايسع أحداً ردها ، ومن خالف بعد ثبوت الحجة عليه فقد كفر ، وأما قبل قيام الحجة فانه يعذر بالجهل ، لأن علم ذلك لايدرك بالعقل ولاالروية والفكر"(٥).

والعقل السليم لايدل على نفى صفات الله ، بل هو دال على إثباتها ، وإن كانت لاتثبت به ، لأنه دال على أن الذى يفعل أكمل من الذى لايقدر

---

(١) انظر : بيان تلبيس الجهمية ١٤٨/١ ، شرح الطحاوية ص٢١٨ ، لوامع الأنوار ٣٨/١ الهامش ، ١٣٤/١ ، الكواشف الجلية ص٤٢٧ .

(٢) سورة الصافات : آية ١٨٠-١٨٢

(٣) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص٧١-٧٢ .

(٤) انظر : شرح لمعة الاعتقاد ص٩ .

(٥) مناقب الشافعى ص ٨١/ ٥

على الفعـل ، وأن فعله سبحـانه الذى يتعلق بنفسه والـذى يتعلـق بخلقه هو كمال[١].

وبالتـالى العاقل إذا تمعن فى أدلـة نفاة الصفات وتدبرهـا تمام التـدبر ، وأعطاها حقها من النظر العقلى السليم ، علم بالعقل فسـاد تلك الأدلة وثبوت نقيضها[٢].

الجواب عـن الشبهة الأولى : وهـى زعمهم بأن إثبـات الصفات يؤدى إلى تعدد القدماء .

هـذا الـزعم منهم قول مجمـل يتضح مع التفصيل والبيـان وهـو شأن السلـف فى الألفـاظ المجملـة . فـإن أراد المعتزلـة بذلـك تعـدد آلهـة خالقـة للمخلوقات مع الله سبحانه فهذا قول مستحيل.وإن قيل بتعدد معان وصفات للـه سبحانه فذلك جائز ، ولايلـزم من تعدد الصفات تعـدد الذات الموصوفة بهذه الصفات[٣].

قال السفارينى :

"المحظور فى تعدد القدماء المغايرة ونحن نمنع تغـاير الذات مع الصفات والصفـات بعضها مع بعض فينتفـى التعدد والتكثر ، ولئن سلم مـازعموا مـن تعـدد القـدماء فالممتنع تعـدد القـدماء إذا كانت ذوات مستقلـة لاتعـدد ذات وصفات لها"[٤].

وكل من الذات والصفات ملازم للآخر[٥]. فالذات الموصوفة لاتنفك عن الصفات أصلاً ، ولايمكـن وجود ذات خاليـة عـن الصفات[٦]. والذات المجـردة عـن الصفات كالعلم والقـدرة لاحقيقة لها فى الخارج ولاهـى اللـه .

---

(١) انظر : الكواشف الجلية ص٢٢٩ .
(٢) انظر : درء تعارض العقل والنقل ١٤٨/١ .
(٣) انظر : بيان تلبيس الجهمية ٥٤١/١-٥٤٢ .
(٤) لوامع الأنوار ٢١٧/١ .
(٥) انظر : بيان تلبيس الجهمية ٥٤١/١ .
(٦) انظر : مجموع الفتاوى ٣٣٦/٣ .

والله هو الذات الموصوفة بالصفات اللازمة لها ، واسم الله يتضمن الذات والصفات ، ولم يطلق السلف على الصفات أنها غير الله ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : "من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك"(١). وثبت في الصحيح الحلف بعزة الله(٢)، وعمر الله(٣)، فالحلف بذلك ليس حلفاً بغير الله(٤).

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في سننه من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، في كتاب النذور والأيمان (٢١) ، باب ماجاء في كراهية الحلف بغير الله (٨) برقم ١٥٣٥ ، وقال : "هذا حديث حسن" . ٩٤/٤ .
وأحمد في المسند بألفاظ مقاربة من حديث ابن عمر ٤٧/١ ، ٣٤/٢،٦٩،٨٦-٨٧، ١٢٥ .
والحاكم في المستدرك عن ابن عمر . وقال : "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه" . ووافقه الذهبي ٢٩٧/٤ .
وأخرجه في مواضع أخرى بألفاظ مقاربة ١٨/١،٥٢ .
وعبد الرزاق في المصنف بلفظ مقارب عن ابن عمر ، باب الأيمان ، ولايحلف إلا بالله برقم ١٥٩٢٦ ، ٤٦٧/٨-٤٦٨ ، وأورده الشيخ ناصر الدين الألباني في صحيح الجامع وقال : صحيح . ٢٨٢/٥ . وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ٦٩/٥-٧١ ، حديث رقم ٢٠٤٢ .

(٢) انظر : صحيح البخاري ، كتاب الغسل (٥) ، باب من اغتسل عريانا (٢٠) ، ٧٤/١ كتاب التفسير (٦٥) ، تفسير سورة الفرقان (٢٥) ، باب قوله {الذين يحشرون على وجوههم} الآية (١) ، ١٤/٦ ، كتاب الرقاق (٨١) ، باب الصراط جسر جهنم (٥٢) ، ٢٠٦/٧ ، كتاب الأيمان (٨٣) ، باب الحلف بعزة الله (١٢) ، ٢٢٤/٧-٢٢٥ ، كتاب التوحيد (٩٧) ، باب قول الله تعالى : {وهو العزيز الحكيم} من حلف بعزة الله وصفاته (٧) ، ١٦٦/٨-١٦٧ .
صحيح مسلم ، كتاب الإيمان (١) ، باب معرفة طريق الرؤية (٨١) ، حديث رقم ١٨٢ ، ١٦٦/١ ، كتاب صفات المنافقين (٥٠) ، باب يحشر الكافر على وجهه (١١) حديث رقم ٢٨٠٦ ، ٢١٦١/٤ .

(٣) انظر : صحيح البخاري ، كتاب الشهادات (٥٢) ، باب تعديل النساء بعضهن بعضاً (١٥) ، ١٥٦/٣ ، كتاب الأيمان (٨٣) ، باب قول الرجل لعمر الله (١٣) ، ٢٢٥/٧ .

(٤) انظر : المنتقى من منهاج الاعتدال ص٩٨،٩٩ .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

"ومن تدبر كلام هؤلاء وجدهم مضطرين إلى إثبات الصفات ، وأنهم لايمكنهم أن يفرقوا بين قولهم وقول المثبتة بفرق محقق ، لأنهم أثبتوا كونه تعالى حيا وكونه عالما وكونه قادرا ولايجعلون هذا هو هذا ولاهذا هو هذا ، ولاهذه الأمور هذه الذات ، فقد أثبتوا معانى زائدة على الذات المجردة ، فقولك(١)"أثبتوا قدماء كثيرة" لفظ مجمل يوهم أنهم أثبتوا آلهة غير الله فى الأزل ، وأثبتوا مع الله غيره ، وهذا بهتان عليهم . وإنما أثبتوا صفات قائمة به ... فهل ينكر هذا إلا مخذول مسفسط ، واسم "الله" يتناول الذات المتصفة بالصفات ، ليس هو اسما للذات المجردة"(٢).

الجواب عن الشبهة الثانية : وهى زعمهم أن إثبات الصفات يلزم منه أن يكون الله سبحانه جسما كالأجسام .

وهذه شبهة طالما دندن بها المبتدعة من أهل الاعتزال وغيرهم لتنفير الناس عن وصف الله بما يليق به من صفات . وقد اعتاد هؤلاء أن يبتدعوا ألفاظا ومعانى ويجعلوها أصلا معقولا محكما عندهم ، يجب اعتقاده والبناء عليه ، ثم نظروا فى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فحملوا مافيهما على ماأصلوه ، فتأولوا ماراأوا تأويله ، وحكموا بالتشابه على ماعجزوا عن تأويله(٣).

ومن تلك الألفاظ لفظ الجسم . وأول من تكلم به نفيا وإثباتا هم طوائف من الشيعة والمعتزلة(٤).

ورموا كل من أثبت صفة لله عز وجل بأنه مجسم وذلك عن طريق اللزوم ، لأنهم يزعمون أن الصفات لاتقوم إلا بجسم ، وذلك جريا على اصطلاحهم فى معنى الجسم وهو كل مايشار إليه ، خلافا للمعهود فى اللغة ،

---

(١) المخاطب بذلك ابن مطهر صاحب كتاب "منهاج الكرامة" الذى رد عليه شيخ الإسلام فى كتاب منهاج السنة .

(٢) المرجع السابق ص٩٧ .

(٣) انظر بيان تلبيس الجهمية ٥٢٣/١ .

(٤) انظر المرجع السابق ٥٤/١ .

فإن الجسم فى اللغة هو البدن ، ويلزم من قولهم ذلك أن كل ماجاء به الكتاب والسنة وفطر الله عليه عباده وأقره سلف الأمة وأئمتها من صفات الله تجسيماً(١).

ولفظ الجسم لفظ مجمل لايتضح معناه إلا عند التفصيل ، فقد يراد به المركب الذى كانت أجزاؤه مفرقة فجمعت ، أو مايقبل التفريق والانفصال أو المركب من مادة وصورة ، أو المركب من الأجزاء المفردة التى تسمى الجواهر المفردة ، والله منزه عن ذلك . وكذلك يطلق على ماكان متفرقا فاجتمع ، أو مايقبل التفريق والتجزئة ، أو غير ذلك من التركيب الممتنع عنه .

وقد يراد بالجسم مايشار إليه أو مايرى أو ماتقوم به الصفات ، والله سبحانه يرى فى الآخرة وتقوم به الصفات ويشار إليه عند الدعاء بالأيدى والأوجه والقلوب والأعين ، وهذا معنى ثابت بصحيح المنقول وصريح المعقول ، ولايستطيع من نفاه أن يقيم على نفيه دليلاً ، وأما لفظ الجسم فبدعة فى نفيه وإثباته لله تعالى . فليس فى كتاب الله سبحانه ولافى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ولاجاء عن أحد من سلف الأمة وأئمتها اطلاق لفظ الجسم فى صفات الله تعالى لانفياً ولاإثباتاً(٢).

ولذا لما ناظر أبو عيسى محمد بن عيسى بر غوث(٣)الإمام أحمد وألزمه التجسيم ، أجابه الإمام أحمد بأن هذا اللفظ لايدرى مقصود المتكلم به ، وليس له أصل فى الكتاب والسنة والإجماع ، فلايجوز لأحد أن يلزم

---

(١) انظر المرجع السابق ٦٢٥/١-٦٢٦ .

(٢) انظر : المنتقى من منهاج الاعتدال ص٨٦ ، بيان تلبيس الجهمية ٥٥٠/١ .

(٣) محمد بن عيسى :
هو أبو عبد الله محمد بن عيسى الجهمى ، برغوث ، رأس البدعة ، وأحد من كان يناظر الإمام أحمد وقت المحنة . من تصانيفه : "كتاب الاستطاعة" ، "كتاب المقالات" ، "كتاب الاجتهاد" . مات سنة ٢٤٠هـ وقيل ٢٤١هـ .
انظر : سير أعلام النبلاء ٥٥٤/١٠ .

الناس بالنطق به ولابمدلوله ، وقال له : "إنى أقول هو أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، وبين أنه لايقول بأنه جسم أو ليس بجسم ، لأن ذلك بدعة محدثة ، وليس ذلك من الحجج الشرعية التى يجب إجابة من دعا إلى موجبها ، لأن الناس إنما عليهم أن يجيبوا من دعاهم إلى مادعا إليه الله ورسوله صلى الله عليه وسلم لاإلى قول مجمل مبتدع لايعرف إلا بعد الاستفصال (١).

يقول شيخ الاسلام رحمه الله :

"وإذا قدر أن المعارض أصر على تسمية المعانى الصحيحة التى ينفيها بألفاظه الاصطلاحية المحدثة ، مثل أن يدعى أن ثبوت الصفات ومباينة المخلوقات يستحق أن يسمى فى اللغة تجسيماً وتركيباً ونحو ذلك ، قيل له : هب أنه سمى بهذا الاسم ، فنفيك له إما أن يكون بالشرع ، وإما أن يكون بالعقل ، أما الشرع فليس فيه ذكر هذه الأسماء فى حق الله ، لابنفى ولاإثبات ، ولم ينطق أحد من سلف الأمة وأئمتها فى حق الله تعالى بذلك ، لانفياً ولااثباتاً ، بل قول القائل : إن الله جسم أو ليس بجسم ، أو جوهر أو ليس بجوهر ، أو متحيز أو ليس بمتحيز ، أو فى جهة أو ليس فى جهة ، أو تقوم به الأعراض والحوادث أو لاتقوم به ، ونحو ذلك ، كل هذه الأقوال محدثة بين أهل الكلام المحدث ، لم يتكلم السلف والأئمة فيها ، لابإطلاق النفى ولابإطلاق الإثبات ، بل كانوا ينكرون على أهل الكلام الذين يتكلمون بمثل هذا النوع فى حق الله تعالى نفياً وإثباتاً . وإن أردت أن نفى ذلك معلوم بالعقل ، وهو الذى تدعيه النفاة ، ويدعون أن نفيهم المعلوم بالعقل عارض نصوص الكتاب والسنة . قيل له : فالأمور العقلية المحضة لاعبرة فيها بالألفاظ ، فالمعنى إذا كان معلوماً إثباته بالعقل لم يجز

---

(١) انظر : موافقة صحيح المنقول ١/١٧٧-١٧٨ .
وانظر : منهج السلف فى بيان الألفاظ المجملة كالجسم فى : بيان تلبيس الجهمية ١/٤٦،٤٧،٥٤،١٠٠،٣٩٧،٤٧٨ ، موافقة صحيح المنقول ١/١٨٤،١٨٥،١٨٩ ، لوامع الأنوار ١/١٨٢،١٨٣ الهامش .

نفيه ، لتعبير المعبر عنه بأى عبارة عبر بها ، وكذلك إذا كان معلوماً انتفاؤه بالعقل لم يجز إثباته ، بأى عبارة عبر بها المعبر ، وبين له العقل ثبوت المعنى الذى نفاه ، وسماه بألفاظه الاصطلاحية ..."(١).

ونفى الجسم عن الله مع أن السلف لايقولون بإثباته ليس فيه دليل على مذهب نفاة الصفات ، بل وليس فيه دليل على تنزيه الله سبحانه عن شىء من النقائص ، لأن من نفى الصفات على أن إثباتها يستلزم التجسيم ، لابد أن يثبت شيئاً يلزمه فيه ماألزمه غيره فيما نفاه . وبالتالى المعتزلة الذين يثبتون الأسماء لله وينفون عنه الصفات ، ويقولون ليس بجسم مع أن ذلك ليس معقولاً عندهم ، جاز لمن يثبت الصفات أن يلزمهم بأن الموصوف بها ليس بجسم ، لأنه لافرق بين إثبات الأسماء وإثبات الصفات ، فما يقال فى مسمى الأسماء يقال فى موصوف الصفات(٢).

وأما القول بأن إثبات الصفات يلزم منه إثبات الجسمية ، ويلزم من ذلك أن يكون الله فى جهة وأن يكون متحيزاً .

الكلام فى الجهة والتحيز سبق بيانه قريبا فى الكلام عن الألفاظ المجملة(٣)، وهى التى لم يأت فى الشرع لها نفى أو إثبات . ومثل الجهة والتحيز لفظ الجسم والجوهر والعرض والمركب والمنقسم وغير ذلك من الألفاظ المبتدعة . والبدعة فى نفيها كالبدعة فى إثباتها إن لم تكن أعظم ، لأن المثبت أثبت ماأثبتته النصوص ، والنافى عارض بها النصوص ، ورد على من خالف موجبها(٤).

وقد ذم السلف هذه الألفاظ لما بها من الاشتباه ولبس الحق ، كما قال الإمام أحمد رحمه الله : "يتكلمون بالمتشابه من الكلام ، ويلبسون على

---

(١) موافقة صحيح المنقول ١٨٣/١ .
(٢) انظر : مجموع الفتاوى ٢٠/٣ ، موافقة صحيح المنقول ١٠٩/١-١١٠ .
(٣) انظر ص : ١٥٠
(٤) انظر موافقة صحيح المنقول ١٨٨/١ .

جهال الناس بما يشبهون عليهم"(١). كما أنها عرضة للاحتمالات ، فهى تحوى معانى باطلة لاتليق بالله تعالى كما أنها تحوى معانى حقة ، وهذا بخلاف الألفاظ الشرعية فإن معانيها صحيحة سالمة من الاحتمالات ، ولذا لايجوزالعدول عنها . حتى لايثبت معنى فاسد فى حالة التعلق بالألفاظ المجملة(٢).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله مبينا قاعدة عظيمة فى هذه الألفاظ . فيقول :

"والأصل فى هذا الباب أن الألفاظ نوعان :

مذكور فى كتاب الله وسنة رسوله ، وكلام أهل الإجماع ، فهذا يجب اعتبار معناه ، وتعليق الحكم به ، فإن كان المذكور به مدحا استحق صاحبه المدح، وإن كان ذما استحق الذم ، وإن أثبت شيئا وجب إثباته ، وإن نفى شيئا وجب نفيه ، لأن كلام الله حق ، وكلام رسوله حق ، وكلام أهل الإجماع حق ... ومن دخل فى اسم مذموم فى الشرع كان مذموما ، كاسم الكافر والمنافق والملحد ونحو ذلك ، ومن دخل فى اسم محمود فى الشرع كان محمودا ، كاسم المؤمن والتقى والصديق ، ونحو ذلك ، وأما الألفاظ التى ليس لها أصل فى الشرع فتلك لايجوز تعليق المدح والذم والإثبات والنفى على معناها ، إلا أن يبين أنه يوافق الشرع والألفاظ التى تعارض بهاالنصوص هى من هذا الضرب ، كلفظ "الجسم" و"الحيز" و"الجهة" و"الجوهر" و"العرض" فمن كانت معارضته بمثل هذه الألفاظ لم يجز له أن يكفر مخالفه ، إن لم يكن قوله مما يبين الشرع أنه كفر ، لأن الكفر حكم شرعى متلقى عن صاحب الشريعة ، والعقل قد يعلم به صواب القول وخطؤه ، وليس كل ماكان خطأ فى العقل يكون كفرا فى الشرع ، كما أنه

---

(١) انظر : بيان تلبيس الجهمية ص١٠٠ .
وكلام الإمام أحمد فى كتابه : الرد على الجهمية والزنادقة ص٨٥ .

(٢) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص٢٢١ .

ليس كل ماكان صواباً فى العقل تجب فى الشرع معرفته"(١).

وقد كان السلف يطلبون الاستفصال فى معناها ، لأن عدم الاستفصال يوقع فى الجهل والضلال والقيل والقال(٢).

فإن كان المعنى صحيحاً قبل ، لكن ينبغى التعبير عنه بألفاظ النصوص ، إلا عند الحاجة مع قرائن تبين المراد(٣).

ونضرب مثالاً لاستفصال السلف فى الألفاظ المجملة بلفظ "الجهة" ليتضح منه منهجهم فى الاستفصال .

فإنهم يقولون "إن لفظ "الجهة" قد يراد به أمر موجود وقد يراد به أمر معدوم ، فإذا أريد الأول أمكن أن يقال إن كل جسم فى جهة ، وإذا أريد الثانى امتنع أن يكون كل جسم فى جهة .

فمن قال : البارى فى جهة وأراد بها أمراً موجوداً فكل ماسواه مخلوق له فى جهة بهذا التفسير ، فهذا مخطىء ، وإن أراد بالجهة أمراً عدمياً - وهو فوق العالم - وقال إن الله فوق العالم فقد أصاب ، وليس فوق العالم موجود غيره ، فلايكون سبحانه فى شىء من الموجودات(٤).

وأما الزعم بأن الأجسام متماثلة ، وتماثلها يؤدى إلى استوائها فى استحقاق الصفات .

فهو زعم لاأساس له من الصحة ، ولاحجة فيه ، وليس أحد من العقلاء يقول بأن كل جسم يماثل الآخر ، وليس فى اللغة التى جاء بها القرآن اطلاق "لفظ المثل" على كل جسم ، ولايقال : إن السماء مثل الأرض . والشمس والقمر والكواكب مثل الجبال . والجبال مثل الأنهار(٥).

---

(١) موافقة صحيح المنقول ١/١٨٤-١٨٥ .
(٢) انظر : المنتقى من منهاج الاعتدال ص٨٨ .
(٣) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص٢١٨ .
(٤) انظر : المنتقى من منهاج الاعتدال ص١١٧ .
(٥) انظر : بيان تلبيس الجهمية ١/٥٨٨ .

بل قد تتساوى كثير من الأشياء فى الأسماء وتتباين فى مسمياتها وصفاتها .

وأما زعمهم أن إثبات الصفات تشبيه لله بخلقه :

فهو زعم أكثر من ذكره أهل الاعتزال وقذفوا كل من أثبت صفة لله بأنه مشبه لله بخلقه ، كما رموه من قبل بالتجسيم ، وذلك لضيق عقولهم وعجزها عن إدراك معانى صفات الله تعالى ، وإدراك الفرق الشاسع بينها وبين صفات المخلوقين ، وتقاصرت بهم عقولهم التى اغتروا بها فلم تعلو بهم إلى الفهم الصحيح الذى وصلت إليه عقول السلف الصالح من قبل ، لما استنارت بنور الوحى ، واستضاءت بضوئه . ولم تعرف فلسفة اليونان ، وحثالة أذهانهم إلى تلك العقول طريقاً ، وأما التى لبس عليها الشيطان ، ومزج ماعندها بشبه أعداء الإسلام ، أنى لها أن تعرف الحق ويستبين لها الطريق؟.

والمراد بالتشبيه إثبات مشابه لله فيما يختص به من حقوق أو صفات ، وهو صنو التمثيل الذى يراد به إثبات مماثل لله فيما يختص به أيضا من حقوق وصفات ، وكلاهما كفر وشرك بالله لما تضمنا من نقص فى حق الله تعالى (١).

والتمثيل قد جاء نفيه عن الله تعالى فى أكثر من موضع كقوله تعالى : {ليس كمثله شىء}(٢)، وقوله : {هل تعلم له سمياً}(٣)، وقوله : {ولم يكن له كفواً أحد}(٤)، وقوله : {فلاتجعلوا لله أنداداً}(٥)، وقوله : {فلاتضربوا لله الأمثال}(٦)(٧).

---

(١) انظر : شرح لمعة الاعتقاد ص١٩ .
(٢) سورة الشورى : آية ١١
(٣) سورة مريم : آية ٦٥
(٤) سورة الإخلاص : آية ٤
(٥) سورة البقرة : آية ٢٢
(٦) سورة النحل : آية ٧٤
(٧) انظر : بيان تلبيس الجهمية ٥٨٧/١ ، المنتقى من منهاج الاعتدال ص١١٠ .

وأما لفظ التشبيه فلم يرد نفيه أو إثباته فى الكتاب أو السنة لأنه من الألفاظ المجملة التى تحتاج إلى ايضاح وتفصيل ، فقد يراد به ماجاء نفيه فى القرآن ودل عليه العقل من أن خصائص الرب تعالى لايوصف بها شىء من المخلوقات ولايماثله شىء من المخلوقات فى شىء من صفاته .

وقد يراد به عدم إثبات شىء من الصفات اللائقة بالله تعالى لأن العبد موصوف بها(١).

وهذا الأخير هو الذى يعنيه أهل الاعتزال عند إطلاقهم لفظ التشبيه .

ولكن قد ورد ذم التشبيه والمشبهة فى كلام السلف رضوان الله عليهم قال نعيم بن حماد(٢):

"من شبه الله بشىء من خلقه فقد كفر ومن أنكر ماوصف الله به نفسه فقد كفر ، فليس ماوصف الله به نفسه ورسوله تشبيه" .

وقال إسحاق بن راهويه(٣):

---

(١) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص٩٨-٩٩ .

(٢) نعيم بن حماد :

هو نعيم بن حماد بن معاوية بن الحارث الخزاعى ، أبو عبد الله المروزى ، نزيل مصر ، حافظ ، فقيه ، عارف بالفرائض . صدوق يخطىء كثيراً . روى عن أبى حمزة السكرى ، وإبراهيم بن سعيد . وعنه البخارى مقروناً ، والدارمى ، وحمزة الكاتب . مات سنة ٢٢٨هـ على الصحيح .

انظر : الجرح والتعديل ٨/٤٦٣-٤٦٤ ، الكاشف ٣/٢٠٧ ، تقريب التهذيب ٢/٣٠٥ .

(٣) إسحاق بن راهويه :

هو إسحاق بن إبراهيم بن مخلد الحنظلى ، أبو محمد بن راهويه ، المروزى ، الإمام عالم خرسان ، ثقة حافظ مجتهد ، قرين الإمام أحمد ، ذكر أبو داود أنه تغير قبل موته بيسير . روى عن جرير ، والدراوردى ، ومعتمر ، وعنه البخارى ، ومسلم ، وأبو داود وغيرهم . له مسند . مات سنة ٢٣٨هـ .

انظر : الجرح والتعديل ٢/٢٠٩-٢١٠ ، الكاشف ١/١٠٦ ، تقريب التهذيب ١/٥٤ .

"من وصف الله فشبه صفاته بصفات أحد من خلق الله فهو كافر بالله العظيم لأنه وصف بصفاته ، إنما هو استسلام لأمر الله ولما سن الرسول"(١).

وقال أبو حنيفة رحمه الله : "لايشبه شيئا من خلقه ولايشبهه شيء من خلقه... وصفاته كلها خلاف صفات المخلوقين ، يعلم لاكعلمنا ، ويقدر لاكقدرتنا ، ويرى لاكرؤيتنا"(٢).

وهم لايريدون بنفى التشبيه نفى الصفات ، ولايصفون به من أثبت الصفات ، وإنما يريدون بذلك أن الله لايشبه المخلوق فى أسمائه وصفاته وأفعاله كما قال أبو حنيفة رحمه الله(٣). والمشبهة الذين ذموهم هم الذين يمثلون صفات الله بصفات خلقه ، وذكروا أن المشبه هو الذى يقول : بصر كبصرى ، ويد كيدى ، وقدم كقدمى(٤). وهذا أحد نوعى التشبيه ، لأن التشبيه فى الحقيقة نوعان :

أحدهما : تشبيه الخالق بالمخلوق، وهو الذى يتعب أهل الكلام فى رده وبيان بطلانه ، وأهله فى الناس أقل من أهل النوع الثانى .

ثانيهما : تشبيه المخلوق بالخالق ، كعباد المشايخ ، وعزير ، والشمس والقمر ، والأصنام ، والملائكة ، والنار ، والماء ، والعجل ، والطيور ، والجن ، وغير ذلك . وهؤلاء هم الذين أرسل الله لهم الرسل يدعونهم إلى عبادة الله وحده لاشريك له(٥).

والتشبيه إنما قام فى مصادمة نفى الصفات وتعطيلها . وهما مرضان من أمراض القلوب ، فإن أمراض القلوب نوعان :

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٥٣٢/٢ .
وانظر : شرح العقيدة الطحاوية ص١١٧-١١٨ .

(٢) شرح الفقه الأكبر لأبى منصور الحنفى ص١٠٣-١١٢ ، شرح ملا على القارى على الفقه الأكبر ص١٥-٣٢ .

(٣) انظر شرح العقيدة الطحاوية ص١١٨-١١٩ .

(٤) انظر بيان تلبيس الجهمية ١٠٩،٥١/١ .

(٥) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص٢١٧ .

مرض شهوة كالذى فى قوله تعالى : {فلاتخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض}(١).

ومرض شبهة كالذى فى قوله سبحانه : {وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم}(٢). وهذا أردأ من مرض الشهوة ، والنفى والتشبيه من شبه الصفات ، وشبه النفى أردأ من شبه التشبيه ، لأن النفى رد وتكذيب لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، بينما التشبيه غلو ومجاوزة للحد فيما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكلاهما كفر بالله تعالى(٣).

وأهل السنة متفقون على إثبات صفات الله من غير تشبيه أو تمثيل لها بصفات خلقه ، كما أنهم متفقون على تنزيه الله عن صفات النقص من غير تعطيل ، لأن دين الإسلام وسط بين التشبيه والتعطيل ، وذلك لقوله تعالى : {ليس كمثله شىء} رداً على من مثل ، {وهو السميع البصير} رداً على من عطل(٤). وقد قال الإمام الطحاوى رحمه الله : "ومن لم يتوق النفى والتشبيه ، زل ولم يصب التنزيه"(٥).

وقال ابن أبى العز رحمه الله :

"وماأحسن المثل المضروب للمثبت للصفات من غير تشبيه ولاتعطيل باللبن الخالص السائغ للشاربين ، يخرج من بين فرث التعطيل ودم التشبيه . والمعطل يعبد عدماً والمشبه يعبد صنماً ... وليس ماوصف الله به نفسه ولاماوصفه به رسوله تشبيهاً ، بل صفات الخالق كما يليق به ، وصفات المخلوق كما يليق به"(٦).

---

(١) سورة الأحزاب : آية ٣٢

(٢) سورة التوبة : آية ١٢٥

(٣) انظر المرجع السابق ص٢١٦-٢١٧ .

(٤) انظر : المنتقى من منهاج الاعتدال ص١٠٨-١٠٩ ، شرح العقيدة الطحاوية ص٥٢٠

(٥) متن العقيدة الطحاوية ص١٠ .

(٦) شرح الطحاوية ص١٨٨ .

فالله منزه عن مشاركة العبد فى خصائصه ، وإذا اشتركا فى الأسماء والصفات فهذا المشترك مطلق كلى فى الذهن لاوجود له فى الخارج ، والموجود فى الأعيان مختص لااشتراك فيه ، فإذا سمى الله بهذه الأسماء كان مسماها معيناً مختصاً به ، وإذا سمى العبد بها كان مسماها مختصاً به(١).

فالاتفاق فى الأسماء لايقتضى التساوى فى المسميات كما سبق ذكره فى قواعد السلف(٢).

ومن هنا يتبين لك ضلال كل من المشبهة والمعطلة ، فإن المشبهة أحسنوا فى إثبات صفات الله ولكنهم أساءوا بزيادة التشبيه ، فضلوا ، وإن المعطلة أحسنوا فى تنزيه الله عن التشبيه بخلقه ، ولكن أساءوا فى نفى المعانى الثابتة لله فضلوا . والحق مادل عليه كتاب الله الذى تعقله العقول السليمة الصحيحة ، وهو الحق المعتدل الذى لاانحراف ولااعوجاج فيه(٣).

وقد وقع المعتزلة فى أربعة أنواع من المحاذير :

(١) كونهم مثلوا مافهموه من النصوص بصفات المخلوقين ، وظنوا أن مدلول النصوص هو التمثيل .

(٢) جنوا على النصوص بتعطيل معانيها الإلهية اللائقة بالله ، وظنوا ظناً سيئاً بالله ورسوله حيث اعتقدوا أن الذى يفهم من كلامهما هو التمثيل الباطل .

(٣) أنهم نفوا تلك الصفات عن الله عز وجل بغير علم ، فكانوا بذلك معطلين لما يستحقه الرب من صفات .

(٤) وصفوا الرب سبحانه بنقيض تلك الصفات ، من صفات الأموات والجمادات والمعدومات ، فعطلوا بذلك صفات كماله ، وجمعوا بين التمثيل والتعطيل ، فأصبحوا ملحدين فى أسمائه وآياته(٤).

---

(١) انظر : المنتقى من منهاج الاعتدال ص٨٤ ، شرح العقيدة الطحاوية ص١٠٢،١٠٣

(٢) انظر ص: ١٤١

(٣) انظر المرجع السابق ص١٠٣ .

(٤) انظر : مجموع الفتاوى ٣/٤٨-٤٩ .

وأمـا زعمهم بأن إثبات الصفـات تشبيه وذلك منـاف للتـوحيد ، لأن تمام التوحيد يكون بنفى مشابهة الله للخلق .

وهـذا من تسمية الأمور بغير مسميـاتها ، ومن تلبيـس الباطل بالحق . فانهم فسروا التوحيد تفسيراً لم يدل عليه كتاب الله ولاسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ولاقاله أحد من سلف الأمـة وأئمتها(١). بل هو أمر مبتدع باطـل فى الشرع والعقل واللغة(٢).

فـإن التـوحيد الـذى جاءت به الـرسل وأنزلـت به الكتـب يتنـاول التـوحيد فى العلم والقـول وهـو وصـف الله مايستحـق مـن صفـات الكمال ونعـوت الجلال ، ونفى النقـص عنه ، والتوحيد فى الإرادة والعمـل ، وهو أن يعبـد وحده ولايشـرك به شيئاً فى عبـادته ، كمـا دل على ذلـك سـورتا الإخلاص والكـافرون ، فالأولى فى التـوحيد العلمى ، والشـانية فى التـوحيد العملى (٣).

يقول شيخ الإسلام رحمه الله :

"وأمـا تفسير التـوحيد بما يستلـزم نفـى الصفـات أو نفـى علـوه على العـرش ، بل يستلزم نفى مـاهو أعم من ذلك فهو شيء ابتـدعته الجهميـة لم ينطـق به كتـاب ولاسنة ولاإمـام ، وكـذلك جعل التشبيـه ضـد التـوحيد ، وتفسير التشبيه بما فيه إثبات الصفات ، هو أيضاً باطل ، فإن التوحيد نقيضه الإشراك بالله تعالى ، والتمثيل له بخلقه وإن كان ينافى التوحيد فليس المراد بذلك مايسمونه هم تشبيهاً"(٤).

ومـن هنا يتبين أن قولهم "إن تمام التـوحيد يكون بنفـى مشـابهة الله للخلق" الذى يقصدون به نفى الصفات وتعطيلها ، إنما هـو نقض للتوحيد ، ونفى له . بل من تمام التوحيد أن يوصف الله بما وصفه به نفسه من صفات

---

(١) انظر : بيان تلبيس الجهمية ١٣٢/١ .
(٢) انظر : المرجع السابق ٤٧٨/١ .
(٣) انظر : موافقة صحيح المنقول ٢١١/١ ، بيان تلبيس الجهمية ٤٧٩/١ .
(٤) بيان تلبيس الجهمية ١٣٣/١ .

الكمال وبما وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم دون تحريف أو تعطيل ولاتكييف ولاتمثيل (١).

وأما زعمهم أن أهل السنةمشبهة لإثباتهم الصفات وأنهم لايعرفون التوحيد ولايعرفون ربهم .

يجاب على ذلك بأن المعتزلة إنما أطلقوا ذلك على أهل السنة نسبة لاعتقادهم الفاسد فى ربهم سبحانه الذى جردوه من صفاته وعطلوه منها(٢). وذلك لضلال عقولهم التى حجبها الباطل عن رؤية الحق ، فاختلت عندها الموازين ، وغشيها ظلام دامس ، فرأت الحق باطلاً والباطل حقاً.

ورميهم أهل السنة بأنهم مشبهة ، من أبرز الأدلة وأقوى الحجج على نفيهم لصفات الله تعالى ، لأنه مامن أحد ينفى شيئاً من صفات الله إلا ويسمى المثبت لها مشبهاً(٣).

قال أبو زرعة الرازى (٤)رحمه الله :

"المعطلة النافية الذين ينكرون صفات الله عز وجل التى وصف بها نفسه فى كتابه وعلى لسان نبيه صلى الله عليه وسلم ، ويكذبون بالأخبار الصحاح التى جاءت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصفات ويتأولونها بآرائهم المنكوسة على موافقة مااعتقدوا من الضلالة وينسبون رواتها إلى التشبيه ، فمن نسب الواصفين ربهم تبارك وتعالى بما وصف به نفسه فى كتابه وعلى لسان نبيه صلى الله عليه وسلم من غير تمثيل ولاتشبيه

---

(١) انظر موافقة صحيح المنقول ٢١١/١ .

(٢) انظر : لوامع الأنوار ٢١٦/١ .

(٣) انظر : المنتقى من منهاج الاعتدال ص١٠٩ ، شرح العقيدة الطحاوية ص١١٨ .

(٤) أبو زرعة الرازى :

هو عبيد الله بن عبد الكريم بن يزيد بن فروخ ، أبو زرعة الرازى ، أحد الأعلام . إمام حافظ ، ثقة مشهور . قال ابن راهويه : "كل حديث لايعرفه أبو زرعة فليس له أصل" . مات سنة ٢٦٤هـ .

انظر : الجرح والتعديل ٣٢٤/٥-٣٢٦ ، تاريخ بغداد ٣٢٦/١٠-٣٣٧ ، الكاشف ٢٣٠/٢ ، تذكرة الحفاظ ٥٥٧/٢-٥٥٩ ، تقريب التهذيب ٥٣٦/١ .

إلى التشبيـه فهو معطل ناف ويستدل عليهم بنسبتهم إياهـم إلى التشبيه أنهم معطلـة نافية ، كذلك كان أهـل العلم يقولون منهم : عبـد الله بن المبارك ، ووكيع بن الجراح"(١)(٢).

وقـد نقـل الإمـام اللالكـائى رحمـه الله عن إسحـق بن راهـويه وأبى حاتم(٣)نحو كلام أبى زرعة(٤).

وقال شيخ الإسلام أبو عثمان الصابونى رحمه الله :

"وعلامـة أهل البدع شدة معـاداتهم لحملة أخبار النبى صلى اللـه عليه وسلم ، واحتقارهم لهم ، وتسميتهـم إياهم حشوية(٥)، و"جهلة" و"ظاهرية" ومشبهـة اعتقاداً منهم فى أخبـار رسول الله صلى الله عليـه وسلم أنها بمعزل عن العلم ، وأن العلم مايلقيـه الشيطـان إليهـم من نتائج عقـولهم الفـاسدة ،

---

(١) وكيع بن الجراح :
هـو وكيع بن الجراح بن مليح الـرؤاسى ، أبو سفيان الكـوفى ، ثقة حافظ عابد . قال عنه الذهبى : وكان من بحور العلم وأئمة الحفظ . مات سنة ١٩٧هـ .
انظـر : الجرح والتعـديل ٣٧/٩ ، تاريخ بغـداد ٤٦٦/١٣-٤٨١ ، تذكـرة الحفاظ ٣٠٦/١ ، الكـاشف ٢٣٧/٣ ، سير أعلام النبلاء ١٤٠/٩-١٦٨ ، تهـذيب التهـذيب ١٢٣/١١ ، تقريب التهذيب ٣٣١/٢ .

(٢) الحجة فى بيان المحجة ١٨٧/١ ، بيان تلبيس الجهمية ١٠٥/١-١٠٦ .

(٣) أبو حاتم :
هـو محمد بن إدريس بن المنذر الحنظلى ، أبو حاتم الـرازى ، أحد الحفـاظ ، قال موسى بن إسحاق الأنصارى : مارأيت أحفظ منه . مات سنة ٢٧٧هـ .
انظـر : الجرح والتعـديل ٢٠٤/٧ ، تاريخ بغـداد ٧٣/٢-٧٧ ، تذكـرة الحفـاظ ٥٦٧/٢-٥٦٩ ، الكـاشف ١٨/٣ ، تهذيب التهذيب ٣١/٩-٣٤ ، تقـريب التهذيب ١٤٣/٢ .

(٤) انظر شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٥٣٢/٢-٥٣٣ .

(٥) الحشوية :
هـو لفظ لايدل على شخص معين ولاعلى مقـالة معينة ، ولـذا أطلق عدة إطلاقات من ذلك : إطلاقه على العامـة الـذين هـم حشـو النـاس . وعلى المجسمـة الـذين يصفـون اللـه بالجسمية ، وعلى الـذين لايرون البحث فى آيات الصفـات . وفـرق المبتدعة تطلقه على أهل السنة الذين يثبتون صفات الله تعالى .
انظر : منهاج السنة ٥٢٠/٢، ٥٢١ مع الهامش .

ووساوس صدورهم المظلمة ، وهواجس قلوبهم الخالية عن الخير العاطلة ، وحججهم بل شبههم الداحضة الباطلة، بل {أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم}(١)، {ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل مايشاء}"(٢)(٣).

وأهل السنة متفقون جميعاً على تنزيه الله عن مماثلة الخلق ومشابهتهم ، وأما المشبهة فهم الذين يمثلون صفات الله بصفات خلقه(٤).

وأما قولهم بأن التشبيه وقع فى الأمة نتيجة للتعلق بالآيات المتشابهة التى توهم التشبيه - يعنون بذلك آيات الصفات - والتى يجب أن تأول لتوافق دليل العقل والآيات المحكمة .

فهو قول نتج من قصور فهم المعتزلة للآيات المتشابهة فى كتاب الله ، والآيات المحكمة . أضف إلى ذلك تحريفهم النصوص وتعطيلهم لها بحجة أن ذلك تأويل سائغ .

ولكى ينكشف هذا الزعم ويزول مابه من لبس لابد من بيان المحكم والمتشابه فى كتاب الله تعالى . وهل آيات الصفات تعد من المتشابه؟ ثم نعرج بعد ذلك إلى بيان التأويل ومايجوز منه ومالايجوز . وهل نصوص الصفات تخضع للتأويل كما يزعم أهل الاعتزال؟

أما المحكم والمتشابه فى كتاب الله فعلى نوعين :

النوع الأول : هو الإحكام العام والتشابه العام :

فقد وصف الله القرآن كله بأنه محكم ، كما وصفه بأنه متشابه . وذلك فى قوله : {الر . كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير}(٥) .

---

(١) سورة محمد : آية ٢٣

(٢) سورة الحج : آية ١٨

(٣) بيان تلبيس الجهمية ١٠٦/١ .

(٤) انظر : المنتقى من منهاج الاعتدال ص١٠٨ .

(٥) سورة هود : آية ١

وقال تعالى : {الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانى}(١).

فإحكامه هنا : إتقانه بتمييز الصدق من الكذب فى أخباره ، والرشد من الغى فى أوامره .

والمراد بالتشابه هنا : تماثل الكلام وتناسبه ، وهو ضد الاختلاف المذكور فى قوله تعالى : {ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً}(٢).

فلاتجد فيه أمراً ونقيضه ، ولانهياً ونقيضه ، وإنما يشبه بعضه بعضاً ويصدق بعضه بعضاً .

وهذا التشابه العام لاينافى الإحكام العام ، بل هو مصدق له(٣).

النوع الثانى : الإحكام الخاص والتشابه الخاص .

فإن الله وصف بعض القرآن بأنه محكم ، كما وصف بعضه بأنه متشابه ، فقال تعالى :

{هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ومايعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ومايذكر إلا أولوا الألباب}(٤).

فالمحكم هنا بخلاف المتشابه ، وهو الذى لاالتباس فيه ولااحتمال لوضوحه ، وأما المتشابه فهو المشتبه بغيره المحتمل الملتبس .

ويتعين معنى المتشابه هنا على موضع الاختلاف فى الوقوف على الآية .

فجمهور سلف الأمة وخلفها على أن الوقف على قوله تعالى : {ومايعلم تأويله إلا الله}.

فعلى هذا فإن الله قد استأثر بعلم المتشابه ولايعلمه أحد سواه .

---

(١) سورة الزمر : آية ٢٣

(٢) سورة النساء : آية ٨٢

(٣) انظر : مجموع الفتاوى ٣/٥٩-٦١ ، الجامع لأحكام القرآن ٤/١٠ .

(٤) سورة آل عمران : آية ٧

وجاء عن ابن عباس ومجاهد أن الراسخين فى العلم معطوف على اسم الله وأنهم داخلون فى علم المتشابه .

وعند التحقيق نجد أنه لامنافاة بين القولين .

فمراد الجمهور بالمتشابه الذى لايعلمه إلا الله ، هو الذى طوى الله غيبه عن جميع الخلق مثل وقت قيام الساعة ، وخروج يأجوج ومأجوج ، والدجال وعيسى ، ونحو الحروف المقطعة فى أوائل السور . فهذا لايعلمه أحد من الخلق .

ومراد ابن عباس ومجاهد بالمتشابه المتشابه النسبى الإضافى الذى يشتبه على بعض الناس دون بعض ، ومثل هذا يعرف منه أهل العلم مايزيل عنهم هذا الاشتباه[١].

وعلى هذا فمن أطلق على آيات الصفات وأحاديثها بأنها من المتشابه الذى لايعلمه إلا الله ، يستفصل فى مراده . فإن أراد حقائقها وكيفياتها فذلك قول صحيح لأنه لاأحد يعلم كنه صفات الله وكيفياتها إلا هو .

وإن أراد بذلك معانيها فإن الراسخين فى العلم يعرفون معانيها ويفرقون بين صفة وأخرى ، فالسمع ليس هو البصر ، والعلم ليس هو القدرة ، فإن السلف لايفوضون معانى صفات الله ، وإنما يفوضون كيفياتها .

وهكذا قال مالك رحمه الله لما سئل عن قوله تعالى : {الرحمن على العرش استوى}[٢]. قال : "الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة" .

فبين أن الاستواء معلوم ، أى معناه فى اللغة ، وكيفية ذلك مجهولة فلايعلمها إلا الله سبحانه[٣].

---

(١) انظر : الجامع لأحكام القرآن ٩/٤-١٨ ، مجموع الفتاوى ٦٢،٥٥،٥٤/٣ ، شرح العقيدة الطحاوية ص٢١٣-٢١٤ .

(٢) سورة طه : آية ٥

(٣) انظر : مجموع الفتاوى ٥٨/٣-٥٩،٦٥-٦٦ ، وانظر ١٨١/٢ الهامش .

وأما التأويل فقد صار بتعدد الاصطلاحات يستعمل فى ثلاثة معان :

أحدها : هو اصطلاح كثير من المتأخرين من المتكلمين فى الفقه وأصوله . وهو صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدليل يقترن به ، وهذا الذى عناه من تكلم فى تأويل نصوص الصفات .

الثانى : التأويل بمعنى التفسير .وهو الغالب على اصطلاح المفسرين للقرآن كابن جرير ونحوه ، ومرادهم بذلك بيان الكلام ، سواء وافق ظاهره أو خالفه ، ويحمد منه ماكان حقاً ويرد ماكان باطلاً .

الثالث : التأويل فى كتاب الله وسنة رسولهوهو الحقيقة التى يؤول اليها الكلام . فتأويل الخبر هو عين المخبر به . وتأويل الأمر هو عين المأمور به . قال تعالى : {هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق}(١). وقوله تعالى : {هذا تأويل رؤياى من قبل}(٢)إلى غير ذلك من الآيات .

وفى السنة ماجاء عن عائشة رضى الله عنها : "كان النبى صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول فى ركوعه وسجوده سبحانك اللهم ربنا وبحمدك . اللهم اغفر لى" يتأول القرآن(٣).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بعد ذكره لأنواع التأويل السابقة :

---

(١) سورة الأعراف : آية ٥٣

(٢) سورة يوسف : آية ١٠٠

(٣) انظر : المرجع السابق ٣/٥٥-٥٦ ، شرح العقيدة الطحاوية ص١٣ .
والحديث أخرجه البخارى فى صحيحه ، كتاب الأذان (١٠) ، باب التسبيح والدعاء فى السجود (١٣٩) ، ١/١٩٩ ، وفى كتاب التفسير (٦٥) ، تفسير سورة النصر (١١٠) ، باب (٢) ، ٦/٩٣ .
وأخرجه مسلم فى صحيحه ، كتاب الصلاة (٤) ، باب مايقال فى الركوع والسجود (٤٢) برقم ٤٨٤ ، ١/٥٠ .

"وأما التأويل المذموم والباطل ، فهو تأويل أهل التحريف والبدع الذين يتأولونه على غير تأويله ، ويدعون صرف اللفظ عن مدلوله إلى غير مدلوله بغير دليل يوجب ذلك ، ويدعون أن فى ظاهره من المحذور ماهو نظير المحذور اللازم فيما أثبتوه بالعقل ، ويصرفونه إلى معانى هى نظير المعانى التى نفوها عنه ، فيكون مانفوه من جنس ماأثبتوه ، فإن كان الثابت حقاً ممكناً كان المنفى مثله ، وإن كان المنفى باطِلاً ممتنعاً كان الثابت مثله"(١).

فهذا فى الحقيقة ليس تأويلا وإنما هو تحريف للنصوص عن معانيها ، وصرفها عن مدلولاتها ، وإن سموا ذلك تأويلاً تزييناً للباطل وزخرفة له ، وقد ذم الله المزخرفين للباطل فى قوله : {وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً شياطين الإنس والجنّ يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً}(٢).

وقد صيروا لفظ التأويل مستعملاً فى غير معناه الأصلى(٣).

والذى دفعهم إلى ذلك ظنهم الفاسد إن ظاهر نصوص الصفات يفيد التشبيه وهو كفر وضلال ، فيجب صرفها عن هذا الظاهر .

وهذا نتج لقصور فهمهم وقلة علمهم كما قيل :

وكم من عائب قولاً صحيحاً ... وآفته من الفهم السقيم

فمعاذ الله أن يكون ظاهر كلام الله ورسوله صلى الله عليه وسلم يفيد الضلال والكفر ، بل كلام الله ورسوله صلى الله عليه وسلم هو الحق ولايدل إلا على حق ، ومحال أن يدل على باطل أو ضلال ، وليس المعانى الفاسدة ظاهره ولامقتضاه(٤).

---

(١) مجموع الفتاوى ٦٧/٣ .
(٢) سورة الأنعام : آية ١١٢
(٣) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص٢١٣ .
(٤) انظر : المرجع السابق ص٢١٥ .

فالرسول صلى الله عليه وسلم مع كمال بيانه وفصاحة لسانه وحسن تعبيره عن المعانى ، وكمال معرفته وعلمه ، وكمال نصحه وإرادته لهداية الخلق ، يستحيل عليه أن يخاطبهم بشىء وهو لايريد منهم مايدل عليه خطابه ، بل يريد منهم أمراً بعيداً يدل عليه كدلالة الألغاز والأحاجى ، ويوقع الأمة بذلك فى أودية التأويلات وشعاب الاحتمالات . سبحانك هذا بهتان عظيم .

فيستحيل عليه صلى الله عليه وسلم أن يريد من كلامه مايحمله عليه المحرفون للكلم عن مواضعه ، المتأولون له تأويلاً باطلاً . وأن يكون كلامه من جنس الألغاز والأحاجى(١).

وقد فتحوا بذلك باب شر عظيم على أمة الإسلام ، دخلت من خلاله أنواع من الضلالات والبدع ، وذلك لما سوغوا صرف القرآن عن دلالته المفهومة بغير دليل شرعى . ولم يحددوا الضابط فيما يجوز تأويله مما لايجوز؟

فإن زعموا أن الضابط العقل ، ومادل على استحالته أولناه. ولكن ماهو العقل الذى يرجع إليه عند تأويل النصوص عن ظواهرها؟ هل هو عقل القرمطى(٢) الباطنى الذى يزعم به بطلان ظواهر الشرع ، أم هو عقل الفيلسوف الذى يزعم به بطلان حشر الأجساد ، أم هى عقولكم ياأهل الاعتزال التى تزعمون بها نفى صفات الله ورؤيته؟

---

(١) انظر : طريق الهجرتين ص٢٣٥ .

(٢) القرمطى :

نسبة إلى القرامطة . وهى حركة باطنية هدامة ، اعتمدت التنظيم السرى العسكرى. ظاهرها التشيع لآل البيت والانتساب إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، وحقيقتها الالحاد والشيوعية والإباحية وهدم الأخلاق والقضاء على الدولة الإسلامية . سميت بهذا الاسم نسبة إلى حمدان قرمط بن الأشعث الذى نشرها فى سواد الكوفة سنة ٢٧٨هـ .

الموسوعة الميسرة فى الأديان والمذاهب المعاصرة ص٣٩٥ .

فتسليط العقول على نصوص الوحى بالتأويلات التى لاضابط لها ، ولادليل عليها يلزم منه محذوران عظيمان :

الأول : عدم الإقرار بشىء من معانى الكتاب والسنة واستنفاذ الجهد فى بحوث طويلة يقررها العقل ، والعقول مختلفة متباينة ، وكل يدعى أن الحق ماذهب إليه عقله ، فيؤول الأمر إلى الحيرة .

الثانى : يستحيل على القلوب أن تجزم بشىء تعتقده مما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، لأن ظاهر ذلك غير مراد . فتعزل نصوص الوحى عن الدلالة والإرشاد ، وتصبح تابعة بعد أن كانت متبوعة وتهوى من مقام الاعتماد لتكون فى موضع الاعتقاد كما يفعل بها أهل التأويل الذين قدموا العقل على التنزيل، وهل ذلك إلا فتح لباب الزندقة (١)(٢) .

أما زعمهم بأن المراد بالآيات التى ذكرت فيها الصفات ، ذات الله تعالى.

يلزمهم من هذا الزعم أمران :

الأول : وجود ذات بغير صفات .

وهذا أمر يستنكره كل عاقل ، لأنه لاتوجد ذات مجردة عن الصفات، إلا وجوداً ذهنياً لاحقيقة له فى الخارج، فالذات المستلزمة للصفة لاتوجد إلا وهى متصفة بالصفة (٣) .

---

(١) الزندقة :
الزندقة تطلق ويراد بها عدة معان ، فقد كانت تطلق على أتباع " مانى " ثم أطلقت على الملاحدة الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا النبوات ، ثم على من أسر الكفر وأظهر الإسلام ، فتكون مرادفة للنفاق ، ثم اتسع هذا اللفظ فشمل أهل المجون والخلاعة وكل ماكان فيه خروج عن الدين بالقول والعمل .
وكل اتجاهات الزنادقة تلتقى فى هدف واحد وهو الوقوف فى وجه الإسلام ،
النفاق والزندقة وأثرهما فى مواجهة الدعوة الإسلامية : ص : ٣٥ .
وانظر : لسان العرب : ١/١٤٧ ، مجموع الفتاوى : ٥/٦٣ ، فتح البارى : ١٢/٢٧٠-٢٧١ .

(٢) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ٢١٥ - ٢١٦ .

(٣) انظر : بيان تلبيس الجهمية ص ١/٥٠٩ ، المنتقى من منهاج الاعتدال ص ٩٨ .

الثانى : إن الله هو الذات المجردة عن الصفات .

وهذا قول باطل ، والحق خلافه ، لأن الله تعالى ذكره هو الذات الموصوفة بالصفات اللازمة ، ولايتناول اسم الله ذاتا مجردة عن الصفات أصلا ، لأنه لايمكن وجود ذلك أبدا ، ولذا قال الإمام أحمد رحمه الله فى مناظرته للجهمية :

"لانقول الله وعلمه ، والله وقدرته ، والله ونوره ، ولكن نقول : الله بعلمه وقدرته ونوره : هو إله واحد"(١).

وعند التحقيق تجد أن هؤلاء مضطرين لإثبات صفات لله تعالى ، لأنهم أثبتوا كونه حيا ، وكونه عالما ، وكونه قادرا ، ولايجعلون هذا هو هذا ، ولاهذا هو هذا ، ولاهذه الأمور هى الذات ، فأثبتوا بذلك معانى زائدة على الذات المجردة(٢).

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم بتصرف ٢/٧٩١-٧٩٢ ، وانظر : المنتقى من منهاج الاعتدال ص٩٩ .
وقول الإمام أحمد فى كتابه الرد على الجهمية والزنادقة ص١٣٣-١٣٤ .

(٢) منهاج الاعتدال بتصرف ص٩٧ .

(٢) **رؤية الله تعالى** :

لقد أجمعت المعتزلة على القول بنفى رؤية الله تعالى بالأبصار يوم القيامة ، وقد نص المعتزلةأنفسهم على هذا الإجماع ، كما أشارت كثير من كتب الفرق إليه(١).

وزعموا أن القول بإثباتها قول حادث ومبتدع بعد الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته(٢).

ولقد خيم طاغوت التجسيم على أذهان المعتزلة فرأوا فى إثبات الرؤية حصوله فنفوها كما نفوا إثبات الصفات بمثل ذلك .

يقول عبد الجبار :

"لاأحد يدعى أنه يرى الله سبحانه إلا من اعتقده جسماً مصوراً بصورةمخصوصة ، أو يعتقد فيه أنه يحل فى الأجسام"(٣).

فكل مايقع عليه البصر إنما هو محدود ضعيف ، محوى ، محاط به ، له كل وبعض ، وفوق وتحت ، ويمين وشمال ، وأمام وخلف ، ولايمكن أن يوصف الله بذلك لأن ذلك من صفات الأجسام ، والله ليس بجسم(٤). فمن أثبتها فقد انغمس فى وحل التشبيه وتغطى بدثاره(٥). وبالتالى يتبع إثباتها لوازم باطلة - على رأيهم - يقول القاضى عبد الجبار :

"إن إثبات الرؤية يؤدى إلى حدوثه ، وإلى حدوث معنى فيه ، وإلى تشبيهه بخلقه، وإلى تجويره فى حكمه ، وإلى تكذيبه فى خبره ، لأن الشىء إنما يرى إذا كان مقابلاً ، أو حالاً فى المقابل ، وهذه من صفات الأجسام ، فيجب أن يكون القديم تعالى جسماً ، وإذا كان جسماً يجب أن يكون محدثاً

---

(١) انظر : المغنى ١٣٩/٤ ، باب ذكر المعتزلة ص٦ ، مقالات الإسلاميين ٢٣٨/١ ، الفرق بين الفرق ص١١٤-١١٥ ، الملل والنحل ٤٥/١ .

(٢) انظر : فضل الاعتزال ص١٥٨ .

(٣) المغنى ٩٩/٤ .

(٤) انظر : رسائل العدل والتوحيد ص٧٠ ، قصيدة الصاحب ص٥٦ .

(٥) انظر : المحيط بالتكليف ص٢٠٨ ، فضل الاعتزال ص١٩٦-١٩٧ .

لأن الأجسام لاتخلو من المعانى المحدثة فيؤدى إلى حدوثه ، وكذلك إذا كان جسماً تجوز عليه الحاجة ، وتجوزعليه الزيادة والنقصان ، وإذا جازت عليه الحاجة جاز أن يجور فى حكمه ، ويكذب فى خبره ، تعالى عن ذلك ، فإذا كان إثبات الرؤية لله تعالى يؤدى إلى كل هذه المحالات ، فيجب أن ينفى عنه على مانقوله"(١).

وتطاول بعضهم فكفر من قال برؤية الله ، لأنه مشبه لله بخلقه والمشبه كافر(٢).

وليس هذامنتهى قولهم فى نفى الرؤية ، بل زعموا أنه يستحيل أن يرى نفسه ، لأنه يستحيل فى ذاته أن يرى ، فذاته لاترى(٣). وهل يرى غيره؟ فهذا موضع اختلاف بينهم ، أجازه قوم ومنعه آخرون(٤).

كما اختلفوا فى رؤيته بالقلوب ، فقال أبو الهذيل وأكثر المعتزلة : نرى الله بقلوبنا بمعنى أنا نعلمه بقلوبنا ، وأنكر بعضهم ذلك(٥).

وقد صرحوا بأن إثبات الرؤية لايمكن الاستدلال عليه بالسمع ، أى بالقرآن والسنة ، لأن الاستدلال بذلك ينبنى على أنه تعالى عدل حكيم لايظهر المعجز على الكذابين ، ومن لايقول بذلك فلايمكنه الاستدلال بالسمع على شىء أصلاً(٦). بل "لاسمع ورد مصرحاً بأنه سبحانه يرى بالأبصار"(٧)، "ولافى كتاب الله جل وعز ذكر الرؤية فكيف يصح أن يدعى أنه تعالى سمى نفسه بأنه يرى ، أو ورد السمع به"(٨).

---

(١) شرح الأصول ص٢٧٦ .

(٢) انظر : الانتصار ص٥٥ .

(٣) انظر : المغنى ٤/٩٤-٩٥ ، قصيدة الصاحب ص٥٦ .

(٤) انظر : الفرق بين الفرق ص١١٤-١١٥ .

(٥) انظر : مقالات الإسلاميين ٢٣٨/١ .

(٦) انظر : شرح الأصول ص٢٦٢ .

(٧) المغنى ١٣٧/٤ .

(٨) المرجع السابق ١٣٨/٤ .

ولـذا كان عمدة أدلتهم فى نفى الرؤية العقل ، وإن كـانوا قد اتبعوا ذلك بأدلة نقلية .

ولهم طـريقان عقليان فى ذلـك . بينهمـا القاضى عبـد الجبـار فقـال : "أحدهما دليل المقابلة ، والثانى دليل الموانع .

١ ـ فتحـرير الأول : "إن مـن شأن أحدنا أن لايرى إلا إذا كـانت له حاسة صحيحة ، ولايكفى ذلك دون أن يكون المرئى مقابلاً لحاسته ، إن كان إنما يراه بلاواسطـة ، أويقابل ماقابل حاسته إن كان يرى بواسطـة هى المرآة، وكـانت هـذه القضيـة لازمـة وواجبـة فى الـرائى بحاسـة ، لأنه مهمـا حصـل الشـرطان صـح كونه رائياً ، ومهمـا فقدا أو فقد أحدهمـا امتنعـت الرؤية . ومعلوم أن القديم يرى الجوهر ولايقابله ، فإذا ثبتت هذه الجملة، وكان من حق الـرائى هنا أن لايرى إلا ماهومقابل لنا ، وكانت هـذه القضية فيه تعالى ممتنعة ، فيجب أن تمتنع الرؤية"[١].

٢ ـ وتحرير الثـانى :إن المنـع مـن الرؤية إنما يصـح على مـن يجوز أن يكون رائياً ، بأن يكـون حياً لاآفة به ، وحاسته صحيحـة ،و المرئى موجود ، فحينئـذ يرد عليه من رؤية هذا المرئى منع ، والموانع أجمـع راجعة إلى ماهو من تمام الحاسة ، وهو الشعـاع الـذى لابد مـن حصولـه مـع المرئى على وجه مخصوص ، ولايحدث ذلك إلا مع الأجسام ، والله تعالى ليـس بجسم فامتنعت رؤيته لذلك أيضا[٢]".

وخلاصـة مـاذكر إن الشـىء إنما يرى إذا كـان مقـابلاً ، أو حالاً فى المقابل ، أو فى حكم المقابل وهذه من صفات الأجسام[٣].

أو يوجد رائى ومـرئى ولامانع من حدوث الرؤية ، والموانع ترجع إلى الشعاع الذى هو من صفات الأجسام ، والله ليس بجسـم ، فتمتنع الرؤية .

---

(١) المحيط بالتكليف ص٢٠٩-٢١٠ .

(٢) انظر : المرجع السابق ص٢١٠-٢١١ .

(٣) انظر : شرح الأصول ص٢٧٦ .

فهذا عن طرقهم العقلية وأما النقلية فقد استدلوا بأدلة لتأييد ماسبق . من ذلك :

(١) قوله تعالى :

{لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير}(١).

والدلالة من الآية على وجهين :

الأول : إن الإدراك إذا قرن بالبصر لايحتمل إلا الرؤية ، فلاحال يعقل للإنسان إذا أدرك الشيء ورآه إلا حالة واحدة ، وهو كونه رائياً له . ولايجوز فى اللغة أن يراد بالإدراك إلا الرؤية بالبصر ، ولذلك يجريان فى النفى والإثبات على حد واحد ، وقد نفى عن نفسه إدراك الأبصار وذلك نفى لرؤيتها . والنفى ههنا عام من غير توقيت ، فيجب أن يقطع على أن المراد بذلك فى كل حال لافرق بين الدنيا والآخرة .

الثانى : أنه سبحانه مدح نفسه بنفى الإدراك عنها ، مدحاً يرجع إلى ذاته ، فإثبات الإدراك له لايكون إلا نقصاً وذماً لأنه نفى ماتمدح الله به ، وصفة النقص لاتجوز فى حقه سبحانه وتعالى فى الدنيا ولافى الآخرة. فلهذا يجب أن لايرى فى الدنيا ولافى الآخرة(٢).

وقد عد المعتزلة هذه الآية من الآيات المحكمة التى يجب أن تحمل بقية الآيات التى زعموا أنها متشابهة عليها(٣).

وخلاصة وجهى الاستدلال بالآية :

الأول : إن الإدراك المقرون بالبصر لايحتمل إلا الرؤية وقد نفى ، والنفى عام فى جميع الأوقات والأزمان .

الثانى : إن الله تمدح بكونه لايرى ـ على فهمهم ـ وماكان عدمه مدحاً كان وجوده نقصاً يجب تنزيه الله عنه(٤).

---

(١) سورة الأنعام : آية ١٠٣

(٢) انظر : المغنى ١٤٦/٤،١٥٠ ، شرح الأصول ص٢٣٣ ، المحيط ص٢١٢ ، متشابه القرآن ص٢٥٥ ، شرح قصيدة الصاحب ص٥٤ .

(٣) انظر : رسائل العدل والتوحيد ص١٠٧ .

(٤) رؤية الله تعالى ص٣٥ .

(٢) قوله تعالى :

{ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرنى أنظر إليك قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخر موسى صعقاً فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين}(١).

ولهم عدة أوجه فى الاستدلال بالآية :

الأول : قوله تعالى : "لن ترانى".

إن الله أنكر على موسى طلبه فغيره أولى بالإنكار ، لأن الرؤية تضمن المقابلة التى هى محض التشبيه والتجسيم .

فإن قيل : كيف طلب موسى عليه السلام رؤية الله وهو من أعلم الناس بالله وصفاته ومايجوز عليه ومالايجوز . ومن ذلك تعاليه عن الرؤية؟

الجواب : بأنه ماطلب ذلك إلا ليبكت الذين طلبوا رؤية الله عندما قالوا : "أرنا الله جهرة" فأنكر عليهم ذلك ، وبين لهم أنه خطأ ، ولكنهم تمادوا فى لجاجهم وأصروا على طلب الرؤية ، فأراد موسى أن يسمعوا النص من عند الله باستحالة ذلك فقال له "لن ترانى" فإذا سمعوه تيقنوا وانزاح عنهم مادخلهم من شبه ، فطلب موسى عبارة عن ترجمة عن مقترحهم وحكاية عن قولهم(٢).

وقال عبد الجبار :

"إنه التمس من الله تعالى أن يعرفه نفسه ضرورة بقوله "رب أرنى أنظر إليك" لأن الرؤية قد تنطلق على المعرفة ، فكأنه قال : عرفنى نفسك باضطرار لأكون من الشبه أبعد ، وإلى السكون والطمأنينة أقرب ، وأراد أن يظهر تعالى من الآيات العظيمة ماعنده تحصل هذه المعرفة ، فذكر نفسه فى قوله : "أُنظر اليك" وإنما أراد الآيات التى يحدثها ، فقال تعالى : "لن ترانى"

---

(١) سورة الأعراف : آية ١٤٣

(٢) انظر : الكشاف ٨٩/٢-٩٠ .

مبيناً له أن مع التكليف لايجوز أن يعرفه باضطرار"(١).

الثانى :إن "لن" تفيد تأكيد النفى الذى تعطيه "لا" ، لأن "لا" تنفى المستقبل . وذلك كقوله : {لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له}(٢)، فقوله "لاتدركه الأبصار" نفى للرؤية فيما يستقبل ، وقوله "لن ترانى" تأكيد وبيان لأن المنفى مناف لصفاته(٣).

وقد طرح الزمخشرى فى هذا الموضع سؤالاً : "فإن قلت كيف اتصل الاستدراك فى قوله {ولكن انظر الى الجبل} بما قبله؟

أجاب قائلاً : "اتصل به على معنى إن النظر إلى محال فلاتطلبه ولكن عليك بنظر آخر وهو أن تنظر إلى الجبل الذى يرجف بك وبمن طلبت الرؤية لأجلهم كيف أفعل به وكيف أجعله دكاً بسبب طلبك الرؤية لتستعظم ماأقدمت عليه بما أريك من عظم أثره كأنه عز وعلا حقق عند طلب الرؤية مامثله عند نسبة الولد إليه فى قوله : {وتخر الجبال هداً أن دعوا للرحمن ولداً}(٤)(٥).

ويؤيد ماذهب إليه الزمخشرى فى أن "لن" تفيد التأبيد القاضى عبد الجبار فيقول :

"يدل ظاهره - أى قوله " لن ترانى" - على أنه لايراه أبدا ، لأن النفى على هذا الوجه يوجب ذلك فى اللغة ، كقوله تعالى : {فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس}(٦)إلى ماشاكله"(٧).

---

(١) متشابه القرآن ص٢٩٤ .
(٢) سورة الحج : آية ٧٣
(٣) انظر : الكشاف ٨٩/٢-٩٠ .
(٤) سورة مريم : آية ٩٠-٩١
(٥) انظر المرجع السابق ٨٩/٢-٩٠ .
(٦) سورة البقرة : آية ٢٤
(٧) المغنى ١٦٩/٤-١٧٠ .

ويقول : "فأما شيوخنا رحمهم الله ، فقد استدلوا بهذه الآية على أنه تعالى لايرى ، لأنه تعالى قال : "لن ترانى" وذلك يوجب نفى رؤيته تعالى فى المستقبل أبداً ، فإذا صح ذلك من موسى وجب مثله فى الأنبياء والمؤمنين"(١).

الثالث : قوله تعالى : {ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً} .

زعم الزمخشرى أن ذلك تعليق لوجود الرؤية بوجود مالايكون من استقرار الجبل مكانه حين يدكه ويسويه بالأرض(٢).

واستفاض عبد الجبار فى بيان وجه الدلالة فذكر أن الله نفى أن يراه موسى عليه السلام وأكد ذلك بأن علقه باستقرار الجبل ، وقد جعل الجبل دكاً منبهاً بذلك على أن رؤيته لاتقع لتعليقه إياها بأمر وجد ضده على طريق التبعيد المشهور عند العرب ، فهم يؤكدون الشىء بمايعلم أنه لايقع على جهة التبعيد كقول الشاعر :

إذا شاب الغراب أتيت أهلى

وصار القار كاللبن الحليب

وكقوله تعالى : {ولايدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط}(٣).

ثم جعل الله الجبل دكاً مبيناً به انتفاء استقراره وفى ذلك دليل على أن الرؤية لاتقع(٤).

وقد أورد عبد الجبار اعتراضاً حول معنى قول الله تعالى : {فلماتجلى ربه للجبل} ، قال فيه :

---

(١) متشابه القرآن ص٢٩٦ .

(٢) انظر : الكشاف ٩١/٢ .

(٣) سورة الأعراف : آية ٤٠

(٤) انظر : المغنى ١٦١/٤-١٦٢ ، متشابه القرآن ص٢٩٦-٢٩٧ .

"والمراد بقوله : {فلماتجلى ربه للجبل} ، فلما أظهر من آياته وقدرته ماأوجب أن يصير دكاً . وقد يقال تجلى بمعنى جلى ، كما يقال : حدث وتحدث ، ولذلك قال فى الساعة : {لايجليها لوقتها إلا هو}(١)، وظاهر جلى وتجلى : هو الإظهار ، فيجب أن يحمل على إظهار القدرة ، يبين ذلك أنه تعالى علق جعله الجبل دكاً بالتجلى ، ولو أراد به تجلى ذاته لم يكن لذلك معنى ، لأنه لو كان الجبل يجب أن يصير دكاً ، أو أراد : تجلى بمعنى المقابلةلوجب أن لايستقر له مكان ، بل كان يجب فى العرش أن يصير دكاً ، وأن يكون بهذه الصفة أحق .

ولو كان فى الحقيقة تجلى الجبل ، بمعنى أنه أظهر وزال الحجب ، لكان من على الجبل يراه أيضاً، فكان لايصح مع ذلك قوله : "لن ترانى" وكان لايصح أن يعلق نفى الرؤية بأن لايستقر الجبل ، والمعلوم أنه لايستقر بأن ينكشف ويرى ، لأن ذلك فى حكم أن يجعل الشرط فى أن لايرى مايوجب أن يرى ، وذلك متناقض"(٢).

وقال : "فأما التجلى فإنما يصح أن يتعلق به من يزعم أنه تعالى جسم يجوز عليه الانتقال ، فأما من لايقول بذلك ويقول إنه لاكالأجسام ، وأنه ليس بمؤلف فتعلقه بهذا الظاهر ، وإن أطلق هذا القول فيه تعالى ، لايصح "(٣).

الرابع : قوله تعالى : {وخر موسى صعقاً} .

قال الزمخشرى : "وخر موسى صعقاً" من هول مارأى .. ومعناه خر مغشياً عليه غشية كالموت ، وروى أن الملائكة مرت عليه وهو مغشى عليه فجعلوا يلكزونه بأرجلهم ويقولون : ياابن النساء الحيض أطمعت فى رؤية رب العزة؟(٤)

---

(١) سورة الأعراف : آية ١٨٧

(٢) متشابه القرآن ص٢٩٨ .

(٣) المرجع السابق ص٢٩٧ .

(٤) الكشاف ٩١/٢ .

الخامس : قوله تعالى : {قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين} .

قال الزمخشرى : "فى قوله تعالى : "قال سبحانك" أى أنزهك مما لايجوز عليك من الرؤية وغيرها . "تبت إليك" : من طلب الرؤية . "وأنا أول المؤمنين" : بأنك لست بمرئى ولامدرك بشىء من الحواس".

ثم يورد سؤالاً فيقول : "فإن كان طلب الرؤية للغرض الذى ذكرته فمم تاب موسى؟"

قلت : من إجرائه تلك المقالة العظيمة وإن كان لغرض صحيح على لسانه من غير إذن فيه من الله تعالى . فانظر إلى إعظام الله تعالى أمر الرؤية فى هذه الآية ، وكيف أرجف الجبل بطالبيها وجعله دكاً وكيف أصعقهم ، ولم يخل كليمه من نفيان ذلك مبالغة فى إعظام الأمر ، وكيف سبح ربه ملتجأ إليه وتاب من إجراء تلك الكلمة على لسانه وقال "أنا أول المؤمنين" ثم تعجب من المتسمين بالإسلام المتسمين بأهل السنة والجماعة كيف اتخذوا هذه العظيمة مذهباً ولايغرنكم تسترهم بالبلكفة فإنه من منصوبات أشياخهم . والقول ماقال بعض العدلية فيهم :

لجماعة سموا هواهم سنة

وجماعة حمر لعمرى موكفة(١)

قد شبهوه بخلقه وتخوفوا

شنع الورى فتستروا بالبلكفة(٢)

ثم أورد المعتزلة أحاديث وآثاراً زعموا أنها تدل على نفى الرؤية منها:

(١) ماروى عن سمرة بن جندب أنه قال :

سألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل نرى ربنا فى الآخرة؟

---

(١) موكفة :من الوكف : محركة . وهو الميل والجور ، والعيب والإثم .
القاموس المحيط ص١١١٣ .

(٢) الكشاف ٢/٩١-٩٢ .
ويعنى بالبلكفة : قول أهل السنة : بلا كيف .

قال : فانتفض فسقط ولصق بالأرض وقال : "لايراه أحد ولاينبغي لأحد أن يراه"(١).

(٢) مانسب لعائشة :

"إنها سمعت بأن القوم يقولون : بأن الله يرى ، فقالت : لقد قف شعرى مما قلتموه ، ودفعت ذلك بقوله تعالى : {لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار}(٢).

وأما موقفهم من أدلة الإثبات اقتصر على ذكر مثالين أحدهما من القرآن والآخر من السنة .

المثال الأول :

قوله تعالى : {وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة}(٣).

ولهم أوجه فى صرف دلالتها :

(١) إن ظاهرها يقتضى التشبيه فيجب تأويلها(٤).

(٢) إنها من المتشابه الذى يجب أن يأول لكى يتفق مع الآيات المحكمة التى تنفى الرؤية كقوله تعالى : {لاتدركه الأبصار}(٥).

ولهم أوجه فى تأويلها :

قال عبد الجبار :

"وقوله تعالى : {وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة} لايدل ظاهره على أنه تعالى يرى من وجوه :

---

(١) انظر : شرح قصيدة الصاحب ص٥٤ .
ولم أقف على هذا الحديث فى شىء من كتب أهل العلم . وهو مناهض للآيات والأحاديث التى تثبت رؤية الله فى الآخرة .
ولايبعد وضعه .

(٢) فضل الاعتزال ص١٥٩ .
وسوف يأتى تخريج حديث عائشة والكلام عنه .

(٣) سورة القيامة : آية ٢٢ - ٢٣

(٤) انظر : المحيط بالتكليف ص٢٠٨ .

(٥) انظر : رسائل العدل والتوحيد ص١٠٨ .

أحدها : أنه تعالى ذكر أنها ناظرة إلى ربها ، والنظر غير الرؤية ، لأنه إذا علق بالعين فالمراد طلب الرؤية ، كما إذا علق بالقلب ، فالمراد طلب المعرفة ، ولذلك يقول القائل : نظرت إلى الشىء فلم أره ، ونظرت إليه حتى رأيته ، فلذلك نعلم باضطرار أن الناظر ناظر ولانعلمه رائياً إلا بخبره . ولذلك أضافت العرب النظر إضافات ، فجعلت منه نظر الراضى والغضبان ... إلى غير ذلك، ولم تضف الرؤية على هذا الحد ، وإذا كان النظر غير الرؤية ـ لما ذكرناه ـ فكيف يدل الظاهر على أنهم يرون الله؟

ومتى قالوا : إذا ثبت بالظاهر أنه ينظر إليه، وجب أن يكون مما يصح رؤيته ، قلنا : هذا يؤدى إلى أن يكون جسماً فى جهة مخصوصة ، لأن النظر هو تقليب الحدقة نحو الشىء التماساً لرؤيته وهذا لايصح إلا والمطلوب رؤيته فى جهة مخصوصة ، وذلك يوجب أنه جسم ،تعالى الله عن ذلك! ولهذا قلنا : إنه تعالى لما خلق النظر بنفسه ، وعلمنا أن ذلك لايصح فيه ، وجب أن يكون المراد به الثواب ، لأن الحكم الذى يقتضيه الاسم إذا لم يصح فيما علق به ، وجب أن يكون المراد غيره ، كقوله تعالى : {واسأل القرية}(١). إلى غير ذلك من وجوه المجاز.

والثانى : أنه تعالى وصف الوجوه بأنها ناظرة ، وقد علمنا أن هذه اللفظة تفيد الجملة ، لأن الناظر هو الإنسان دون بعضه ، كما أنه العالم والقادر والفاعل ، فإذا صح وكان الإنسان يوصف على أنه ناظر على وجه فيراد به الانتظار ، وقد يراد به تقليب الحدقة طلباً للرؤية ، وقد يراد به التفكر بالقلب طلباً للمعرفة ، فليس فى الظاهر ـ إذن ـ دلالة على ماقاله القوم وهو محتمل له ولغيره .

والثالث : أنه تعالى أراد بذكر الوجوه جملة الإنسان ، لاالبعض المخصوص ، ولذلك وصف الوجوه بأنها ناظرة ، وذلك يليق بها دون الأبعاض ، ولذلك قال من بعد : {وجوه يومئذ باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة}(٢)، فوصفها بالظن الذى لايليق بالوجه . فإذا صح ذلك وجب كون

---

(١) سورة يوسف : آية ٨٢
(٢) سورة القيامة : آية ٢٤،٢٥

الكلام مجملاً ، لأن الجملة إذا وصفت بأنها ناظرة ، لم يفهم أن المراد به الرؤية"(١).

وقالوا : إن المراد بها ليس النظر بالأحداق ولكن النظر إلى ثوابه ومأعد لأوليائه ، فيكون قد حذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه ، كقوله تعالى : {واسأل القرية التى كنا فيها والعير التى أقبلنا فيها}(٢).

وقال الزمخشرى :

"اختصاصه بنظرهم ـ أى المؤمنين ـ إليه لو كان منظوراً إليه محال فوجب حمله على معنى يصح معه الاختصاص ، والذى يصح معه أن يكون من قول الناس : أنا إلى فلان ناظر مايصنع بى تريد معنى التوقع والرجاء .

والمعنى أنهم لايتوقعون النعمة والكرامة إلا من ربهم كما كانوا فى الدنيا لايخشون ولايرجون إلا إياه"(٣).

وقال أبو على الجبائى :

"إن "إلى" ههنا ليست حرف جر لكنها اسم وهى واحدة الآلاء وهى النعم فهى فى موضع مفعول ومعناه نعم ربها منتظرة"(٤).

المثال الثانى :

قوله صلى الله عليه وسلم : "سترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر ليلة البدر"(٥).

قعد عبد الجبار قاعدة عامة تكشف موقف المعتزلة من أحاديث الرؤية فقال :

---

(١) متشابه القرآن ص٦٧٣-٦٧٤ .

(٢) انظر : المحيط بالتكليف ص٢١٣ ، شرح قصيدة الصاحب ص٥٤-٥٥ . والآية هى ٨٢ من سورة يوسف .

(٣) الكشاف ١٦٥/٤ .

(٤) الفصل فى الملل والأهواء والنحل ٣/٣ .

(٥) سوف يأتى تخريج الحديث والكلام عنه .

"ومما يتعلقون به أخبار مروية عن النبى صلى الله عليه وآله ، وأكثرها يتضمن الجبر والتشبيه ، فيجب القطع على أنه صلى الله عليه وسلم لم يقله ، وإن قال فإنه قاله حكاية عن قوم ، والراوى حذف الحكاية ونقل الخبر "(١).

ثم تناول الحديث السابق مبينا بأنه أشق وأعظم مايتمسك به من يثبت الرؤية ، وقد حاول دفعه ورده بأجوبة :

أحدها : إنه يتضمن الجبر والتشبيه ، لأن القمر لايرى إلا مدوراً عالياً منوراً ، ولايجوز أن يرى الله على هذا الحد . فلابد من القطع على أن هذا الخبر كذب عن النبى صلى الله عليه وسلم وأنه لم يقله ، وإن قاله فإنما هو حكاية عن قوم .

الثانى : إنه يروى عن قيس بن أبى حازم(٢) عن جرير بن عبد الله عن النبى صلى الله عليه وسلم . ثم طعن فى قيس من وجهين :

الوجه الأول : إنه كان يرى رأى الخوارج . ودليله على ذلك أنه قال ـ أى قيس ـ : "منذ سمعت علياً على منبر الكوفة يقول :انفروا إلى بقية الأحزاب ـ يعنى أهل النهروان ـ(٣) دخل بغضه قلبى" . فقال عبد الجبار : "ومن دخل بغض أمير المؤمنين قلبه ، فأقل أحواله أن لايعتمد على قوله ولايحتج بخبره" .

الوجه الثانى : قيل إنه خولط فى عقله آخر عمره ،والكتبة يكتبون عنه كعادتهم فى حال عدم التمييز ، ولاندرى أن هذا الخبر رواه وهو صحيح العقل أو مختلط .

---

(١) شرح الأصول ص٢٦٨ .

(٢) تأتى ترجمته والكلام عنه .

(٣) النهروان :
موضع واسع بين بغداد وواسط من الجانب الشرقى .
كان بها وقعة مشهورة لأمير المؤمنين على بن أبى طالب مع الخوارج .
انظر : معجم البلدان ٣٢٤/٥ ، مراصد الإطلاع ١٤٠٧/٣ .

الثالث : لو صح وسلم فهو خبر آحاد ، وخبر الواحد لايقتضى العلم ، ومسألة الرؤية طريقها القطع والثبات .

الرابع : إنه معارض بأخبار رويت ، منها :

ماارواه أبو قلابةعن أبى ذر أنه قال : قلت للنبى : "هل رأيت ربك"؟ فقال : "نور هو ، أنى أراه" .

أى أنور هو؟ كيف أراه؟(١)

وعن جابر بن عبد الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لن يرى الله أحد فى الدنيا ولافى الآخرة"(٢)(٣).

الخامس : إن المراد بالرؤية فى الحديث العلم وليست الرؤية البصرية.

قال عبد الجبار :

ثم نتناوله نحن على وجه يوافق دلالة العقل ، فنقول المراد به سترون ربكم يوم القيامة ، أى ستعلمون ربكم يوم القيامة كما تعلمون القمر ليلة البدر . وعلى هذا قال : لاتضامون فى رؤيته ، أى لاتشكون فى رؤيته فعقبه بالشك ، ولو كان بمعنى رؤية البصر لم يجز ذلك. والرؤية بمعنى العلم مما نطق به القرآن ، وورد به الشعر"(٤).

وقال الزمخشرى:

""سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر" بمعنى ستعرفونه معرفة جلية هى فى الجلاء كإبصاركم القمر إذا امتلأ واستوى"(٥).

فحمل الرؤية على المعرفة بينما حملها عبد الجبار على العلم .

---

(١) سوف يأتى تخريج الحديث والكلام عنه .

(٢) لم أقف عليه فى شىء من كتب أهل العلم . وهو معارض للآيات والأحاديث الصحيحة التى تدل على رؤية الله فى الآخرة ولايبعد أن يكون موضوعا من قبل أهل الاعتزال .

(٣) انظر : شرح الأصول ص٢٦٨-٢٧٠ .

(٤) المرجع السابق ص٢٧٠ .

(٥) الكشاف ٩٢/٢ .

موقف السلف من رؤية الله ، والجواب على شبه المعتزلة :

لقد اتفق سلف هذه الأمة وأئمتها من أهل السنة والجماعة على أن الله سبحانه يرى فى الدار الآخرة ، يراه المؤمنون رؤية حقيقية تليق به سبحانه وتعالى من غير إحاطة ولاكيفية .

كمااتفقوا على أنه لايراه أحد بعينى رأسه فى الدنيا ، وذلك لقوله تعالى لموسى {لن ترانى}(١)، ولقول النبى صلى الله عليه وسلم : "تعلموا أنه لن يرى أحد منكم ربه عز وجل حتى يموت"(٢). وهى وإن كانت جائزة عقلاً وليست بمستحيلة إلا أن البشر لايطيقون رؤيته فى هذه الدار لعجز أبصارهم وضعفها . ولذا من ادعى رؤية الله فى الدنيا بعينى رأسه فدعواه باطلة باتفاق أهل السنة والجماعة . وهو ضال(٣).

وإنما الخلاف فى رؤية نبينا صلى الله عليه وسلم لربه عز وجل بعينيه فى الدنيا، فأثبت ذلك قوم ونفاه آخرون . والصحيح أنه لم يره بعينيه لقوله فى حديث أبى ذر : "نور أنى أراه" . وفى رواية "رأيت نوراً"(٤).

وموضوع رؤية الله فى الآخرة من أشرف مسائل أصول الدين، وهى أعظم أنواع النعيم الذى خص الله به أولياءه وحرمه أعداءه .

---

(١) سورة الأعراف : آية ١٤٣

(٢) انظر : مجموع الفتاوى ٢٣٠/٢ ، المنتقى من منهاج الاعتدال ص١٠٨ .
والحديث أخرجه مسلم فى صحيحه ، من حديث بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . كتاب الفتن وأشراط الساعة (٥٢) ، باب ذكر ابن صياد (١٩) برقم ٢٩٣١ ، ٢٢٤٥/٤ .

(٣) انظر : مجموع الفتاوى ٣٨٩/٣ ، بيان تلبيس الجهمية ٣٥٨/١ ، شرح العقيدة الطحاوية ص١٩٥ ، لوامع الأنوار ٢٨٥/٢ ، الجامع لأحكام القرآن ٥٥/٧ .

(٤) انظر : مجموع الفتاوى ٢٣٠/٢ ، شرح العقيدة الطحاوية ص١٩٦،١٩٧ ، رؤية الله تعالى ص١٣٠ .
والحديث : أخرجه مسلم فى صحيحه بروايتيه . كتاب الإيمان (١) ، باب فى قوله عليه السلام : "نور أنى أراه"، وفى قوله : "رأيت نورا" (٧٨) برقم ١٧٨ ، ١٦١/١

قال السفاريني رحمه الله :

"ورؤية الله رب العالمين أعظم وأجل وأشرف وأنعم نعيم الجنة قدراً وأعلاه وأغلاه خطراً وأمراً ، وهي الغاية القصوى والنهاية العظمى التي شمر إليها السابقون وتنافس فيها المتنافسون واتفق الأنبياء والمرسلون والصحابة والتابعون وأئمة السلف والدين على ثبوتها في دار القرار من غير شك ولاإنكار وإنما أنكرها أهل البدع والضلال والتجهم والاعتزال"(١).

وقد تضافرت على إثباتها أدلة الكتاب والسنة ، وأجمع على ذلك سلف الأمة(٢).

وهذه بعض النصوص التي تدل على إثباتها من القرآن الكريم والسنةالنبوية وأقوال سلفنا الصالح .

(أ) **القرآن الكريم :**

(١) قوله تعالى :

{ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخر موسى صعقاً فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين}(٣).

وبيان الدلالة من هذه الآية من وجوه عديدة :

أحدها : إنه لايظن بكليم الرحمن ورسوله الكريم عليه أن يسأل ربه مالايجوز عليه ، بل هو من أبطل الباطل وأعظم المحال .

الوجه الثاني : إن الله سبحانه لم ينكر عليه سؤاله ولو كان محالاً لأنكره عليه . ولهذا لما سأل إبراهيم الخليل ربه تبارك وتعالى أن يريه كيف

---

(١) لوامع الأنوار ٢٤١/٢ .
وانظر : حادي الأرواح ص٢١٢ ، شرح العقيدة الطحاوية ص١٨٩ .

(٢) انظر : حادي الأرواح ص٢١٢ ، لوامع الأنوار ٢٤١/٢ ، شرح لمعة الاعتقاد ص٤٩،٥٠ .

(٣) سورة الأعراف : آية ١٤٣

يحيي الموتى لم ينكر عليه . ولما سأل عيسى بن مريم ربه إنزال المائدة من السماء لم ينكر سؤاله . ولما سأل نوح ربه نجاة ابنه أنكر عليه سؤاله وقال : {إني أعظك أن تكون من الجاهلين}(١).

الوجه الثالث : إنه أجابه بقوله : "لن تراني" ولم يقل لاتراني ولأني لست بمرئي ، ولاتجوز رؤيتي ، والفرق بين الجوابين ظاهر لمن تأمله . وهذا يدل على أنه سبحانه وتعالى يرى ولكن موسى لاتحتمل قواه رؤيته في هذه الدار لضعف قوة البشر فيها عن رؤيته تعالى .

الوجه الرابع : قوله تعالى : {ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني} . فأعلمه أن الجبل مع قوته وصلابته لايثبت لتجليه له في هذه الدار فكيف بالبشر الضعيف الذي خلق من ضعف.

الوجه الخامس : إن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يجعل الجبل مستقراً مكانه وليس هذا بممتنع في مقدوره ، بل هو ممكن وقد علق به الرؤية ولو كانت محالاً في ذاتها لم يعلقها بالممكن في ذاته . بل لو كانت محالاً لكان ذلك نظير أن يقول : إن استقر الجبل فسوف آكل وأشرب وأنام.

الوجه السادس : قوله سبحانه وتعالى : {فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً} وهذا من أبين الأدلة على جواز رؤيته تبارك وتعالى فإنه إذا جاز أن يتجلى للجبل الذي هو جماد لاثواب له ولاعقاب فكيف يمتنع أن يتجلى لأنبيائه ورسله وأوليائه في دار كرامته ويريهم نفسه؟ فأعلم سبحانه وتعالى موسى أن الجبل إذا لم يثبت لرؤيته في هذه الدار فالبشر أضعف .

الوجه السابع : إن ربه سبحانه وتعالى قد كلمه وخاطبه وناجاه وناداه ومن جاز عليه التكلم والتكليم وأن يسمع مخاطبة كلامه معه بغير واسطة فرؤيته أولى بالجواز ، ولهذا لايتم إنكار الرؤية إلا بإنكار التكليم(٢).

---

(١) سورة هود : آية ٤٦

(٢) حادي الأرواح ص٢١٢-٢١٣ بتصرف .

وانظر : شرح العقيدة الطحاوية ص١٩١-١٩٢ .

(٢) قوله تعالى : {وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة}(١).

قال ابن عباس : "تنظر إلى وجه ربها عز وجل" .

وقال الحسن(٢): "نظرت إلى ربها فنضرت بنوره" .

وقال عكرمة(٣): "الى ربها ناظرة" . تنظر إلى ربها نظراً".

وذكر اللالكائى رحمه الله أنه قد قال بذلك جماعة من التابعين ، واستدل بالآية على جواز الرؤية مالك والشافعى رحمهما الله(٤).

وهو قول المفسرين من أهل السنة(٥).

قال الإمام ابن كثير رحمه الله : "{وجوه يومئذ ناضرة} من النضارة أى حسنة بهية مشرقة مسرورة . {إلى ربها ناظرة} : أى تراه عياناً"(٦).

---

(١) سورة القيامة : آية ٢٣،٢٢

(٢) الحسن :
هو الحسن بن أبى الحسن البصرى ، واسم أبيه : يسار ، الأنصارى ، مولاهم ، ثقة فقيه ، فاضل ، مشهور ، كان يرسل كثيراً ويدلس .
روى عن عمران بن حصين ، وأبى موسى ، وابن عباس . وعنه ابن عون ويونس . مات سنة ١١٠هـ .
انظر : الجرح والتعديل ٣/٤٠-٤٢ ، الطبقات الكبرى ١٥٦/٧ ، تذكرة الحفاظ ٦٦/١ ، الكاشف ٢٢٠/١ ، تهذيب التهذيب ٢٦٣/٢ ، تقريب التهذيب ١٦٥/١ .

(٣) عكرمة :
هو عكرمة بن عبد الله ، مولى ابن عباس ، أصله بربرى ، ثقة ثبت ، عالم بالتفسير ، لم يثبت تكذيبه عن ابن عمر ، ولايثبت عنه بدعة . روى عن ابن عباس ، وعائشة ، وأبى هريرة . وعنه إبراهيم النخعى ، والشعبى ، وخلق . مات سنة ١٠٧هـ وقيل بعدها .
انظر : طبقات ابن سعد ٢٨٧/٥ ، الجرح والتعديل ٧/٧ ، تذكرة الحفاظ ٩٥/١ ، ميزان الاعتدال ٩٣/٣ ، تهذيب التهذيب ٢٦٣/٧ ، تقريب التهذيب ٣٠/٢ .

(٤) انظر : شرح اعتقاد أهل السنة ٤٦٤/٢ .

(٥) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص١٩٠ .

(٦) تفسير القرآن العظيم ٤٥٠/٤ .

(٣) قوله تعالى :

{للـذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولايرهـق وجوههم قتر ولاذلـة أولـئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون}(١).

الحسنى : هـى الجنـة ، والـزيادة : هى النظر إلى وجه الله الكـريم ، بذلـك فسـرها رسول الله صلى الله عليـه وسلم والصحـابة والتـابعون وأئمة السلف رضى الله عن الجميع .

روى مسلم بسنده إلى صهيب أن النبى صلى الله عليـه وسلم قال : "إذا دخل أهـل الجنـة الجنـة ، قـال : يقـول الله تبارك وتعـالى : تريدون شيئـاً أزيدكم؟ فيقولون ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظـر إلى ربهم عز وجل . ثم تلا هذه الآية : {للذين أحسنوا الحسنى وزيادة}(٢).

قال ابن القيم رحمه الله :

"ولما عطف سبحانه الزيادة على الحسنى التى هى الجنة دل على أنها أمر آخر وراء الجنة وقدر زائد عليها"(٣).

(٤) قوله تعالى : {لهم مايشاءون فيها ولدينا مزيد}(٤).

جاء عـن على وأنس رضـى اللـه عنهما أن المزيد هـو النظـر إلى وجه الله تعالى(٥).

---

(١) سورة يونس : آية ٢٦

(٢) انظـر : شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٤٥٥/٢ فما بعدها ، الاعتقـاد ص٧٦،٧٧ ، الجامـع لأحكـام القـرآن ٣٣٠/٨ ، حادى الأرواح ص٢١٤-٢١٥ ، تفسير القـرآن العظيم ٤١٤/٢ ، شرح العقيدة الطحاوية ص١٩٠ .
والحديث أخرجه مسلم فى صحيحـه فى كتـاب الإيمان (١) ، باب إثبـات رؤية المؤمنين فى الآخرة ربهم سبحانه وتعالى (٨٠) برقم ١٨١ ، ١٦٣/١ .

(٣) حاى الأرواح ص٢١٥ .

(٤) سورة ق : آية ٣٥

(٥) انظـر : شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٤٦٩/٢ ، الجامع لأحكـام القرآن ٢١/١٧ ، حادى الأرواح ص٢١٦ ، شرح العقيدة الطحاوية ص١٩٠ .

(٥) قوله تعالى : {وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيراً}(١).

قال الرازى : "فإن إحدى القراءات فى هذه الآية فى "ملكاً" بفتح الميم وكسر اللام ، وأجمع المسلمون على أن ذلك الملك ليس إلا الله تعالى ، وعندى أن التمسك بهذه الآية أقوى من التمسك بغيرها"(٢).

(٦) قوله تعالى : {واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه}(٣).

وقوله تعالى : {تحيتهم يوم يلقونه سلام}(٤).

وقوله تعالى : {فمن كان يرجو لقاء ربه}(٥).

وقوله تعالى : {قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله}(٦).

أجمع أهل اللسان على أن اللقاء متى نسب إلى الحى الذى سلم من العمى والمانع اقتضى المعاينة والرؤية(٧).

(٧) قوله تعالى : {كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون}(٨).

قال الزجاج : "فى هذه الآية دليل على أن الله عز وجل يرى فى القيامة ، ولولا ذلك ماكان فى هذه الآية فائدة، ولاخصت منزلة الكفار بأنهم يحجبون" .

وقال مالك بن أنس فى هذه الآية : "لما حجب أعداءه فلم يروه تجلى لأوليائه حتى رأوه" .

---

(١) سورة الإنسان : آية ٢٠

(٢) التفسير الكبير ١٣١/١٣ .
وانظر : رؤية الله تعالى ص١٠٠ .

(٣) سورة البقرة : آية ٢٢٣

(٤) سورة الأحزاب: آية ٤٤

(٥) سورة الكهف : آية ١١٠

(٦) سورة البقرة : آية ٢٤٩

(٧) حادى الأرواح ص٢١٣-٢١٤ بتصرف . وانظر : الاعتقاد ص٧٦ .

(٨) سورة المطففين : آية ١٥

وقال الشافعى : "لما حجب قوماً بالسخط ، دل على أن قوماً يرونه بالرضا . ثم قال : أما والله لو لم يوقن محمد بن إدريس أنه يرى ربه فى المعاد لما عبده فى الدنيا"(١).

وجمهور المفسرين ذهبوا إلى تفسير حجب الكفار عن ربهم بالمنع من رؤيته يوم القيامة(٢).

(ب) **أدلة السنة :**

أما الأحاديث الصحيحة التى تدل على رؤية الله فى الآخرة فهى كثيرة متوافرة بلغت حد التواتر ، فى الصحاح والسنن والمسانيد ، وقد اعتنى بجمعها أئمة كالدارقطنى وأبى نعيم وأبى بكر الآجرى وغيرهم(٣). وقد رواها عن النبى صلى الله عليه وسلم نحو ثلاثين صحابياً(٤)، ونص على تواترها جماعة من الأئمة(٥).

من تلك الأحاديث :

(١) روى البخارى بسنده إلى جرير قال :

"كنا جلوساً عند النبى صلى الله عليه وسلم إذ نظر إلى القمر ليلة البدر قال : إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لاتضامون فى رؤيته ، فإن استطعتم أن لاتغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروب

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٦١/١٩ .

(٢) انظر : شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٢٦٦/٢ فما بعدها ، الاعتقاد ص٨٣ ، حادى الأرواح ص٢١٦ ، تفسير القرآن العظيم ٤٨٥/٤،٤٨٦ ، شرح العقيدة الطحاوية ص١٩١ ، شرح لمعة الاعتقاد ص٤٩ ، رؤية الله تعالى ص٢٢٢ .

(٣) انظر بيان تلبيس الجهمية ٣٤٨/١ .

(٤) انظر : شرح العقيدة الطحاويةص١٩٤ .

(٥) انظر : بيان تلبيس الجهمية ٣٤٨/١ ، المنتقى من منهاج الاعتدال ص١٦٢ ، حادى الأرواح ص٢١٩ ، تفسير القرآن العظيم ١٦٢/٢ ، ٤٥٠/٤،٤٨٦ ، شرح العقيدة الطحاوية ص١٩٣ ، رؤية الله تعالى ص٢٢٢ .

الشمس فافعلوا"(١).

وفى رواية عنه رضى الله عنه قال : "قال النبى صلى الله عليه وسلم : إنكم سترون ربكم عياناً"(٢).

(٢) وروى بسنده إلى أبى هريرة :

" أن الناس قالوا : يارسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل تضارون فى القمر ليلة البدر؟ قالوا : لايارسول الله ، قال فهل تضارون فى الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا لايارسول الله. قال : فإنكم ترونه كذلك ..." الحديث(٣).

(٣) وروى بسنده إلى أبى موسى الأشعرى :

عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "جنتان من فضة آنيتهما ومافيهما وجنتان من ذهب آنيتهما ومافيهما ، ومابين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم

---

(١) صحيح البخارى ، كتاب التوحيد (٩٧) ، باب قول الله تعالى : {وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة} (٢٤) ، ١٧٩/٨ .
وأخرجه بلفظ مقارب فى كتاب المواقيت (٩) ، باب فضل صلاة العصر (١٦) ، ١٣٨/١ ، وفى باب فضل صلاة الفجر (٢٦) ، ١٤٣/١ ، وفى كتاب التفسير (٦٥) ، تفسير سورة ق ، (٥٠) ، باب وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب (٢) ، ٤٨/٦ .
وأخرجه مسلم فى صحيحه بلفظ مقارب فى كتاب المساجد ومواضع الصلاة (٥) ، باب فضل صلاتى الصبح والعصر والمحافظة عليهما (٣٧) ، برقم ٦٣٣ ، ٤٣٩/١ .

(٢) هذه الرواية أخرجها البخارى فى صحيحه ، كتاب التوحيد (٩٧) ، باب قول الله تعالى {وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة} (٢٤) ، ١٧٩/٨ .

(٣) صحيح البخارى فى الكتاب والباب السابقين ١٧٩/٨ .
وأخرجه بلفظ مقارب فى كتاب الرقاق (٨١) ،باب الصراط جسر جهنم (٥٢) ، ٢٠٥/٧ .
وأخرجه مسلم فى صحيحه ، كتاب الإيمان (١) ، باب معرفة طريق الرؤية (٨١) برقم ١٨٢ ، ١٦٣/١-١٦٤ .
وأخرج نحوه فى كتاب الزهد والرقاق (٥٣) برقم ٢٩٦٨ ، ٢٢٧٩/٤-٢٢٨٠ .

إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن"(١).

(ج) **آثار السلف** :

وأما الآثار التى وردت عن سلفنا الصالح رضوان الله عليهم فى إثبات رؤية الله جل ذكره فى الآخرة للمؤمنين فهى أكثر من أن تذكر ، ويكفينا فى هذا المقام أن نشير إلى بعضها ، وفى القليل مايغنى عن الكثير .

(١) قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله :

"من كذب بالرؤية فهو زنديق" . وقال : "نؤمن بها أى الرؤية وأحاديثها ونعلم أنها حق فنؤمن بأن الله يرى ، نرى ربنا يوم القيامة لانشك فيه ولانرتاب" . وقال : "من زعم أن الله لايرى فى الآخرة فقد كفر بالله ، وكذب بالقرآن ، ورد على الله أمره ، يستتاب ، فإن تاب وإلا قتل"(٢).

(٢) قال الأوزاعى رحمه الله :

"إنى لأرجو أن يحجب الله عز وجل جهماً وأصحابه أفضل ثوابه الذى وعده أولياءه حين يقول : {وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة} فجحد جهم وأصحابه أفضل ثوابه الذى وعد أولياءه"(٣).

(٣) قال الربيع بن سليمان(٤):

---

(١) صحيح البخارى ، كتاب التوحيد (٩٧) ، باب قول الله تعالى : {وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة} (٢٤) ، ١٨٥/٨ .
وأخرجه فى كتاب التفسير (٦٥) ، تفسير سورة الرحمن (٥٥) ، باب قوله : {ومن دونهما جنتان} (١) ، ٥٦/٦ ، إلا أنه قال : "رداء الكبر" .
وأخرجه بنحوه كذلك فى التفسير ، باب {حور مقصورات فى الخيام} (٢) ، ٥٦/٦
وأخرجه مسلم فى صحيحه ، كتاب الإيمان (١) ، باب إثبات رؤية المؤمنين فى الآخرة ربهم سبحانه وتعالى (٨٠) برقم ١٨٠ ، ١٦٣/١ .

(٢) لوامع الأنوار ٢٤٦/٢ .

(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٥٠٣/٢ .

(٤) الربيع بن سليمان :
هو الربيع بن سليمان بن عبد الجبار المرادى ، أبو محمد المصرى المؤذن ، صاحب الشافعى . ثقة فقيه . روى عن عبد الله بن وهب والشافعى وأبى صالح . وعنه أبو داود والنسائى وابن ماجه . مات سنة ٢٧٠هـ . =

"حضـرت محمد بن إدريس الشافعى وقد جاءته رقعـةمن الصعيد فيها : ماتقول فى قول الله تبـارك وتعـالى : {كلا إنهـم عـن ربهـم يومئـذ لمحجوبون}؟(١)

قـال الشافعى : "فلما أن حجبـوا هؤلاء فى السخـط كان فى هذا دليل على أنهم يرونه فى الرضا".

قال الربيع : قلت : ياأبا عبد الله وبه نقول؟

قال :"نعم وبه أدين الله ، لو لم يوقن محمد بن إدريس أنه يرى اللـه لما عبد الله تعالى"(٢).

ممـا سبق من أدلة يتبين لنـا أن رؤية الله عز وجل فى الآخرة ثابتـة للمؤمنين دون الكفار(٣)، وإن كان الخلاف قائماً بين العلماء فى رؤية الكفار له فى الموقف(٤).

وأمـا مـاأثارته المعتزلة مـن شبه زاعمة أنها تنفـى بهـا رؤية الله يوم القيامة ، فهى شبه واهية لاتنهض لمقاومة ماسبق من أدلة ، وقد انقض عليها علمـاء السلف رضوان الله عليهم فكشفوا عوارها فتسـاقطت أمامهم شبهة تلو الأخرى ، وتهاوت ، وبان الحق ناصعاً أبيض لالبس فيه ولاغموض .

وهذا بيان ذلك :

زعمهـم بأن القـول بهـا حادث بعـد الـرسول صلى اللـه عليـه وسلم والصحابة . زعم باطل وقول منكر مخالف للحقيقة والواقع ، فالآيات السابقة شاهدة على إثباتها ، وتلك الأحاديث المتـواترة التى نصـت صـراحة على

= انظـر : الجرح والتعـديل ٤٦٤/٣ ، تذكـرة الحفـاظ ٥٨٦/٢ ، طبقـات الشـافعية ١٣٢/٢،١٣٩ ، تهذيب التهذيب ٢٤٥/٣-٢٤٦ ، تقريب التهذيب ٢٤٥/١ .

(١) سورة المطففين : آية ١٥

(٢) شرح أصول إعتقاد أهل السنة ٥٠٦/٢ . وانظر، مناقب الشافعى ٤١٩/١ .

(٣) انظر : شرح لمعة الاعتقاد ص٥٠ .

(٤) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص١٩٦ .

وقوعها ، وانعقد على ذلك إجماع السلف رضى الله عنهم . بل القول ينفيها هو البدعة والإحداث فى الدين .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

"ومسألة الرؤية كانت من أكبر المسائل الفارقة بين السنة المثبتة وبين الجهمية حتى كان علماء أهل الحديث والسنة يصنفون الكتب فى الإثبات ويقولون "كتاب الرؤية" و"الرد على الجهمية" وكذلك الأحاديث التى تنكرها الجهمية من أحاديث الرؤية ومايتبعها ، ويعدون من أنكر الرؤية معطلاً"(١).

دعواهم أنه لايراه إلا من اعتقده جسماً وشبهه بخلقه ومايلزم ذلك من لوازم باطلة - على رأيهم - .

إن التجسيم والتشبيه من الأمور التى رانت على أذهان أهل الاعتزال وخيمت على عقولهم حتى حجبت عنهم نور الحق ، فظلوا فى ظلام دامس ، ولذلك كلما سطعت أمام أبصارهم أنوار الأدلة التى تثبت الكمال لله كنصوص الرؤية سارعوا إليها محاولين إطفاءها بحجة أنها تجسيم وتشبيه ، والعلة فى ذلك عجز عقولهم عن الخلاص من وحل التجسيم ونتن التشبيه ، وقد سبق بيان ذلك فى حديثنا عن الصفات(٢).

فقد انطلق المعتزلة فى نفى الرؤية من قاعدة التجسيم والتشبيه كما نفوا من قبل الصفات بذلك ، وماأجيبوا به هنالك يجابون به هنا .

ونفيهم للرؤية عن الله لاتنزيه لهم فيه ، بل تنزيه الله يكون بإثبات صفات الكمال له ونفى مايضادها ، وإثبات الرؤية له سبحانه صفة كمال ، ونفيها عنه تعطيل ، لأن المعدوم لايرى(٣).

قال الطحاوى رحمه الله :

---

(١) بيان تلبيس الجهمية ٣٤٩/١ .
(٢) انظر ص: ١٤٨ فمابعدها .
(٣) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص٢١٢ .

"ولايصح الإيمان بالرؤية لأهل دار السلام لمن اعتبرها منهم بوهم ، أو تأولها بفهم ، إذ كان تأويل الرؤية - وتأويل كل معنى يضاف إلى الربوبية - بترك التأويل ، ولزوم التسليم ، وعليه دين المسلمين ، ومن لم يتوق النفى والتشبيه ، زل ولم يصب التنزيه"(١).

وهاهو شيخ الإسلام رحمه الله ينبرى لمقارعة المعتزلة مستخدماً سلاح العقل الذى يدّعوه ، وإن كان البون شاسعاً بين عقل استنار بضوء النصوص وبين عقول غطتها ظلم الشبهات . وقد فند رحمه الله لوازمهم التى ألصقوها بمن يثبت الرؤية . يقول :

"ومن أراد أن يناظر مناظرة شرعية بالعقل الصريح فلايلتزم لفظاً بدعياً ولايخالف دليلاً عقلياً ولاشرعياً ، فإنه يسلك طريق أهل السنة والحديث والأئمة الذين لايوافقون على إطلاق الإثبات ولاالنفى ، بل يقولون : ماتصفون بقولكم "إن كل جسم مرئى"؟ فإن فسروا ذلك بأن كل مرئى يجب أن يكون قد ركبه مركب ، أو أن يكون متفرقاً فاجتمع ، أو أنه يمكن تفريقه ، ونحو ذلك ، منعوا هم المقدمة الأولى ، وقالوا : هذه السموات مرئيةمشهورة ، ونحن لانعلم أنها كانت متفرقة مجتمعة ، وإذا جاز أن يرى مايقبل التفريق فما لايقبله أولى بامكان رؤيته .

وإن قالوا مرادنا أن المرئى لابد أن يكون معايناً تجاه الرائى ، وماكان كذلك فهو جسم . ونحو هذا الكلام ، قالوا لهم : الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم قال : "إنكم سترون ربكم كما ترون الشمس والقمر"، وقال "هل تضامون فى رؤية الشمس صحواً ليس دونها سحاب"؟ قالوا : لا . قال "هل تضامون فى رؤية القمر ليس دونه سحاب"؟ قالوا : لا . قال : "فإنكم ترون ربكم كما ترون الشمس والقمر"(٢)، وهذا تشبيه للرؤية بالرؤية ، لاالمرئى بالمرئى ...

---

(١) متن العقيدة الطحاوية ص١٠ .

(٢) سبق تخريجه . انظر ص : ١٩١

فهـذه النصوص يصدق بعضهـا بعضاً ، والعقل أيضـا يوافقهـا ، ويدل على أنه سبحانه مباين لمخلوقاته ، فوق سمواته ، وأن وجود موجود لامباين للعـالم ولامجانس له محال فى بديهـة العقل ، فإذا كانت الـرؤية مستلزمة لهذه المعـانى فهذا حق ، وإذا سميتم أنتم هـذا قولاً بالجهة وقـولاً بالتجسيم لم يكـن هذا القول نافياً لما علم بالشـرع والعقل ، إذا كان معنى هـذا القول ـ والحال هذه ـ ليس منتفياً لابشرع ولابعقل"(١).

زعمهم أنه لايرى نفسه لأن ذاته لاترى ، واختلافهم فى رؤيته لغيره .

لقـد أفرط المعتزلة فى النفى حتى وصل بهم الأمر إلى أن يعطلـوا الله سبحـانه من أن يرى نفسه أو يراه غيره ، أو يرى غيره ، وإن كـان بعضهم أثبت أنه يرى غيره ولايرى نفسه . ولكن من وصف بأنه لايرى مـاذا يكون حكمه؟ أليس هو الأعمى؟ تعالى الله عما يقول المبطلـون علواً كبيراً ، ومن وصف بأنه لايرى أيكون ذلك مدحاً فى حقه أم ذماً ، ويكون صفة كمال أم نقص؟ فقـولهم هـذا فى النفـى أدى بهـم إلى التعطيـل ثم هـو تشبيـه للـه بالمعدوم(٢).

لقد وصف الله نفسه بأنه يرى فى أكثر من آية ولم يخصـص ولم يستثن فقـال لموسـى وهـارون عليهمـا السلام : {قـال لاتخافـا إننى معكمـا أسمـع وأرى}(٣)، وقـال سبحـانه : {ألم يعلم بأن اللـه يرى}(٤)، وقـال سبحانه : {وتوكل على العزيز الرحيم . الذى يراك حين تقـوم}(٥). بل عاب الأصنام التى لاتصلح أن تكون آلهة لأنها لاتسمع ولاتبصر ، فقـال على لسان إبراهيم عليـه السلام : {ياأبت لم تعبـد مـالايسمع ولايبصـر ولايغنى عنـك شيئا}(٦).

---

(١) موافقة صحيح المنقول ١/١٩٠-١٩١ .

(٢) انظر : رؤية الله تعالى ص١٢٠،١٢١ .

(٣) سورة طه : آية ٤٦

(٤) سورة العلق : آية ١٤

(٥) سورة الشعراء : آية ٢١٧-٢١٨

(٦) سورة مريم : آية ٤٢

وجعل عدم الرؤية نوعاً من العذاب الذى ينال الكفار يوم القيامة فقال : {ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً}(١).

والآيات فى هذاالمقام كثيرة جداً ، عميت عنها أبصار أهل الاعتزال وعقولهم ، فلم يهتدوا إليها .

أما إنكار بعضهم رؤيته بالقلوب . فهو أمر انفرد به المعتزلة ولم يشاركهم فيه غيرهم .

ولم يؤثر عن غير المعتزلة خلاف فى رؤيته تبارك وتعالى بالقلوب ، فلو أن القلوب لم تعرفه وتحبه لما ذلت له وعبدته وحده دون سواه ، وكلما زادت معرفة القلب له ازدادت العبادة والطاعة والانقياد له تبارك وتعالى(٢).

وكون قلوب المعتزلة لم تعرف الله ولم تره ، فهذا إخبار عن حالهم ، وهو أمر يختص بهم ليس لهم الحق فى أن يعمموه على غيرهم .

وأما تفسيرهم للرؤية بالعلم أو زيادته ، فهذا فى الحقيقة تعطيل للرؤية التى ثبتت بالنصوص والإجماع والتى علم جوازها بدلائل العقول ، بل المعلوم بدلائل العقول امتناع وجود موجود قائم بنفسه لايمكن تعلقها به(٣).

دعواهم أنه لايمكن الاستدلال عليها بالسمع لأن ذلك ينبنى على العقل ولم يرد دليل سمعى مصرح بإثباتها . هذه دعوى خالفهم فيها أكثر العقلاء ، وليس فى العقل مايحيلها(٤).

وكلام السلف والأئمة كثير جداً فى تقرير وجودها بالسمع وجوازها بالعقل وأن نفيها يلزم منه التعطيل ، لأنه إذا كان موجوداً جازت رؤيته ، لأن الرؤية إنما تتعلق بالموجود دون المعدوم ، والله أحق بالوجود وكماله ، بل وجوده هو الوجود الواجب ، وله الكمال التام فى جميع الأمور

---

(١) سورة الإسراء : آية ٩٧

(٢) رؤية الله تعالى ص١٧٤ بتصرف .

(٣) بيان تلبيس الجهمية ٣٦٠/١ بتصرف .

(٤) انظر شرح العقيدة الطحاوية ص٢١١ .

الوجودية المحضة ، فهو أحق بأن تجوز رؤيته لكمال وجوده[١].

فالعقل لايمنع جواز رؤية الله كما أن نصوص الشرع جاءت مصرحة بإثباتها خلافاً لمزاعم المعتزلة[٢].

وأما أدلتهم التى زعموا أنها تنفى الرؤية فالرد عليها كما يلى :

ونبدأ بأدلتهم العقلية ، لأن فارس الميدان هنا هو العقل كما كان دوماً ، فلامزاحم له ، ولامعارض ، وقد اعتمدوا من جهته على طريقين فى نفيها، كلاهما ينحدر ليصب فى مصب الجسمية والتشبيه ، إذ العقل عندهم مكبل ومقيد بشبح التجسيم فلاخلاص له منه ، وقد أوصد أمامه المنافذ وأخذ بتلابيبه ، فلامفر له منه ، ولانجاة .

وخلاصة ماذكروا فى دليلى العقل :

(١) إن الشىء إنما يرى إذا كان مقابلاً ، أو حالاً فى المقابل ، أو فى حكم المقابل ، وهذه من صفات الأجسام . وهى ممتنعة فى حق الله لأنه ليس بجسم .

(٢) لكى تصح الرؤية لابد من وجود رائى ومرئى ولاتوجد موانع من حدوث الرؤية بينهما . والموانع ترجع إلى الشعاع الذى هومن صفات الأجسام ، والله ليس بجسم فتمتنع رؤيته لذلك .

أما الإجابة عن الأول :

فإنه يستحيل فى العقول أن تثبت رؤية حقيقية عياناً بغير مقابلة ولاجهة ، لأن ذلك من لوازم الرؤية . وقد أثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤية الله مشبهاً إياها برؤية الشمس والقمر فقال : "إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لاتضامون فى رؤيته"[٣] الحديث .

---

(١) انظر : بيان تلبيس الجهمية ٣٥٨/١،٣٧٥ .

(٢) انظر : رؤية الله تعالى ص٢١٦-٢١٧ .

(٣) الحديث سبق تخريجه انظر ص: ١٩١ .

فشبه الرؤية بالرؤية لاالمرئى بالمرئى ، ونحن إنما نرى الشمس والقمر من فوقنا وبمقابلة ، وكذا المؤمنون يرون ربهم يوم القيامة من فوقهم عياناً . فهو سبحانه إنما يرى من جهة العلو(١).

والجهة لفظ مجمل لم يرد نفيها ولاإثباتها فلها حكم الألفاظ المجملة ، وهو التفصيل ، وقد سبق بيان ذلك(٢).

يقول ابن أبى العز رحمه الله :

"وليس تشبيه رؤية الله تعالى برؤية الشمس والقمر تشبيهاً لله، بل هو تشبيه الرؤية بالرؤية ، لاتشبيه المرئى بالمرئى ، ولكن فيه دليل على علو الله على خلقه .

وإلا فهل تعقل رؤية بلامقابلة؟ ومن قال : يرى لافى جهة فليراجع عقله!! فإما أن يكون مكابراً لعقله وفى عقله شىء ، وإلا فإذا قال يرى لاأمام الرائى ولاخلفه ولاعن يمينه ولاعن يساره ولافوقه ولاتحته ، رد عليه كل من سمعه بفطرته السليمة . ولهذا التزم المعتزلة من نفى العلو بالذات بنفى الرؤية ، وقالوا : كيف تعقل رؤية بلامقابلة،بغير جهة؟

ويقال لمن قال بنفى الرؤية لانتفاء لازمها وهو الجهة : أتريد بالجهة أمراً وجودياً؟ أو أمراً عدمياً؟ فإن أراد بها أمراً وجودياً كان التقرير : كل ماليس فى شىء موجود لايرى ، وهذه المقدمة ممنوعة ، ولادليل على إثباتها بل هى باطلة ، فإن سطح العالم يمكن أن يرى ، وليس العالم فى عالم آخر . وإن أردت بالجهة أمراً عدمياً ، فالمقدمة الثانية ممنوعة ، فلانسلم أنه ليس فى جهة بهذا الاعتبار"(٣).

---

(١) انظر : بيان تلبيس الجهمية ٣٥٩/١ ، حادى الأرواح ص٢٥٢ ، وانظر : موافقة صحيح المنقول ١٩١/١،١٩٢ ، المنتقى من منهاج الاعتدال ص١٦٢ ، رؤية الله تعالى ص٦١ .

(٢) انظر ص ١٥٠، ومابعدها .

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ص١٩٥ .

وأما الإجابة عن الدليل الثانى ، فإن مما لاشك فيه أن القول بخروج شعاع من العين ، أو وروده إليها ، أو مايقع للنفس من حالة خاصة عند مقابلة العين للمرئى سبب للرؤية ، وخالق الأسباب والمسببات إنما هو الله تعالى ، والأسباب التى تحصل بها الرؤية ليست فاعلة ، إنما هى أسباب لها ، مخلوقة لله تعالى ، كما قال تعالى : {والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها}(١)، فإحياء الأرض إنما يكون بوجود الماء المخلوق المنزل ، والفاعل الحقيقى إنما الله الذى أوجد الأسباب ومسبباتها ، لاالسبب المباشر وحده(٢).

ثم لايلزم من وجود ماذكروه من موانع امتناع الإبصار ، ولامن امتناعها وجوده .

ومثال مايؤيد ذلك :

رؤية الجسم الكبير من البعد صغيراً فإن كانت الرؤية لجميع أجزائه ، وجب ألا يرى صغيراً ، وإن لم ير شيئاً من أجزائه ، وجب ألا يرى . وإن رئى بعض أجزائه دون بعض مع أن جميع الأجزاء بالنسبة إلى الموانع أو عدمها سواء لزم عدم الوجوب أو الامتناع(٣).

والمعتزلة إنما قاسوا أمور الآخرة بأمور الدنيا فنفوا وقوع الرؤية فى الآخرة اعتماداً على عدم وقوعها فى الدنيا . فجعلوا موانع وقوعها فى الدنيا موانع لوقوعها فى الآخرة.

وهذا قياس عقلى محض ، وهو باطل ، لأن الحياة الأخرى أمرها يباين الحياة الدنيا . وقد سبق الإشارة إلى ذلك(٤).

ولذا نجد أن السلف قالوا بجواز وقوعها ، مع حكمهم بعدم الوقوع فى الدنيا ، وأجمعوا على حصول ذلك فى الآخرة .

---

(١) سورة النحل : آية ٦٥

(٢) رؤية الله تعالى ص٢٠ بتصرف .

(٣) انظر : الأربعين فى أصول الدين للرازى ص٢١٥ ، رؤية الله تعالى ص٦٨ .

(٤) انظر ص : ١٤١

قال الشاطبى رحمه الله :

"رؤية الله فى الآخرة جائزة ، إذ لادليل فى العقل يدل على أنه لارؤية إلا على الوجه المعتاد عندنا ، إذ يمكن أن تصح الرؤية على أوجه صحيحة ليس فيها اتصال أشعة ولامقابلة ولاتصور جهة[(١)]، ولافضل جسم شفاف ولاغير ذلك ، والعقل لايجزم بامتناع ذلك بديهة ، وهو إلى القصور فى النظر أميل ، والشرع قد جاء بإثباتها فلامعدل عن التصديق"[(٢)].

والله سبحانه وتعالى لايرى فى الدنيا لأن أبصار الخلق تعجز عن رؤيته فيها لضعفها وعجزها لالامتناع رؤيته ، فهذه الشمس إذا حدق الرائى بصره فيها عجز عن رؤيتها لضعفه عن ذلك وليس لامتناع رؤيتها .

فعدم وقوع الرؤية فى الدنيا لايمنع من وقوعها فى الآخرة .

ثم إن المعتزلة فى الحقيقة إنما قاسوا الله سبحانه بخلقه فأجروا عليه أحكامهم ، وهذا هو التشبيه الذى وصمواغيرهم به ، وأرادوا أن يفروا منه فعطلوا الله عن مايستحقه من الكمال الذى من بينه الرؤية .

هذا عن أدلتهم العقلية التى اعتمدوا عليها اعتماداً كلياً فى الاستدلال فنفوا بها رؤية الله تعالى ، وهى لاتصلح للاحتجاج ، وقد وضح من الرد ضعفها ، ومعارضة أدلة العقول السليمة لها .

وأما أدلتهم النقلية التى لجأوا اليها لتأييد ماسبق من شبه عقلية لاتدل على ماذهبوا إليه من نفى الرؤية فى الآخرة . ومن المعلوم أن أدلة النقل عندهم تابعة لامتبوعة ، وهم إنما يفرون إليها إذا ألجأتهم الضرورة لذلك واعتقدوا أن فيها مايؤيد مزاعمهم ، وإلا دفعوا فى صدورها بالرد والتأويل المتعسف .

---

(١) قوله "ولامقابلة" خلاف ماجاء عن السلف لأنه لارؤية إلا بمقابلة كما سبق ذكره ، والجهة فيها تفصيل سبق بيانه أيضا . انظر ص١٥٠ فما بعدها

(٢) الاعتصام ٢/٣٣٠ .

فمما استدلوا به ولاحجة لهم فيه :

(١) قوله تعالى :

{لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير}(١).

ولهم وجهان فى الاستدلال بها كما مر فى العرض ، وخلاصتهما :

الأول : إن الإدراك المقرون بالبصر لايحتمل إلا الرؤية وقد نفى والنفى عام فى جميع الأوقات والأزمان .

الثانى : إن الله تمدح بكونه لايرى ـ على فهمهم ـ وماكان عدمه مدحاً كان وجوده نقصاً يجب تنزيه الله عنه .

والجواب عن الوجه الأول :

ليس الإدراك هو الرؤية ، وإنما هو قدر زائد على الرؤية ، لأن الإدراك هو الإحاطة بالشىء ، والله يرى ولايدرك ، كما يعلم ولايحاط به علماً ، قال تعالى : {فلما تراءى الجمعان ، قال أصحاب موسى إنا لمدركون قال كلا إن معى ربى سيهدين}(٢). فنفى موسى عليه السلام الإدراك مع إثبات الترائى بينهم ، فعلم أنه قد يكون رؤية بلاإدراك ، فقوله سبحانه وتعالى : {لاتدركه الأبصار} يدل على غاية عظمته وأنه أكبر وأجل من أن يدرك بحيث يحاط به ، وليس فى ذلك نفى لرؤيته ، بل فى الآية دليل عليها لأن تخصيص الإدراك وهو الإحاطة بالنفى ، يقتضى أن مطلق الرؤية ليس بمنفى . وهذا الجواب قول أكثر العلماء من السلف وغيرهم(٣).

الجواب عن الوجه الثانى :

---

(١) سورة الأنعام : آية ١٠٣

(٢) سورة الشعراء : آية ٦١-٦٢

(٣) انظر : بيان تلبيس الجهمية ٥٥٣/١-٥٥٤ ، حادى الأرواح ص٢١٧ ، شرح العقيدة الطحاوية ص١٩٣،١٩٨ ، وانظر مع ذلك : الاعتقاد ص٧٦ ، الفصل فى الملل ٢/٣-٣ ، مجموع الفتاوى ٣٦/٣-٣٧ ، تفسير القرآن العظيم ١٦٢/٢ ، فتح البارى ٤٢٦/١٣ .

إن الله عز وجل ذكر هذه الآية فى سياق المدح لنفسه سبحانه وتعالى ومن المعلوم أن المدح لايكون إلا بالصفات الثبوتية ، وأما النفى أو العدم المحض لايكون فيه مدح إلا إذا تضمن أمراً ثبوتياً ، كمدحه سبحانه وتعالى نفسه بنفى السنة والنوم المتضمن كمال قيوميته ، فلو أن المنفى فى الآية هو الرؤية لما كان فى ذلك مدح ولاكمال لمشاركة المعدوم له فى ذلك لأن المعدوم لايرى . وإنما المدح فى كونه تعالى أنه يرى لأن الرؤية صفة كمال لانقص، ولكنه لعظمته وأنه أكبر من كل شىء فلايدرك ولايحاط به (١).

(٢) قوله تعالى :

{ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرنى أنظر إليك قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخر موسى صعقاً فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين}(٢).

ومختصر أوجه استدلالهم من الآية :

الأول : قوله : "لن ترانى" .

أنكر على موسى طلبه فغيره أولى بالإنكار .

وطلب موسى إنما كان تبكيتاً للذين طلبوا الرؤية فقالوا : {أرنا الله جهرة}(٣) فبين لهم استحالة ذلك بقوله : {لن ترانى} أوطلبه لمعرفة الله ضرورة فأجابه بقوله : {لن ترانى} ليبين له أن مع التكليف لايجوز أن يعرفه باضطرار .

الثانى : إن "لن" تفيد تأبيد النفى ، مثل قوله تعالى : {لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له}(٤).

---

(١) انظر : بيان تلبيس الجهمية ٥٥٤/١ ، مجموع الفتاوى ٣٦/٣-٣٧ ، حادى الأرواح ص٢١٧ ، شرح العقيدة الطحاوية ص١٩٢-١٩٣ .

(٢) سورة الأعراف : آية ١٤٣

(٣) سورة النساء : آية ١٥٣

(٤) سورة الحج : آية ٧٣

وكقوله تعالى : {فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس}(١)الآية .

فقوله : "لن ترانى" تأكيد للنفى فى قوله : {لاتدركه الأبصار}(٢).

الثالث : قوله تعالى : {ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً}.

فإنه تعالى علق الرؤية باستقرار الجبل وهو مستحيل ، فدل على استحالتها.

والمراد بالتجلى : إظهار آياته وقدرته للجبل ، وليس تجلى ذاته ، لأنه يلزم من ذلك أن يندك العرش ، وأن يراه من على الجبل .

الرابع : {وخر موسى صعقاً} .

أى مغشياً عليه كغشية الموت ، ولكزته الملائكة لطمعه فى رؤية ماهو مستحيل عليه.

الخامس : قوله تعالى : {سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين}.

أى أنزهك مما لايجوز عليك من الرؤية ، وأتوب إليك من طلبها وإجراء تلك المقالة العظيمة على لسانى من غير إذن منك ، وأنا أول المؤمنين بأنك لست بمرئى .

ويجاب على هذه الأوجه بالآتى :

الوجه الأول :

إن موسى عليه السلام إنماطلب الرؤية لنفسه ولم يطلبها لغيره وذلك فى قوله : {رب أرنى أنظر إليك}(٣)، ولم يطلب عليه السلام شيئاً مستحيلاً ، إنما طلب ماهو جائز فى العقل ، لأنه لايظن بكليم الله ورسوله وأعلم الناس

---

(١) سورة البقرة : آية ٢٤

(٢) سورة الأنعام : آية ١٠٣

(٣) انظر : الإنصاف لابن المنير مطبوع مع الكشاف ٨٩/٢ .

فى وقته بربه أن يطلب مالايجوز عليه ، بل ذلك محال[١].وقول الله له "لن ترانى" : أى فى الدنيا لأن بصر موسى عليه السلام لايحتمل رؤية الله فى هذه الدنيا وهذا بخلاف حكم الآخرة[٢].

ثم ان تبكيت موسى عليه السلام لبنى إسرائيل ليس لأنهم طلبوا ماهو مستحيل فى حق الله بل إنما طلبوا ذلك تعنتاً وعناداً وإنكاراً للإيمان بنبوة موسى عليه السلام .

قال أبو الحسن الأشعرى رحمه الله :

"إن بنى إسرائيل سألوا رؤية الله عز وجل على طريق الإنكار لنبوة موسى ، وترك الإيمان به حتى يروا الله ، لأنهم قالوا : {لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة}[٣]، فلما سألوه الرؤية على طريق ترك الإيمان بموسى عليه السلام حتى يريهم الله سؤالهم من غير أن تكون الرؤية مستحيلة عليه كما استعظم الله سؤال أهل الكتاب أن ينزل عليهم كتاباً من السماء[٤]من غير أن يكون ذلك مستحيلاً ولكن لأنهم أبوا أن يؤمنوا بنبى الله حتى ينزل عليهم من السماء كتاباً"[٥].

وقال ابن المنير رحمه الله :

"إن الله تعالى أخبر أنها ـ أى الرؤية ـ لاتقع فى دار الدنيا ، والخبر صدق ، وذلك بعد سؤال موسى للرؤية فلما سألوا وقد سمعوا الخبر بعدم

---

(١) انظر : الجامع لأحكام القرآن ٥٥/٧ ، زاد المسير ١٧٤/٣ ، شرح العقيدة الطحاوية ص١٩١ ، لوامع الأنوار ٢٨٥/٢ .

(٢) انظر : الرد على الجهمية للدارمى ص٥٥،٥٦ ، زاد المسير ١٧٤/٣ ، فتح البارى ٤٢٦/١٣ .

(٣) سورة البقرة : آية ٥٥

(٤) وذلك فى قوله تعالى : {يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة} . سورة النساء : آية ١٥٣

(٥) الإبانة فى أصول الديانة ص١٥ .

وقوعها كان طلبهم خلاف المعلوم تكذيباً للخبر فمن ثم سفههم موسى عليه السلام وتبرأ من طلب ماأخبر الله أنه لايقع ، ثم ولو كان سؤالهم الرؤية قبل إخبار الله تعالى بعدم وقوعها فإنما سفههم موسى عليه السلام لاقتراحهم على الله هذه الآية الخاصة وتوقيفهم الإيمان عليها حيث قالوا : {لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة}(١)، ألا ترى أن قولهم {لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً}(٢)إنما سألوا جائزاً ومع ذلك قرعوا به لاقتراحهم على الله مالايتوقف وجوب الإيمان عليه"(٣).

ثم الزعم بأنه عليه السلام إنما طلب النظر إلى آية عظيمة أو إلى قدرة الله لكى يتعرف من خلال ذلك على الله ، إنما زعم باطل وادعاء لادليل عليه، بل هو مخالف لقوله تعالى "أنظر اليك" .

قال القرطبى رحمه الله :

"ولايجوز الحمل على أنه أراد أرنى آية عظيمة لأنظر إلى قدرتك ، لأنه قال "إليك" ، و"قال لن ترانى" . ولو سأل آية لأعطاه الله ماسأل ، كما أعطاه سائر الآيات . وقد كان لموسى عليه السلام فيها مقنع عن طلب آية أخرى ، فبطل هذا التأويل"(٤).

الوجه الثانى :

دعواهم أن "لن" تفيد تأبيد النفى على الدوام ، وأن ذلك ينفى رؤية الله فى الآخرة. دعوى فاسدة ، لأن "لن" لاتفيد النفى على الدوام ولو قيدت بالتأبيد فكيف إذا أطلقت؟ قال سبحانه : {ونادوا يامالك ليقض علينا ربك}(٥)فقد تمنوا الموت بعد قوله تعالى : {ولن يتمنوه أبدا}(٦). فلو كانت

---

(١) سورة البقرة : آية ٥٥
(٢) سورة الإسراء : آية ٩٠
(٣) الإنصاف لابن المنير على هامش الكشاف ٨٩/٢ .
(٤) الجامع لأحكام القرآن ٢٧٨/٧ .
(٥) سورة الزخرف : آية ٧٧
(٦) سورة البقرة : آية ٩٥

تفيد النفى على الدوام مع اقترانه بالتأبيد لتناقض الكلام[١]. لأن التأبيد قد يراد به التأبيد المقيد أو التأبيد المطلق ، فالمقيد كالتأبيد بمدة الحياة كقولك والله لاأكلمه أبداً ، والمطلق كقولك والله لاأكفر بربى أبداً[٢].

قال ابن مالك مبيناً خطأ المعتزلة فيما ذهبوا إليه :

ومن رأى النفى بلن مؤبداً فقوله اردد وسواه فاعضدا[٣]

وقال صاحب النحو الوافى :

"لن : وهو حرف يفيد النفى بغير دوام ولاتأبيد إلا بقرينة خارجة عنه فإذا دخل على المضارع نفى معناه فى الزمن المستقبل المحض - غالباً - نفياً مؤقتاً يقصر أو يطول من غير أن يدوم ويستمر ، فمن يقول : لن أسافر ، أو لن أشر ب، أو لن أقرأ غداً ، أو نحو هذا ، فإنما يريد نفى السفر - أو غيره - فى قابل الأزمنة مدة معينة ، يعود بعدها إلى السفر ونحوه ، إن شاء ، ولايريد النفى الدائم المستمر فى المستقبل ، إلا إن وجدت قرينة مع الحرف "لن" تدل على الدوام والاستمرار ، يدل على هذا قوله تعالى : {فلن أكلم اليوم إنسياً}[٤]. فلو كانت "لن" تفيد تأبيد النفى فى المستقبل المحض الخالص لوقع التعارض بينها وبين كلمة "اليوم" فى الآية ، لأن اليوم محدد معين ، وهى غير محددة ولامعينة ، ولوقع التكرار المعيب فى قوله تعالى : {فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ، ولن يتمنوه أبداً}[٥]، فما فائدة كلمة أبداً التى تدل على التأبيد إن كانت "لن" تدل عليه؟

أما التأبيد فى قوله تعالى : {إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له}[٦]. فبسبب قرينة خارجية ، هى العلم القاطع المستمد

---

(١) انظر : بدائع الفوائد ٩٦/١-٩٧ ، شرح العقيدة الطحاوية ص١٩٢ .

(٢) بدائع الفوائد ٩٧/١ بتصرف .

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ص١٩٢ .

(٤) سورة مريم : آية ٢٦

(٥) سورة البقرة : آية ٩٤ - ٩٥

(٦) سورة الحج : آية ٧٣

من المشاهدة الصادقة الدائمة"(١).

وأما استدراك الزمخشري في قوله : "ولكن انظر إلى الجبل" يأتي بيانه في الوجه الذي يليه .

الوجه الثالث :

إن الله علق وقوع الرؤية باستقرار الجبل وذلك ممكن وجائز وليس بممتنع ، وماعلق على الممكن فهو ممكن ، ولو كانت محالاً لما علقها على الممكن وإنما كان يعلقها على محال ، كأن يقول : إن استقر الجبل فسوف آكل وأشرب وأنام(٢).

ومن ذلك أن الله علق دخول الكفار الجنة بمستحيل في قوله : {حتى يلج الجمل في سم الخياط}(٣)، فدل على استحالة دخولهم فيها ، وهذا بخلاف الرؤية(٤).

وماذكره عبد الجبار من استدراكات حول قوله تعالى : {فلما تجلى ربه للجبل} ، يجاب عليها بالآتي :

قوله "تجلى" قال القرطبي : "معناه ظهر من قولك جلوت العروس أي أبرزتها ، وجلوت السيف : أبرزته من الصدأ جلاء فيهما"(٥).

لقد تجلى الله للجبل وظهر له وأراد بذلك أن يضرب مثالاً لموسى عليه السلام بما هو أقوى من بنيته وأثبت ، فإن استقر الجبل وثبت لرؤيته فسوف يراه موسى ، ولكن الجبل مع قوته لم يطق رؤية الله تعالى فمن باب أولى موسى عليه السلام(٦).

---

(١) النحو الوافي ٢٩٩/٤ .

(٢) انظر : حادي الأرواح ص٢١٣ ، شرح العقيدة الطحاوية ص١٩١-١٩٢ ، الإنصاف ٩١/٢ .

(٣) سورة الأعراف : آية ٤٠

(٤) انظر : زاد المسير ١٧٤/٣ .

(٥) الجامع لأحكام القرآن ٢٧٨/٧ ، وانظر مادة جلى في القاموس المحيط ص١٦٤٠-١٦٤١ .

(٦) انظر : الجامع لأحكام القرآن ٢٧٨/٧ .

وأمـا القول بأن المراد بالتجلى إظهـار القدرة فهـذا تأويل مخالف لنص الآية ومخالـف لما جاء عـن جمهـور المفسـرين فى أن المراد بالتجلى الظهـور .

وقول عبد الجبار : "لو أراد به تجلى ذاته لم يكن لذلك معنى" .

الصواب خلافه فلو لم يرد تجلى ذاته لم يكن لذلـك معنى ، لأن موسى عليـه السلام لم يطلـب رؤية القـدرة وإنما طلـب رؤية الـذات ، وقـد رأى موسى عليه السلام كثيراً من آثار قدرته تعالى .

وقـوله : "لو أراد تجلى بمعنى المقـابلة لوجب أن لايستقـر لـه مكان بل كان يجب فى العرش أن يصير دكـاً ، وأن يكـون بهـذه الصفـة أحق". قـول ضعيـف جداً ، لأن الله سبحانه قد خلق العرش لهذا الشـأن وجعل فيه من القوة والتحمل مايصمد لذلك ، ومثله الكرسى والحجاب .

وقـوله : "ولـو كـان فى الحقيقـة تجلى للجبـل ، بمعنى أنه أظهـر وزال الحجب ، لكان من على الجبل يراه أيضاً ، فكان لايصح مع ذلك قوله : "لن ترانى" وكـان لايصح أن يعلق نفى الرؤية بأن لايستقر الجبـل ، والمعلوم أنه لايستقـر بأن ينكشـف ويرى ، لأن ذلـك فى حكـم أن يجعـل الشـرط فى أن لايرى مايوجب أن يرى ، وذلك متناقض" .

ويجاب على ذلك بالآتى :

قـال سبحانه : {وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكـم قليلاً ويقللكم فى أعينهم ليقضى الله أمراً كان مفعولاً}(١).

فـإذا جاز أن يقلل الكثير فى العين الصحيحة جاز مـع صحتها وارتفاع الموانع أن نراه سبحانه .

فيحـق القـول بحصـول تجلى ذاته للجبـل ووجود مـانع مـن رؤيتـه لما سواه، لأنه قد قضى بأنه لايرى فى الدنيا . ولاتناقض فيما يزعمه لأن الشرط فى الرؤية وعدمها استقرار الجبل وعدمه لاالانكشاف ، وهذا ظاهر(٢).

---

(١) سورة الأنفال : آية ٤٤

(٢) رؤية الله تعالى ص٨٧-٨٩ بتصرف .

الوجه الرابع :

إن موسى عليه السلام لما رأى الجبل صار دكاً وقع مغشياً عليه من هول مارأى ، ولم يمت بدليل قوله تعالى : {فلما أفاق} والإفاقة لاتكون إلا عن غشى(١).

وقيل إنه رأى الله فلذلك خر صعقاً ولكن فى ذلك ضعف،(٢) مع مخالفته لقوله "لن ترانى".

وأما ماذكره الزمخشرى من حكاية لكز الملائكة لموسى أجاب عن ذلك ابن المنير فقال :

"فهذه حكاية إنما يوردها من يتعسف لامتناع الرؤية فيتخذها عوناً وظهراً على المعتقد الفاسد . والوجه التورط بالغلط على ناقلها ، وتنزيه الملائكة عليهم السلام من إهانة موسى صفى الله وكليمه بالوكز بالرجل والغمص فى الخطاب"(٣).

وقد سبق بيان أن موسى عليه السلام لايطلب مستحيلاً على الله لايجوز ، وذلك لمعرفته بربه(٤).

الوجه الخامس :

لقد ذكر العلماء أقوالاً فيما تاب منه موسى عليه السلام :

أحدها : عن سؤاله الرؤية .

الثانى : الإقدام عن المسألة قبل الإذن فيها .

الثالث : اعتقاد جواز رؤيته فى الدنيا(٥).

ويمكن أن يجمع بين هذه الأقوال : بأن موسى عليه السلام سأل ربه الرؤية لاعتقاده بجواز وقوعها فى الدنيا وأنها ليست بمستحيلة ، ولكن الله

---

(١) انظر : تفسير القرآن العظيم ٢٤٥/٢ .

(٢) انظر : الجامع لأحكام القرآن ٢٧٨/٧ ، رؤية الله تعالى ص٤٦ .

(٣) الإنصاف على هامش الكشاف ٩١/٢ .

(٤) انظر ص : ١٨٥

(٥) زاد المسير ١٧٤/٣ بتصرف .

عز وجل بين له أنه لايمكنه أن يراه فى الدنيا لعدم استطاعته ذلك ، عندئذ سبح الله ونزهه عن أن يرى فى الدنيا ، وتاب عن سؤاله ذلك بغير إذن من الله ثم بين بأنه أول المؤمنين المعتقدين بأنه لايرى فى الدنيا .

قال ابن كثير رحمه الله :

("قال سبحانك" تنزيهاً وتعظيماً وإجلالاً أن يراه أحد فى الدنيا إلا مات) .. (وأنا أول المؤمنين) أنا أول من آمن بك أنه لايراك أحد من خلقك إلى يوم القيامة . وهذا قول حسن له اتجاه)(١).

وقال ابن المنير رحمه الله :

"... وأما تسبيح موسى عليه السلام فلما تبين له من أن العلم قد سبق بعدم وقوع الرؤية فى الدنيا والله تعالى مقدس عن وقوع خلاف معلومه ، وعن الخلف فى خبره الحق وقوله الصدق فلما تبين أن مطلوبه كان خلاف المعلوم سبح الله وقدس علمه وخبره عن الخلف .

وأما التوبة فى حق الأنبياء ، فلاتستلزم كونها عن ذنب ، لأن منصبهم الجليل ينبغى أن يكون منزهاً مبرأً من كل ماينحط به ، ولاشك أن التوقف فى سؤال الرؤية على الإذن كان أكمل"(٢).

فتوبة موسى عليه السلام لم تكن عن معصية بإجماع الأمة ، لأن الأنبياء معصومون ، إضافة إلى أن الرؤية جائزة كما هو منهج أهل السنة والجماعة(٣).

وأما قول الزمخشرى : "ثم تعجب من المتسمين بالإسلام المتسمين بأهل السنة والجماعة كيف اتخذوا هذه العظيمة مذهباً ولايغرنكم تسترهم بالبلكفة فإنه من منصوبات أشياخهم . والقول ماقال بعض العدلية فيهم". فذكر الأبيات السابقة .

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٢٤٥/٢ .

(٢) الإنصاف على هامش الكشاف ٩١/٢-٩٢ .

(٣) انظر : الجامع لأحكام القرآن ٢٧٩/٧ .

هـذا القـول من الزمخشرى عظيمـة مـن عظائمه التى سـود بهـا كتـابه ، وشهد بها على نفسه أنه ليس من أهل السنة والجماعة ، فبئس القول وبئست الشهادة .

والمعتزلة أولى بالذم ، لأنهم خاضوا فى دين الله بعقـولهم وأهوائهم ، فأولوا آيات كتاب ربهم وردوا أحاديث نبيهـم ثم لم يقفـوا عنـد ذلك الحد حتى حملـوا على أتباع الرسـول صلى الله عليه وسلم وجنـد الإيمان فـرموهم بكـل داهيـة وسبـة ، فياعجبـاً مـن هؤلاء الذين انغمسـوا فى ظلمـات البـدع والضلال {وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً}(١).

ورحم الله ابن المنير الذى كال لهم الصاع صاعين ، فقال :

وجماعة كفروا برؤية ربهم
حقاً ووعد الله مالن يخلفه
وتلقبوا عدلية قلنا أجل
عدلوا بربهم فحسبهموا سفه
وتلقبوا الناجين كلا إنهم
إن لم يكونوا فى لظى فعلى شفه(٢)

---

(١) سورة الكهف : آية ١٠٤

(٢) الإنصاف على هامش الكشاف ٩٢/٢ .

الجواب على شبهاتهم حول أدلة إثبات الرؤية :

المثـال الأول : قوله تعالى : {وجوه يومئذ ناضـرة إلى ربها ناظرة}(١).

واعتراضات أهل الاعتزال على هذه الآية تتلخص فيما يأتى :

أن ظاهرها يقتضى التشبيه ، وأنها من المتشابه ، فيجب أن تأول ، ثم أولوها بالآتى :

(١) النظر غير الرؤية وهو طلب الرؤية .

والمراد فى الآية النظر إلى الثواب كقوله : {واسأل القرية}(٢)، فحذف المضاف .

(٢) النظر يطلق على معانى :

فيراد به طلب الرؤية والانتظار ويراد به التفكر بالقلب .وهو محتمل فى الآية لهذه المعانى .

(٣) أراد بذكر الوجوه جملة الإنسان لاالبعض المخصوص .

ففـى الكلام إجمـال لأن الجملـة إذا وصفت بأنها ناظـرة لم يفهـم أن المراد به الرؤية.

(٤) المراد بالنظر : التوقع والرجاء .

(٥) المراد ب"إلى"واحدة الآلاء وهى النعم .

ويجاب على ذلك بالآتى :

أولا : زعمهـم أن ظاهرها يقتضـى التشبيه ، وأنها مـن المتشابه ، تلك شنشنة طالما سمعناها من أخزم(٣)، فإن أصحاب البدع والأهواء إذا وقفـوا على النصـوص التى تخالف بدعهـم صراحة ضربوا وجوههـا بهـذين الدائين ، التشبيه والمتشابه ، وحاشا نصوص الكتاب والسنة أن يفيد ظاهرها التشبيه ، وقـد سبـق إيضاح ذلك فى الحديث عـن الصفات بما لايحتـاج إلى مـزيد (٤)

---

(١) سورة القيامة : آية ٢٢،٢٣

(٢) سورة يوسف : آية ٨٢

(٣) هذا مثل يضرب فى قرب الشبه . مجمع الأمثال للميدانى ٢/١٥٥-١٥٦ . وانظر كتاب الأمثال لأبى عبيد ص١٤٤ مع الهامش .

(٤) انظر ص١٥٤ فما بعدها .

وموضوع المتشابه والمحكم سبق بيانه أيضا(١)، والأمر ليس مطلقا على عواهنه فكلما جاء أحد إلى نص ما فوجده خلاف مراده أو جهل تفسيره ، أو قامت شبهة فى ذهنه رماه بأنه متشابه وأنه يدل على التشبيه ، فلو كان الأمر كذلك ماسلم لنا نص من النصوص لافى جانب التوحيد ولاالنبوات ولاالمعاد ، ولبطل الاستدلال بها على جميع أمور الدين ، ولفتح الباب على مصراعيه للزنادقة وأعداء الإسلام فانتهكوا حرمة نصوص الوحى وأبدلوا الحق باطلاً والهدى ضلالاً .

ثانياً : إن هذه الآية من أقوى الأدلة على إثبات رؤية الله فى الآخرة فإذا سلط عليها أهل الاعتزال معاول التأويل والتحريف فغيرها من باب أولى أن يحرف ويأول .

يقول ابن القيم رحمه الله فى هذه الآية :

"وأنت إذا جردت هذه الآية من تحريفها عن مواضعها والكذب على المتكلم بها سبحانه فيما أراده منها وجدتها منادية نداء صريحاً أن الله سبحانه يرى عياناً بالأبصار يوم القيامة ، وإن أبيت إلا تحريفها الذى يسميه المحرفون تأويلاً فتأويل نصوص المعاد والجنة والنار والميزان والحساب أسهل على أربابه من تأويلها ، وتأويل كل نص تضمنه القرآن والسنة كذلك ، ولايشاء مبطل على وجه الأرض أن يتأول النصوص ويحرفها عن مواضعها إلا وجد إلى ذلك من السبيل ماوجده متأول مثل هذه النصوص ، وهذا الذى أفسد الدين والدنيا"(٢).

وقال ابن أبى العز : "هكذا فعلت اليهود والنصارى فى نصوص التوراة والإنجيل ، وحذرنا الله أن نفعل مثلهم . وأبى المبطلون إلا سلوك سبيلهم ، وكم جنى التأويل الفاسد على الدين وأهله من جناية ...

---

(١) انظر ص : ١٦٢ فمابعدها .

(٢) حادى الأرواح ص٢١٨-٢١٩ .

وهـل خرجت الخوارج واعتزلـت المعتزلـة ، ورفضـت الـروافض ، وافترقت الأمة على ثلاث وسبعين فرقة ، إلا بالتأويل الفاسد؟"(١)

فتـأويل المعتزلة لهذه الآية هو تحريف لكلام اللـه عن مواضعه ، لأن التأويل الصحيح هو الذى يوافق ماجاءت به السنة ، والفـاسد المخالف له ، فكل تأويل لم يدل عليه سياق النص ، ولامعه قرينة تقتضيـه فهو ليس مراد الله ولارسوله صلى الله عليه وسلم(٢).

والـذى يستعجـب لـه الإنسـان ويستغـرب جراْة هـؤلاء المعتزلـة على النصوص ، فإنه يسهل على أحدهم أن يحرف النص ويأوله تأويلاً فاسداً ثم يزعم أن ذلك مراد الله ، وأنه التفسير الصحيح الذى لاتفسير غيره .

ورحم الله الإمام الطحاوى الذى يقول :

"والـرؤية حق لأهل الجنة بغير إحاطـة ولاكيفية ، كمـا نطق به كتاب ربنـا {وجوه يومئذ ناضرة إلى ربهـا ناظرة} ، وتفسيره على مـاأراد اللـه تعالى وعلمـه ، وكل ماجاء فى ذلـك من الحديث الصحيح عـن الـرسول صلى الله عليـه وسلم فهـو كما قال ، ومعنـاه على مـاأراد ، لاندخل فى ذلـك متـأولين بآرائنـا ولامتـوهمين بأهوائنـا ، فإنه ماسلم فى دينه إلا مـن سلم للـه عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، ورد علم مااشتبه عليه إلى عالمه"(٣).

وأما الجواب على تأويلات المعتزلة التى صرفوا بهـا مراد الله من الآية يقال لهم فى ذلك :

(١) قولكم إن المراد فى الآية النظر إلى الثواب ، قول فاسد جداً ، وحمل للكلام على غير ظاهره الذى وضع له فى اللغة من غير دليل يدل على ذلك(٤).

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص١٨٩ .
(٢) انظر المرجع السابق ص١٩٨ .
(٣) متن العقيدة الطحاوية ص١٠ .
(٤) انظر : الفصل فى الملل ٣/٣ .

قال أبو الحسن الأشعرى رحمه الله :

"ثواب الله عز وجل غيره تعالى ، والله تعالى قال : {إلى ربها ناظرة} ولم يقل إلى غيره ناظرة ، والقرآن على ظاهره وليس لنا أن نزيله عن ظاهره إلا بحجة، وإلا فهو على ظاهره ، ألا ترى أن الله عز وجل لما قال صلوا لى واعبدونى لم يجز أن يقول قائل : إنه أراد غيره ويزيل الكلام عن ظاهره ، فلذلك لما قال : {إلى ربها ناظرة} لم يجز لنا أن نزيل القرآن عن ظاهره بغير حجة ، ثم يقال للمعتزلة : إن جاز لكم أن تزعموا أن قول الله عز وجل {إلى ربها ناظرة} إنما أراد به أنها إلى غيره ناظرة ، فلم ماجاز لغيركم أن يقول إن قول الله عز وجل : {لاتدركه الأبصار}(١) أراد بها لاتدرك غيره ولم يرد أنها لاتدركه وهذا مالايقدرون على الفرق فيه"(٢).

(٢) قولهم إن النظر يطلق على معانى ، وهو محتمل فى الآية لهذه المعانى .

يقال لهم : لاشك إن النظر له عدة معانى واستعمالات على حسب صلاته وتعديه، فإن عدى بنفسه فمعناه التوقف والانتظار كقوله : {انظرونا نقتبس من نوركم}(٣)، وإن عدى بفى فمعناه التفكر والاعتبار كقوله : {أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض}(٤)، وإن عدى بإلى فمعناه المعاينة بالأبصار كقوله : {انظروا إلى ثمره إذا أثمر}(٥)(٦).

قال ابن القيم : "وإضافة النظر إلى الوجه الذى هو محله فى هذه الآية وتعديته بأداة إلى الصريحة فى نظر العين وإخلاء الكلام من قرينة تدل على أن المراد بالنظر المضاف إلى الوجه المعدى بإلى خلاف حقيقته وموضوعه ، صريح فى أن الله سبحانه وتعالى أراد بذلك نظر العين التى فى الوجه إلى

---

(١) سورة الأنعام : آية ١٠٣

(٢) الإبانة فى أصول الديانة ص١٣ .

(٣) سورة الحديد : آية ١٣

(٤) سورة الأعراف : آية ١٨٥

(٥) سورة الأنعام : آية ٩٩

(٦) حادى الأرواح ص٢١٩ بتصرف . وانظر شرح العقيدة الطحاوية ص١٩٠ .

نفس الرب جل جلاله"(١).

قال البيهقى رحمه الله :

"قال الله عز وجل : {وجوه يومئذ} يعنى يوم القيامة ، "ناضرة" يعنى مشرقة ، "إلى ربها ناظرة" وليس يخلو النظر من وجوه : إما أن يكون الله عز وجل عنى به نظر الاعتبار كقوله : {أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت}(٢)، أويكون عنى به نظر الانتظار كقوله : {ماينظرون إلا صيحة واحدة}(٣)، أو يكون عنى نظر التعطف والرحمة كقوله : {لاينظر إليهم}(٤)، أو يكون عنى الرؤية كقوله : {ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت}(٥).

ولايجوز أن يكون الله سبحانه عنى بقوله "إلى ربها ناظرة" نظر التفكر والاعتبار لأن الآخرة ليست بدار استدلال واعتبار وإنما هى دار اضطرار ، ولايجوز أن يكون عنى نظر الانتظار ، لأنه ليس فى شىء من أمر الجنة انتظار لأن الانتظار معه تنقيص وتكدير ، والآية خرجت مخرج البشارة ... ولأن النظر إذا ذكر مع ذكر الوجوه فمعناه نظر العينين اللتين فى الوجه ، كما قال تعالى : {قد نرى تقلب وجهك فى السماء}(٦)، وأراد بذلك تقلب عينيه نحو السماء ، ولأنه قال : "إلى ربها ناظرة" ونظر الانتظار لايكون مقروناً بإلى لأنه لايجوز عند العرب أن يقولوا فى نظر الانتظار "إلى" ألا ترى أن الله عز وجل لما قال : {ماينظرون إلا صيحة واحدة}(٧)لم يقل "إلى" إذ كان معناه الانتظار ، وقالت بلقيس فيما أخبر الله عنها : {فناظرة بم يرجع

---

(١) حادى الأرواح ص٢١٩ ، شرح العقيدة الطحاوية ص١٨٩ .
(٢) سورة الغاشية : آية ١٧
(٣) سورة يس : آية ٤٩
(٤) سورة آل عمران : آية ٧٧
(٥) سورة محمد : آية ٢٠
(٦) سورة البقرة : آية ١٤٤
(٧) سورة يس : آية ٤٩

المرسلون}(١)، فلما أرادت الانتظار لم تقل "إلى" ، قلنا : ولايجوز أن يكون الله سبحانه أراد نظر التعطف والرحمة ، لأن الخلق لايجوز أن يتعطفوا على خالقهم ، فإذا فسدت هذه الأقسام الثلاثة صح القسم الرابع من أقسام النظر وهو أن معنى قوله : "إلى ربها ناظرة" أنها رائية ترى الله عز وجل"(٢).

(٣) لم يرد بذكر الوجوه جملة الإنسان ، لأنه لادليل يدل على ذلك ، ولاضرورة تدعو إلى حمل الوجوه على جملة الإنسان .

فالأولى فى ذلك حمل الأمور على معهودها فى اللغة مالم يمنع من ذلك نص أو إجماع أو ضرورة ، ولم يأت نص ولاإجماع ولاضرورة تمنع ماذكرنا فى معنى النظر(٣).

فذكر الوجوه فى الآية لأن بها العينين اللتين يكون بهما النظر .

(٤) قولهم المراد : التوقع والرجاء.

أجيب على ذلك بما ذكر فى جواب الوجه الثانى .

(٥) قولهم : إن المراد بذلك واحدة الآلاء وهى النعم .

أجاب عن ذلك الإمام ابن حزم رحمه الله بوجهين :

"أحدهما : إن الله تعالى أخبر أن تلك الوجوه قد حصلت لها النضرة وهى النعمة، والنعمة نعمة ، فإذا حصلت لها النعمة فبعيد أن ينتظر ماقد حصل لها وإنما ينتظر مالم يقع بعد .

والثانى : تواتر الأخبار عن النبى صلى الله عليه وسلم ببيان أن المراد بالنظر هو الرؤية لاماتأوله المتأولون"(٤).

---

(١) سورة النمل : آية ٣٥

(٢) الاعتقاد ص٧٤-٧٥ .

(٣) الفصل فى الملل ٣/٣-٤ بتصرف .

(٤) المرجع السابق ٣/٣ .

المثال الثانى :

روى البخارى بسنده إلى قيس بن أبى حازم عن جرير قال : "كنا جلوساً عند النبى صلى الله عليه وسلم إذ نظر إلى القمر ليلة البدر قال : إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لاتضامون فى رؤيته ، فإن استطعتم أن لاتغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروب الشمس فافعلوا"(١).

وقد رد المعتزلة على الحديث بأوجه يمكن أن نلخصها فى الآتى :

(١) إنه يتضمن الجبر والتشبيه .

(٢) يجب القطع على أنه صلى الله عليه وسلم لم يقله بل هو كذب عليه.

(٣) إن قاله فإنما قاله على سبيل الحكاية .

(٤) مروى عن قيس بن أبى حازم وهو مطعون فيه من وجهين :

(أ) إنه كان يرى رأى الخوارج .

(ب) إنه خولط فى عقله آخر عمره .

(٥) إنه خبر آحاد لايقتضى العلم والرؤية طريقها القطع .

(٦) إنه معارض بأخبار :

(أ) عن أبى ذر أنه قال :

قلت للنبى : "هل رأيت ربك"؟ فقال : "نور هو ، أنى أراه" . أى : أنور هو؟ كيف أراه؟"(٢).

(ب) عن جابر بن عبد الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لن يرى الله أحد فى الدنيا ولافى الآخرة".

(٧) المراد بالرؤية فى الحديث العلم أو المعرفة وليست رؤية البصر .

ويجاب على ماذكروا بما يأتى :

---

(١) سبق تخريج الحديث . انظر ص : ١٩١

(٢) سبق تخريجه . انظر ص : ١٨٤

(١) زعمهم أنه يفيد التشبيه :

يرد عليه نص الحديث فقد قال صلى الله عليه وسلم : "إنكم سترون ربكم كما ترون القمر" فلم يشبه الله عز وجل بالقمر ، وإنما شبه رؤيته برؤية القمر ، فكاف التشبيه دخلت على "ما" المصدرية أو الموصولة بترون التى تتأول مع صلتها إلى المصدر الذى هو الرؤية . فيكون بذلك قد شبه الرؤية بالرؤية لا المرئى بالمرئى(١).

(٢) زعمهم بوجوب القطع على أنه صلى الله عليه وسلم لم يقله وأنه كذب عليه ، يجاب عنه بما يلى :

أولاً : لقد تظاهرت أدلة الكتاب والسنة وأجمع الصحابة والذين من بعدهم على إثبات رؤية الله فى الآخرة للمؤمنين(٢).

ثانياً : إن الأحاديث التى دلت على ثبوت الرؤية تبلغ حد التواتر أخرجها أصحاب الصحاح والسنن والمسانيد واعتنى بجمعها أئمة من العلماء كالدارقطنى وأبى نعيم الأصبهانى وأبى بكر الآجرى وغيرهم الكثير(٣).

قال الحافظ ابن حجر :

"جمع الدارقطنى طرق الأحاديث الواردة فى رؤية الله تعالى فى الآخرة فزادت على العشرين ، وتتبعها ابن القيم فى حادى الأرواح فبلغت الثلاثين وأكثرها جياد ، وأسند الدارقطنى عن يحيى بن معين(٤) قال :

---

(١) انظر موافقة صحيح المنقول ١٩١/١ ، شرح العقيدة الطحاوية ص٢١١ .

(٢) انظر : شرح النووى على مسلم ١٥/٣ .

(٣) انظر : بيان تلبيس الجهمية ٣٤٨/١ .
وقد نص على تواتر أحاديث الرؤية جماعة من العلماء . انظر :
مجموع الفتاوى ٣٩٠/٣ ، حادى الأرواح ص٢١٩، ٢٥١ ، تفسير القرآن العظيم ١٦١/٢ ، شرح العقيدة الطحاوية ص١٩٣ .

(٤) يحيى بن معين :
هو يحيى بن معين بن عون الغطفانى مولاهم ، أبو زكريا البغدادى ، ثقة حافظ مشهور . إمام الجرح والتعديل . روى عن ابن المبارك ، وهشيم ، وابن عيينة . وعنه الإمام أحمد ، والبخارى ، ومسلم ، وخلق . مات بالمدينة سنة ٢٣٣هـ . =

"عندى سبعة عشر حديثاً فى الرؤية صحاح"(١).

ثالثاً : لقد تلقى صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعون لهم بإحسان وسلف الأمة وأئمتها أحاديث الرؤية بالقبول وعدم الإنكار ، واتفق عليها أهل السنة والجماعة(٢).

وقد ذكر النووى رحمه الله أنه رواها نحواً من عشرين صحابياً(٣)، وعد ابن القيم رحمه الله من رواها فبلغوا سبعة وعشرين رجلاً من الصحابة رضى الله عنهم(٤). بل لم يرو عن أحد منهم نفى حديث منها ، فكانوا على إثباتها مجتمعين متفقين(٥).

قال على بن المدينى : "سألت عبد الله بن المبارك عن رؤية الله تعالى فقال : ماحجب الله عز وجل أحدا إلا عذبه، ثم قرأ : {كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون . ثم إنهم لصالوا الجحيم ثم يقال هذا الذى كنتم به تكذبون}(٦). قال : الرؤية .

فقلت له ياأبا عبد الله : إن عندنا قوماً من المعتزلة ينكرون هذه الأحاديث : إن الله ينزل إلى سماء الدنيا ، وأهل الجنة يرون ربهم ، فحدثنى بنحو عشرة أحاديث فى هذا ، وقال : أما نحن فقد أخذنا ديننا هذا عن التابعين ، والتابعون أخذوه عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فهم عمن أخذوه؟"(٧)

= انظر : الطبقات الكبرى ٣٥٤/٧ ، الجرح والتعديل ١٩٢/٩ ، تاريخ بغداد ١٧٧/١٤-١٨٧ ، تذكرة الحفاظ ٤٢٩/٢-٤٣١ ، ميزان الاعتدال ٤١٠/٤ ، الكاشف ٢٦٨/٣-٢٦٩ ، تهذيب التهذيب ٢٨٠/١١-٢٨٨ ، تقريب التهذيب ٣٥٨/٢ .

(١) فتح البارى ٤٣٤/١٣ .

(٢) انظر : الفصل فى الملل ٤/٣ ، مجموع الفتاوى ٣٩١/٣ ، فتح البارى ٤٢٦/١٣ .

(٣) انظر : شرح النووى على مسلم ١٥/٣ .

(٤) انظر : حادى الأرواح ص٢١٩ .

(٥) انظر : الاعتقاد ص٨٢ .

(٦) سورة المطففين : آية ١٥-١٧

(٧) لوامع الأنوار ٢٤٥/٢ .

قال عباد بن العوام(١): قدم علينا شريك(٢)فقلنا : إن قوماً ينكرون هذه الأحاديث : إن الله ينزل إلى سماء الدنيا ، والرؤية ،وماأشبه هذه الأحاديث! فقال : "إنما جاءنا بهذه الأحاديث من جاءنا بالسنن فى الصلاة والزكاة والحج وإنما عرفنا الله بهذه الأحاديث"(٣).

قال حنبل(٤): قلت لأبى عبد الله ـ يعنى أحمد ـ فى الرؤية . قال : "أحاديث صحاح نؤمن بها ونقر وكلما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم بأسانيد جيدة نؤمن به ونقر"(٥).

وقال ابن القيم رحمه الله فى أحاديث الرؤية :

---

(١) عباد بن العوام :
هو عباد بن العوام بن عمر الكلابى مولاهم ، أبو سهل الواسطى ، ثقة . حدث عن أبى مالك الأشجعى ، وابن عون ، وأبى إسحاق الشيبانى . وعنه الإمام أحمد وعمرو الناقد وغيرهم . مات سنة ١٨٥هـ أو بعدها.
انظر : تاريخ بغداد ١٠٤/١١-١٠٥ ، تذكرة الحفاظ ٢٦١/١ ، تهذيب التهذيب ٩٩/٥ تقريب التهذيب ٣٩٣/١ .

(٢) شريك :
هو شريك بن عبد الله النخعى الكوفى ، القاضى بواسط ، ثم الكوفة أبو عبد الله ، صدوق ، يخطىء كثيراً ، تغير حفظه منذ ولى القضاء بالكوفة ، وكان عادلاً فاضلاً عابداً ، شديداً على أهل البدع . مات سنة ١٧٧هـ أو ١٧٨هـ .
انظر : الجرح والتعديل ٣٦٥/٤ ، تاريخ بغداد ٢٧٩/٩ ، ميزان الاعتدال ٢٧٠/٢ تذكرة الحفاظ ٢٣٢/١ ، تهذيب التهذيب ٣٣٣/٤ ، تقريب التهذيب ٣٥١/١ .

(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٥٠٤/٢ .

(٤) حنبل :
هو حنبل بن إسحاق بن حنبل بن هلال بن أسد ، أبو على الشيبانى ، ابن عم الإمام أحمد وتلميذه ، إمام ، حافظ ، ثقة ،مصنف .
سمع سليمان بن حرب ، وأبى نعيم ، والحميدى . وعنه ابن صاعد ، وأبو بكر الخلال وآخرون . مات سنة ٢٧٣هـ .
انظر : تاريخ بغداد ٢٨٦/٨-٢٨٧ ، تذكرة الحفاظ ٦٠٠/٢-٦٠١ ، سير أعلام النبلاء ٥١/١٣-٥٣ .

(٥) شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٥٠٧/٢ .

"فإن الذى جاء بهذه الأحاديث هو الذى جاء بالقرآن والشريعة ، والذى بلغها هو الذى بلغ الدين ، فلايجوز أن يجعل كلام الله ورسوله عضين (١) بحيث يؤمن ببعض معانيه ويكفر ببعضها ، فلايجتمع فى قلب العبد بعد الاطلاع على هذه الأحاديث وفهم معناها إنكارها والشهادة بأن محمداً رسول الله أبدا"(٢).

(٣) قول عبد الجبار :

"وإن قال فإنه قاله حكاية عن قوم ، والراوى حذف الحكاية ونقل الخبر" .

هذه مجرد دعوى لاتستند على دليل ، ولم ترد فى رواية من روايات الحديث المتعددة ، فإنها لو كانت صحيحة لذكرت ولو مرة واحدة فى طريق من طرقه فدل ذلك على بطلانها(٣).

(٤) وأما طعنهم فى قيس بن أبى حازم ، فإنه يرد عليه بالآتى :

أولاً :إن قيساً رحمه الله من ثقات رواة الحديث وقد وثقه جهابذة العلماء ، وإليك طرفاً من أقوالهم فيه :

وصفه الذهبى رحمه الله فقال :

"العالم الثقة الحافظ أبو عبد الله البجلى ... أسلم وأتى النبى صلى الله عليه وسلم ليبايعه فقبض نبى الله وقيس فى الطريق ، ولأبيه أبى حازم صحبة وقيل : إن لقيس صحبة، ولم يثبت ذلك ، وكان من علماء زمانه".

وقال سفيان بن عيينة رحمه الله :

"ماكان بالكوفة أحد أروى عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من قيس بن أبى حازم".

وقال أبو داود رحمه الله :

---

(١) عضين : أى مجزأ مفرقاً .
انظر : القاموس المحيط ص١٦٩٢ .
(٢) حادى الأرواح ص٢٥٢ .
(٣) انظر : رؤية الله تعالى ص٢٣١ .

"أجود التابعين إسناداً قيس".

وقال يحي بن معين رحمه الله :

"قيس بن أبى حازم أوثق من الزهرى ، ومن السائب بن يزيد" . وكذا وثقه غير واحد"(١).

ثانياً : أخرج له البخارى ومسلم وبقية أصحاب الكتب الستةوغيرهم(٢). ولو كان مطعوناً فيه لما أخرج له صاحبا الصحيحين فى أصولهما .

ثالثاً : حديث قيس السابق أخرجه البخارى فى صحيحه ، ويكفى ذلك لصحته وتوثيق رواته ، وهو القائل : "ماأدخلت فى كتاب الجامع إلا ماصح"(٣).

رابعاً : لم ينفرد قيس عن جرير رضى الله عنه بذكر الرؤية وإنما تواترت الأحاديث عن جمع من الصحابة منهم أبو سعيد وأبو هريرة وأنس وصهيب وبلال وغير واحد(٤).

خامساً :إن قيساً رحمه الله لم يكن يحمل على على رضى الله عنه كما يدعى عبد الجبار ، بل المشهور عنه أنه كان يقدم عثمان عليه(٥). وهذا قول جمهور أهل السنة وكافة أهل الحديث والفقه فإنهم يقدمون عثمان على على رضى الله عنهما ، وفى ذلك قول ابن عمر "كنا نخير بين الناس فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم فنخير أبا بكر ثم عمر بن الخطاب ثم عثمان بن عفان رضى الله عنهم"(٦). فلم يأت قيس بمنكر من القول حتى يكون سبباً

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٩٨/٤-٢٠٠ .

(٢) انظر : تقريب التهذيب ١٢٧/٢ .

(٣) انظر : تدريب الراوى ٩٨/٢ .

(٤) انظر : تفسير القرآن العظيم ١٦١/٢ ، وقد سبق بعض تلك الأحاديث . انظر ص: ١٩٠ فما بعدها.

(٥) انظر : سير أعلام النبلاء ١٩٩/٤ .

(٦) أخرجه البخارى فى صحيحه ، كتاب أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم (٦٢) ، باب فضل أبى بكر بعد النبى صلى الله عليه وسلم (٤) ، ١٩١/٤ .
وانظر : تدريب الراوى ٢٢٣/٢ .

للطعن فيه .

(٥) قولهم بأنه خبر آحاد ، وهو لايقتضى العلم ، والرؤية طريقها القطع والثبات .

كونه خبر آحاد وخبر الآحاد لايقتضى العلم ، هذه شبهة باطلة ، استوفيت الإجابة عنها من قبل(١).

وأما كون الرؤية طريقها القطع والثبات ، هذا ليس بلازم لأن أحاديث الآحاد الصحيحة كافية فى إثبات العقائد ، إضافة إلى ماسبق ذكره من أن أحاديث الرؤية تواترت تواتراً معنوياً . فبطلت بذلك شبهة أهل الاعتزال من جميع الأوجه .

(٦) زعمهم بأنه معارض بأخبار رويت منها :

(أ) مارواه أبوقلابة عن أبى ذر أنه قال : قلت للنبى : "هل رأيت ربك"؟ فقال : "نور هو ، أنى أراه" أى أنور هو؟ كيف أراه؟

(ب) عن جابر بن عبد الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لن يرى الله أحد فى الدنيا ولافى الآخرة".

ويجاب عن ذلك بما يلى :

(أ) بالنسبة لرواية أبى ذر :

أخرجها مسلم رحمه الله عن أبى ذر بطريقين : قال صلى الله عليه وسلم فى الرواية الأولى : "نور أنى أراه" ، وفى الثانية : "رأيت نوراً"(٢).

قال النووى :

"أما قوله صلى الله عليه وسلم "نور أنى أراه" فهو بتنوين نور وبفتح الهمزة فى أنى وتشديد النون وفتحها وأراه ، بفتح الهمزة ، هكذا رواه جميع الرواة فى جميع الأصول والروايات ومعناه : حجابه نور فكيف أراه، قال الإمام أبو عبد الله المازرى رحمه الله : الضمير فى أراه عائد على الله

---

(١) انظر ص ١٢٨ فما بعدها .

(٢) الحديث سبق تخريجه . انظر ص ١٨٤

سبحانه وتعالى ومعناه أن النور منعنى من الرؤية كما جرت العادة بإغشاء الأنوار الأبصار ومنعها من إدراك ماحالت بين الرائى وبينه . وقوله صلى الله عليه وسلم : "رأيت نوراً" معناه : رأيت النور فحسب ولم أر غيره"(١).

ولكن عبد الجبار لم تطب لنفسه رواية الحديث كما جاءت عن النبى صلى الله عليه وسلم ، بل أبت بدعته إلا أن تحمله على تحريفها ثم تفسيرها تفسيراً يلائم تلك البدعة .

وحديث أبى ذر لايعارض حديث جرير السابق ، لأن حديث أبى ذر يتعلق بموضوع رؤية النبى صلى الله عليه وسلم لربه ليلة المعراج ، فإنه نفى صلى الله عليه وسلم أن يكون قد رأى ربه بعينى رأسه ، والذى منعه من ذلك النور وهو الحجاب المذكور فى رواية أبى موسى رضى الله عنه عندما قال :

"قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس كلمات ، فقال : "إن الله عز وجل لاينام ولاينبغى له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجابه النور [وفى رواية "النار"] لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ماانتهى إليه بصره من خلقه"(٢).

فقول النبى صلى الله عليه وسلم : "فأنى أراه؟" أى فكيف أراه والنور حجاب بينى وبينه يمنعنى من رؤيته؟(٣)

(ب) وأما رواية جابر فإنها لم ترو بهذا اللفظ عن أحد من أئمة الحديث .

وإنما الذى ورد عند مسلم : من حديث الدجال عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : "تعلموا أنه لن يرى أحد منكم ربه عز وجل حتى يموت"(٤).

---

(١) شرح النووى على مسلم ١٢/٣ .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه ، كتاب الإيمان (١) ، باب فى قوله عليه السلام : "إن الله لاينام" (٧٩) برقم ١٧٩ ، ١٦١/١-١٦٢ .

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ص١٩٧ .

(٤) الحديث سبق تخريجه . انظر ص ١٨٤ .

فـــزيادة "ولافى الآخرة" زيادة منكـــرة لم ترد فى الحديث ، بل هـــى موضوعة أريد بها مناهضة الأدلـة الثـابتة فى إثبات الرؤية ، فـأمثالها لايجوز أن تنسب إلى النبى صلى الله عليه وسلم(١).

والـذى يعجب له الإنسان مـن هؤلاء المعتزلة أنهـم يطعنون فى الثابت من الأحاديث بل والمتواتر منهـا إذا خالفـت بدعتهـم بينمـا يلجـأوون إلى الموضـوع والضعيف من الأحاديث للاستشهـاد به على باطلهـم ، ومـاذلك إلا للهـوى الـذى أعمـى أبصارهـم عـن رؤية الحق ، وعقـولهم عـن الهـدى ، فانقلبت عندهم الموازين واختلطـت عليهـم الأمـور ، فـأصبح الضلال هـدى والباطل حقاً ، وهكذا أصحاب البدع والأهواء ، فإنهـم يحدثون البدع أولاً فإذا استقرت فى أذهانهم بحثوا لها عما يسندها من أدلـة لايعبأون بصحتها أو ضعفهـا ، أو من قالها ، وإن وجدوا مـايخالف تلك البـدع من أدلة صحيحة لووا أعناقها فحرفوها وبدلوها وزادواونقصوا فيها لتكـون حجة لهم لاعليهم. والسلامة أن يعافيك الله ممابتلاهم به .

(٧) قولهم : "المراد بـ"سترون ربكم" : ستعلمون ربكم أو تعـرفون ربكم ، ولذا قال : "لاتضامون" أى لاتشكون .

والجواب على ذلك :

أولاً : لاشك إن "ترى" تكون بصرية وتارة تكون قلبية ، وتارة تكون من رؤيا الحلم ، وغير ذلك . ولايخلـو الكلام من وجود قـرينة تخلـص المعنى المراد .

والقرينة فى الحديث قوله : "سترون ربكم كما ترون القمر".

وفى الـرواية الأخرى : "كمـا ترون الشمـس فى الظهيرة ليـس دونهـا سحاب" . فدل على أن المراد بها "ترى" البصرية(٢).

---

(١) انظر : رؤية الله تعالى ص٢٣٤،٢٣٥ .

(٢) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص٢١١ .

ثانياً : إن "ترى" العلمية تنصب مفعولين بخلاف البصرية .

قال ابن التين :

"... إن الرؤية بمعنى العلم تتعدى لمفعولين تقول : رأيت زيداً فقيهاً أى علمته ، فإن قلت : رأيت زيداً منطلقاً لم يفهم منه إلا رؤية البصر ، ويزيده تحقيقاً قوله فى الخبر : "إنكم سترون ربكم عياناً" لأن اقتران الرؤية بالعيان لايحتمل أن يكون بمعنى العلم"(١).

ثالثاً : قوله : "تضامون" . قال النووى : "بتشديد الميم وتخفيفها فمن شددها فتح التاء ومن خففها ضم التاء ، ومعنى المشددة : هل تضامون وتتلطفون فى التوصل إلى رؤيته ، ومعنى المخففة : هل يلحقكم ضيم وهو المشقة والتعب"(٢).

فتفسير عبد الجبار للضيم بمعنى الشك لايستقيم .

قال الإمام الدارمى رحمه الله :

"وهذا التفسير - أى تفسير "تضامون" بمعنى تشكون - مع مافيه من معاندة الرسول صلى الله عليه وسلم فهو محال خارج عن المعقول ، لأن الشك فى ربوبية الله زائل عن المؤمن والكافر يوم القيامة فكل مؤمن وكافر يومئذ يعلم أنه ربهم لايعتريهم فى ذلك شك فيقبل الله ذلك من المؤمنين ، ولايقبله من الكافرين ، ولايعذرهم بمعرفتهم ويقينهم به فى ذلك اليوم فما فضل المؤمن على الكافر يوم القيامة .. فى معرفة الرب؟ إذ مؤمنهم وكافرهم لايعتريه فى ربوبيته شك"(٣).

قال ابن حزم :

"ومحال أن تكون هذه الرؤية رؤية القلب لأن جميع العارفين به تعالى يرونه فى الدنيا بقلوبهم وكذلك الكفار فى الآخرة بلاشك"(٤).

---

(١) فتح البارى ٤٢٦/١٣ ، وانظر فى ذلك : النحو الوافى ١٤/٢-١٨ .

(٢) شرح النووى على مسلم ١٨/٣ .

(٣) رد الدارمى عثمان بن سعيد ضمن عقائد السلف ص٤١٤ .

(٤) الفصل فى الملل ٤/٣ .

وأما قول عبد الجبار :

"مانسب لعائشة إنها سمعت بأن القوم يقولون :بأن الله يرى ، فقالت : لقد قف شعرى مما قلتموه ، ودفعت ذلك بقوله تعالى : {لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار}(١).

يجاب عن ذلك بالآتى :

أولاً : ذكره لحديث عائشة الصحيح بصيغة التمريض "نسب" مخالف للقاعدة العلمية عند المحدثين ، فإنهم يوردون الأحاديث الصحيحة بصيغة الجزم(٢).

ثانياً : لقد حرف عبد الجبار رواية عائشة رضى الله عنها ليتسنى له الاستدلال بها على نفى الرؤية فى الآخرة .

والحديث كما رواه مسلم فى صحيحه بسنده إلى مسروق(٣)قال : كنت متكئاً عند عائشة فقالت : ياأبا عائشة ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية ، قلت : ماهن؟ قالت من زعم أن محمداً صلى الله عليه وسلم رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية ، قال وكنت متكئاً فجلست فقلت : ياأم المؤمنين أنظرينى ولاتعجلينى ألم يقل الله عز وجل {ولقد رآه بالأفق المبين}(٤)، {ولقد رآه نزلة أخرى}(٥). فقالت : أنا أول هذه الأمة سأل عن

---

(١) سورة الأنعام : آية ١٠٣

(٢) انظر : تدريب الراوى ١٢٠/١ .

(٣) مسروق :

هو مسروق بن الأجدع بن مالك الهمدانى الوادعى ، أبوعائشة ، الكوفى ، ثقة فقيه عابد ، مخضرم . يروى عن أبى ، وعمر ، وعائشة . وعنه الشعبى ، وإبراهيم النخعى ، وأبو وائل . مات سنة ٦٢هـ وقيل ٦٣هـ .

انظر : الطبقات الكبرى ٧٦/٦ ، تاريخ بغداد ٢٣٢/١٣ ، تذكرة الحفاظ ٤٦/١ ، سير أعلام النبلاء ٦٣/٤-٦٩ ، تهذيب التهذيب ١٠٩/١٠ ، تقريب التهذيب ٢٤٢/٢ .

(٤) سورة التكوير : آية ٢٣

(٥) سورة النجم : آية ١٣

ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "إنما هو جبريل لم أره على الصورة التى خلق عليها غير هاتين المرتين رأيته منهبطاً من السماء ساداً عظم خلقه مابين السماء إلى الأرض ، فقالت : أولم تسمع أن الله يقول : {لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير} ..."(١)الحديث .

ثالثاً : إن عائشة رضى الله عنها لم تنف رؤية الله فى الآخرة ، وإنما نفت أن يكون النبى صلى الله عليه وسلم قد رأى ربه فى الدنيا كما هو ظاهر من سياق الرواية.

ونفى عائشة رضى الله عنها لرؤية النبى صلى الله عليه وسلم لله سبحانه فى الدنيا بعينى رأسه هو القول الراجح عند أهل العلم وعليه جمهور أهل السنة ، وذلك لقوله صلى الله عليه وسلم : "تعلمواأنه لن يرى أحد منكم ربه عز وجل حتى يموت"(٢)، ولحديث أبى ذر رضى الله عنه "نور أنى أراه"(٣)(٤).

ولايلزم من ذلك عدم رؤيته فى الآخرة .

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان (١) ، باب معنى قول الله عز وجل : {ولقد رآه نزلة أخرى} (٧٧) برقم ١٧٧ ، ١٥٩/١ .
وأخرج البخارى نحوه مختصراً فى كتاب بدء الخلق (٥٩) ، باب إذا قال أحدكم آمين (٧) ، ٨٤،٨٣/٤ .
وبنحوه فى كتاب التفسير (٦٥) ، تفسير سورة ق (٥٣) ، باب (١) ، ٥٠/٦ .
وأخرجه مختصراً أيضاً فى كتاب التوحيد (٩٧) ، باب قول الله تعالى {عالم الغيب فلايظهر على غيبه أحداً} (٤) ، ١٦٦/٨ .

(٢) الحديث سبق تخريجه . انظر ص: ١٨٤

(٣) الحديث سبق تخريجه . انظر ص: ١٨٤

(٤) انظر : مجموع الفتاوى ٢٣٠/٢ ، رؤية الله تعالى ص٥٣،٥٤ .

(٣) **أفعال العباد :**

هذا موضوع له علاقة وصلة وثيقة بموضوع قضاء الله وقدره . وأول من يذكر عنه أنه تحدث فى قدر الله تعالى معبد الجهنى(١)، ثم تبنى قوله واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد(٢)، ودعوا الناس إلى ذلك(٣).

وقد توسعت المعتزلة بعد ذلك فى موضوع القدر حتى جعلوه أصلاً من أصولهم الخمسة وأسموه بالعدل ، وتمدحوا بالتسمية به .

وقد عرفوا العدل بأنه تعالى لايفعل القبيح ولايختاره ، ولايخل بما هو واجب عليه ، وأن أفعاله كلها حسنة(٤).

وقد زعموا أن العقل هو الذى قادهم إلى ذلك ودفعهم إليه .

وأما نصوص الكتاب والسنة فلادخل لها فى شأن العدل .

قال عبد الجبار :

"فأما الكلام فى العدل فالعقل يدل عليه ، وذلك لأنه تعالى إذا كان عالماً بالقبيح وغنياً عنه ، لأن الحاجة إنما تصح على من يشتهى ويتغذى

---

(١) معبد الجهنى :
هو معبد بن عبد الله بن عويمر ، وقيل:عكيم - الجهنى . البصرى . أول من قال بالقدر فى زمن الصحابة بالبصرة . وكان عالماً مع بدعته . صدوق فى الحديث . قتل سنة ٨٠هـ .
انظر : التاريخ الكبير للبخارى ٣٩٩/٧ ، الجرح والتعديل ٢٨٠/٨ ، المجروحين ٣٦،٣٥/٣ ، ميزان الاعتدال ١٤١/٤ ، سير أعلام النبلاء ١٨٥/٤-١٨٧ ، تقريب التهذيب ٢٦٢/٢ .

(٢) عمرو بن عبيد : هو عمرو بن عبيد بن باب ، التميمى مولاهم ، أبو عثمان البصرى ، شيخ المعتزلة فى عصره ومفتيها ، وأحد الزهاد . كان داعية إلى بدعته . واتهمه جماعة . مات سنة ١٤٣هـ وقيل ١٤٤هـ .
انظر : المجروحين ٦٩/٢-٧١ ، تاريخ بغداد ١٦٢/١٢-١٧٨ ، ميزان الاعتدال ٢٧٣/٣-٢٨٠ ، سير أعلام النبلاء ١٠٤/٦-١٠٦ ، تهذيب التهذيب ٣٠/٨ ، تقريب التهذيب ٧٤/٢ .

(٣) انظر : الفرق بين الفرق ص١١٩ .

(٤) انظر : شرح الأصول ص١٣٢،٣٠١ .

وتصح عليه الزيادة والنقصان ، ومن هذا حاله لايجوز أن يختار القبيح ، ولولا ذلك لما حصل الثقة بكلامه وقوله"(١).

وقد دفعهم ذلك إلى نفى قدر الله تعالى وعدم إثباته .

قال عبد الجبار :

"والذين يثبتون القدر هم المجبرة(٢)، فأما نحن فإنا ننفيه وننزه الله تعالى عن أن تكون الأفعال بقضائه وقدره"(٣).

وماورد من أخبار الآحاد دالاً على ذلك ضرب من ضروب الخطأ ، الذى يعلم بروايته أنه ارتكب عظيماً(٤).

والقول بأن الله لايفعل القبيح ولايختاره وهو ماعرفوا به العدل هى القاعدة التى انطلقوا منها فى نفيهم لخلق أفعال العباد وتقديرها وإرادتها من قبل الله تعالى زعماً منهم بأن ذلك تنزيه لله سبحانه(٥).

وهذه مقدمة نخلص من خلالها إلى عرض موقف المعتزلة من خلق أفعال العباد وإرادتها .

أولا : **خلق أفعال العباد** .

لقد أجمعت المعتزلة على أن أفعال العباد ليست من خلق الله تعالى(٦). طاعات كانت أم معاصى . وحجتهم أنها من القبائح والله لايفعل القبيح(٧).

---

(١) فضل الاعتزال ص١٤١ ، وانظر : المحيط بالتكليف ص٢٣٤،٢٥٩ .

(٢) المجبرة : أو الجبرية :مشتقة من الجبر ، وهو نفى الفعل حقيقة عن العبد وإضافته إلى الرب تعالى . وهم أصناف : فالجبرية الخالصة هى التى لاتثبت للعبد فعلاً ولاقدرة على الفعل أصلاً . والمتوسطة : هى التى تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة . انظر : الملل والنحل ٨٥/١ ، التعريفات ص٤٠ .

(٣) شرح الأصول ص٧٧٦ .

(٤) انظر : فضل الاعتزال ص١٩٤ .

(٥) انظر : شرح الأصول ص٧٧٦ .

(٦) انظر : باب ذكر المعتزلة ص٦ ، الفرق بين الفرق ص١١٤-١١٥ .

(٧) انظر : المحيط بالتكليف ص٢٨٧ .

وهـى حجة عقلية إذ السمع لايصح أن يكون دليلاً فى هـذا المقام(١).

وقـد يعترض معترض بأن المعـاصى قبائح ولكن مـابال الطاعات تطوى من أن تكون خلقاً لله بهذه الحجة العقلية؟

يجيب على ذلك عبد الجبار بقوله :

"قد صح أن أفعال العباد قبائح ، وقد صح بما تقدم فى دليل العدل أنه تعـالى لايختار فعل القبيح ، فيجـب أن يكون حادثاً مـن جهته ، وإذا لم يكن بد من محدث له ،فليس إلا أن العبد هو الذى يحدثه ... ولافرق بين ذلك فى الأفعـال الحسنـة أو القبيحة فـالجميع لايخلقـه الله ، لأن الأفعـال الحسنـة قد يصح وجودها على وجه فتقبح وعلى وجه آخر فتحسن"(٢).

ومن ثم لايليق أن يوصف الله سبحانه وتعالى بأنه خالق للخير والشر والذين يقولون ذلك هم الذين قل تمييزهم(٣).

وقد أيدوا دليلهم العقلى بشبه عقلية ونقلية :

الشبه العقلية :

الأولى :لـو كـانت خلقاً للـه تعـالى لم تكن عملاً للعبـاد ، تقـف عليه أحوالهـم ، وتوجد وتنتهـى بحسـب اختيـارهم وإرادتهـم لاكـالألوان والصور(٤).

الثـانية : وجود الأمـر ببعضهـا والنهى عن بعض ، والمدح على بعـض والذم على بعض ، والثواب على بعض والعقاب على بعـض . فلو كانت خلقاً للـه مـاحسن شىء مما سبق . فـإثبات خلـق الله لهـا يوجب نفـى الأحكام السابقة ، ويلزم من ذلك أن يكون الله ظالماً جائراً(٥).

---

(١) انظر : شرح الأصول ص٣٥٤-٣٥٥ .

(٢) المحيط بالتكليف ص٣٦٦-٣٦٧ .

(٣) انظر : فضل الاعتزال ص١٧٩ .

(٤) انظـر : شـرح الأصول ص٧٧١،٧٧٨-٧٧٩ ، المحيـط بالتكليـف ص٣٤٠ ، شرح قصيدة الصاحب بن عباد ص٦٠-٦١ .

(٥) انظـر : فضل الاعتزال ص١٦٩-١٧٠ ، شـرح الأصول ص٣٤٥ ، المحيـط بالتكليف ص٣٤٠ ، شرح قصيدة الصاحب ص٦١ .

الشبه النقلية :

وهـى تذكر على أنها موافقـة لأدلة العقل السابقة ومقـررة لها ، لالأنها تفرد للاستدلال بها ، لأن ذلك متعذر[١].

(١) {ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت}[٢].

فالباطل المتفاوت ليس من خلق الله .

(٢) {صنع الله الذى أتقن كل شىء}[٣].

الكفـر والظلم وغيرهما ليسـت من خلقه ، لأنها ليسـت بمتقنة ولامحكمة ولاحسنة .

(٣) {وماأصابك من سيئة فمن نفسك}[٤].

{قل هو من عند أنفسكم}[٥].

{حسداً من عند أنفسهم}[٦].

{وماهو من عند الله}[٧].

فهـذه الأمور قد لحقت العبـد من جهته لامن جهة اللـه فـدل على أنها ليست من خلقه .

(٤) قـوله تعـالى : "تفعلـون" ، "تصنعـون" ، "وتعلمـون"، "وتكسبـون" ، و"تخلقون إفكاً"[٨].

وفى ذلك إضافة الفعل إلى العبد بأقوى وجوه الإضافة .

(٥) {كيف تكفرون بالله}[٩].

---

(١) انظر : شرح الأصول ص٣٥٤-٣٥٥ .

(٢) سورة الملك : آية ٣

(٣) سورة النمل : آية ٨٨

(٤) سورة النساء : آية ٧٩

(٥) سورة آل عمران : آية ١٦٥

(٦) سورة البقرة : آية ١٠٩

(٧) سورة آل عمران : آية ٧٨

(٨) سورة العنكبوت : آية ١٧

(٩) سورة البقرة : آية ٢٨

{ومامنع الناس أن يؤمنوا}(١).

وفى هذا الزام للعبد وتوبيخ وذم له ، وتقريع له بالنعم وعدها عليه(٢).

(٦) {إن الله يأمر بالعدل والإحسان}(٣).

{وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لايأمر بالفحشاء}(٤).

(٧) {وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون}(٥).

فخلقهم للعبادة ولم يخلقهم للمعصية .

(٨) {وكل شىء فعلوه فى الزبر}(٦).

فقال : فعلوه ولم يقل فعله . وقال فى فعله : {الله خالق كل شىء}(٧)، أى كل شىء يكون ولم يقل خلق فعلهم(٨).

ثانيا : إرادة الأفعال .

قسموا الإرادة إلى قسمين :

(١) إرادة حتم وجبر ، كخلق السموات والجبال .. الخ

(٢) إرادة أمر ، ومعها تمكين كالأمر بالبر والإحسان .

فمكن الله عباده لفعل ذلك بما أعطاهم من استطاعات وآلات للاختيار ولم يلزمهم بالطاعات جبراً ، ولاصرفهم عن المعاصى قسراً(٩).

---

(١) سورة الكهف : آية ٥٥

(٢) انظر : المحيط بالتكليف ص٣٧٩ .

(٣) سورة النحل : آية ٩٠

(٤) سورة الأعراف : آية ٢٨

(٥) سورة الذاريات : آية ٥٦

(٦) سورة القمر : آية ٥٢

(٧) سورة الزمر : آية ٦٢

(٨) انظر : رسائل العدل ص٧١-٧٢ .

(٩) انظر : رسائل العدل ص١٨٣-١٨٥ ، المحيط بالتكليف ص٢٨٧ .

ثم فصلوا فى إرادة الله لتلك الأفعال ، فإن كانت طاعات فإنه يريدها ويعين عليها ، وإن كانت معاصى فإنه لايريدها ولايشاؤها ولايعين عليها ، وإن كانت مباحات أو أفعال غير المكلفين ، فهو لايريدها ولايكرهها(١).

ودليلهم العقلى على ذلك :

أما الطاعات فلأن كراهة الحسن قبيحة ، وأما المعاصى فلأن إرادة القبيح قبيحة ، وأما المباحات وأفعال غير المكلفين فلافائدةمن إرادتها أو كرهها(٢).

وأيدوا ذلك بشبه عقلية ونقلية :

الشبه العقلية :

(١) لو أرادها ماكان فعلها خطأ ولامعصية ، لأن المعقول من الطاعة فعل ماأراده المطاع ، والمعصية فعل ماكرهه المعصى(٣).

(٢) لايجوز أن يكون الله مريداً للمعاصى ، لأنه وجب حينئذ أن يكون محباً لها راضياً عنها ، لأن الإرادة والمحبة والرضا من باب واحد(٤).

(٣) لو كان يريدها لكان العاصى معذوراً عند الله ، لأنه فعل مايريده الله ، موافقاً لقضائه وقدره ، ولايوجد حينئذ عاصى على الأرض لأن الكل يسعى بقضائه وقدره .

والقول بأنه خلق قوماً للجنة وقوماً للنار كذب وضلال(٥).

(٤) لو كان الله مريداً لها مانهى عنها(٦).

(٥) لايمكن أن يقضى على خلقه بمعصية ، ثم يعذبهم عليها ، بل ذلك محال وباطل .

---

(١) انظر : شرح الأصول ص٧٧٨-٧٧٩ ، المحيط بالتكليف ص١٠٩ .
(٢) انظر : المحيط بالتكليف ص١٠٩،٢٨٨ .
(٣) انظر : شرح قصيدة الصاحب ص٦٢-٦٤ .
(٤) انظر : شرح الأصول ص٤٦٤،٧٧١ ، المحيط بالتكليف ص٤٢٠ .
(٥) انظر : رسائل العدل ص٩١ .
(٦) انظر : شرح الأصول ص٤٦٣ .

ولكان الطائع والعاصى يجريان فى طاعته ، ولم يكن المذنب أولى بالعقوبة من المهتدى (١).

وأما الشبه النقلية :

(١) قوله :{وماالله يريد ظلماً للعالمين}(٢).
وقوله : {وماالله يريد ظلماً للعباد}(٣).
وهذا نص فى موضع الخلاف .

(٢) قوله : {كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً}(٤).
فيستحيل أن يكون مريداً لشىء كارهاً له (٥).

(٣) قوله : {والله لايحب الفساد}(٦).
{ولا يرضى لعباده الكفر}(٧)(٨).

(٤) قوله : {سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ماأشركنا ولاآباؤنا ولاحرمنا من شىء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون}(٩).
فقد أكذب الله المشركين فى قولهم ، ونفى عن نفسه مانسبوه إليه بظلمهم (١٠).

---

(١) انظر : رسائل العدل ص١٠٨،١٨٥ .
(٢) سورة آل عمران : آية ١٠٨
(٣) سورة غافرة : آية ٣١
(٤) سورة الإسراء : آية ٣٨
(٥) انظر : شرح قصيدة الصاحب ص٦٢-٦٤ .
(٦) سورة البقرة : آية ٢٠٥
(٧) سورة الزمر : آية ٧
(٨) انظر : المحيط بالتكليف ص٢٨٦ .
(٩) سورة الأنعام : آية ١٤٨
(١٠) انظر : رسائل العدل ص٧١،٧٢ .

وأماموقفهم من أدلة الإثبات ، مثاله حديث احتجاج آدم وموسى عليهما السلام[١]، فقد ردوا عليه بالآتى :

(١) هذا يوجب أن موسى كان قدرياً .

(٢) يوجب فى كل كافر ومشرك وفاجر أن لايلام لأن ماآتاه كان مكتوباً عليه .

وبالتالى من تعلق به وبأمثاله من الأحاديث فهو جاهل ويجب أن يلصق به كل ذم ، وكل لقب مذموم[٢].

وجوب الإيمان بقدر الله تعالى والجواب على شبه المعتزلة :

الإيمان بقدر الله واجب ، وهو أحد أركان الإيمان الستة التى لايتصف المؤمن بالإيمان إلا بتحقيقها كما قال صلى الله عليه وسلم : "الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره"[٣].

والإيمان به من تمام التوحيد ، كما قال ابن عباس : "هو نظام التوحيد" ، فمن وحد الله وآمن بالقدر تم توحيده ، ومن وحد الله وكذب بالقدر نقض توحيده[٤].

وهو سر الله فى خلقه لم يطلع عليه ملك مقرب ولانبى مرسل ولاعبد من عباد الله ، فالله أوجد وأفنى ، وأفقر وأغنى ، وأمات وأحيا ، وأضل وهدى ، وهو على كل شىء قدير ، وبكل أمر بصير[٥].

وأهل السنة والجماعة وحزب الله ورسوله هم أسعد الناس فى مسألة القدر من جميع الطوائف .

---

(١) يأتى الحديث والكلام عنه .

(٢) انظر : فضل الإعتزال ص١٦٨ .

(٣) انظر : شرح لمعة الاعتقاد ص٥١ .
والحديث سبق تخريجه انظر : ص: ٩١

(٤) انظر : مجموع الفتاوى ١١٣/٣ .

(٥) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص٢٥٠ .

فإنهم يثبتون قدرة الله على جميع الموجودات من الأعيان والأفعال ، ويثبتون مشيئته العامة وينزهونه أن يكون فى ملكه مالايقدر عليه ولاهو واقع تحت مشيئته ، ويثبتون القدر السابق ، وأن العباد يعملون ماقدره الله وقضاه وفرغ منه ، وأنهم لايشاءون إلا أن يشاء الله ، ولايفعلون إلا من بعد مشيئته ، وأنه ماشاء كان ومالم يشأ لم يكن ، ويؤمنون بأن من يهده الله فلامضل له ، ومن يضلل فلاهادى له(١).

ولقد تضافرت الأدلة من الكتاب والسنة على إثبات قدر الله تعالى وهى تؤيد ماذهب إليه أهل السنة والجماعة . من ذلك :

(١) قال سبحانه وتعالى :

{وخلق كل شىء فقدره تقديراً}(٢).

وقال : {إنا كل شىء خلقناه بقدر}(٣).

وقال : {وكان أمر الله قدراً مقدوراً}(٤).

وقال : {الذى خلق فسوى.والذى قدر فهدى}(٥).

روى مسلم بسنده إلى يحيى بن يعمر(٦)قال :

---

(١) شفاء العليل ص١١٤-١١٥ بتصرف .
وانظر : شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٥٣٨/٢ ، جامع الرسائل ١٢٩/١ ، المنتقى من منهاج الاعتدال ص٥٠ ، شرح العقيدة الطحاوية ص٢٥٠ .

(٢) سورة الفرقان : آية ٢

(٣) سورة القمر : آية ٤٩

(٤) سورة الأحزاب : ٣٨

(٥) سورة الأعلى : آية ٢-٣

(٦) يحي بن يعمر :
هو يحي بن يعمر أبو سليمان العدوانى البصرى ، نزيل مرو وقاضيها ، ثقة فصيح وكان يرسل ، روى عن أبى ذر ، وعائشة وأبى هريرة . وعنه قتادة ، وعطاء الخراسانى ، وآخرون . مات سنة ١١٥هـ . وقيل غير ذلك.
انظر : الجرح والتعديل ١٩٦/٩ ، تذكرة الحفاظ ٧١/١ ، سير أعلام النبلاء ٤٤١/٤-٤٤٣ ، تهذيب التهذيب ١٧١/٤ ، تقريب التهذيب ٣٦١/٢ .

كـان أول من قال فى القدر بالبصـرة معبد الجهنى فـانطلقت أنا وحميد بن عبـد الـرحمن الحميرى (١)حاجين أو معتمـرين فقلنـا لو لقينـا أحداً مـن أصحـاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألناه عما يقـول هؤلاء فى القدر فوفق لنا عبد الله بن عمر بن الخطاب داخلاً المسجد فاكتنفته(٢)أنا وصاحبى أحدنا عـن يمينه والآخر عن شماله ، فظننت أن صاحبى سيكـل الكلام إلى ، فقلـت : أبا عبـد الـرحمن إنه قـد ظهـر قبلنـا ناس يقـرؤون القـرآن ويتقفرون (٣)العلم - وذكر من شأنهم - وأنهم يزعمون أن لاقـدر وأن الأمر أنف ، قـال : فإذا لقيت أولئـك فأخبرهم أنى برىء منهـم وأنهـم براء منى ، والـذى يحلـف به عبد الله بن عمـر لـو أن لأحدهم مثـل أحد ذهبـاً فأنفقه ماقبل الله منه حتى يؤمن بالقـدر ، ثم قال : حدثنى أبى عمـر بن الخطـاب ، قال : بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لايرى عليـه أثر السفر ولايعرفه منـا أحد حتى جلس إلى النبى صلى اللـه عليه وسلم فأسنـد ركبتيه إلى ركبتيه ووضـع كفيه على فخذيه ، وقـال : يامحمد أخبرنى عـن الإسلام فقال رسول اللـه صلى الله عليه وسلم : الإسلام أن تشهـد أن لاإلـه إلا اللـه وأن محمداً رسـول اللـه وتقيم الصلاة وتؤتى الـزكاة وتصـوم رمضـان وتحج البيـت إن استطعـت إليـه سبيلاً . قال صـدقت، قال : فعجبنا له يسـأله ويصـدقه ، قال فأخبرنى عن الإيمان . قال : أن تؤمـن بالله وملائكته وكتبـه ورسلـه واليوم

---

(١) حميد بن عبد الرحمن :
هـو حميد بن عبد الرحمن الحميرى البصـرى ، ثقة فقيـه . روى عـن أبى هريرة وأبى بكر الثقفى وابن عمر . وعنه عبد الله بن بريدة ، ومحمد بن سيرين وقتادة. انظـر :الجرح والتعـديل ٢٢٥/٣ ، سير أعلام النبلاء ٢٩٣/٤-٢٩٤ ، تهـذيب التهذيب ٤٦/٣ ، تقريب التهذيب ٢٠٣/١ .

(٢) اكتنفته أنا وصاحبى : أى أحطنا به من جانبيه .
النهاية فى غريب الحديث ٢٠٥/٤ .

(٣) يتقفرون العلم : أى يتطلبونه . المرجع السابق ٩٠/٤ .

الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره . قال صدقت . قال فأخبرنى عن الإحسان . قال أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك . قال : فأخبرنى عن الساعة . قال : ماالمسئول عنها بأعلم من السائل ، قال : فأخبرنى عن أمارتها قال : أن تلد الأمة ربتها وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون فى البنيان . قال : ثم انطلق فلبثت ملياً ثم قال : ياعمر أتدرى من السائل؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم"(١).

والأحاديث فى إثبات القدر كثيرة جداً فى الصحيحين وغيرها عن جماعة من الصحابة(٢).

والإيمان بالقدر لايتم إلا بأربعة أمور :

الأول : الإيمان بأن الله عالم بكل مايكون جملة وتفصيلاً بعلم سابق ، لقوله تعالى : {ألم تعلم أن الله يعلم مافى السماء والأرض إن ذلك فى كتاب إن ذلك على الله يسير}(٣).

الثانى : إن الله كتب فى اللوح المحفوظ مقادير كل شىء لقوله تعالى {ماأصاب من مصيبة فى الأرض ولافى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها}(٤). أى قبل أن نخلق الخليقة .

ولقوله صلى الله عليه وسلم : "كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة قال : وعرشه على الماء"(٥).

---

(١) الحديث سبق تخريجه انظر ص : ٩١

(٢) انظر : صحيح البخارى ، كتاب القدر (٨٢) ، باب (١) ، باب جف القلم على علم الله (٢) ٢١٠/٧ ، وباب كان أمر الله قدراً مقدوراً (٤) ، ٢١١/١ .
صحيح مسلم ، كتاب القدر (٤٦) ، باب كيفية الخلق الآدمى (١) ، حديث رقم ٢٦٤٣ ، ٢٠٣٦/٤ ، وحديث رقم ٢٦٤٧ ، ٢٠٣٩/٤ ، وحديث رقم ٢٦٤٨ ، ٢٠٤٠/٤ ، وباب حجاج آدم وموسى عليهما السلام (٢) ، حديث رقم ٢٦٥٢ ، ٢٠٤٢/٤ ، حديث رقم ٢٦٥٣ ، ٢٠٤٤/٤ ، وباب كل شىء بقدر (٤) ، حديث رقم ٢٦٥٥ ، ٢٠٤٥/٤ .

(٣) سورة الحج : آية ٧٠

(٤) سورة الحديد : آية ٢٢

(٥) أخرجه مسلم فى صحيحه من حديث عبد الله بن عمرو فى كتاب القدر (٤٦) ، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام (٢) برقم ٢٦٥٣ ، ٢٠٤٤/٤ .

الثالث : إنه لايكون شيء فى السموات والأرض إلا بإرادة الله ومشيئته الدائرة بين الرحمة والحكمة ، يهدى من يشاء برحمته ، ويضل من شاء بحكمته ، لايسأل عما يفعل لكمال حكمته وسلطانه وهم يسألون. وماوقع من ذلك فهو مطابق لعلم الله السابق ولما كتبه فى اللوح المحفوظ لقوله تعالى {إنا كل شيء خلقناه بقدر}(١)، {فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد الله أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً}(٢). فأثبت وقوع الهداية والضلال بإرادته .

الرابع : إن كل شيء فى السموات والأرض مخلوق لله تعالى لاخالق غيره ولارب سواه ، لقوله تعالى : {وخلق كل شيء فقدره تقديراً}(٣). وقال على لسان إبراهيم : {والله خلقكم وماتعملون}(٤)(٥).

وقد تناول العلماء من أهل السنة شبه المعتزلة السابقة فى موضوع القدر وأفعال العباد ففندوها وأوضحوا بطلانها لأنها لم تبن على نصوص الشرع وإنما بنيت على العقول القاصرة العاجزة،فجاءت مخالفة للنصوص ، مناهضة لها ، ويتضح ذلك فيما يلى :

قولهم فى تعريف العدل : إن الله لايفعل القبيح ولايختاره ولايخل بما هوواجب عليه ، وإن أفعاله كلها حسنة .

وعلى ذلك دل العقل كما يرون .

---

(١) سورة القمر : آية ٤٩
(٢) سورة الأنعام : آية ١٢٥
(٣) سورة الفرقان : آية ٢
(٤) سورة الصافات : آية ٩٦
(٥) شرح لمعة الاعتقاد ص٥١-٥٣ بتصرف .
وانظر : شفاء العليل ص٦٦ .

إن المعتزلة لما خاضوا بعقولهم فى شرع الله تعالى ، بعيدة عن هدى النصوص ، قذفت لهم تلك العقول بما يسمى بالتحسين والتقبيح العقلى ووجوب الأصلح على الله الذى كان علته وسببه قياسهم لأفعال الله سبحانه على أفعال العباد ، فحسنوا منه مايحسن منهم ، وقبحوا منه مايقبح منهم وأوجبوا عليه مايجب عليهم وحرموا عليه مايحرم عليهم وسموا ذلك عدلاً ، وماذلك إلا تشبيه لله بخلقه فى أفعاله . فهم فى الحقيقة مشبهة الأفعال .

والله سبحانه لايقاس بنا فى أفعاله ، فليس ماوجب أو حرم علينا يجب ويحرم عليه ، وليس ماحسن أو قبح منا يحسن أو يقبح منه(١).

فهو سبحانه منزه عن فعل القبائح ، لايفعل السوء ولاالسيئات ، مع أنه سبحانه خالق كل شىء : أفعال العباد وغيرها . والعبد إذا فعل القبيح المنهى عنه كان قد فعل سوءاً وظلماً وقبيحاً وشراً ، والرب قد جعله فاعلاً لذلك ، وذلك منه سبحانه عدل وحكمة وصواب ووضع للأشياء فى مواضعها ، فخلقه سبحانه لما فيه نقص أو عيب للحكمة التى خلقه لها هو محمود عليه ، وهو منه عدل وحكمة وصواب وإن كان فى المخلوق عيباً ، ومثل ذلك موجود فى مفعول المخلوقين ، فإن الصانع إذا أخذ الخشبة المعوجة والحجر الردىء واللبنة الناقصة فوضعها فى موضع يليق بها ويناسبها كان ذلك منه عدلاً ، واستقامة وصواباً وهو محمود ، وإن كان فى تلك عوج وعيب هى به مذمومة ، ومن أخذ الخبائث فجعلها فى المحل الذى يليق بها كان ذلك حكمة وعدلاً ، وإنما السفه والظلم أن يضعها فى غير موضعها ، ومن وضع العمامة على الرأس والنعلين فى الرجلين فقد وضع كل شىء موضعه ، ولم يظلم النعلين إذ هذا محلهما المناسب لهما ، فهو سبحانه لايضع شيئاً إلا فى موضعه ، فلايكون إلا عدلاً ، ولايفعل إلا خيراً ، فلايكون إلا محسناً جواداً رحيماً ، وهو سبحانه له الخلق والأمر(٢).

---

(١) انظر : المنتقى من منهاج الاعتدال ص٤٨ ، مفتاح دار السعادة ص٤٩-٥٢ ، شرح العقيدة الطحاوية ص٤٤٨ .

(٢) جامع الرسائل ١/١٣٠ بتصرف .

والله يختص بحكمة لايشاركه فيها غيره ، ولهذا يحسن منه مايقبح من المخلوقين لانتفاء تلك الحكمة فى حقهم ، مثال لذلك يحسن منه مدح نفسه والثناء عليها ويقبح من أكثر خلقه ذلك . ويليق به الكبرياء والعظمة ويقبح ذلك من خلقه كما جاء عنه صلى الله عليه وسلم إنه حكى عن الله تعالى أنه قال : "العز إزاره ، والكبرياء رداؤه . فمن ينازعنى عذبته"(١).

كما يحسن منه إماتة خلقه وابتلاؤهم وامتحانهم بأنواع المحن ويقبح ذلك من الخلق ، فليس بين الله وخلقه جامع يوجب أن يحسن منه ماحسن منهم ويقبح منه ماقبح منهم(٢).

والعقول وإن كانت تقف على حسن بعض الأمور وقبحها فى الجملة فهى قاصرة عن اكتساب المعقولات بأسرها عاجزة عن الاهتداء إلى المصلحة الكلية الشاملة لنوع الإنسان تفصيلاً ، فوجب من حيث الحكمة أن يكون بين الناس شرع يحملهم على الإيمان بالغيب جملة ويهديهم إلى مصالح معاشهم ومعادهم تفصيلاً ، فيحملهم على التوجه إلى الخير المحض والإعراض عن الشر المحض استبقاء لنوعهم واستدامة لنظام العالم(٣).

وأما إيجاب شىء على الله أو تحريمه عليه ، فإن جمهور العلماء ذهبوا إلى أنه سبحانه إنما أمر عباده بما فيه صلاحهم ونهاهم وحذرهم عما فيه فسادهم ، وأرسل لهم الرسل للمصلحة العامة ، وإن كان فى إرسالهم ضرر على بعض الناس ، ففيه حكم ، وإن كان فى بعض مايخلفه ضرر كالذنوب ، فلابد من وجود الحكمة فى ذلك والمصلحة التى لأجلها خلقه سبحانه(٤).

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه من حديث أبى سعيد وأبى هريرة ، كتاب البر والصلة (٤٥) ، باب تحريم الكبر (٣٨) ، برقم ٢٦٢٠ ، ٢٠٢٣/٤ .

(٢) انظر : لوامع الأنوار ٣٣٣/١ .

(٣) انظر : مفتاح دار السعادة ١١٨،١١٧،٥٦/٢ .

(٤) انظر : المنتقى من منهاج الاعتدال ص٥٣ .

والله سبحانه قد يوجب على نفسه ويحرم بعض الأمور كقوله سبحانه : {كتب ربكم على نفسه الرحمة}(١)، وقوله : {وكان حقاً علينا نصر المؤمنين}(٢)، وفى الحديث : "ياعبادى إنى حرمت الظلم على نفسى"(٣)، وهو لايخل بما أوجبه أو حرمه على نفسه ، أما أن يوجب أو يحرم عليه الخلق بعقولهم فلا(٤).

يقول شيخ الإسلام رحمه الله :

"وأما الإيجاب عليه سبحانه وتعالى ، والتحريم بالقياس على خلقه ، فهذا قول القدرية(٥)، وهو قول مبتدع مخالف لصحيح المنقول وصريح المعقول ، وأهل السنة متفقون على أنه سبحانه خالق كل شىء ومليكه ، وأن ماشاء كان ومالم يشأ لم يكن ، وأن العباد لايوجبون عليه شيئاً ، ولهذا كان من قال من أهل السنة بالوجوب ، قال : إنه كتب على نفسه ، وحرم على نفسه ، لاأن العبد نفسه يستحق على الله شيئاً ، كما يكون للمخلوق على المخلوق ، فإن الله هو المنعم على العباد بكل خير ، فهو الخالق لهم ، وهو المرسل إليهم الرسل ، وهو الميسر لهم الإيمان ، والعمل الصالح ، ومن توهم من القدرية والمعتزلةونحوهم أنهم يستحقون عليه من جنس مايستحقه الأجير على من استأجره فهو جاهل فى ذلك.

---

(١) سورة الأنعام : آية ٥٤

(٢) سورة الروم : آية ٤٧

(٣) جزء من حديث أخرجه مسلم فى صحيحه من حديث أبى ذر رضى الله عنه فى كتاب البر والصلة (٤٥) ، باب تحريم الظلم (١٥) ، برقم ٢٥٧٧ ، ١٩٩٤/٤ .

(٤) انظر : اقتضاء الصراط المستقيم ٧٧٥/٢-٧٧٦ ، المنتقى من منهاج الاعتدال ص٤٩،٥٠ .

(٥) القدرية :
هم الذين كانوا يخوضون فى القدر ويذهبون إلى إنكاره ، ويزعمون أن كل عبد خالق لفعله ، ولايرون الكفر والمعاصى بتقدير الله .
انظر : التعريفات ص٩٢ ، منهاج السنة النبوية ٩/١ الهامش .

وإذا كان كذلك لم تكن الوسيلة إليه إلا بما من به من فضله وإحسانه ، والحق الذى لعباده هو من فضله وإحسانه ، ليس من باب المعاوضة ولامن باب ماأوجبه غيره عليه ، فإنه سبحانه هو يتعالى عن ذلك"(١).

فالله لايجب عليه فعل الأصلح والأنفع لعباده خلافاً للمعتزلة ، لأنه يلزم من قولهم لوازم فاسدة مثل :

(١) إن القربات من النوافل صلاح ، فلو كان الصلاح واجباً ، لوجبت وجوب الفرائض .

(٢) إن خلود أهل النار فيها يجب أن يكون صلاحاً لهم والواقع خلافه .

(٣) إن عدم خلق إبليس وجنوده أصلح للخلق وأنفع وقد خلقه البارى .

والأمثلة على ذلك كثيرة جداً(٢).

نخلص من هذا إلى الإجابة عن شبه المعتزلة حول خلق الأفعال وإرادتها :

أولاً : خلق أفعال العباد .

زعمهم إن الله منزه أن يكون خالقاً لأفعال العباد ، وإنماهم المحدثون لها .

الذى عليه أهل السنة والجماعة إن أفعال العباد خيرها وشرها ، طاعاتها ومعاصيها ، مخلوقة لله تعالى ، فهو سبحانه خالقهم وخالق حركاتهم وعباداتهم وإراداتهم ، منفرد بخلق ذلك ، لاخالق له سواه(٣).

وقد نقل الإمام اللالكائى رحمه الله إجماع الصحابة والتابعين والخالفين لهم من علما الأمة على أن أفعال العباد كلها مخلوقة لله عز وجل طاعاتها ومعاصيها(٤).

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ٧٧٧/٢ .

(٢) انظر : لوامع الأنوار ٣٢٩/١-٣٣٢ .

(٣) انظر : مجموع الفتاوى ١١٥/٢-١١٦ ، المنتقى من منهاج الاعتدال ص٥٢ ، شرح العقيدة الطحاوية ص٢٤٩،٤٣٧ .

(٤) انظر : شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٥٣٤/٢ .

وهـذا الـذى دلت عليه الأدلـة مـن الكتاب والسنـة ، وأقـوال سلفنا الصالح رضوان الله عليهم . وهذا طرف من ذلك :

(١) قال تعالى :

{الله خالق كل شىء وهو على كل شىء وكيل}(١).

وهـذا على عمـومه لايخرج ولايستثنى منه شـىء مــن العـالم ، أعيـانه وأفعـاله وحركـاته وسكناته ، وليـس مخصوصاً بذاته وصفـاته ، فـإنه الخالق بذاته وصفاته وماسواه مخلوق له(٢).

قـال البيهقـى رحمه الله حول قـوله تعـالى : {أم جعلـوا للـه شركاء خلقـوا كخلقه فتشابه الخلـق عليهم ، قل اللـه خالـق كل شىء}(٣). قال : "فنفـى أن يكون خالق غيره ، ونفى أن يكون شىء سـواه غير مخلوق ، فلو كانت الأفعال غير مخلوقة لكان الله سبحانه خالق بعض الأشياء دون جميعها وهـذا خلاف الآية ، ومعلوم أن الأفعـال أكثر من الأعيـان ، فلو كان الله خالـق الأعيـان والناس خالقـى الأفعال لكان خلق النـاس أكثر مـن خلقه ، ولكانوا أتم قوة منه وأولى بصفة المدح من ربهم سبحانه"(٤).

(٢) قوله تعالى :

{والله جعل لكم مما خلق ظلالاً وجعل لكم من الجبـال أكناناً وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم}(٥).

أخبر سبحـانه أنه جعل السرابيل ، وهى الدروع والثيـاب المصنوعة ، ومـادتها لاتسمـى سرابيل إلا بعـد أن تحيلها صنعة الآدميين وعملهـم ، فـإذا كانت مجعولة لله فهى مخلـوقة لـه بجملتهـا ، صورتهـا ومـادتها وهيـآتها(٦).

---

(١) سورة الزمر : آية ٦٢

(٢) شفاء العليل ص١١٧ بتصرف .

(٣) سورة الرعد : آية ١٦

(٤) الاعتقاد ص٩١ .

(٥) سورة النحل : آية ٨١

(٦) شفاء العليل ص١٢٠ بتصرف .

(٣) قوله تعالى :

{وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون . وخلقنا لهم من مثله مايركبون}(١).

فأخبر سبحانه أنه خالق الفلك المصنوع للعباد(٢).

(٤) قوله تعالى :

{أتعبدون ماتنحتون.والله خلقكم وماتعملون}(٣).

"ما" موصولة ، أى والله خلقكم وخلق معبوداتكم التى عملتموها بأيديكم ، فهى مخلوقة له وليست شريكة معه .

فأخبر أنه خلق معمولهم وقد حله عملهم وصنعهم ، ولايقال المراد مادته، فإن مادته غير معمولة لهم ، وإنما يصير معمولاً بعد عملهم(٤).

(٥) قوله تعالى :

{وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور.ألا يعلم من خلق}(٥).

فأخبر أن قولهم وسرهم وجهرهم خلقه ، وهو بجميع ذلك عليم(٦).

(٦) قوله تعالى : {وأنه هو أضحك وأبكى}، {وأنه هو أمات وأحيا}(٧).

قال البيهقى : "فكما كان مميتاً محيياً بأن خلق الموت والحياة كان مضحكاً مبكياً ، بأن خلق الضحك والبكاء ، وقد يضحك الكافر سروراً بقتل المسلمين وهو منه كفر ، وقد يبكى حزناً لظهور المسلمين وهو منه كفر ، فثبت أن الأفعال كلها خيرها وشرها صادرة عن خلقه وإحداثه إياها"(٨).

---

(١) سورة يس : آية ٤١-٤٢
(٢) المرجع السابق ص١٢٠ .
(٣) سورة الصافات : آية ٩٥-٩٦
(٤) المرجع نفسه ص١٢٠ بتصرف .
(٥) سورة الملك : آية ١٣-١٤
(٦) الاعتقاد ص٩٢ .
(٧) سورة النجم : آية ٤٣،٤٤ .
(٨) المرجع السابق ص٩٢ .

(٧) روى البخارى بسنده إلى حذيفة رضى الله عنه قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم : "إن الله يصنع كل صانع وصنعته"(١).

قال البخارى رحمه الله :

"حركاتهم وأصواتهم واكتسابهم وكتابتهم مخلوقة"(٢).

وكون سبحانه خالقاً لأفعال العباد لاينفى ذلك أن يكونوا فاعلين لها حقيقة ، فقد أخبر سبحانه أن العباد يفعلون ويعملون ويؤمنون ويكفرون ويصدقون ويكذبون فى مواضع جمة . فأفعالهم مستندة إليهم وهم الفاعلون لها حقيقة وأنها تنسب إليهم وتضاف لهم وهى مفعولة لله حقيقة ومخلوقة له وليست فعلاً له ولايتصف بأنه فاعلها ، لأن هنالك فرقاً بين الفعل والمفعول ، والخلق والمخلوق ، فهى فعل العباد ومفعولة له سبحانه(٣).

وإلى هذا أشار الطحاوى رحمه الله بقوله : "وأفعال العباد خلق لله وكسب من العباد"(٤).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

"والتحقيق ماعليه أئمة السنة ، وجمهور الأمة ، من الفرق بين الفعل والمفعول ، والخلق والمخلوق ، فأفعال العباد هى كغيرها من المحدثات

---

(١) خلق أفعال العباد برقم ١١٧ .
وأورده موقوفاً على حذيفة بلفظ : "إن الله خلق كل صانع وصنعته ، إن الله خالق صانع الخزم وصنعته" برقم ١١٨ ، ص٣٩-٤٠ .
وأخرج المرفوع الحاكم فى المستدرك ولفظه : "إن الله خالق كل صانع وصنعته" وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه" . ووافقه الذهبى ٣١/١-٣٢
وذكره الخطيب فى تاريخ بغداد من طريق البخارى ٣١/٢ .
والهيثمى فى مجمع الزوائد وقال : "رواه البزار ورجاله رجال الصحيح غير أحمد ابن عبد الله أبو الحسين بن الكردى وهو ثقة" . ٢٠٠/٧ .
والحديث إسناده صحيح . انظر : خلق أفعال العباد ص٤٠ الهامش .

(٢) خلق أفعال العباد ص٤٢ .

(٣) انظر : مجموع الفتاوى ١١٦/٢،١١٧،١١٩،١٢٠ ، المنتقى من منهاج الاعتدال ص١٤٢،١٤٣،١٥٣ ، شفاء العليل ص١١٥ ، شرح العقيدة الطحاوية ص٤٣٧،٤٤٤ .

(٤) متن العقيدة الطحاوية ص١٧ .

المخلوقة ، مفعولة لله ، كما أن نفس العبد وسائر صفاته مخلوقة مفعولة لله وليس ذلك نفس خلقه وفعله ، بل هى مخلوقة مفعولة ، وهذه الأفعال هى فعل العبد القائم به ، ليست قائمة بالله ، ولايتصف بها فإنه لايتصف بمخلوقاته ومفعولاته ، وإنما يتصف بخلقه وفعله ، كما يتصف بسائر مايقوم بذاته ، والعبد فاعل لهذه الأفعال ، وهو المتصف بها ، وله عليها قدرة ، وهو فاعلها باختياره ومشيئته ، وذلك كله مخلوق لله ، فهى فعل العبد وهى مفعولة الرب"(١).

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله مبيناً هذه القاعدة العظيمة فى الفرق بين فعل الله وفعل العبد ، ومنشأ ضلال القدرية والجبرية فى ذلك فقال :

"قوله تعالى : {فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة}(٢)، وقوله : {وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة}(٣).وهذا الإغراء والإلقاء محض فعله سبحانه ، والتعادى والتباغض أثره ، وهو محض فعلهم. وأصل ضلال القدرية والجبرية من عدم اهتدائهم إلى الفرق بين فعله سبحانه وفعل العبد . فالجبرية جعلوا التعادى والتباغض فعل الرب دون المتعادين والمتباغضين . والقدرية جعلوا ذلك محض فعلهم الذى لاصنع لله فيه ولاقدرة ولامشيئة ، كما قال تعالى : {هو الذى يسيركم فى البر}(٤)، فالتسيير فعله، والسير فعل العباد ، وهو أثر التسيير . وكذلك الهدى والإضلال فعله ، والاهتداء والضلال أثر فعله ، وهما أفعالنا القائمة بنا ، فهو الهادى والعبد المهتدى ، وهو الذى يضل من يشاء والعبد الضال . وهذا حقيقة وهذا حقيقة ، والطائفتان عن الصراط المستقيم ناكبتان"(٥).

وقول المعتزلة فى أفعال العباد يتضمن الإشراك والتعطيل لأنه يتضمن إخراج بعض الحوادث أن يكون لها فاعل ، وإثبات فاعل مستقل غير الله .

---

(١) مجموع الفتاوى ١١٩/٢-١٢٠ .
(٢) سورة المائدة : آية ١٤
(٣) سورة المائدة : آية ٦٤
(٤) سورة يونس : آية ٢٢
(٥) شفاء العليل ص١٢٨ .

والتعطيل والشرك من شعب الكفر(١).

وأما زعمهم بأنه لايوصف بأنه خالق للخير والشر .

يجاب عليه إضافة إلى ماسبق ذكره :

إن الخير والشر هو بالنسبة للمقدور وعاقبته ، فإن منه مايكون خيراً كالطاعات والصحة والغنى . ومنه مايكون شراً كالمعاصى والمرض والفقر . أما بالنسبة لفعل الله فلايقال إنه شر لقول النبى صلى الله عليه وسلم فى دعاء القنوت الذى علمه الحسن بن على : "وقنى شر ماقضيت"(٢).

---

(١) انظر المنتقى من منهاج الاعتدال ص١٥٦ .

(٢) هو جزء من حديث دعاء القنوت .

أخرجه أبو داود فى سننه ، كتاب الصلاة ، باب القنوت فى الوتر برقم ١٤٢٥ ، ٦٣/٢ .

والترمذى فى سننه ، كتاب الصلاة ، أبواب الوتر (٣) ، باب ماجاء فى القنوت فى الوتر (١٠) برقم ٤٦٤ . وقال : "هذا حديث حسن ، لانعرفه إلا من هذا الوجه من حديث أبى الحوراء السعدى ... ولانعرف عن النبى صلى الله عليه وسلم فى القنوت فى الوتر شيئاً أحسن من هذا" . ٣٢٩،٣٢٨/٢ .

والنسائى فى سننه ، كتاب قيام الليل ، باب الدعاء فى الوتر ٢٠٦/٣ .

وابن ماجه فى سننه ، كتاب إقامة الصلاة (٥) ، باب ماجاء فى القنوت فى الوتر (١١٧) ، برقم ١١٧٨ ، ٣٧٢/١ .

والدارمى فى سننه ، كتاب الصلاة ، باب الدعاء فى القنوت ٣٧٣/١-٣٧٤ .

والبيهقى فى سننه ، كتاب الصلاة ، باب دعاء القنوت ٢١٠،٢٠٩/٢ .

وابن الجارود فى المنتقى ، باب القنوت فى الوتر ، برقم ٢٧٢ ، ص١٠٤،١٠٣ .

وأحمد فى مسنده ٢٠٠،١٩٩/١ . وهو فى المسند بتحقيق أحمد شاكر برقم ١٧٢٧،١٧٢٣،١٧١٨ . وقال : إسناده صحيح . ١٧١،١٦٩،١٦٧/٣ .

والحاكم فى المستدرك وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ١٧٢/٣ .

وأورده الزيلعى فى نصب الراية ١٢٥/٢-١٢٦ .

والحافظ ابن حجر فى تلخيص الحبير وذكر طرقه ٢٦٣/١-٢٦٦ .

والشيخ ناصر الدين الألبانى فى إرواء الغليل برقم ٤٢٩ وذكر طرقه ومن خرجه من الأئمة . وقال عنه : صحيح ١٧٢/٢-١٧٥ .

وانظر صحيح سنن أبى داود ٢٦٧/١ .

فأضاف الشر إلى ماقضاه لاإلى قضائه(١).

وقد أوضح شارح الطحاوية رحمه الله إضافة خلق الشر لله سبحانه أو نسبته إليه إيضاحاً تاماً ، وأزال مايعلق بالأذهان من إشكال فقال :

"فاعلم أن الشر كله يرجع إلى العدم ، أعنى عدم الخير وأسبابه المفضية إليه ، وهو من هذه الجهة شر . وأما من جهة وجوده المحض فلاشر فيه.

مثاله : إن النفوس الشريرة وجودها خير من حيث هى موجودة ،وإنما حصل لها الشر بقطع مادة الخير عنها ، فإنها خلقت فى الأصل متحركة ، فإن أعينت بالعلم وإلهام الخير تحركت به ، وإن تركت تحركت بطبعها إلى خلافه وحركتها من حيث هى حركة خير وإنما تكون شراً بالإضافة ، لامن حيث هى حركة ، والشر كله ظلم ، وهو وضع الشىء فى غير محله ،فلو وضع فى موضعه لم يكن شراً ، فعلم أن جهة الشر فيه نسبية إضافية ، ولهذا كانت العقوبات الموضوعة فى محالها خيراً فى نفسها ، وإن كانت شراً بالنسبة إلى المحل الذى حلت به ، لما أحدثت فيه من الألم الذى كانت الطبيعة قابلة لضده من اللذة، مستعدة له ، فصار ذلك الألم شراً بالنسبة إليها ، وهو خير بالنسبة إلى الفاعل حيث وضعه فى موضعه ، فإنه سبحانه لم يخلق شراً من جميع الوجوه والاعتبارات ، فإن حكمته تأبى ذلك ، فلايكون فى جناب الحق تعالى أن يريد شيئاً يكون فساداً من كل وجه ، لامصلحة فى خلقه بوجه ما ، هذا من أبين المحال ، فإنه سبحانه الخير كله بيديه ، الشر ليس إليه ، بل كل ماإليه فخير ، والشر إنما حصل لعدم هذه الإضافة والنسبة إليه ، فلو كان إليه لم يكن شراً ، فتأمله . فانقطاع نسبته إليه هو الذى صيره شراً .

فإن قيل : لم تنقطع نسبته إليه خلقاً ومشيئة؟

قيل : هو من هذه الجهة ليس بشر ، فإن وجوده هو المنسوب إليه ، وهو من هذه الجهة ليس بشر ، والشر الذى فيه من عدم إمداده بالخير وأسبابه ، والعدم ليس بشىء حتى ينسب إلى من بيده الخير .

---

(١) انظر : شرح لمعة الاعتقاد ص٥١ .

فإن أردت مزيد إيضاح لذلك ، فاعلم أن أسباب الخير ثلاثة : الإيجاد والإعداد ، والإمداد . فإيجاد هذا خير ، وهو إلى الله ، وكذلك إعداده وإمداده ، فإن لم يحدث فيه إعداد ولا إمداد حصل فيه الشر بسبب هذا العدم الذى ليس إلى الفاعل ، وإنما إليه ضده"(١).

وأما ماستدلوا به من شبه عقلية ونقلية زاعمين أنها تدل على عدم خلق الله لأفعال العباد طاعاتها ومعاصيها . يجاب عنها بالآتى :

(١) **الشبه العقلية :**

الدليل العقلى :

أفعال العباد قبائح والله لايختار فعل القبيح .

وقد سبق الرد على هذا عند الحديث عن العدل(٢).

والخلاصة :إن الفعل القبيح قبيح من الخلق لامن الله سبحانه ، كما إنه ضار لهم لاله(٣). فلايقاس الله تعالى بخلقه فى ذلك .

وأيدوا دليلهم العقلى بأمرين :

الأول : لو كانت خلقاً لله لم تكن عملاً للعباد تقف عليه أحوالهم ، وتوجد وتنتهى بحسب اختيارهم لاكالألوان والصور .

والجواب على ذلك :

إن أهل السنة لم ينفوا أن للعبد اختياراً وقدرة ومشيئة وعملاً ، ولايسمونه مجبوراً ، لأن المجبور من أكره على خلاف اختياره ، والله سبحانه هو الذى جعل العبد مختاراً لما يفعله ، وهو سبحانه الذى خلقه وخلق اختياره(٤).

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص٢٥٥-٢٥٦ ،
ولمزيد بيان انظر : جامع الرسائل ٢/١٣١ .

(٢) انظر ص : ٢٤٣ فما بعدها.

(٣) انظر : المنتقى من منهاج الإعتدال ص١٣٩ .

(٤) انظر : مجموع الفتاوى ٣/٣٧٤ .

فالعبد يفعل فعله حقيقة ، وإنه مريد ومختار له حقيقة ، وإضافته ونسبته إليه حقيقة . وإن ذلك وقع بمشيئة الله وقدرته سبحانه[١] وقدرة العبد لها تأثير فى إيجاد فعله لاباستقلال ولااستبداد بل بالإعانة والإذن والتمكين من الله سبحانه وتعالى[٢].

وأهل السنة متفقون على أن لله على عبده المطيع نعمة دينية خصه بها دون الكافر ،وأنه أعانه على الطاعة . قال تعالى : {ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان}[٣]. وقال : {فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام}[٤][٥].

وأفعال العبد نوعان :

نوع يكون منه من غير اقتران قدرته وإرادته به ، فيكون صفة له ولايكون فعلاً ، كحركات المرتعش .

ونوع يكون منه تقارنه قدرته واختياره . فيوصف بكونه صفة وفعلاً وكسباً له ، كالحركات الاختيارية[٦].

فالنوع الأول لم يخلقه الله بتوسط قدرة العبد ومشيئته ، بخلاف النوع الثانى فإنه خلقه بتوسط مشيئة العبد وقدرته ، كما خلق غير ذلك من المسببات بوساطة أسباب أخر[٧].

وبعد هذا يمكن أن نوفق بين كون فعل العبد مخلوقاً لله ، وكونه عملاً وكسباً للفاعل بأمرين :

١- إن فعل العبد من صفاته والعبد وصفاته مخلوقان لله تعالى .

---

(١) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص٤٣٧ .
(٢) انظر : لوامع الأنوار ٢٩٦/١ .
(٣) سورة الحجرات : آية ٧
(٤) سورة الأنعام : آية ١٢٥
(٥) انظر : المنتقى من منهاج الاعتدال ص١٣٤،١٣٥ .
(٦) شرح العقيدة الطحاوية ص٤٤٣ بتصرف .
(٧) انظر : مجموع الفتاوى ١٢٠/٢ .

٢- إن فعل العبد صادر عن إرادة قلبية وقدرة بدنية ولولاهما لم يكن فعلاً له، والذى خلق هذه الإرادة والقدرة هو الله تعالى ، وخالق السبب خالق للمسبب ، فنسبة فعل العبد إلى خلق الله له نسبة مسبب إلى سبب لانسبة مباشرة لأن المباشر حقيقة هو العبد ، فلذلك نسب الفعل إليه كسباً وتحصيلاً ونسب إلى الله خلقاً وتقديراً ، فلكل من النسبتين اعتبار(١).

وأفعال العبد الاختيارية تكسبه صفات محمودة وصفات مذمومة بخلاف لونه وقصره فإنها لاتكسبه ذلك(٢).

الثانى : حسن الأمر والنهى وغيرهما من الأحكام :

فوجود الأمر ببعضها والنهى عن بعض ، والمدح على بعض والذم على بعض ، والثواب على بعض والعقاب على بعض . فلو كانت خلقاً لله ماحسن شيء مما سبق .

ويوجب ذلك أن لاأمر ولانهى ولاتكليف ولاثواب ولاعقاب، ويلزم أن يكون الله ظالماً جائراً . تعالى الله عن قولهم .

والجواب على هذا :

إن أهل السنة والجماعة متفقون على أن العبد مأمور منهى ، مثاب معاقب ، موعود متوعد ، والله خالقه وخالق فعله ، ولاتنافى وتناقض بين ذلك . ولم يقل أحد إن الله هو الذى يركع ، ويسجد ، ويقوم بالأوامر ويجتنب النواهى ، بل الأمة متفقة على أن العبد هو الذى يفعل ذلك(٣).

وهو إنما يفعل ذلك باختياره ومشيئته التى خلقها الله فيه .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

---

(١) شرح لمعة الاعتقاد ص٥٤-٥٥ .

(٢) انظر : المنتقى من منهاج الاعتدال ص١٣١ .

(٣) انظر : مجموع الفتاوى ١١٦/٢، ١١٧ .

"إن عقلاء بنى آدم متفقون على مافطرهم الله عليه ، من أن العبد الحى يؤمر وينهى ، ويحمد ويذم على أفعاله الاختيارية ، متفقون على أن من احتج بالقدر على ظلمه وفواحشه لم يقبل ذلك منه ، فلو ظلم ظالم لغيره لم يقبل أحد منه أن يدفع عن نفسه الملام بالقدر"(١).

وجهة خلق الله وتقديره غير جهة أمره وتشريعه ، فإن أمره وتشريعه مقصودة ببيان ماينفع العباد ، ومايضرهم.وخلقه وتقديره يتعلق به وبجملة المخلوقات ، فيفعل ماله فيه حكمة متعلقة بعموم خلقه وإن كان فى ضمن ذلك مضرة لبعض الخلق . فهو سبحانه إذا قدر على العبد الكافر الكفر إنما قدره عليه لما فى ذلك من الحكمة والمصلحة العامة ، ثم إذا عاقبه على ذلك إنما عاقبه لاستحقاقه العقاب على فعله الاختيارى ولما فى ذلك العقاب من الحكمة والمصلحة العامة .

فإنه سبحانه إن أمر عباده بأمر إنما أمرهم بما ينفعهم وإن نهاهم عن نهى إنما نهاهم عما يضرهم ، فإن أعانهم على فعل المأمور فقد تمت نعمته وله فى ذلك حكمة ، وإن خذلهم ولم يعنهم حتى فعلوا الذنب فله فى ذلك حكمة أخرى وإن كان فى ذلك تألمهم ، وهم إنما يتألمون بأفعالهم التى تورثهم النعيم أو العذاب . وذلك الإيراث بقضاء الله وقدره ، ولامنافاة بين هذا وهذا .

وأما تلك الحكمة فليس على الناس معرفتها ، وإنما عليهم التسليم والطاعة واجتناب المعاصى(٢).

قال ابن القيم رحمه الله فى بيان قول هود عليه السلام : {إن ربى على صراط مستقيم}(٣)قال :

---

(١) المرجع السابق ١١٨/٢ .

(٢) انظر : المنتقى من منهاج الإعتدال ص١٣٣،١٣٤ .

(٣) سورة هود : آية ٥٦

"أى مع كونه مالكاً قاهراً متصرفاً فى عباده ، نواصيهم بيده فهو على صراط مستقيم . وهو العدل الذى يتصرف به فيهم فهو على صراط مستقيم فى قوله وفعله وقضائه وقدره وأمره ونهيه وثوابه وعقابه . فخبره كله صدق ، وقضاؤه كله عدل ، وأمره كله مصلحة ، والذى نهى عنه كله مفسدة ، وثوابه لمن يستحق الثواب بفضله ، ورحمته وعقابه لمن يستحق العقاب بعدله وحكمته"(١).

والله سبحانه إنما يعذب العبد على فعله الاختيارى وذلك مستقر فى الفطر والعقول ولايعد ذلك ظلماً ، لأنه لو قيل إن خلق الفعل مع العقوبة عليه ظلم ، لقيل إن خلق السم ثم حصول الموت به ظلم ، فكما أن هذا سبب للموت فذلك سبب للعقوبة(٢).

والله جل وعلا عادل فى كل ماخلقه ، واضع للأشياء فى مواضعها وهو قادر على أن يظلم ، لكنه سبحانه منزه عن الظلم فلايفعله، لأنه السلام القدوس المستحق للتنزيه عن السوء(٣).

وهو سبحانه لو قدر أن يعذب أحداً لم يكن لأحد أن يمنعه عن ذلك كما قال : {قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعاً}(٤). ولكنه سبحانه إذا عذب أحداً فلايعذبه إلا بحق لتعاليه عن الظلم(٥).

وكونه سبحانه لم يعن الكافر أو العاصى على الطاعة ومنعه من ذلك ، فليس فى ذلك ظلم ، لأن الظلم أن تمنع غيرك حقه ، وقد حرم الله ذلك على نفسه ، وأما إذا منع غيره ماليس له فذلك عدل . فهو يتفضل على من يشاء

---

(١) الفوائد ص٤٧ .
(٢) انظر : المنتقى من منهاج الاعتدال ص١٣٠،١٣١ ، شرح العقيدة الطحاوية ص٤٤٤ .
(٣) جامع الرسائل ص١/١٢٩ بتصرف .
(٤) سورة المائدة : آية ١٧
(٥) انظر : المنتقى من منهاج الاعتدال ص٥٣،٥٤ .

ويمنع ذلك من يشاء كما قال :{ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم}(١)، وقال : {لئلا يعلم أهل الكتاب ألّا يقدرون على شيء من فضل الله ، وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم}(٢). وفى حديث تخصيص هذه الأمة بزيادة الأجر دون اليهود والنصارى ، قال :

"فهو فضلى أوتيه من أشاء"(٣)(٤).

والله جل ذكره قد مدح نفسه بنفى الظلم عنه فقال : {إن الله لايظلم الناس شيئاً}(٥)، وقال :{وماأنا بظلام للعبيد}(٦). والآيات فى ذلك كثيرة .

وكونه من على المؤمن بالهداية دون الكافر فليس ذلك ظلماً فإنه يمن على من يشاء برحمته وفضله كما قال :{بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين}(٧)، وقالت الأنبياء : {إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده}(٨)، فهو لايضع العقوبة إلا فى محلها ، وهو فى ذلك عدل(٩).

قال ابن القيم رحمه الله :

---

(١) سورة الحديد : آية ٢١

(٢) سورة الحديد : آية ٢٩

(٣) جزء من حديث أخرجه البخارى فى صحيحه من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، كتاب المواقيت (٩) ، باب من أدرك ركعة من العصر قبل الغروب (١٧) ، ١٣٩/١ ، وفى كتاب الأنبياء (٦٠) ، باب ماذكر عن بنى إسرائيل (٥٠) ، ١٤٥/٤ ، وفى كتاب التوحيد (٩٧) ، باب فى المشيئة والإرادة (٣١) ، ١٩١/٨ ، وفى باب قول الله تعالى : {فأتوا بالتوارة فاتلوها} (٤٧) ، ٢١١/٨ .

(٤) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص٢٤٢،٢٤٣ .

(٥) سورة يونس : آية ٤٤

(٦) سورة ق : آية ٢٩

(٧) سورة الحجرات : آية ١٧

(٨) سورة إبراهيم : آية ١١

(٩) انظر : المنتقى من منهاج الاعتدال ص٣٨ .

".. وأما أهل السنة فهم مثبتون للأمرين ـ القدر ، والعدل ـ والظلم عندهم هو وضع الشيء فى غير موضعه كتعذيب المطيع ومن لاذنب له ، وهذا قد نزه الله نفسه عنه فى غير موضع من كتابه ، وهو سبحانه وإن أضل من شاء وقضى بالمعصية والغى على من شاء ، فذلك محض العدل فيه ، لأنه وضع الإضلال والخذلان فى موضعه اللائق به ، وكيف ومن أسمائه الحسنى العدل ، الذى كل أفعاله وأحكامه سداد وصواب وحق ، وهو سبحانه قد أوضح السبل ، وأرسل الرسل ، وأنزل الكتب ، وأزاح العلل ، ومكن من أسباب الهداية والطاعة بالأسماع والأبصار والعقول ، وهذا عدله ووقف من شاء بمزيد عناية ، وأراد من نفسه أن يعينه ويوفقه ، فهذا فضله ، وخذل من ليس بأهل لتوفيقه وفضله ، وخلى بينه وبين نفسه ، لم يرد سبحانه من نفسه أن يوفقه ، فقطع عنه فضله ، ولم يحرمه عدله ، وهذا نوعان :

أحدهما : مايكون جزاء منه للعبد على إعراضه عنه ، وإيثار عدوه فى الطاعة ، والموافقة عليه ، وتناسى ذكره وشكره ، فهو أهل أن يخذله ويتخلى عنه .

والثانى : أن لايشاء له ذلك ابتداء لما يعلم منه أنه لايعرف قدر نعمة الهداية ، ولايشكره عليه ، ولايثنى عليه بها ، ولايحبه ، فلايشاؤها له لعدم صلاحية محله . قال تعالى : {وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ، أليس الله بأعلم بالشاكرين}(١)، وقال : {ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم}(٢)، فإذا قضى على هذه النفوس بالضلال والمعصية ، كان ذلك محض العدل ، كما إذا قضى على الحية بأن تقتل وعلى العقرب وعلى الكلب العقور ، كان ذلك عدلاً فيه ، وإن كان مخلوقاً على هذه الصفة"(٣).

---

(١) سورة الأنعام : آية ٥٣
(٢) سورة الأنفال : آية ٢٣
(٣) الفوائد ص٤٨-٤٩ .

(٢) **الشبه النقلية** :

(١) قوله تعالى :{ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت}(١).

الباطل المتفاوت ليس من خلقه .

والجواب : لقد سبق بيان أن الخلق بخلاف المخلوق ، فخلق الله وهو فعله لاعيب فيه ولانقص ، وقد يوجد العيب والنقص فى بعض مخلوقاته ، وذلك حكمة منه وعدل ووضع للأشياء فى مواضعها ، ولاينفى ذلك خلقه لها .

(٢) قوله تعالى : {صنع الله الذى أتقن كل شيء}(٢).

الكفر والظلم وغيرهما ليس من خلقه ، لأنها ليست بمتقنة ولامحكمة ولاحسنة .

والجواب : هذه الآية كسابقتها فى بيان فعل الله ولاشك فى إحكامه وإتقانه .

قال القرطبى : "هذا من فعل الله وماهو فعل منه فهو متقن"(٣).

وهذا بخلاف مفعول الله تعالى ، فإن أفعال العباد من مفعوله لامن فعله ، فالكفر والظلم وغيرهما هى من فعل العباد لامن فعل الله وإنما من مفعولاته سبحانه(٤).

والله إذ خلقها أحسن رتبتها وإيقاعها فى النفوس والأجساد وإنما قبحت من الإنسان لامن خلقه لها سبحانه(٥).

{وماأصابك من سيئة فمن نفسك}(٦)، {قل هو من عند أنفسكم}(٧)،

---

(١) سورة الملك : آية ٣
(٢) سورة النمل : آية ٨٨
(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢٤٣/١٣ .
(٤) شرح العقيدة الطحاوية ص٤٤٤ .
(٥) انظر : الفصل فى الملل ٦٦/٣ .
(٦) سورة النساء : آية ٧٩
(٧) سورة آل عمران : آية ١٦٥

{حسداً من عند أنفسهم}(١)، {وماهو من عند الله}(٢). فهذا قد لحق العبد من جهته لامن جهة الله فدل على أنها ليست بخلقه .

والجواب على هذا :

قوله تعالى : {ماأصابك من حسنة فمن الله وماأصابك من سيئة فمن نفسك} أى ماأصابك من نعمة تحبها كالنصر والرزق فالله أنعم عليك بذلك وماأصابك من نقم تكرهها فبسبب ذنوبك وخطاياك(٣)، وليس المراد بالحسنة والسيئة الطاعة والمعصية وإنما المراد النعم من خصب ورخاء ، والنقم من جدب وشدة(٤).

روى ابن جرير عن أبى صالح(٥)أنه قال :"وماأصابك من سيئة فمن نفسك" بذنبك وأنا قدرتها عليك"(٦).

قوله تعالى : {أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شىء قدير}(٧).

والآية توجيه للمسلمين فيما أصابهم يوم أحد من قتل سبعين منهم وقد قتلوا فى بدر من المشركين سبعين وأسروا سبعين ، ولكن ماحل بهم يوم أحد إنما كان بسبب عصيانهم لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك

---

(١) سورة البقرة : آية ١٠٩

(٢) سورة آل عمران : آية ٧٨

(٣) المتنقى من منهاج الاعتدال ص٣٨ بتصرف .

(٤) انظر : الجامع لأحكام القرآن ٢٨٦/٥ .

(٥) أبو صالح :
هو ذكوان بن عبد الله أبو صالح السمان الزيات ، مولى أم المؤمنين جويرية . كان يجلب الزيت والسمن إلى الكوفة . ثقة ثبت . روى عن عائشة وأبى هريرة وابن عباس وجماعة من الصحابة . وعنه ابنه سهيل والأعمش والزهرى . مات سنة ١٠١هـ .
انظر : الجرح والتعديل ٤٥٠/٣ ، تذكرة الحفاظ ٨٩/١ ، سير أعلام النبلاء ٣٦/٥،٣٧ ، تهذيب التهذيب ٢١٩/٣ ، تقريب التهذيب ٢٣٨/١ .

(٦) جامع البيان ١٧٦/٥ ، تفسير القرآن العظيم ٥٢٨/١ .

(٧) سورة آل عمران : آية ١٦٥

لما خالف الرماة أمره لهم بالبقاء فى أماكنهم(١).

فماأصابهم من قتل فهى مصيبة قدرها الله عليهم بسبب معصيتهم . والله خالق السبب والمسبب . وليس فى الآية دلالة على أنهم خالقون لأفعالهم .

قوله تعالى : {ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم}(٢).

يحذر تعالى عباده المؤمنين من سلوك طريق الكفار من أهل الكتاب ويعلمهم بعداوتهم لهم فى الباطن والظاهر وماهم مشتملين عليه من الحسد للمؤمنين مع علمهم بفضلهم وفضل نبيهم(٣)، فليس فى الآية دليل على أن أهل الكتاب يخلقون حسدهم للمؤمنين ، فالحسد ليس مخلوقاً لهم وإنما هو فعل من أفعالهم وأفعالهم تنسب لهم حقيقة لأنهم فعلوها وهى من خلق الله.ولامنافاة بين فعلهم إياها وخلق الله لها . وقد سبق بيان هذا(٤).

قوله تعالى : {وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وماهو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وماهو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون}(٥).

قال أبو محمد بن حزم رحمه الله :

"فلاحجة لهم فى هذا لأن أول الآية فى قوم كتبوا كتاباً وقالوا هذامن عند الله فأكذبهم الله تعالى فى ذلك وأخبر أنه ليس منزلاً من عنده ولامما أمر به عز وجل ولم يقل هؤلاء القوم إن هذا الكتاب مخلوق فأكذبهم الله تعالى فى ذلك وقال تعالى إن ذلك الكتاب ليس مخلوقاً لله تعالى فبطل تعلقهم بهذه الآية جملة. ولاشك عند المعتزلة وعندنا فى أن ذلك الكتاب

---

(١) انظر المرجع السابق ٤٢٥،٤٢٤/١ .
(٢) سورة البقرة : آية ١٠٩
(٣) انظر المرجع السابق ١٥٣/١ .
(٤) انظر ص: ٢٤٩ فمابعدها .
(٥) سورة آل عمران : آية ٧٨

مخلوق لله تعالى لأنه قرطاس أو أديم ومداد وكل ذلك مخلوق بلاشك"(١).

قوله تعالى : "تفعلون" ، "وتعملون" ، "وتصنعون"، "وتكسبون" "وتخلقون إفكاً"(٢)وفى ذلك إضافة الفعل إلى العبد بأقوى وجوه الإضافة .

والرد على هذا :

إن إضافة هذه الأفعال إلى العباد فعلاً وكسباً لاينفى إضافتها إلى الله سبحانه خلقاً ومشيئة ، فهو سبحانه الذى شاءها وخلقها وهم الذين فعلوها وكسبوها حقيقة ، فلو لم تكن مضافة إلى مشيئته وقدرته وخلقه لاستحال وقوعها منهم ، إذ العباد أعجز وأضعف من أن يفعلوا مالم يشأه الله ولم يقدر عليه ولاخلقه(٣).

وقوله : {وتخلقون إفكاً} .

يقول ابن حزم رحمه الله :

"إن لفظة الخلق مشتركة تقع على معنيين.أحدهما لله تعالى لالأحد دونه ، وهو الإبداع من عدم إلى وجود ، والثانى الكذب فيما لم يكن أو ظهور فعل لم يتقدم لغيره أو نفاذ فيما حاول. وهذا كله موجود من الحيوان والله تعالى خالق كل ذلك"(٤).

وقد فسرت الآية بتفسريين وذلك لتعدد المعانى للفظة "تخلقون" .

قال الحسن : معنى "تخلقون"تنحتون . ويكون المعنى : إنما تعبدون أوثاناً وأنتم تصنعونها .

---

(١) الفصل فى الملل ٦٢/٣-٦٣ .
وانظر معنى الآية فى الجامع لأحكام القرآن ١٢١/٤ ، تفسير القرآن العظيم ٣٧٦/١

(٢) سورة العنكبوت : آية ١٧

(٣) شفاء العليل ص١١٨-١١٩ بتصرف .

(٤) الفصل فى الملل ٦٥/٣ .

وقال مجاهد(١): الإفك الكذب . ويكون المعنى : تعبدون الأوثان وتخلقون الكذب . أى وتكذبون الكذب(٢).

واختار ابن جرير المعنى الأول وذكره عن ابن عباس رضى الله عنهما وغيره(٣).

ماألزم به العبد من التوبيخ والذم وماقرعه به من نعم وقرره عليه بقوله {كيف تكفرون بالله}(٤).

وقوله : {ومامنع الناس أن يؤمنوا}(٥).

والجواب :

فى الآيتين دليل على المذهب الحق وهو أن للعبد اختياراً وقدرة ومشيئة وأن فعله ينسب إليه حقيقة ولاينفى ذلك خلق الله لفعله واختياره وقدرته .

وقد بينت ذلك فيما سبق(٦).

قوله :{إن الله يأمر بالعدل والإحسان}(٧)، وقوله : {وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لايأمر بالفحشاء}(٨).

---

(١) مجاهد :
هو مجاهد بن جبر ، أبو الحجاج ، المخزومى مولاهم ، المكى ، ثقة إمام فى التفسير والعلم . روى عن أبى هريرة وابن عباس وسعد .وعنه قتادة وابن عون وسيف بن سليمان . مات سنة ١٠١هـ . وقيل غير ذلك.
انظر : الجرح والتعديل ٣١٩/٨ ، الكاشف ١٢٠/٣ ، تذكرة الحفاظ ٨٦/١ ، تهذيب التهذيب ٤٢/١٠ ، تقريب التهذيب ٢٢٩/٢ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٣٢٥/١٣ ، تفسير أبى السعود ٣٤/٧ .

(٣) انظر : جامع البيان ١٣٧/٢٠ ، تفسير القرآن العظيم ٤٠٧/٣ .

(٤) سورة البقرة : آية ٢٨

(٥) سورة الكهف : آية ٥٥

(٦) انظر ص: ٢٤٩ فما بعدها.

(٧) سورة النحل : آية ٩٠

(٨) سورة الأعراف : آية ٢٨

والجواب :

الآيتان فى أمر الله للعباد بما ينفعهم وأنه لايأمر إلا بما فيه خير للعباد ومصلحة ، وهذا من جهة التشريع وهى غير جهة الخلق والتقدير . وقد بينت ذلك من قبل(١) فلاحجة فيهما للمعتزلة .

قوله : {وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون}(٢) فخلقهم للعبادة لاللمعصية .

والجواب : قال ابن كثير رحمه الله بعد ذكره لأقوال السلف فى تفسير الآية :

"ومعنى الآية أنه تبارك وتعالى خلق العباد ليعبدوه وحده لاشريك له فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء ، ومن عصاه عذبه أشد العذاب"(٣).

فعلى هذا المعنى تكون الآية من باب الإخبار بأن الناس ماخلقوا إلا لعبادة الله ، أو من باب الإنشاء أى أنه أمرهم بعبادته وحده لاشريك له . ثم منهم من يطيع ومنهم من يعصى ، وفى ذلك إثبات لاختيارهم وقدرتهم على الطاعة والمعصية ، ولاينافى ذلك خلق الله لأعمالهم . وقد سبق تفصيله(٤).

قوله تعالى : {وكل شىء فعلوه فى الزبر}(٥). فقال فعلوه ، ولم يقل فعله ، وقال فى فعله {الله خالق كل شىء}(٦) أى كل شىء يكون ولم يخلق فعلهم .

---

(١) انظر ص: ٢٥٥ فما بعدها .
(٢) سورة الذاريات : آية ٥٦
(٣) تفسير القرآن العظيم ٢٣٨/٤ .
(٤) انظر ص: ٢٥٣ فما بعدها.
(٥) سورة القمر : آية ٥٢
(٦) سورة الزمر : آية ٦٢

الجواب :

أما الآية الأولى فهى دالة على مذهب أهل السنة فى إثبات فعل العبد وأنه ينسب إليه حقيقة خلافاً للجبرية ، وكونه فاعلاً لفعله لايدل على خلقه له ، وقد سبق بيان ذلك(١).

وأما الآية الثانية ففيها دلالة واضحة على تناقض أهل الإعتزال حيث عمموا الآية فى كلام الله ، وخصصوها فى أفعال العباد ، وقد أخطأوا فى الموضعين .

قال ابن أبى العز رحمه الله :

"قوله تعالى : {الله خالق كل شيء} : أى الله خالق كل شيء مخلوق ، فدخلت أفعال العباد فى عموم كل . ومأفسد قولهم - أى المعتزلة - فى إدخال كلام الله تعالى فى عموم كل ، الذى هو صفة من صفاته ، يستحيل عليه أن يكون مخلوقاً! وأخرجوا أفعالهم التى هى مخلوقة من عموم كل!! وهل يدخل فى عموم كل إلا ماهو مخلوق؟ فذاته المقدسة وصفاته غير داخلة فى هذا العموم ، ودخل سائر المخلوقات فى عمومها"(٢).

فالآية حجة عليهم لالهم .

ثانيا : إرادة أفعال العباد :

إن كل مايقع فى الكون فهو بتقدير الله ومشيئته ، لامشيئة للعباد إلا ماشاء لهم ، فما شاءه كان ومالم يشأه لم يكن ، ولايكون فى ملكه مالايشاؤه سبحانه(٣).

فمن شاء له الهداية اهتدى فضلاً منه ، ومن شاء له الغواية والضلال ضل وغوى ، عدلاً منه(٤). {لايسأل عما يفعل وهم يسألون}(٥).

---

(١) انظر ص٢٥٤ .
(٢) شرح العقيدة الطحاوية ص٤٣٩ .
(٣) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص١٤٦ .
(٤) انظر المرجع السابق ص١٤٨ .
(٥) سورة الأنبياء : آية ٢٣

والأدلة على ذلك من كتاب الله كثيرة جداً . وهذه طائفة منها :

(١) قال تعالى :

{والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم فى الظلمات من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم}(١).

(٢) وقال سبحانه :

{وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغى نفقاً فى الأرض أو سلماً فى السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلاتكونن من الجاهلين}(٢).

(٣) وقال تعالى :

{ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شىء قبلاً ماكانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون}(٣).

(٤) وقال تعالى :

{فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد فى السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لايؤمنون}(٤).

(٥) وقال تعالى :

{ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين}(٥).

(٦) وقال تعالى على لسان نوح عليه السلام :

{ولاينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون}(٦).

---

(١) سورة الأنعام : آية ٣٩
(٢) سورة الأنعام : آية ٣٥
(٣) سورة الأنعام : آية ١١١
(٤) سورة الأنعام : آية ١٢٥
(٥) سورة يونس : آية ٩٩
(٦) سورة هود : آية ٣٤

(٧) وقال تعالى :

{ولـو شئنـا لآتينا كل نفـس هداها ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين}(١).

(٨) وقال تعالى :

{وماتشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليماً حكيماً}(٢).

(٩) قال ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله :

{كما بدأكم تعودون.فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة}(٣) قال : "إن الله سبحانه بدأ خلق بنى آدم مؤمناً وكافراً ثم قال : {هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن}(٤)ثم يعيدهم يوم القيامة كما بدأ خلقهـم مؤمن وكافر"(٥).

وقال فى قوله : {فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر}(٦): "من شاء الله له الإيمان آمن ، ومن شاء اللـه أن يكفر كفر وهو قـوله : {ومـاتشاءون إلا أن يشاء الله}"(٧)(٨).

يقول الشيخ عبد الرحمن السعدى رحمه الله :

"والآيات فى هذه المعانى كثيرة تدل دلالة يشهد بها الكون والواقع أن جميع الكائنات مفتقرات إلى ربها فى خلقها ورزقها وتدبيرهـا ، وأنه لاواسطة بينـه وبين الخلق ، فبإرادته وقدرته العامتين الشاملتين خلـق الموجودات كلها

---

(١) سورة السجدة : آية ١٣
(٢) سورة الإنسان : آية ٣٠
(٣) سورة الأعراف : آية: ٢٩- ٣٠
(٤) سورة التغابن : آية ٢
(٥) شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٥٤٧/٢ .
(٦) سورة الكهف : آية ٢٩
(٧) سورة التكوير : آية ٢٩
(٨) المرجع السابق ٥٥١/٢ .

وبإرادته وقدرته حفظها ، وبإرادته وقدرته وحكمته سيرها ودبرها ، وبعنايته ورحمته وسعة علمه أعطى كل شيء خلقه وهداه لمصالحه المتنوعة ، واعتنى بتدبيره الخاص وسوق الأرزاق والمنافع والمصالح كلها إلى مفرداته وكلياته ، والكون لله بانتظامه واتساقه واحتياج بعضه إلى بعض ، وارتباط بعضه ببعض ، وتعاونه المتنوع جميعه يشهد شهادة واضحة بالقدرة والإرادة التى لايشذ عنها شيء ، والحكمة التى شملت جميع الكائنات والعلم المحيط(١).»

وهذا لاينفى أن يكون للعبد مشيئة وإرادة ، فإن الله جعل العبد مريداً قادراً فاعلاً ، فله قدرة حقيقية وله مشيئة وإرادة ولكنها لاتكون إلا بمشيئة الله تعالى كما قال سبحانه : {وماتشاءون إلا أن يشاء الله}(٢)، والله خالق العبد وخالق مشيئته وقدرته(٣).

---

(١) الرياض الناضرة ص١٥١-١٥٢ .

(٢) سورة الإنسان : آية ٣٠

(٣) انظر : مجموع الفتاوى ١١٢/٢ ، ٣٧٤/٣ ، المنتقى من منهاج الاعتدال ص١٤٢،١٤٣،١٥٣ ، لوامع الأنوار ٣١٤/١ .

الجواب على شبههم على عدم إرادة الله لأفعال العباد :

وقبل الإجابة على ماأوردوه من شبه عقلية ونقلية على عدم إرادة الأفعال لابد من بيان أنواع الإرادة فى كتاب الله ، لأن منشأ الضلال عندهم من تسويتهم بين نوعى الإرادة ، فنفوا أن تكون المعاصى بقضاء الله وقدره بحجة أنها ليست محبوبة ولامرضية له(١).

والذى عليه أهل السنة والجماعة أن الإرادة فى كتاب الله نوعان :

(١) إرادة قدرية كونية خلقية ، وهى التى بمعنى المشيئة الشاملة لجميع الموجودات كقوله تعالى : {فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد فى السماء}(٢)، وكقوله : {ولاينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم}(٣)، وقوله : {ولكن الله يفعل مايريد}(٤).

(٢) إرادة دينية أمرية شرعية ، وهى المتضمنة للمحبة والرضا . كقوله : {يريد الله بكم اليسر ولايريد بكم العسر}(٥)، وقوله : {يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم}(٦)، وقوله : {إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا}(٧).

والأولى يلزم وقوع المراد فيها ولايلزم أن يكون محبوباً لله ، بخلاف الثانية فإنه يلزم فيها أن يكون المراد محبوباً له سبحانه ولايلزم من ذلك

---

(١) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص٢٥١ .
(٢) سورة الأنعام : آية ١٢٥
(٣) سورة هود : آية ٣٤
(٤) سورة البقرة : آية ٢٥٣
(٥) سورة البقرة : آية ١٨٥
(٦) سورة النساء : آية ٢٦
(٧) سورة الأحزاب : آية ٣٣

وقوعه(١). وهـذا هو الفرق بين الإرادتين الذى ضل بسبـب الخلط فيه طائفة أهل الاعتزال .

(١) **الجواب على الشبه العقلية** :

١ - لـو أرادها ماكان فعلهـا خطأ ولامعصية، لأن المفعـول مـن الطاعة فعل ماأراده المطاع، والمعصية فعل ماكرهه المعصى .

٢ - لايجوز أن يكـون اللـه مـريداً للمعـاصى ، لأنه وجب حينئـذ أن يكـون محباً لها راضياً عنها ، لأن الإرادة والمحبـة والـرضا مـن باب واحد .

ويجاب على هــذين بما سبــق ذكـره فى الفــرق بين الإرادة الكــونية والشرعية .

والسلف رضى الله عنهم لم يقولوا بأن الله يحب المعاصى ويرضاها ، وإنما قالوا : إنه يبغضها ويكرهها ويسخطها وينهى عنها(٢).

وقد جاء ذلك صراحة فى الكتاب والسنة . قال سبحانه : {والله لايحب الفساد}(٣)، وقال : {ولايرضى لعباده الكفر}(٤)، وقال عقب مانهى عنه من الشــرك والظلم والفــواحش والكبر : {كــل ذلــك كــان سيئــه عنـد ربك مكروهاً}(٥)، وقـال صلى الله عليه وسلم : "إن اللـه كره لكـم ثلاثاً : قيـل وقال ، وإضاعة المال ، وكثرة السؤال"(٦).

---

(١) انظـر : المنتقـى من منهاج الاعتـدال ص١٢٨ ، شرح العقيـدة الطحـاوية ص١١٤ ، لوامع الأنوار ١٤٥/١ مع الهامش ، شرح لمعة الاعتقاد ص٥٦ .

(٢) انظر : المنتقى من منهاج الاعتدال ص١٢٨ ، شرح العقيدة الطحاوية ص١١٣،١١٤ .

(٣) سورة البقرة : آية ٢٠٥

(٤) سورة الزمر : آية ٧

(٥) سورة الإسراء : آية ٣٨

(٦) الحديث أخرجه البخـارى فى صحيحـه من حديث المغيرة بن شعبـة ، كتاب الزكاة (٢٤) ، باب قـول الله تعالى {لايسـألون الناس إلحافاً} (٥٣) ، ١٣١/٢ ، وأخرجه بلفـظ مقارب فى كتاب الاستقـراض (٤٣) ، باب ماينهى عـن إضاعة المال (١٩) ، ٨٧/٣ ، وأخرجه فى كتـاب الـرقاق (٨١) ، باب مايكره مـن قيـل وقال (٢٢) ، ١٨٤/٧ .

=

وهى مع ذلك لاتخرج من مشيئة الله وقدره ، لأنه لـو لم يريدها كوناً ماوقعت ، لأنه لايقع فى ملكـه إلا ماشاءه وأراده كما قـال : {وماتشاءون إلا أن يشاء الله}(١).

ولكن كيف يريد الله أمراً ولايرضاه ولايحبه؟ فكيف تجتمع مشيئته فيه وبغضه له؟

أجاب على ذلك الإمام ابن أبى العز رحمه الله فقال :

"فاعلم أن المراد نوعان : مراد لنفسه ، ومراد لغيره .

فـالمراد لنفسه مطلوب محبوب لذاته ومافيه من الخير ، فهـو مراد إرادة الغايات والمقاصد .

والمراد لغيره ، قد لايكون مقصوداً لما يريد ، ولافيـه مصلحة له بالنظر إلى ذاته ، وإن كـان وسيلـة إلى مقصوده ومراده ، فهـو مكروه له من حيث نفسـه وذاته ، مـراد له من حيـث قضـاؤه وإيصاله إلى مـراده . فيجتمـع فيه الأمران : بغضه ، وإرادته . ولايتنافيان ، لاختلاف متعلقهما . وهذا كالدواء الكـريه ، إذا علم المتناول له أن فيه شفاءه ، وقطع العضـو المتآكل ، إذا علم أن فى قطعـه بقـاء جسده ، وكقطـع المسافة الشاقة ، إذا علم أنهـا توصـل إلى مراده ومحبوبه . بل العاقـل يكتفـى فى إيثـار هـذا المكـروه وإرادته بالظـن الغـالب ، وإن خفيـت عنه عـاقبته ، فكيف ممن لايخفـى عليـه خافية . فهو سبحانه يكره الشىء ، ولاينافى ذلك إرادته لأجل غيره ، وكونه سبباً إلى أمر هو أحب إليه من فوقه"(٢).

= وأخرجه مسلم فى صحيحـه ، كتاب الأقضيـة (٣٠) ، باب النهى عن كثرة المسـائل من غير حاجة (٥) برقم ١٧١٥ ، ١٣٤٠/٣-١٣٤١ .

(١) سورة الإنسان : آية ٣٠

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ص٢٥٢-٢٥٣ .

وأما الطاعات فإنه سبحانه يحبها ويرضاها ولايلزم من ذلك إرادتها ووقوعها وإعانة العبد على فعلها ، لأنه قد يستلزم حصول محبوب له أعظم من تلك الطاعة . وقد يتضمن وقوعها مفسدة هى أكره عنده سبحانه من محبته لتلك الطاعة . مثال ذلك قوله تعالى فى شأن المنافقين : {ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين}(١)، فإن خروجهم للغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم طاعة ، ولكنه ثبطهم عنها ولم يعنهم عليها لما يترتب على خروجهم من مفاسد عظيمة هى أكره عند الله من محبته لتلك الطاعة ، وهى قوله : {لو خرجوا فيكم مازادوكم إلا خبالاً ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين}(٢).

فيحدث من فسادهم وسعيهم بالشر والفتنة بين المؤمنين واستجابة بعض المؤمنين إليهم ، من الشر ماهو أعظم من خروجهم للقتال ، فاقتضت حكمته أن أقعدهم(٣). فلله فى عباده حكم قد تخفى على خلقه وهو بها عليم .

وهذا بخلاف فعله سبحانه ، فإن محبته لما يريد أن يفعله ورضاه به يوجب وقوعه بمشيئته واختياره ، وكراهيته وبغضه له يمنع وقوعه منه مع قدرته عليه لو شاء ، وأما فعل العبد كما سبق فمحبته أو كراهيته له لاتوجب وقوعه ولاامتناعه ، فإنه يحب الطاعة والإيمان من عباده كلهم وإن لم تكن محبته موجبة لطاعتهم وإيمانهم جميعاً إذ لم يحب فعله الذى هو إعانتهم وتوفيقهم وخلق ذلك لهم ، ويبغض معاصيهم وكفرهم وفسوقهم ولم تكن هذه الكراهة والبغض مانعة من وقوع ذلك منهم إذ لم يكره سبحانه خذلانهم وإضلالهم لما له فى ذلك من الغايات المحبوبة التى فواتها يستلزم فوات ماهو أحب إليه من إيمانهم وطاعتهم(٤).

---

(١) سورة التوبة : آية ٤٦

(٢) سورة التوبة : آية ٤٧

(٣) انظر المرجع السابق ص٢٧٥ .

(٤) انظر : مفتاح دار السعادة ص١١١ .

(٣) زعمهم لو كان يريدها لكان العاصى معذوراً عند الله ، لأنه فعل مايريد الله ، موافقة لقضائه وقدره .

ويجاب على هذا :

إن العاصى ليس معذوراً على عصيانه لأن له قدرة ومشيئة وأنه مختار وليس بمجبور على أفعاله الاختيارية . فالله خلق للعبد اختياراً وإرادة(١).

والاحتجاج بالقدر على الذنوب مما يعلم بطلانه بالعقل ، فالظالم لغيره لو احتج بالقدر لاحتج ظالمه بالقدر أيضا، فالاحتجاج به على فعل المعاصى باطل باتفاق الملل والعقلاء . ولو كان القدر حجة لفاعل الفواحش لم يحسن أن يلوم أحد أحداً ، ولاأن يعاقب أحد أحداً . فلاعذر لأحد فى ترك مأمور ولافعل محظور بكون ذلك مقدراً عليه ، بل لله الحجة البالغة على خلقه(٢).

ومما يدل على عدم عذر العاصى على فعل المعصية الآتى :

١ - إن الله أضاف عمل العبد إليه وجعله كسباً له فقال : {اليوم تجزى كل نفس بما كسبت}(٣)، ولو لم يكن له اختيار فى الفعل وقدرة عليه مانسب عمله إليه .

٢ - إن الله أمر العبد ونهاه ولم يكلفه إلا مايستطيع لقوله تعالى : {لايكلف الله نفساً إلا وسعها}(٤)، {فاتقوا الله مااستطعتم}(٥)، ولو كان مجبوراً على العمل ماكان مستطيعاً على الفعل أو الكف لأن المجبور لايستطيع التخلص .

٣ - إن كل واحد يعلم الفرق بين العمل الاختيارى والإجبارى وأن الأول يستطيع التخلص منه بخلاف الثانى .

---

(١) انظر : الفتاوى ٣/٣٧٤ .
(٢) انظر : المنتقى ص١٣٠ .
(٣) سورة غافر : آية ١٧
(٤) سورة البقرة : آية ٢٨٦
(٥) سورة التغابن : آية ١٦

٤ ـ إن العاصى قبل أن يقدم على المعصية لايدرى ماقدر له وهو باستطاعته أن يفعل أو يترك،فكيف يسلك طريق الخطأ ويحتج بالقدر المجهول أليس من الأحرى أن يسلك الطريق الصحيح ويقول هذا ماقدر لى؟

٥ ـ إن الله أخبر أنه أرسل الرسل لقطع الحجة {لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل}(١)، ولو كان القدر حجة للعاصى لم تنقطع بإرسال الرسل(٢).

وزعمهم بأنه خلق قوماً للجنة وقوماً للنار كذب وضلال :

هذا رد صريح وتكذيب لما ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم من الأحاديث الصحيحة الدالة على ذلك منها :

مارواه أحمد بسنده إلى عبد الرحمن بن قتادة السلمى مرفوعاً : "إن الله عز وجل خلق آدم ، ثم أخذ الخلق من ظهره ، وقال : هؤلاء فى الجنة ولاأبالى ، وهؤلاء فى النار ولاأبالى" قال : فقال قائل يارسول الله فعلى ماذا نعمل؟ قال :"على مواقع القدر"(٣).

وروى بسنده إلى أبى الدرداء عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "خلق الله آدم حين خلقه فضرب كتفه اليمنى ، فأخرج ذرية بيضاء كأنهم الذر ، وضرب كتفه اليسرى ، فأخرج ذرية سوداء كأنهم الحمم ، فقال للذى فى يمينه : إلى الجنة ولاأبالى ، وقال للذى فى كتفه اليسرى : إلى النار

---

(١) سورة النساء : آية ١٦٥

(٢) شرح لمعة الاعتقاد ص٥٣،٥٤ بتصرف .

(٣) مسند أحمد ١٨٦/٤ .

وأخرجه: الحاكم فى المستدرك بلفظ مقارب ، وقال : "هذا حديث صحيح قد اتفقا على الاحتجاج برواته عن آخرهم إلى الصحابة" . ووافقه الذهبى ٣١/١ .

وابن سعد فى الطبقات الكبرى ٣٠/١ ، ٤١٧/٧ .

وصححه الشيخ ناصر الدين الألبانى فى السلسلة الصحيحة ٧٧/١ ورقمه ٤٨ .

ولاأبالى "(١).

فهـذه الأحاديث لاتدل على الجبر كمـا يزعم أهل الاعتزال ، وتوجيـه ذلك :

إن اللـه سبحانه ليس كمثله شيء لافى ذاته ولاصفـاته ، فهو إذا قبض قبضة فهى بعلمه وعدله وحكمته ، فقبض باليمين على مـن علم أنه سيطيعه ، وقبض بالأخرى على من علم أنه سيعصيه ، فلم يقبض باليمنى أو الأخرى على من هو مستحق أن يكون من القبضـة الأخرى لكمال عـدله سبحـانه ، وأنه لايظلم مثقال ذرة .

وليـس فى القبضتين دلالـة على إجبـار أصحابهمـا ، بل هـو حكـم منه تعالى بما يصدر من إيمان يستلزم الجنة أو كفر يقتضى النار ، والإيمان والكفر أمـران اختيـاريان لايكره اللـه أحداً من خلقه على واحد منهمـا كمـا قال : {فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر}(٢)(٣).

---

(١) مسند أحمد ٤٤١/٦ .
قـال الشيخ ناصر الدين الألبـانى : "وإسناده صحيح" . المرجع السـابق ٧٧/١ برقم ٤٩
وروى مسلم بسنـده إلى عائشة أم المؤمنين قـالت : دعى رسـول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنـازة صبى من الأنصـار . فقلت : يارسول اللـه طوبى لهذا عصفور من عصافير الجنة ، لم يعمل السوء ولم يدركه . قال : "أو غير ذلك ياعائشة ، إن الله خلـق للجنـة أهلاً ، خلقهـم لهـا وهـم فى أصلاب آبائهم . وخلـق للنـار أهلاً ، خلقهـم لها وهم فى أصلاب آبائهـم". كتاب القدر (٤٦) ، باب معنى كـل مـولود يولد على الفطرة (٦) برقم ٢٦٦٢ ، ٢٠٥٠/٤ .
وهذا فى معنى الأحاديث السابقة.
وروى أحمـد بسنده إلى أبى نضـرة أن النبى صلى الله عليـه وسلم قـال : "إن الله تبـارك وتعالى قبض قبضة بيمينه فقال هذه لهذه ولاأبالى ، وقبــض قبضة أخرى - يعنى بيده الأخرى - فقال هذه لهذه ولاأبالى ..." الحديث .
المسنـد ٧٨/٥ . قـال الشيخ ناصـر الـدين الألبانى : "وإسنـاده صحيـح" . سلسلـة الأحاديث الصحيحة ٧٨/١ برقم ٥٠ .

(٢) سورة الكهف : آية ٢٦

(٣) سلسلة الأحاديث الصحيحة ٧٨/١-٧٩ بتصرف .

(٤) قولهم لو كان مريداً لهمانهى عنها .

الأمر والنهى إنما يتعلقان بالإرادة الشرعية لاالإرادة الكونية كما سبق بيانه (١).

(٥) قولهم : لايمكن أن يقضى على خلقه بمعصية ، ثم يعذبهم عليها ، بل ذلك محال وباطل .

ويجاب على هذا بأن الله سبحانه إنما يعذب العبد على فعله الاختيارى فهو إذا قدر على الكافر أو العاصى معصية قدرها لما فى ذلك من الحكمة والمصلحة العامة ، ثم إذا عاقبه على تلك المعصية إنما عاقبه لاستحقاقه ذلك العقاب على فعله الذى اختاره ، ولما فى ذلك العقاب من الحكمة والمصلحة العامة (٢).

والله سبحانه إذا قضى على أحد بالمعصية أو الغى ، فذلك محض عدل فيه ، لأنه وضع الإضلال والخذلان فى موضعه اللائق به .

والله جل فى علاه قد أقام الحجج على العباد بإرسال الرسل وإنزال الكتب ومكن لهم أسباب الهداية ، فإن أعان من شاء ووفقه إلى الطاعات فذلك فضله ، وإن خذل من شاء وحرمه توفيقه وخلى بينه وبين نفسه فذلك عدله (٣).

دخل عبد الجبار الهمدانى على الصاحب بن عباد(٤)، وعنده أبوإسحاق

---

(١) انظر ص: ٢٧٠ .

(٢) انظر : المنتقى من منهاج الاعتدال ص١٣٣ ، شرح العقيدة الطحاوية ص٤٤٤ .

(٣) انظر : الفوائد ص٤٨،٤٩ .

(٤) الصاحب بن عباد :

هو أبو القاسم إسماعيل بن عباد بن عباس الطالقانى . الأديب الكاتب . الملقب بالصاحب لصحبته الملك مؤيد الدولة من صباه . كان شيعياً معتزلياً مبتدعاً . له تصانيف منها: "الوزراء" ، "الكشف عن مساوىء شعر المتنبى" ، "عنوان المعارف وذكر الخلائف" . مات سنة ٣٨٥هـ .

انظر : وفيات الأعيان ٢٢٨/١-٢٣٣ ، سير أعلام النبلاء ٥١١/١٦-٥١٥ ، البداية والنهاية ٣١٤/١١-٣١٦ ، لسان الميزان ٤١٣/١-٤١٦ ، شذرات الذهب ١١٣/٣-١١٦ الأعلام ٣١٦/١ .

الإسفراييني (١)، فلما رأى الأستاذ قال : "سبحان من تنزه عن الفحشاء".

فقال الأستاذ فوراً : "سبحان من لايقع في ملكه إلا مايشاء"، فقال القاضي : "أيشاء ربنا أن يعصى؟" قال الأستاذ : "أيعصى ربنا قهراً؟" فقال القاضي : "أرأيت إن منعني الهدى وقضى على بالردى أحسن إلي أم أساء؟" فقال الأستاذ : "إن منعك ماهو لك فقد أساء ، وإن منعك ماهو له فهو يختص برحمته من يشاء". فبهت القاضي عبد الجبار (٢).

ولو أراد الله أن يعذب من يشاء لم يكن لأحد من الخلق منعه ، ولكنه سبحانه إذا عذب أحداً فلايعذبه إلا بحق لكمال عدله وتنزهه عن الظلم (٣).

(٢) **الشبه النقلية** :

وأما استدلالهم بالآيات ، فلامتمسك لهم فيها ، لأنهم إنما نظروا إليها بعين واحدة ، فتناقضت عندهم الأدلة واضطرب عليهم الفهم ، وذلك شأن أهل البدع دائماً ، فإنهم يأخذون جانباً من الأدلة ويزعمون أنه يؤيد بدعتهم ويغضون الطرف عن جانب آخر يكون فيه كشف بدعتهم وبيان بطلانها .

وهكذا فعل أهل الاعتزال هنا ، فإنهم أخذوا بعض الآيات التي ظنوا أنها تؤيد نفي إرادة الله لأفعال العباد وتركوا الآيات الصريحة التي تثبت

---

(١) أبو إسحاق الإسفراييني :
هو إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مهران ، الإسفراييني الأصولي الشافعي الملقب بركن الدين . أحد المجتهدين ، كان متكلماً ، ثبتاً في الحديث .
من تصانيفه : "الجامع" في أصول الدين ، ورسالة في أصول الفقه . مات سنة ٤١٨هـ .
انظر : الأنساب ٢٢٥/١ ، وفيات الأعيان ٢٨/١ ، سير أعلام النبلاء ٣٥٣/١٧-٣٥٦ ، البداية والنهاية ٢٤/١٢ ، طبقات السبكي ٢٥٦/٤-٢٦٢ ، الوافي بالوفيات ١٠٤/٦-١٠٥ ، شذرات الذهب ٢٠٩/٣-٢١٠ ، الأعلام ٦١/١ .

(٢) طبقات الشافعية ٢٦١/٤-٢٦٢ ، شرح العقيدة الطحاوية ص٢٥١ الهامش .

(٣) انظر : المنتقى من منهاج الاعتدال ص٥٣،٥٤ .

الإرادة لتلك الأفعال ، ولو جمعوا بين النصوص لبان لهم الحق واتضح لهم الطريق ، كما بان واتضح لأهل السنة والجماعة ففازوا بلزوم الصراط المستقيم ، والهدى القويم، {ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم}(١).

فاستدلال المعتزلة بالآيات التى تنفى الظلم عن الله كقوله : {وماالله يريد ظلماً للعباد}(٢)، {وماالله يريد ظلماً للعالمين}(٣)على نفى تقدير المعاصى ، استدلال ساقط ، بعيد عن موطن الخلاف ، فالسلف رضوان الله عليهم نزهوا الله تعالى عن الظلم كما نزه نفسه عنه ، وحرمه على نفسه ،فالله لايظلم ولايضع أمراً فى غير موضعه وذلك هو الظلم ، بل هو العدل فى قوله وفعله وأمره ونهيه وثوابه وعقابه .

وقد سبق التفصيل فى ذلك بحيث يغنى عن الإعادة مرة أخرى (٤).

وأما استدلالهم بقوله تعالى : {كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً}(٥)، وقوله : {والله لايحب الفساد}(٦)، {ولايرضى لعباده الكفر}(٧). فهذه الآيات وأمثالها إنما تخص الإرادة الشرعية التى لايلزم وقوع مرادها ، وهى المتعلقة بالأوامر والنواهى ، وقد بين الفرق بينها وبين الإرادة الكونية التى هى ملزمة لوقوع مرادها(٨). ولو أن المعتزلة فرقوا بين الإرادتين وفصلوا بينهما ماوقعوا فى هذا الزيغ والضلال .

---

(١) سورة المائدة : آية ٥٤

(٢) سورة غافر : آية ٣١

(٣) سورة آل عمران : آية ١٠٨

(٤) انظر ص. ٢٥٨ فما بعدها.

(٥) سورة الإسراء : آية ٣٨

(٦) سورة البقرة : آية ٢٠٥

(٧) سورة الزمر : آية ٧

(٨) انظر ص : ٢٧٠ .

ولعل من أقوى مايتمسكون به قوله تعالى : {سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ماأشركنا ولاآباؤنا ولاحرمنا من شىء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ، إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون}(١).

قال ابن أبى العز : "وقد أجيب على هذا بأجوبة ، من أحسنها :

أنه أنكر عليهم ذلك لأنهم احتجوا بمشيئته على رضاه ومحبته ، وقالوا : لو كره ذلك وسخطه لما شاءه ، فجعلوا مشيئته دليل رضاه ، فرد الله عليهم ذلك .

أو أنه أنكر عليهم اعتقادهم أن مشيئة الله دليل على أمره به .

أو أنه أنكر عليهم معارضته شرعه وأمره الذى أرسل به رسله وأنزل به كتبه بقضائه وقدره ، فجعلوا المشيئة العامة دافعة للأمر ، فلم يذكروا المشيئة على جهة التوحيد ، وإنما ذكروها معارضين بها لأمره ، دافعين بها لشرعه ، كفعل الزنادقة ، والجهال إذا أمروا أو نهوااحتجوا بالقدر . وقد احتج سارق على عمر رضى الله عنه بالقدر ، فقال : وأنا أقطع يدك بقضاء الله وقدره . يشهد لذلك قوله تعالى : {كذلك كذب الذين من قبلهم}(٢). فعلم أن مرادهم التكذيب ، فهو من قبل الفعل ، من أين له أن الله لم يقدره؟ اطلع الغيب؟"(٣).

يقول ابن القيم رحمه الله :

"أنكر سبحانه عليهم ماهم فيه أكذب الكاذبين وأفجر الفاجرين ولم ينكر عليهم صدقاً ولاحقاً ، بل أنكر عليهم أبطل الباطل ، فإنهم لم يذكروا ماذكروه إثباتاً لقدره وربوبيته ووحدانيته وافتقاراً إليه وتوكلاً عليه

---

(١) سورة الأنعام : آية ١٤٨

(٢) سورة الأنعام : آية ١٤٨

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ص١٤٦-١٤٧ .

وانظر تفسير الآية فى : زاد المسير ٩٩/٣ ، الجامع لأحكام القرآن ١٢٨/٧-١٢٩ ، تفسير القرآن العظيم ١٨٦/٢،١٨٧ ، فتح البارى ٤٤٩/١٣ .

واستعانة به ، ولو قالوا كذلك لكانوا مصيبين ، وإنما قالوه معارضين لشرعه ودافعين به لأمره ، فعارضوا شرعه وأمره ، ودفعوه بقضائه وقدره ، ووافقهم على ذلك كل من عارض الأمر ودفعه بالقدر ، وأيضاً فإنهم احتجوا بمشيئته العامة وقدره على محبته لما شاء ورضاه به وإذنه فيه ، فجمعوا بين أنواع من الضلال ، معارضة الأمر بالقدر ، ودفعه به ، والإخبار عن الله أنه يحب ذلك منهم ويرضاه حيث شاءه وقضاه ، وأن لهم الحجة على الرسل بالقضاء والقدر"(١).

ثم قال : "وتأمل قوله سبحانه بعد حكايته عن أعدائه واحتجاجهم بمشيئته وقدره على إبطال ماأمرهم به رسوله ، وأنه لولا محبته ورضاه به لما شاءه منهم {قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين}(٢)، فأخبر سبحانه أن الحجة له عليهم برسله وكتبه ، وبيان ماينفعهم ويضرهم وتمكنهم من الإيمان بمعرفة أوامره ونواهيه ، وأعطاهم الأسماع والأبصار والعقول فثبتت حجته البالغة عليهم بذلك واضمحلت حجتهم الباطلة عليه بمشيئته وقضائه"(٣).

موقفهم من أحاديث اثبات القدر :

ونمثل لذلك بحديث واحد وهو حديث احتجاج آدم وموسى ، وكيف رده أهل الاعتزال بحجج عقلية واهية ، وطعنوا فى نحره بأنواع الشبه ، وهكذا شأنهم مع كل حديث يخالف بدعهم .

وسياق الحديث كما أورده الإمام البخارى بسنده إلى أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال :" احتج آدم وموسى ، فقال له موسى : ياآدم أنت أبونا ، خيبتنا وأخرجتنا من الجنة ، قال له آدم : ياموسى اصطفاك الله بكلامه وخط لك بيده ، أتلومنى على أمر قدر الله

---

(١) شفاء العليل ص٣٣ .
(٢) سورة الأنعام : آية ١٤٩
(٣) المرجع السابق ص٣٧-٣٨ .

على قبل أن يخلقنى بأربعين سنة؟ فحج آدم موسى ثلاثاً"(١).

وقد ردوه بأمرين :

الأول : هذا يوجب أن موسى كان قدرياً .

الثانى : يوجب فى كل كافر ومشرك وفاجر أن لايلام لأن ماآتاه كان مكتوباً عليه .

ثم زعموا أن من تعلق به وبأمثاله من الأحاديث فهو جاهل ويجب أن يلصق به كل ذم ، وكل لقب مذموم .

ويجاب عليهم بالآتى :

أولاً : هذا الحديث صحيح ثابت فى كتب السنة بالاتفاق .

رواه عن النبى صلى الله عليه وسلم أبو هريرة وغيره ،وقد ذكر الحافظ ابن حجر أنه من طريق أبى هريرة رواه عشرة من التابعين ثم ذكرهم وذكر من خرج لهم من الأئمة(٢).

قال ابن القيم رحمه الله :

"وقد رد هذا الحديث من لم يفهمه من المعتزلة ... وهذا من ضلال فريق الاعتزال وجهلهم بالله ورسوله وسنته ، فإن هذا حديث صحيح متفق على صحته ، لم تزل الأمة تتلقاه بالقبول من عهد نبيها قرناً بعد قرن وتقابله بالتصديق والتسليم ، ورواه أهل الحديث فى كتبهم وشهدوا به على رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قاله ، وحكموا بصحته ، فما لأجهل الناس

---

(١) صحيح البخارى ، كتاب القدر (٨٢) ، باب تحاج آدم وموسى عند الله عز وجل (١١) ٢١٤/٧ .

وأخرجه بلفظ مقارب فى كتاب الأنبياء (٦٠) ، باب وفاة موسى وذكره بعد (٣١) ١٣١/٤ ، وفى كتاب التوحيد (٩٧) ، باب قوله {وكلم الله موسى تكليماً} (٣٧) ٢٠٣/٨ .

وأخرجه مسلم بلفظ مقارب ، كتاب القدر (٤٦) ، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام (٢) برقم ٢٦٥٢ ، ٢٠٤٢/٤-٢٠٤٤ .

(٢) انظر فتح البارى ٥٠٦/١١ .

بالسنة ومن عرف بعداوتها وعداوة حملتها والشهادة عليهم بأنهم مجسمة ومشبهة حشوية وهذا الشأن؟ ولم يزل أهل الكلام الباطل المذموم موكلين برد أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم التى تخالف قواعدهم الباطلة وعقائدهم الفاسدة كما ردوا أحاديث الرؤية"(١).

ثانياً : ليس فى الحديث احتجاج بالقدر على المعاصى كما يزعم المعتزلة. وآدم عليه السلام لم يحتج بالقدر لأن أنبياء الله عليهم السلام من أعلم الناس بالله وبأمره ونهيه فلايسوغ لأحدهم أن يعصى الله بالقدر ثم يحتج على ذلك(٢).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

"ومعاذ الله أن يحتج آدم أو من هو دونه من المؤمنين على المعاصى بالقدر ، فإنه لو ساغ هذا لساغ أن يحتج إبليس ومن اتبعه من الجن والإنس بذلك ، ويحتج به قوم نوح وعاد وثمود ، وسائر أهل الكفر والفسوق والعصيان ولم يعاقب أحد . وهذا مما يعلم فساده بالاضطرار شرعاً وعقلا"(٣).

بل فى الحديث إثبات لقدر الله السابق . وفيه حجة لأهل السنة فى إثبات القدر وخلق أفعال العباد(٤).

قال ابن عبد البر رحمه الله :

"هذا الحديث أصل جسيم لأهل الحق فى إثبات القدر وأن الله قضى أعمال العباد فكل أحد يصير لما قدر له بما سبق فى علم الله"(٥).

---

(١) شفاء العليل ص٢٩ .

(٢) انظر : المنتقى من منهاج الاعتدال ص١٣١ ، شفاء العليل ص٣٨ ، شرح العقيدة الطحاوية ص١٤٧ .

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم ٨٤٨/٢ .

(٤) فتح البارى ٥١٢/١١ .

(٥) المرجع السابق ٥٠٩/١١ .

ثالثاً : وقد ذكر فى احتجاج آدم بالقدر عدة أقوال المتجه منها قولان:

الأول : إنما لام موسى عليه السلام آدم عليه السلام على المصيبة التى أخرجته وذريته من الجنة بسبب أكله من الشجرة، فاحتج آدم بالقدر على المصيبة لاعلى المعصية ، لأن العبد مأمور أن يحتج بالقدر عند المصائب ويستغفر ويتوب عند المعايب ، كما قال سبحانه : {فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك}(١).

وقال : {ماأصاب من مصيبة فى الأرض ولافى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها ، إن ذلك على الله يسير}(٢).

وهذا جواب شيخ الإسلام ابن تيمية واستحسنه شارح الطحاوية(٣).

الثانى : إن الاحتجاج بالقدر على الذنب ينفع فى موضع ويضر فى موضع ، فينفع إذا احتج به بعد وقوعه والتوبة منه وترك معاودته كما فعل آدم،ويضر الاحتجاج به فى الحال والمستقبل ، بأن يرتكب فعلاً محرماً أو يترك واجباً فيلومه عليه لائم فيحتج بالقدر على إقامته عليه وإصراره ، فيبطل بالاحتجاج به حقاً ويرتكب باطلاً ، كما احتج به المصرون على شركهم وعبادتهم لغير الله فقالوا : {لو شاء الله ماأشركنا ولاآباؤنا}(٤).

وخلاصة ذلك إن اللوم إذا ارتفع صح الاحتجاج بالقدر وإذا كان اللوم واقعاً فالاحتجاج بالقدر باطل(٥).

وقال القرطبى :

---

(١) سورة غافر : آية ٥٥

(٢) سورة الحديد : آية ٢٢

(٣) انظر : اقتضاء الصراط المستقيم ٨٤٨/٢ ، شفاء العليل ص٣٨ ، المنتقى من منهاج الاعتدال ص١٣١ ، شرح العقيدة الطحاوية ص١٤٧ .

(٤) سورة الأنعام : آية ١٤٨

(٥) شفاء العليل ص٣٨،٣٩ بتصرف .

"إنما غلبه بالحجة لأنه علم من التوراة أن الله تاب عليه فكان لومه على ذلك نوع جفاء كما يقال ذكر الجفاء بعد حصول الصفاء جفاء ، ولأن أثر المخالفة بعد الصفح ينمحى حتى كأنه لم يكن فلايصادف اللوم من اللائم حينئذ محلا" .

قال الحافظ ابن حجر :

"وهو محصل ماأجاب به المازرى وغيره من المحققين ، وهو المعتمد"(١).

---

(١) فتح البارى ١١/٥١٠ .
وقول القرطبى موجود بمعناه فى الجامع لأحكام القرآن ١١/٢٥٦ .

(٤) مرتكب الكبيرة :-

أمر مرتكب الكبيرة من الأمور التى دار حولها الجدل فى عصر مبكر من عصور الإسلام الأولى . وقد كان للمعتزلة القسط الأكبر والنصيب الأوفر فى تبنى هذه المسألة ، وتقعيد القواعد لها، وإطلاق الأحكام على من تلبس بها ، حتى عدها بعض العلماء رأس مسائل المعتزلة التى عنوا بها ، وأنها كانت السبب فى إطلاق اسم المعتزلة عليهم(١).

والمعتزلة لايعتمدون على نص من القرآن أو السنة فى إطلاقهم الأحكام على صاحب الكبيرة ، وإنما اعتمادهم على العقل .

قال عبد الجبار بعد ذكره لبعض الأحاديث التى تدل على خلود أصحاب الكبائر فى النار :

"إنما نذكر هذه الأخبار ، وإن كان أكثرها أخبار آحاد ، ليعرف من قرأ كتابنا أن التمسك بالسنة طريقتنا ، وأن هؤلاء القوم إذا احتجوا بذلك فقد أخطأوا ، وإلافطريقتنا فى هذا الجنس ، التعلق بأدلة قاطعة"(٢).

فالعمدة عندهم العقل كما هو الحال دائماً ، وأما أحاديث الآحاد فلامجال لها ههنا فى الاحتجاج كما يزعمون .

ولقد عرفوا الكبيرة من الذنوب تعريفاً يلائم ماأطلقوه على صاحبها من أحكام ، ومهدوا به السبيل لكى يستوعب تلك الأحكام .

فقالوا عنها : إن كل ماأتى فيه وعيد فهو كبيرة(٣).

حكم صاحب الكبيرة فى الدنيا :

إن صاحب الكبيرة فى الدنيا لايسمى كافراً ولامؤمناً وإنما يسمى فاسقاً، وتلك عندهم منزلة وسطى بين منزلة الإيمان ومنزلة الكفر ، ولذا أطلقوا عليها اسم المنزلة بين المنزلتين .

---

(١) انظر : تاريخ المذاهب الإسلامية ص١٠٢ .

(٢) فضل الاعتزال ص١٥٦ .

وقد يتوهم من كلام عبد الجبار أنه يحتج بالسنة ، والأمر ليس كذلك .

(٣) انظر : مقالات الإسلاميين ٣٣٢/١ .

والدليل العقلى على ذلك :

إنه لايسمى كافراً لأن أحكام الكفار فى الدنيا لاتجرى عليه ، فلايمنع عن المناكحة والموارثة والدفن وغيرها . كما أنه لايسمى مؤمناً لأنه بارتكابه الكبيرة استحق الذم واللعن والاستخفاف والإهانة ، وقد ثبت أن اسم المؤمن لمن يستحق المدح والتعظيم والمولاة(١).

وأول من نادى بالمنزلة بين المنزلتين وأظهر القول بها واصل بن عطاء الغزال(٢).

وأصبحت هذه المسألة نواة لمذهب الاعتزال(٣). واجتمعت كلمتهم عليها(٤) حتى بالغ أبو الحسين فى تمجيدها وتعظيمها فقال :

"وهل يكون قول أوضح صواباً ولاأصح معنى من قول المعتزلة بالمنزلة بين المنزلتين ، ولو كان شىء من الدين يعلم صوابه باضطرار لعلم قول المعتزلة بالمنزلة بين المنزلتين باضطرار"(٥).

ولعل أيضاًمما دفعهم إلى هذا القول فهمهم لقضية الإيمان .

فالإيمان عندهم هو فعل جميع مافترض الله على عباده ، وترك جميع مانهى عنه(٦)، أو هو أداء الطاعات بما فيها من فرائض ونوافل ، واجتناب المقبحات ، وهو القول الصحيح المختار عندهم(٧).

---

(١) انظر : شرح الأصول ص١٣٩،١٤٠،٦٩٧،٧٠١،٧٠٢،٧١٢ ، فضل الإعتزال ص٣٥٠ ، الانتصار ص١١٩ .

(٢) انظر : الملل والنحل ٤٨/١ ، موقف المعتزلة من السنة ص٤٦ .

(٣) المرجع السابق ص٤٦ .

(٤) انظر : باب ذكر المعتزلة ص٦ ، مقالات الإسلاميين ٣٣١/١ ، الفرق بين الفرق ص١١٥ .

(٥) الانتصار ص١١٩ .

(٦) انظر : فضل الاعتزال ص٢٥٠ .

(٧) انظر : شرح الأصول ص٧٠٧ .

وانظر اختلافهم فى تعريف الإيمان فى مقالات الإسلاميين ٣٢٩/١-٣٣١ .

ومن هنا لايستحق أحد اسم الإيمان إلا إذا قام بجميع الطاعات بما فيها من فرائض ونوافل ، واجتنب جميع المعاصى .

حكم مرتكب الكبيرة فى الآخرة :

وأما فى الآخرة فإنهم حكموا عليه بالخلود فى النار كالكافر، وإن كان حاله فى العقاب دون الكافر ، فعقابه أخف ، ولكنه مع ذلك خالد مؤبد فيها(١).

دليلهم العقلى على ذلك :

قال عبد الجبار :

"إن العاصى لايخلو حاله من أحد أمرين : إما أن يعفى عنه ، أو لايعفى عنه ، فإن لم يعف عنه فقد بقى فى النار خالداً ، وهو الذى نقوله ، وإن عفى عنه فلايخلو إما أن يدخل الجنة أو لا ، فإن لم يدخل الجنة لم يصح ، لأنه لادار بين الجنة والنار ، فإذا لم يكن فى النار وجب أن يكون فى الجنة لامحالة . وإذا دخل الجنة فلايخلو ، إما أن يدخلها مثاباً ، أو متفضلاً عليه . لايجوز أن يدخل الجنة متفضلاً عليه لأن الأمة اتفقت على أن المكلف إذا دخل الجنة فلابد من أن يكون حاله متميزاً عن حال الولدان المخلدين وعن حال الأطفال والمجانين ، ولايجوز أن يدخل الجنة مثاباً لأنه غير مستحق ، وإثابة من لايستحق الثواب قبيح ، والله تعالى لايفعل القبيح"(٢).

ومن هنا يتضح أن لهذه المسألة ارتباطاً وثيقاً بموضوع الوعد والوعيد الذى عده المعتزلة أصلاً من أصولهم ، وهو ينبثق من موضوع العدل الذى سبق بيانه وتوضيحه(٣).

---

(١) انظر : فضل الاعتزال ص٢١٠،٣٥٠ ، مقالات الإسلاميين ٣٣٤/١ ، الملل والنحل ٤٥/١ .

(٢) شرح الأصول ص٦٦٦-٦٦٧ .

(٣) انظر موقف المعتزلة من السنة ص٦٨ . وانظر ص: ٢٤٣ فما بعدها.

فزعموا فى تعريف الوعد والوعيد إن الله وعد المطيعين بالثواب وتوعد العصاة بالعقاب ، وأنه يفعل ماوعد به وتوعد عليه لامحالة ، ولايجوز عليه الخلف والكذب ، والكذب قبيح والله لايفعل القبيح(١).

ولذا أوجبوا على الله أن يعذب العاصين ولايعفو عنهم ، كما أوجبوا عليه أن يثيب الطائعين ، ولو لم يفعل الله ذلك لكان قبيحاً منه سبحانه وتعالى(٢).

وللمعتزلة البغدادية تفريق فى نوعية الوجوب بالنسبة للمطيع والعاصى . فالعقاب عندهم أعلى حالاً من الثواب ، لأن الثواب لايجب إلا من حيث الجود ، وليس هذا قولهم فى العقاب ، فإنه يجب فعله فى كل حال ولايجوز أن يعفو الله عن العصاة بل يجب عليه أن ينزل بهم مايستحقونه من عذاب لامحالة(٣).

وهذا العقاب يستحقه العاصى على طريق الدوام ، فهو لو لم يستحق على طريق الدوام لكان لايحسن من الله أن يعذب الفساق بالنار ويخلدهم فيها ، كما أن العقاب كالذم يثبتان فى الاستحقاق معاً ويزولان معاً ، والفاسق يستحق الذم على طريق الدوام ، فكذلك يجب أن يستحق العقاب على طريق الدوام(٤).

ووعيد الله بالعقاب حق لايجوزعليه الخلاف ولاالكذب ، لأن الله قد خوف بوعيد قاطع وليس تخويفاً،ولو لم يفعله لما كان ذلك الوعيد صدقاً . ولايجوز أن يكون خلفه كرماً لأنه إن وجب ذلك فى الفساق وجب مثله فى الكفار ، ومتى قيل فى الكفار إنه يحسن منه وقوع الوعيد عليهم مع أن خلافه كرم ، فكذلك فى الفساق(٥).

---

(١) انظر : شرح الأصول ص١٣٦ .
(٢) انظر : شرح الأصول ص٦٤٧-٦٥٠ ، وانظر ص٥٩٨،٦١٤-٦١٥ .
(٣) انظر المصدر السابق ص٦٤٤،٦٤٥ .
(٤) انظر المصدر نفسه ص٦٦٧ .
(٥) انظر : فضل الاعتزال ص٢١١ .

بل من زعم أن خلف الوعيد كرم وأن الله يمكن أن يخلف فى وعيده كفر ، لأنه أضاف القبيح إلى الله تعالى(١).

والتوبة عندهم لاتصح إلا إذا كانت من جميع المعاصى وأما إن تاب عن بعض ولم يتب عن البعض الآخر ، لم تستقم توبته . يقول عبد الجبار : "لاتصح التوبة عن بعض القبائح مع الإصرار على البعض وهو الصحيح من المذهب ، والذى يدل على صحته أن التوبة عن القبيح يجب أن تكون ندماً عليه لقبحه وعزماً على أن لايعود إلى أمثاله فى القبح"(٢).

ومادامت قد بقيت كبيرة واحدة فهى كافية فى إسقاط جميع مالديه من ثواب ، لأنه لاثواب البتة يستحقه الإنسان مع وجود الكبيرة(٣).

وقد استدلوا بأدلة الوعيد من القرآن والسنة فأيدوا بها حججهم العقلية فى تخليد صاحب الكبيرة فى النار ، ومن ذلك :

قوله تعالى : {ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين}(٤).

فالله تعالى أخبر أن العصاة يعذبون فى النار ويخلدون فيها، والعاصى اسم يتناول الفاسق والكافر جميعاً فيجب حمله عليهما ، لأنه تعالى لو أراد أحدهما دون الآخر لبينه ، فلما لم يبين دل على ماذكرناه .

وقوله تعالى : {ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً}(٥).

وقوله : {ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها}(٦).

---

(١) انظر شرح الأصول ص١٣٢ .
(٢) المرجع السابق ص٧٩٤-٧٩٥ .
(٣) انظر المصدر السابق ص٦٩١ ، مقالات الإسلاميين ٣٣٢/١ .
(٤) سورة النساء : آية ١٤
(٥) سورة الجن : آية ٢٣
(٦) سورة النساء : آية ٩٣

ووجه الاستدلال:إن من قتل مؤمناً متعمداً جازاه الله وعاقبه وغضب عليه ولعنه وذلك يؤيد خلوده فى النار .

وقوله أيضا : {إن المجرمين فى عذاب جهنم خالدون}(١).

ووجه الدلالة : إن المجرم اسم يتناول الكافر والفاسق جميعاً وهما مرادان بالآية ، ولو أراد الله أحدهما لبينه فلما لم يبينه دل على أنه أرادهما جميعاً .

وقوله سبحانه : {من يعمل سوءاً يجز به}(٢).

وقوله :{وإن الفجار لفى جحيم}(٣)(٤).

موقفهم من الآيات والأحاديث التى تعارض ماذهبوا إليه :

ونمثل لذلك بآية وحديث :

الآية : قوله تعالى : {إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء}(٥).

يبين عبد الجبار أن المراد بقوله "مادون ذلك" صغائر المعاصى (٦).

الحديث : قوله صلى اله عليه وسلم : "فخرج من النار قوم بعدما امتحشوا وصاروا فحماً وحمماً"(٧).

يبدأ عبد الجبار إيراده بصيغة التضعيف روى .

ثم يقول :

"وجوابنا ، أن هذا الخبر لم تثبت صحته ، ولو صح فإنه منقول بطريق الآحاد ، وخبر الواحد مما لايوجب القطع ، ومسألتنا طريقها العلم فلايمكن

---

(١) سورة الزخرف : آية ٧٤
(٢) سورة النساء : آية ١٢٣
(٣) سورة الانفطار : آية ١٤
(٤) شرح الأصول ص٦٥٧-٦٦٣ بتصرف .
(٥) سورة النساء : آية ٤٨،١١٦
(٦) انظر : فضل الاعتزال ص١٥٤ .
(٧) يأتى تخريج الحديث والكلام عنه .

الاحتجاج به ... ثم إنا نعارضهم بأخبار رويت عن النبى صلى الله عليه وسلم فى هذا الباب من جملتها قوله صلى الله عليه وسلم : "لايدخل الجنة مدمن خمر ولانمام ولاعاق"(١).

---

(١) هذا الحديث ورد عن جماعة من الصحابة رضوان الله عليهم وهم :
١ ـ عبد الله بن عمرو بن العاص :
وحديثه أخرجه النسائى فى سننه بلفظ : "لايدخل الجنة منان ولاعاق ولامدمن خمر" .
كتاب الأشربة ، باب الرواية فى المدمنين فى الخمر ٢٨٤/٨ .
والدارمى فى سننه ، كتاب الأشربة ، باب فى مدمن الخمر ١١٢/٢ .
وأحمد فى المسند ٢٠١/٢ وزاد فى رواية عنه : "ولاولد زنية" ٢٠٣/٢ .
وابن حبان فى كتاب الزكاة (١١) ورقمه ٣٣٨٤ ، ١٧٨/٨ .
وبالزيادة السابقة عند أحمد برقم ٣٣٨٣ ، ١٧٥/٨-١٧٦ "الإحسان" .
وعبد الرزاق فى المصنف برقم ١٣٨٥٩ ، ٤٥٤/٧ ، وفيه الزيادة السابقة.
وابن خزيمة فى التوحيد ص٢٣٦-٢٣٧ .
وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد ٢٦٠/٦ وفيه الزيادة .
والشيخ ناصر الدين الألبانى فى سلسلة الأحاديث الصحيحة ٢٨٥/٢ برقم ٦٧٣ ، وصحيح الجامع .وقال صحيح ٢٢٨/٦ .
٢ ـ عبد الله بن عمر :
وحديثه أخرجه النسائى بلفظ مقارب لحديث ابن عمرو ، فى كتاب الزكاة ، باب المنان بما أعطى ٦/٥ .
وأحمد فى المسند . وذكر بدل المنان : الديوث الذى يقر فى أهله الخبث . ١٢٨،٦٩/٢ . وانظر ١٣٤/٢ .
٣ ـ أبو سعيد الخدرى :
وحديثه أخرجه أحمد فى المسند ٤٤،٢٨/٣ .
٤ ـ أنس بن مالك :
وحديثه فى مسند أحمد أيضا ٢٢٦/٣ .
وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد ٧٧/٥ .
٥ ـ أبو الدرداء:
وحديثه فى مسند أحمد إلا أنه ذكر بدل المنان : مكذب بالقدر ٤٤١/٦ .
وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد إلا أنه ذكر "مكذب بالقدر" بدل "مدمن خمر" ٢٠٥/٧-٢٠٦ .
=

وهذا يدفع مااحتجوا به فى المسألة .

ومن ذلك ماروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : "من تردى من جبل فهو يتردى من جبل فى نار جهنم خالداً مخلداً"(١).

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : "من قتل نفسه بحديدة فحديدته فى يده يجأ بها بطنه فى نار جهنم خالداً أبداً"(١).

أو قوله أيضا : "من يحتسى سماً يحتسى سماً فى نار جهنم خالداً أبدا"(١)

إلى غير ذلك من الأخبار المروية فى هذا الباب .

... إنا نتأول هذا الخبر ... على وجه يوافق الأدلة ، فنقول : إن المراد يخرج من النار ، أى يخرج من عمل أهل النار قوم"(٢).

= ٦ - ابن عباس :
أورده الهيثمى فى المجمع ٧٧/٥ .
٧ - مولى أبى قتادة :
وحديثه أخرجه الطحاوى فى مشكل الآثار وفيه زيادة "ولاولد زنية" ٣٩٥/١ .
والحديث أخرجه عبد الرزاق فى المصنف عن مجاهد مرسلاً ، وزاد فيه : ولامن أتى ذات محرم ولامرتد أعرابياً بعد هجرة . ورقمه ٢٠١٢٩ ، ١٣٦/١١ .
وأورده أبو نعيم فى الحلية من حديث أبى هريرة ، وأبى سعيد ، وعبد الله بن عمرو ، وابن عباس ، ومولى لأبى قتادة ، ومجاهد مرسلاً ، وذكر طرقه إلى هؤلاء انظر ٣٠٧/٣-٣٠٩ .
ولم يرد لفظ النمام فى شىء من رواياته .

(١) الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه ، من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ولفظه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "من تردى من جبل فقتل نفسه فهو فى نار جهنم يتردى فيها خالداً مخلداً فيها أبداً ، ومن تحسى سماً فقتل نفسه فسمه فى يده يتحساه فى نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً ، ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته فى يده يجأ بها فى بطنه فى نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبدا" .
فى كتاب الطب (٧٦) ، باب شرب السم والدواء به (٥٦) ، ٣٢/٧ .
وأخرجه مسلم فى صحيحه بلفظ مقارب للفظ البخارى مع تقديم وتأخير فى كتاب الإيمان (١) ، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه (٤٧) برقم ١٠٩ ، ١٠٣/١-١٠٤ .

(٢) شرح الأصول ص٦٧٢-٦٧٣ .

مذهب السلف فى حكم صاحب الكبيرة والجواب عن شبه المعتزلة :

إن القول الأمثل فى تعريف الكبيرة ، ماترتب عليها حد أو توعد عليها بالنار ، أو اللعنة ، أو الغضب(١).

والمراد بصاحب الكبير هو أن يرتكب المؤمن كبيرة غير مكفرة بلا استحلال ويموت بلاتوبة(٢).

والمذهب الحق الذى عليه أهل السنة والجماعة أن صاحب الكبيرة مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته ، فهم لايخرجونه عن الإيمان بملابسته لكبائر الذنوب . وهذا حكمه فى الدنيا ، وأما فى الآخرة فهو تحت مشيئة الله عز وجل إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه ، مع القطع بأنه لايخلد فى النار إلا المشرك لقوله تعالى : {إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء}(٣)(٤).

وهذا القول هو الذى دلت عليه نصوص الكتاب والسنة وأقوال السلف الصالح رضوان الله عليهم .

أما الأدلة التى تدل على عدم خروجه من زمرة المؤمنين ، منها :

(١) قوله تعالى :

{ياأيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن عفى له من أخيه شىء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم}(٥).

فلم يخرج الله تعالى القاتل من المؤمنين وجعله أخاً لولى القصاص والأخوة هنا أخوة الدين بلاريب(٦).

---

(١) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص٣٧٠ .
(٢) لوامع الأنوار ٣٨٩/١ .
(٣) سورة النساء : آية ٤٨،١١٦
(٤) انظر : شرح النووى على صحيح مسلم ٢٢٠/١ ، مجموع الفتاوى ١٥١/٣،١٥٢ ، شرح العقيدة الطحاوية ص٣٢١،٣٦٩،٣٧٠ ، لوامع الأنوار ٣٦٨/١،٣٧١،٣٨٩،٤١٠
(٥) سورة البقرة : آية ١٧٨
(٦) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص٣٢١ .

(٢) قوله تعالى :

{وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين . إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون}(١).

فأثبت سبحانه أخوة الإيمان مع وجود القتال بينهم وهو من الكبائر ولو كان كفراً لانتفت الأخوة الإيمانية(٢).

(٣) روى البخارى بسنده إلى أبى هريرة :

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من كانت عنده مظلمة لأخيه فليتحلله منها ، فإنه ليس ثم دينار ولادرهم ، من قبل أن يؤخذ لأخيه من حسناته ، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات أخيه فطرحت عليه"(٣).

فثبت بهذا الحديث أن الظالم تكون له حسنات يستوفى المظلوم منها حقه(٤).

وأما مايدل من الأدلة على عدم خلود أصحاب الكبائر فى النار حاشا المشركين :

(١) قوله تعالى :

{إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء}(٥).

---

(١) سورة الحجرات : آية ٩،١٠

(٢) انظر : شرح لمعة الاعتقاد ص٩٩ .

(٣) صحيح البخارى ، كتاب الرقاق (٨١) ، باب القصاص يوم القيامة (٤٨) ، ١٩٧/٧ ، وبلفظ مقارب فى كتاب المظالم (٤٦) ، باب من كانت عنده مظلمة عند الرجل فحللها له (١٠) ، ٩٩/٣ .

(٤) شرح العقيدة الطحاوية ص٣٢٢ بتصرف .

(٥) سورة النساء : آية ٤٨،١١٦

(٢) روى البخارى بسنده إلى أنس بن مالك أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

"يخرج من النار من قال لاإله إلا الله وكان فى قلبه من الخير مايزن شعيرة ، ثم يخرج من النار من قال لاإله إلا الله وكان فى قلبه من الخير مايزن برة ثم يخرج من النار من قال لاإله إلا الله وكان فى قلبه من الخير مايزن ذرة"(١).

(٣) روى مسلم بسنده إلى أبى ذر قال :

أتيت النبى صلى الله عليه وسلم وهو نائم عليه ثوب أبيض ثم أتيته فإذا هو نائم ثم أتيته وقد استيقظ فجلست إليه فقال مامن عبد قال لاإله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة . قلت : وإن زنى وإن سرق؟ قال : وإن زنى وإن سرق ، قلت : وإن زنى وإن سرق؟ ، قال : وإن زنى وإن سرق - ثلاثاً - ثم قال فى الرابعة "على رغم أنف أبى ذر" .

قال : فخرج أبو ذر وهو يقول : وإن رغم أنف أبى ذر(٢).

---

(١) صحيح البخارى ، فى كتاب التوحيد (٩٧) ، باب قول الله تعالى : {لما خلقت بيدى} (١٩) ، وهو جزء من حديث طويل فى شأن الشفاعة ١٧٣/٨ .
وبمعناه فى باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم (٣٦) ، ٢٠٠/٨-٢٠٢ .
وبلفظ مقارب فى كتاب الإيمان (٢) ، باب زيادة الإيمان ونقصانه (٣٣) ، ١٦/١ .
وأخرجه مسلم فى صحيحه بلفظه وبمعناه فى كتاب الإيمان (١) ، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (٨٤) برقم ١٩٣ ، ١٨٢/١-١٨٤ .

(٢) صحيح مسلم فى كتاب الإيمان (١)، باب تحريم الكبر وبيانه (٣٩) برقم ٩٤ ، ٩٥/١ وأخرج نحوه فى كتاب الزكاة (١٢) ، باب الترغيب فى الصدقة (٩) بالرقم السابق ٦٨٧/٢-٦٨٩ .
وأخرجه البخارى فى صحيحه بلفظ مقارب فى كتاب اللباس (٧٧) ، باب الثياب البيض (٢٤) ، ٤٣/٧-٤٤ ، وأخرج نحوه فى كتاب الجنائز (٢٣) ، باب فى الجنائز ، ومن كان آخر كلامه لاإله إلا الله (١) ، ٦٩/٢ . وفى كتاب الاستئذان (٧٩) ، باب من أجاب بلبيك وسعديك (٣٠) ، ١٣٧/٧ ، وفى كتاب الرقاق (٨١) ، باب المكثرون هم المقلون (١٣) ، ١٧٦/٧-١٧٧ ، وفى كتاب التوحيد (٩٧) ، باب كلام الرب مع جبريل (٣٣) ، ١٩٦/٨ .

قال النووى فى شرحه للحديث :

"قوله صلى الله عليه وسلم : "وإن زنى وإن سرق" فهو حجة لمذهب أهل السنة أن أصحاب الكبائر لايقطع لهم بالنار وأنهم إن دخلوها أخرجوا منها وختم لهم بالخلود فى الجنة"(١).

والأدلة على عدم خلود صاحب الكبيرة فى النار كثيرة جداً . والأحاديث فى ذلك متواترة(٢).

وأما مايدل على أنه تحت المشيئة، قوله تعالى فى الآية السابقة : {إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء}(٣). وفى حديث عبادة ابن الصامت : أنه صلى الله عليه وسلم قال وحوله عصابة من أصحابه : "بايعونى على أن لاتشركوا بالله شيئاً ولاتسرقوا ولاتزنوا ولاتقتلوا أولادكم ولاتأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولاتعصوا فى معروف ، فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب فى الدنيا فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله فهو إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه . فبايعناه على ذلك"(٤).

وأما أقوال أهل العلم فإننا نقتصر على قولين جامعين لإمامين جليلين أولهما الإمام الطحاوى إذ يقول :

---

(١) شرح النووى على مسلم ٩٧/٢ .

(٢) انظر الشفاعة ص: ١٣٠

(٣) سورة النساء : آية ٤٨، ١١٦

(٤) أخرجه البخارى فى صحيحه ، كتاب الإيمان (٢) ، باب (١١) ، ١٠/١ .
وأخرجه بلفظ مقارب فى كتاب مناقب الأنصار (٦٣) ، باب وفود الأنصار إلى النبى صلى الله عليه وسلم (٤٣) ، ٢٥١/٤ ، وفى كتاب التفسير (٦٥) ، تفسير سورة الممتحنة (٦٠) ، باب {إذاجاءك المؤمنات يبايعنك} (٣) ، ٦١/٦-٦٢ ، وفى كتاب الحدود (٨٦) ، باب توبة السارق (١٤) ، ١٨/٨ ، وفى كتاب الأحكام (٩٣) ، باب بيعة النساء (٤٩) ١٢٥/٨ .
وأخرجه مسلم فى صحيحه بألفاظ مقاربة ، فى كتاب الحدود (٢٩) ، باب الحدود كفارات لأهلها (١٠) برقم ١٧٠٩ ، ١٣٣٣/٣-١٣٣٤ .

"وأهل الكبائر من أمة محمد صلى الله عليه وسلم فى النار لايخلدون ، إذا ماتوا وهم موحدون ، وإن لم يكونوا تائبين ، بعد أن لقوا الله عارفين . وهم فى مشيئته وحكمه إن شاء غفر لهم وعفا عنهم بفضله ، كما ذكر عز وجل فى كتابه : {ويغفر مادون ذلك لمن يشاء}[(١)] وإن شاء عذبهم فى النار بعدله، ثم يخرجهم منها برحمته وشفاعة الشافعين من أهل طاعته ، ثم يبعثهم إلى جنته . وذلك بأن الله تولى أهل معرفته ، ولم يجعلهم فى الدارين كأهل نكرته ، الذين خابوا من هدايته ، ولم ينالوا من ولايته. اللهم ياولى الإسلام وأهله ، ثبتنا على الإسلام حتى نلقاك به"[(٢)].

والثانى : الإمام النووى رحمه الله فإنه قال :

"واعلم أن مذهب أهل السنة وماعليه أهل الحق من السلف والخلف أن من مات موحداً دخل الجنة قطعاً على كل حال ، فإن كان سالماً من المعاصى كالصغير والمجنون والذى اتصل جنونه بالبلوغ والتائب توبة صحيحة من الشرك أو غيره من المعاصى إذا لم يحدث معصية بعد توبته والموفق الذى لم يبتلى بمعصية أصلاً، فكل هذا الصنف يدخلون الجنة ولايدخلون النار أصلاً .. وأما من كانت له معصية كبيرة ومات من غير توبة فهو فى مشيئة الله تعالى فإن شاء عفا عنه وأدخله الجنة أولاً وجعله كالقسم الأول ، وإن شاء عذبه القدر الذى يريده سبحانه وتعالى ثم يدخله الجنة ، فلايخلد فى النار أحد مات على التوحيد ولو عمل من المعاصى ماعمل، كما أنه لايدخل الجنة أحد مات على الكفر ولو عمل من أعمال البر ماعمل . هذا مختصر جامع لمذهب أهل الحق فى هذه المسألة وقد تظاهرت أدلة الكتاب والسنة وإجماع من يعتد به من الأمة على هذه القاعدة وتواترت بذلك نصوص تحصل العلم القطعى"[(٣)].

---

(١) سورة النساء : آية ٤٨، ١١٦

(٢) متن العقيدة الطحاوية ص١٥ .

(٣) شرح النووى على مسلم ٢١٧/١ .

وأما شبه المعتزلة فيجاب عنها بما يلى :

(١) تعريفهم للكبيرة تعريف قاصر عن تحديد الكبيرة ، والحد يجب أن يكون جامعاً مانعاً .

ولذا يمكن أن يدخل فى تعريفهم بعض الصغائر التى جاء فيها وعيد من الشارع ، ولذلك خص السلف وعيد صاحب الكبير بما ترتب عليه حد ، أو وعيد بالنار ، أو اللعنة أو الغضب(١).

(٢) سلب الإيمان من العاصى من البدع القبيحة التى دل على خلافها القرآن والسنة وإجماع السلف رضوان الله عليهم(٢).

والمعتزلة انما سلبوا إيمان الفاسق بناء على أن الأعمال عندهم شرط فى صحة الإيمان ، وهذا بخلاف المعهود عن السلف فإن الأعمال عندهم شرط فى كمال الإيمان . وهو الذى تؤيده النصوص(٣).

فعصاة المسلمين وفساقهم معهم بعض الإيمان وأصله ، وليس معهم جميع الإيمان الواجب الذى يستوجبون به الجنة(٤)، ولذا لايعطون اسم الإيمان المطلق ولايسلب عنهم مطلق الاسم . وأخوة الإيمان ثابتة لهم مع وجود المعاصى(٥).

قال صلى الله عليه وسلم : "من صلى صلاتنا ، واستقبل قبلتنا ، وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذى له ذمة الله وذمة رسوله فلاتحقروا الله فى ذمته"(٦).

---

(١) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص٣٧٠،٣٧٢ .

(٢) انظر : مجموع الفتاوى ١٥١/٣ ، لوامع الأنوار ٤١٠/١ .

(٣) لوامع الأنوار ٤٠٥/١ بتصرف .

(٤) انظر : مجموع الفتاوى ٣٧٥/٣ .

(٥) انظر المرجع السابق ١٥١/٣ .

(٦) الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه ، كتاب الصلاة (٨) ، باب فضل استقبال القبلة (٢٨) ، من حديث أنس بن مالك ١٠٢/١ . =

وقال الإمام الطحاوى رحمه الله :

"ونسمى أهل قبلتنا مسلمين مؤمنين ماداموا بما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم معترفين ، وله بكل ماقاله وأخبر مصدقين"(١).

وأدلة الكتاب والسنة والإجماع تدل على أن الزانى والسارق والقاذف لايقتل ، بل يقام عليه الحد ، فدل على أنه ليس بمرتد ولايخرج من الإيمان بما فعل(٢).

والقول بخلوده فى النار من البدع أيضا المخالفة للكتاب والسنة واتفاق السلف رحمهم الله(٣).

وحكمهم عليه بالخلود فى النار يوم القيامة يلزم منه تكفيره فى الدنيا ، وقد صرح بذلك الخوارج ، والمعتزلة وإن لم يحكموا عليه بالتكفير إلا أن قولهم وقول الخوارج سواء والخلاف بينهم لفظى(٤).

(٣) إن إنفاذ الوعيد والوجوب على الله الذى دندن به المعتزلة وخلدوا به صاحب الكبيرة فى النار ، إنما هو أمر عقلى محض لاسند له من النصوص ولامن العقول السليمة .

فمن أين للعقول أن توجب وتحرم عليه سبحانه ، وكيف علمت أنه يجب عليه أن يمدح ويذم ويثيب ويعاقب على الفعل ، وأنه رضى عن فاعل، وسخط على فاعل؟ وهل ذلك إلا غيب عنا ، وإقحام للعقل فيما لاعلم له ، وتجنى على نصوص الشرع ، وقياس لله بخلقه فى أفعاله .

= قال النووى رحمه الله :

"واتفق أهل السنة ... على أن المؤمن الذى يحكم بأنه من أهل القبلة ولايخلد فى النار لايكون إلا من اعتقد بقلبه دين الإسلام اعتقاداً جازماً خالياً من الشكوك ، ونطق بالشهادتين" . شرح النووى على مسلم ١٤٩/١ .

(١) متن العقيدة الطحاوية ص١٣ .

(٢) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص٣٢١،٣٢٢ .

(٣) انظر المرجع السابق ص٣٢١ ، لوامع الأنوار ٤١٠/١ .

(٤) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص٣٣٢ .

وهـل كلمـا حسن من الخلـق حسن منه وقبح منهـم قبـح منه؟ أم هو القياس الفاسد أيضا؟[١]

وقد سبق بيان هذا فى أفعال العباد[٢]، والحجة العقلية عندهم واحدة فكمـا تمخـض عنها من قبل خلـق العبـاد لأفعالهم وعدم إرادتهـا مـن الله ، تمخض عنهـا ههنـا خلود أصحـاب الكبـائر فى النـار ونفـى الشفـاعة عنهـم فلاداعى للاعادة .

ولاشـك إن الله وعد الطائعين بالثـواب ، وأوعد العـاصين بالعقاب ، ومـاوعد به عباده الطائعين لابد مـن تحققه ، كرماً منـه سبحانه وفضلاً ، لأنه لايخلف الميعاد كما ذكر[٣].

وليس معنى ذلك أن العباد يستحقون دخول الجنة على ربهـم بأعمالهم كمـا يزعم أهل الاعتزال ، بل إنما يدخلهم الجنة برحمتـه وفضله ، كما قال صلى اللــه عليـه وسلم : "لـن يدخل أحداً عملـه الجنــة" ، قـالوا : ولاأنت يارسـول اللـه؟ قـال : "ولاأنا إلا أن يتغمـدنى اللـه بفضـل ورحمـة ..."[٤] الحديث .

---

(١) انظر : مفتاح دار السعادة ص٥١،٥٢ .

(٢) انظر ص : ٢٤٣ فما بعدها .

(٣) انظر : اقتضاء الصراط المستقيم ٧٧٦/٢ ، المنتقى من منهاج الاعتدال ص٥٣ . من ذلـك قوله تعالى : {ربنا إنك جامع الناس ليوم لاريب فيه إن اللـه لايخلف الميعاد" سورة آل عمران : آية ٩
وقـوله تعالى : {ولاتخزنا يوم القيامةإنك لاتخلف الميعاد} . سـورة آل عمران : آية ١٩٤
وقوله سبحانه : {إن الله لايخلف الميعاد} . سورة الرعد : آية ٣١

(٤) الحديث أخرجه البخارى فى صحيحـه ، من حديث أبى هـريرة فى كتـاب المرضى (٧٥) ، باب تمنى المريض الموت (١٩) ، ١٠/٧ ، وأخرجه بلفـظ مقـارب فى كتاب الــرقاق (٨١) ، باب القصـد والمداومـة على العمـل (١٨) ، ١٨١/٧-١٨٢ . =

وذلك بخلاف الوعيد ، فإن خلفه مدح لاذم ، ويجوز عليه سبحانه أن يخلف وعيده ، لأنه حقه ، فإخلافه له عفو وكرم وجود وإحسان . ولهذا مدح به كعب بن زهير رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال :

انبئت أن رسول الله أوعدني
والعفو عند رسول الله مأمول(١)

عن عبد الملك بن قريب الأصمعي(٣)قال : جاء عمرو بن عبيد إلى أبي عمرو بن العلاء(٤)فقال : ياأبا عمرو ، أيخلف الله وعده؟ قال : لا . قال : أفأرأيت من وعده الله على عمل عقاباً أيخلف الله وعده؟

= وأخرجه مسلم في صحيحه بألفاظ مقاربة في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم (٥٠) باب لن يدخل أحد الجنة بعمله ، بل برحمة الله تعالى (١٧) برقم ٢٨١٦ من حديث أبي هريرة ، وبرقم ٢٨١٧ من حديث جابر وبرقم ٢٨١٨ من حديث عائشة رضي الله عنها ٢١٦٩/٤-٢١٧١ .
وانظر : اقتضاء الصراط المستقيم ٧٧٧/٢ ، شرح العقيدة الطحاوية ص٤٣٨ .

(١) انظر : لوامع الأنوار ٣٧٠/١ .
وبيت الشعر من قصيدة كعب بن زهير في مدح النبي صلى الله عليه وسلم وهو في شرح قصيدة كعب بن زهير ص٢٤٨ ،وشرح ديوان كعب ص١٩ .

(٢) الأصمعي :
هو عبد الملك بن قريب بن عبد الملك أبو سعيد الباهلي ، الأصمعي البصري ، أحد الأعلام . لغوي إخباري ، صدوق في الحديث ، سني ، روى عن ابن عون ، وسليمان التيمي ، ومسعر بن كدام . وعنه : يحي بن معين وإسحاق بن إبراهيم الموصلي وجماعة آخرون . مات سنة ٢١٦هـ وقيل غير ذلك .
انظر : الجرح والتعديل ٣٦٣/٥ ، تاريخ بغداد ٤١٠/١٠-٤٢٠ ، ميزان الاعتدال ٦٦٢/٢ ، سير أعلام النبلاء ١٧٥/١٠-١٨١ ، تهذيب التهذيب ٤١٥/٦ ، تقريب التهذيب ٥٢١/١،٥٢٢ .

(٣) أبو عمرو بن العلاء :
هو أبوعمرو بن العلاء بن عمار بن العريان ، المازني النحوي ، القاري ، اسمه زبان أو العريان . ثقة من علماء العربية . روى عن أنس ، ويحي بن يعمر ، ومجاهد . وعنه شعبة ، وحماد بن زيد ، وأبو أسامة . مات سنة ١٥٤هـ .
انظر : تاريخ البخاري ٥٥/٩ ، تذهيب التهذيب ٢٢٥/٤ ، سير أعلام النبلاء ٤٠٧/٦-٤١١ ، تهذيب التهذيب ١٧٨/١٢ ، تقريب التهذيب ٤٥٤/٢ .

فقال أبوعمرو بن العلاء : من العجمة أتيت ، أبا عثمان ، إن الوعد غير الوعيد ، إن العرب لاتعد عاراً ولاخلفاً أن تعد شراً ثم لاتفعل ، ترى ذلك كرماً وفضلاً ، إنما الخلف أن تعد خيراً ثم لاتفعل . قال : فأوجدنى فى هذا فى كلام العرب . قال : نعم . أما سمعت قول الأول :

لايرهب ابن العم ماعشت صولتى
ولاأختتى[(١)] من صولة المتهدد
وإنى وإن أوعدته أووعدته
لمخلف إيعادى ومنجز موعدى[(٢)]

هذا إضافة إلى ماذكر من أمور تمنع من إنفاذ الوعيد .

يقول الإمام السفارينى رحمه الله :

"وعلى كل حال قد قام الدليل على ذكر الموانع من إنفاذ الوعيد بعضها بالإجماع وبعضها بالنص ، فالتوبة مانع بالإجماع ، والتوحيد مانع بالنصوص المتواترة التى لامدفع لها ، الحسنات العظيمة الماحية مانعة ، والمصائب المكفرة مانعة ، وإقامة الحدود فى الدنيا مانع بالنص ، فلاتعطل هذه النصوص وأضعاف أضعافها ، فلابد من إعمال النصوص فى الجانبين ، ومن ثم قامت الموازنةبين الحسنات والسيئات اعتباراً لمقتضى العقاب ومانعة إعمالاً لأرجحهما ، وعلى هذا بناء مصالح الدارين ومفاسدهما ، وبناء الأحكام الشرعية والأحكام القدرية وهو مقتضى الحكمة السارية فى الوجود وبه ارتباط الأسباب ومسبباتها خلقاً وأمراً ، وقد جعل تعالى لكل ضد ضداً يدافعه ، ومانعاً يمانعه ، ويكون الحكم للأغلب منهما .

---

(١) أختتى : أى أتصاغر وانكسر .
انظر لسان العرب ، مادة (ختت) ٢٨/٢ .

(٢) أخبار عمرو بن عبيد ص١٤ .
والبيتان لعامر بن الطفيل فى ديوانه ص٥٨ .
وسياقهما فيه :
لايرهب ابن العم منى صولة ولاأختتى من صولة المتهدد
وإنى إن أوعدته أو وعدته لأخلف إيعادى وأنجز موعدى

والحاصل والله أعلم كون المذنب الملى وإن كثرت ذنوبه وعظمت خطاياه فى مشيئة مولاه إن شاء عذبه وإن شاء عفاه ، وعلى كل حال خلود أهل التوحيد فى النار من المحال فالصواب اجتنابه وعدم الالتفات إليه والتعويل على مذهب أهل الحق والركون إليه وبالله التوفيق"(١).

وزعمهم بأن التوبة لاتقبل إذا تاب عن ذنب وهو مصر على غيره ، زعم لايصح ، بل الذى عليه أهل السنة خلاف ذلك .

قال النووى رحمه الله :

"وقد أجمع العلماء رضى الله عنهم على قبول التوبة مالم يغرغر كما جاء فى الحديث(٢)، وللتوبة ثلاثة أركان : أن يقلع عن المعصية ، ويندم على فعلها ، ويعزم أن لايعود إليها ، فإن تاب من ذنب ثم عاد إليه لم تبطل توبته ،وإن تاب من ذنب وهو متلبس بآخر صحت توبته ، هذا مذهب أهل الحق وخالفت المعتزلة فى المسألتين والله أعلم"(٣).

---

(١) لوامع الأنوار ٣٧١/١ .
وانظر فى أسباب سقوط العقوبة شرح العقيدة الطحاوية ص٣٢٧-٣٣٠ .

(٢) روى الترمذى بسنده إلى عبد الله بن عمر رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "إن الله يقبل توبة العبد مالم يغرغر" .
سنن الترمذى ، كتاب الدعوات (٤٩) ، باب فضل التوبة والاستغفار (٩٩) برقم ٣٥٣٧ ، ٥١١/٥ .
وأخرجه ابن ماجه فى سننه ، فى كتاب الزهد (٣٧) ، باب فى ذكر التوبة (٣٠) برقم ٤٢٥٣ ، ١٤٢٠/٢ .
والإمام أحمد فى المسند ١٣٢/٢،١٥٣ ، ٤٢٥/٤ . قال الشيخ أحمد محمد شاكر : "إسناده صحيح" . مسند أحمد بتحقيق أحمد محمد شاكر ١٧/٩،١٦١ .
والحاكم فى المستدرك . وقال :"هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه" . ووافقه الذهبى ٢٥٧/٤ . وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد وقال : رجاله رجال الصحيح غير عبد الرحمن - بن البيلمانى - وهو ثقة . ٢٠٠/١٠،٢٠١ .
والشيخ ناصر الدين الألبانى فى صحيح الجامع . وقال حسن ١٥١/٢ .

(٣) شرح النووى على مسلم ٤٥/٢ ، وانظر : مجموع الفتاوى ٤٨٤/١ ، شرح العقيدة الطحاوية ص٣٢٧ ، لوامع الأنوار ٣٨٣/١ .

والقول بأن من فعل كبيرة حبط إيمانه ، هذا نوع من الظلم الذى نزه الله نفسه عنه كما قال سبحانه : {فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره.ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره}(١)(٢).

(٤) مااستدلوا به من الآيات فهى من نصوص الوعيد التى وجهها السلف توجيهاً يتفق ونصوص الوعد الأخرى التى غض عنها المعتزلة الطرف ، وهذا من شأن أهل البدع فإنهم يأخذون من النصوص مايظنون أنه يوافق بدعهم ويتركون غيرها مما يخالف تلك البدع . وهكذا فعل أهل الاعتزال فى هذا المقام .

وقد ذكر العلماء توجيهات أربع فى هذه النصوص وأمثالها :

الأول : إن هذا فى حق المستحل .

الثانى : إن الاستدلال بنصوص الوعيد مبنى على العموم وليس فى اللغة ألفاظ عامة .

الثالث : هذا جزاؤه إن جازاه، أى على إضمار الشرط .

الرابع : هذا وعيد وخلفه مدح لاذم(٣).

والقول الثالث هو الذى تؤيده أقوال العلماء . قال الإمام النووى رحمه الله فى شرحه لحديث "ومن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار"(٤)قال :

---

(١) سورة الزلزلة : آية ٧-٨

(٢) انظر : المنتقى من منهاج الاعتدال ص٣٨ .

(٣) انظر : لوامع الأنوار ٣٧٠/١ .

(٤) الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه ، كتاب العلم (٣) ، باب إثم من كذب على النبى صلى الله عليه وسلم (٣٨) ، ٣٥/١ ، وفى كتاب الأنبياء (٦٠) ، باب ماذكر عن بنى إسرائيل (٥٠) ، ١٤٥/٤ ، وفى كتاب الأدب (٧٨) ، باب من سمى بأسماء الأنبياء (١٠٩) ، ١١٨/٧ .
وأخرجه مسلم بألفاظ مقاربة فى مقدمة صحيحه ، باب تغليظ الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) برقم ٤،٣،٢ ، ١٠/١ .
وفى كتاب الزهد (٥٣) ، باب التثبت فى الحديث (١٦) برقم ٣٠٠٤ ، ٢٢٩٩/٤ .

"هـذا جزاؤه وقد يجازى به وقد يعفو الله الكريم عنـه ولايقطع عليه بدخول النـار ، وهكذا سبيل كـل ماجاء من الوعيد بالنـار لأصحاب الكبائر غير الكفـر فكلها يقال فيهـا هذا جزاؤه وقد يجازى وقـد يعفى عنه ، ثم إن جوزى وأدخل النار فلايخلد فيها بل لابد من خروجه منهـا بفضل الله تعالى ورحمتـه ولايخلد فى النار أحد مات على التوحيد ، وهـذه قاعدة متفق عليها عند أهل السنة"(١).

وقـال الحافـظ ابن كثير رحمـه اللـه عند تفسير قـوله سبحـانه : {ومن يقتل مؤمناً متعمداً}(٢)الآية . قال :

"فقـد قـال أبو هـريرة وجمـاعة مـن السلف هذا جزاؤه إن جازاه ... ومعنى هـذه الصيغة أن هذا جزاؤه إن جوزى عليـه ، وكـذا كل وعيد على ذنب لكـن قد يكون ذلك معارضاً من أعمال صالحة تمنـع وصول ذلك الجزاء إليه ... وهذا أحسن مايسلك فى باب الوعيد"(٣).

وأهل السنة متفقون على أن العاصى مستحق للوعيد المترتب على ذلك الـذنب ، كما وردت به النصـوص ، لاكما يقول المرجئـة من أنه لايضر مع الإيمان ذنب ، ولاينفع مع الكفر طاعة .

وإذا اجتمعـت نصـوص الوعـد التى استـدلت بها المرجئـة ، ونصـوص الـوعيد التى استـدلت بهـا الخوارج والمعتزلـة ، تبين لـك فسـاد القـولين ، ولافـائدة فى كلام هؤلاء سوى أنك تستفيد من كلام كـل طائفة فساد مذهب الطائفة الأخرى "(٤).

والخلـود الـذى جاء فى الآيات لايقتضـى الـدوام ، قـال اللـه تعالى : {وماجعلنا لبشر من قبلك الخلد}(٥).

---

(١) شرح النووى على مسلم ٦٨/١-٦٩ .
(٢) سورة النساء : آية ٩٣
(٣) تفسير القرآن العظيم ٥٣٧/١ ، وانظر : الاعتقاد ص١٢٤ .
(٤) شرح العقيدة الطحاوية ص٣٢٢ بتصرف .
(٥) سورة الأنبياء : آية ٣٤

وقال سبحانه : {يحسب أن ماله أخلده}(١).

وفى قول زهير بن أبى سلمى :

ألا لاأرى على الحوادث باقياً

ولاخالداً إلا الجبال الرواسيا(٢)

وفى هذا دلالة على أن الخلد يطلق على غير التأبيد ، فإن هذا يزول بزوال الدنيا . والعرب تقول : لأخلدن فلاناً فى السجن ، والسجن ينقطع ويزول ، وكذلك من سجن ، ومثله قولهم فى الدعاء : خلد الله ملكه وأبد أيامه(٣).

(٥) قولهم إن المراد فى قوله : {إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء}(٤) صغائر المعاصى .

ترده الآية ، فإن الله عز وجل لم يستثن من الذنوب سوى الشرك ، فدل ذلك على أن الغفران المعلق بالمشيئة شامل لجميع الذنوب كبائر كانت أو صغائر .

قال ابن جرير رحمه الله :

"قد أبانت هذه الآية أن كل صاحب كبيرة ففى مشيئة الله تعالى إن شاء عفا عنه ذنبه ، وإن شاء عاقبه عليه مالم تكن كبيرته شركاً بالله تعالى"(٥).

وقد سبقت الأدلة على دخول صاحب الكبيرة سوى الشرك تحت المشيئة(٦).

---

(١) سورة الهمزة : آية ٣

(٢) ديوان زهير بن أبى سلمى ص١٠٧ ، شرح ديوان زهير ص٢٨٨ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٣٣٥/٥ بتصرف .

(٤) سورة النساء : آية ٤٨، ١١٦

(٥) جامع البيان ٥/١٢٦ الجامع لأحكام القرآن ٢٤٥/٥ .

(٦) انظر ص: ٢٩٧

وأما صغائر الذنوب فإنها تكفر بكثير من الأمور ، ومن ذلك اجتناب الكبائر كما قال سبحانه : {إن تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريماً}(١).

أى : إذا اجتنبتم كبائر الآثام التى نهيتم عنها كفرنا عنكم صغائر الذنوب وأدخلناكم الجنة(٢).

وأما الحديث فقد أخرجه البخارى ومسلم بطرق عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ، ولفظ البخارى : "أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار يقول الله : من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجوه ، فيخرجون قد امتحشوا(٣)، وعادوا حمماً(٤)، فيلقون فى نهر الحياة ، فينبتون كما تنبت الحبة فى حميل السيل ، أو قال : حمية السيل . وقال النبى صلى الله عليه وسلم : ألم تروا أنها تنبت صفراء ملتوية"(٥). ولفظ مسلم مقارب له .

والجواب عما أثاروه من شبه حول الحديث :

(١) ذكر الحديث بصيغة التمريض روى لايتناسب مع صحته ، لأنها من صيغ التضعيف والحديث صحيح ثابت(٦).

---

(١) سورة النساء : آية ٣١

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤٨٠/١ بتصرف

(٣) امتحشوا : أى احترقوا. والمحش : احتراق الجلد وظهور العظم .
النهاية فى غريب الحديث ٣٠٢/٤ .

(٤) حمماً : أى صاروا سود الأجساد كالحمم وهو الفحم .
انظر المرجع السابق ٤٤٤/١ .

(٥) صحيح البخارى فى كتاب الرقاق (٨١) ، باب صفة الجنة والنار (٥١) ، ٢٠٢/٧ .
وبلفظ مقارب فى كتاب الإيمان (٢) ، باب تفاضل أهل الإيمان (١٥) ، ١١/١ .
وأخرجه مسلم فى صحيحه بألفاظ مقاربة فى كتاب الإيمان (١) ، باب إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار (٨٢) برقم ١٨٤ ، ١٧٢/١ .

(٦) انظر : تدريب الراوى ١٢٠/١،١٢١ .

(٢) قولهم :الحديث لم يثبت :

خلاف الحق ، بل الحديث صحيح ثابت اتفق على صحته الإمامان الجليلان البخارى ومسلم . فهو بذلك فى أعلى مراتب الصحيح(١).

(٣) قولهم : بأنه حديث آحاد لايوجب القطع ، وإن المسألة طريقها العلم فلايمكن الاحتجاج به .

الكلام عن حديث الآحاد وحجيته سبق مستوفى(٢).

أضف إلى ذلك أن أحاديث خروج أهل الكبائر غير الشرك من النار متواترة ، فبطلت حجتهم من كل وجه .

(٤) زعمهم أنه معارض بحديث :

(أ) "لايدخل الجنة مدمن خمر ولانمام ولاعاق"(٣).

لامعارضة بين الحديثين ، وذلك لأن السلف لهم جوابان فى معنى "لايدخل الجنة" :

أحدهما : أنه محمول على من يستحل مع علمه بالتحريم فهذا كافر لايدخل الجنة أصلاً .

والثانى : معناه جزاؤه أن لايدخلها وقت دخول الفائزين إذا فتحت أبوابها لهم بل يؤخر ، ثم قد يجازى وقد يعفى عنه فيدخلها أولاً(٤).

(ب) "من تردى من جبل ..." الحديث(٥).

قال النووى رحمه الله فى شرح الحديث :

"وأما قوله صلى الله عليه وسلم "فهو فى نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً" فقيل فيه أقوال :

---

(١) انظر : المرجع السابق ، فى مراتب الصحيح وأقسامه ١٢٢/١، ١٢٣ .

(٢) انظر ص ، ١١٢ فما بعدها .

(٣) سبق تخريجه ص : ٢٩٢، ٢٩٣

(٤) انظر : شرح النووى على مسلم ١٧/٢، ٥٢، ٩١، ١١٣ .

(٥) سبق تخريجه ص : ٢٩٣ .

أحدها : أنه محمول على من فعل ذلك مستحلاً مع علمه بالتحريم فهذا كافر وهذه عقوبته .

والثانى : أن المراد بالخلود طول المدة والإقامة المتطاولة لاحقيقة الدوام كما يقال : خلد الله ملك السلطان .

والثالث : أن هذا جزاؤه ولكن تكرم سبحانه وتعالى فأخبر أنه لايخلد فى النار من مات مسلماً"(١).

وقد دلت الأحاديث على أن قاتل نفسه لايخلد فى النار ، من ذلك : حديث جابر أن الطفيل بن عمرو الدوسى أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله هل لك فى حصن حصين ومنعة ، قال : حصن كان لدوس فى الجاهلية ، فأبى ذلك النبى صلى الله عليه وسلم للذى ذخر الله للأنصار ، فلما هاجر النبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة هاجر إليه الطفيل بن عمرو وهاجر معه رجل من قومه فاجتووا المدينة فمرض فجزع فأخذ مشاقص(٢) فقطع بها براجمه فشخبت(٣)يداه حتى مات ، فرآه الطفيل بن عمرو فى منامه فرآه وهيئته حسنة ، ورآه مغطياً يديه ، فقال له : ماصنع بك ربك؟ فقال : غفر لى بهجرتى إلى نبيه صلى الله عليه وسلم ، فقال : مالى أراك مغطياً يديك؟ قال : قيل لى : لن نصلح منك ماأفسدت ، فقصها الطفيل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اللهم وليديه فاغفر"(٤).

---

(١) شرح النووى على مسلم ١٢٥/٢ .

(٢) مشاقص :جمع مشقص وهو نصل السهم إذا كان طويلاً غير عريض .
انظر النهاية فى غريب الحديث ٤٩٠/٢ .

(٣) شخبت : أى سالت من الشخب وهو السيلان .
انظر المرجع السابق ٤٥٠/٢ .

(٤) الحديث : أخرجه مسلم فى صحيحه ، فى كتاب الإيمان (١) ، باب الدليل على أن قاتل نفسه لايكفر (٤٩) برقم ١١٦ ، ١٠٨/١-١٠٩ .

قال النووى رحمه الله :

"ففيه حجة لقاعدة عظيمة لأهل السنة ، أن من قتل نفسه أو ارتكب معصية غيرها ومات من غير توبة فليس بكافر ولايقطع له بالنار بل هو فى حكم المشيئة ، وقد تقدم بيان القاعدة وتقريرها ، وهذا الحديث شرح للأحاديث التى قبله الموهم ظاهرها تخليد قاتل النفس وغيره من أصحاب الكبائر فى النار وفيه إثبات عقوبة بعض أصحاب المعاصى فإن هذا عوقب فى يديه ، ففيه رد على المرجئة القائلين بأن المعاصى لاتضر والله أعلم"(١).

(٥) زعمهم أن الحديث يجب أن يأول ليوافق الأدلة ثم أولوه .

يجاب على ذلك بالآتى :

أولاً : لاتوجد أدلة تخالف الحديث كما يزعمون وإنما الأدلة جاءت تعضده وتؤيده وقد سبق ذكر طرف منها(٢).

ثانياً : التأويل يلجأ إليه إذا دعت الضرورة وقام دليل على ذلك ، فأين هى الضرورة التى دعت إلى تأويل الحديث عن ظاهره ، وإخراجه عن مراد النبى صلى الله عليه وسلم به؟ بل ظاهر الحديث هو المراد وهو الذى تسنده الأدلة .

ثالثاً : ماذكروه من تأويل وهو فى الحقيقة تحريف للنص وإبطال لدلالته . وإيضاح ذلك :

قولهم يخرج من عمل أهل النار أو حكمهم هذا يكون صحيحاً فى حالة تعلق الحكم بأمر الدنيا إذ هى دار العمل ، والحديث يتعلق بخروج صاحب الكبيرة من النار فى الآخرة ، وفى الآخرة لايقال يخرج من عمل أهل النار لأنه لاعمل هنالك ، وإنما هو العقاب أو الثواب ، فناسب الخروج من النار .

---

(١) شرح النووى على مسلم ٢/١٣١-١٣٢ .

(٢) انظر ص: ٢٩٥ فما بعدها.

(٥) الشفاعة :

إن تشبث أهل الاعتزال بوجوب تحقق الوعيد الذى ابتدعوه أدى بهم إلى نفى الشفاعة لأهل الكبائر يوم القيامة،وأنكروها أيما إنكار وصاحوا على القائل بها من كل حدب وصوب ورموه بكل سبة وداهية ، وليس لهم دليل يستندون إليه إلا بدعة تحقق الوعيد ومايتبعها من ذيول وحواشى .

يقول ابن المنير فى تعليقه على الزمخشرى :

"ماأنكرها - أى الشفاعة - القدرية إلا لايجابهم مجازاة الله تعالى للمطيع على الطاعة وللعاصى على المعصية إيجاباً عقلياً على زعمهم فهذه الحالة فى إنكار الشفاعة نتيجة تلك الضلالة"(١).

وهذا مارددته شفاه أهل الاعتزال ، ونطقت به ألسنتهم .

يقول أبو على الجبائى :

"إن أهل النار إذادخلوا النار ، لم يصح خروجهم منها ، لأنهم من أهل العقاب ، ولايجوز مع ذلك أن يكونوا من أهل الثواب ، لأن ذلك كالمتضاد ، لو تخلصوا بالشفاعة لم يخل حالهم إذا أدخلهم الله الجنة ، من أن يكون من أهل الثواب أوالتفضل ، والعقل قد دل على أن لاثواب لهم ، والسمع قد دل على أن المكلف فى الجنة لايجوز أن يكون بمنزلة أهل التفضل وأن يكون من خدم أهل الجنة ، فهذا أيضاً يمنع مماقالوه فى الشفاعة"(٢).

فالشفاعة للفساق الذين ماتوا على فسوقهم ولم يتوبوا لاتجوز ، بل مثالها مثال الشفاعة لمن قتل ولد الغير وظل يتربص للآخر حتى يقتله فكما أن هذا قبيح فهى قبيحة أيضاً(٣).

والنبى صلى الله عليه وسلم لايشفع لصاحب الكبيرة ، ولايجوز له ذلك لأن إثابة من لايستحق الثواب قبيحة(٤).

---

(١) الإنصاف على هامش الكشاف ١٥٢/١ .
(٢) فضل الاعتزال ص٢٠٩ .
(٣) انظر : شرح الأصول ص٦٨٨ .
(٤) المصدر السابق ص٦٨٩ .

والفاسق إنما يستحق العقوبة على الدوام ، فكيف يخرج من النار بشفاعته صلى الله عليه وسلم(١).

وأهل النار يستحقون اللعن والغضب والسخط ، فكيف يجوز للنبى صلى الله عليه وسلم أن يشفع فيهم ، لأن من حق الشافع أن يكون محباً وراضياً عن من يشفع له ، وهذا يستلزم أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم-إن شفع لهم-محباً لهم وراضياً عنهم وذلك لايصح .

والشفاعة إنما تكون لأهل الثواب دون العقاب ، ولأولياء الله دون أعدائه ، وللمؤمنين دون أهل الكبائر . وهى إنما تكون بزيادة الثواب ، وذلك تفضلاً عظيماً من الله عليهم(٢).

وفائدتها بالنسبة للمؤمنين : رفع مرتبة الشفيع ، والدلالة على منزلته من المشفوع(٣).

يقول عبد الجبار :

"لاخلاف بين الأمة فى أن شفاعة النبى صلى الله عليه وسلم ثابتة للأمة وإنما الخلاف فى أنها تثبت لمن؟

فعندنا أن الشفاعة للتائبين من المؤمنين ، وعند المرجئة(٤)أنها للفساق من أهل الصلاة"(٥).

---

(١) انظر المصدر السابق ص٦٨٩ .

(٢) انظر : فضل الاعتزال ص٢٩٨ .

(٣) انظر : شرح الأصول ص٦٨٩ .

(٤) المرجئة :

من الإرجاء وهو التأخير .

والمرجئة لقب أطلق على طائفة تؤخر العمل عن الإيمان ، بمعنى أنهم لايدخلون العمل فى مسمى الإيمان ، وقصروا الإيمان على المعرفة . وأكثرهم يرى أن الإيمان لايتبعض ، ولايزيد ولاينقص ، وزعم بعضهم أنه لايضر مع الإيمان معصية كما لاينفع مع الكفر طاعة.

انظر : مقالات الإسلاميين ١٣٢/١ ، الملل والنحل ١٣٩/١ فما بعدها .

(٥) شرح الأصول ص٦٨٨ .

وقال الزمخشرى :

"الشفاعة لاتكون إلا فى زيادة التفضل ، وأهل التفضل وزيادته إنما هم أهل الثواب . بدليل قوله تعالى : {ويزيدهم من فضله}"(١)(٢).

وقد تعلقوابعض الآيات التى ينفى ظاهرها الشفاعة ، وأما مايثبتها فقد أغمضوا عيونهم وصموا آذانهم عنها إلا من تأويل(٣).

ومما استدلوا به :

قوله تعالى : {واتقوا يوماً لاتجزى نفس عن نفس شيئاً ولايقبل منها شفاعة}(٤).

يقول الزمخشرى :

"فإن قلت هل فيه دليل على أن الشفاعة لاتقبل للعصاة؟ قلنا : نعم لأنه نفى أن تقضى نفس عن نفس حقاً أخلت به من فعل أو ترك ثم نفى أن يقبل منها شفاعة شفيع فعلم أنها لاتقبل للعصاة"(٥).

وقال فى قوله تعالى : {ياأيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لابيع فيه ولاخلة ولاشفاعة}(٦)الآية .

قال : "وإن أردتم أن يحط عنكم مافى ذمتكم من الواجب لم تجدوا شفيعاً يشفع لكم حط الواجبات لأن الشفاعة ثمة فى زيادة الفضل لاغير"(٧).

ومن ذلك أيضاقوله تعالى : {ماللظالمين من حميم ولاشفيع يطاع}(٨).

ووجه الدلالة : إن الله قد نفى أن يكون للظالمين شفيع البتة ، فلو كان النبى صلى الله عليه وسلم شفيعاً للظلمة لكان لاأجل وأعظم منه .

---

(١) سورة النساء : آية ١٧٣

(٢) الكشاف ٣٦٦/٣ .

(٣) انظر موقف المعتزلة من السنة ص٦٩ .

(٤) سورة البقرة : آية ٤٨

(٥) الكشاف ٦٧/١ .

(٦) سورة البقرة : آية ٢٥٤

(٧) الكشاف ١٥٢/١ .

(٨) سورة غافر : آية ١٨

ويدل على ذلك أيضا قوله تعالى : {أفأنت تنقذ من فى النار}(١)، وقوله :{ولايشفون إلا لمن ارتضى}(٢)(٣).

وقوله تعالى : {وماللظالمين من أنصار}(٤)، ولانصرة أعظم من أن يخلصهم من النار الدائمة، فإذا نفاها ثبت أن لاشفيع لهم .

وأما الأحاديث التى تثبت الشفاعة فقد أطلق عليها عبد الجبار حكماً عاماً وهو أن أكثرها مضطرب ، ومايعرف منها فهو ماروى "إن شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى"(٥)(٦).

ثم أجاب عنه بأجوبة :

١ - إن هذا الخبر لم تثبت صحته أولاً ، ولو صح فإنه منقول بطريق الآحاد عن النبى ، ومسألتنا طريقها العلم ، فلايصح الاحتجاج به .

٢ - إنه معارض بأخبار رويت عن النبى صلى الله عليه وسلم فى باب الوعيد نحوقوله : "لايدخل الجنة نمام ولامدمن خمر ولاعاق"(٧)، وقوله : "من قتل نفسه بحديدة فحديدته فى يده يجأ بها بطنه يوم القيامة فى نار جهنم خالداً مخلداً"(٨).

فليس بأن يوجد بما أوردوه أولى من أن يوجد بما رويناه ، فيجب اطراحهاجميعاً ، أو حمل أحدهما على الآخر ، فنحمله على مايقتضيه كتاب الله وسنة رسوله فيكون :

---

(١) سورة الزمر : آية ١٩
(٢) سورة الأنبياء : آية ٢٨
(٣) انظر : شرح الأصول ص٦٨٩ .
(٤) سورة البقرة : آية ٢٧٠ ، آل عمران :آية ١٩٢ ، المائدة : آية : ٧٢
(٥) سوف يأتى تخريج الحديث والكلام عنه .
(٦) انظر : فضل الاعتزال ص٢٩٨ .
(٧) الحديث سبق تخريجه انظر: ص : ٢٩٢ ، ٢٩٣
(٨) الحديث سبق تخريجه . انظر: ص : ٢٩٣

"المراد به شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى إذا تابوا ، فإن مااستحقه التائب من الثواب قد انحبط بارتكابه الكبيرة ، ولاثواب له إلا مقدار ماقد استحقه بالتوبة فبه حاجة إلى نفع التفضل عليه"(١).

الجواب على ماأثاروه من شبه :

إن الحديث عن الشفاعة فرع عن الحديث عن أهل الكبائر ، لأنها تتعلق بحكمهم فى الآخرة .

والناس فى الشفاعة ثلاث فرق ، طرفان ووسط :

فالمشركون والمبتدعة الغلاة من عباد القبور والمشايخ جعلوا من يعظمونهم شفعاء ووسطاء بينهم وبين الله سبحانه وصرفوا لهم من أجل ذلك شيئاً من العبادات .

والمعتزلة والخوارج أنكروا شفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم وغيره فى أهل الكبائر .

وأما أهل السنة والجماعة فأقروا بشفاعة النبى صلى الله عليه وسلم وشفاعة غيره فى أهل الكبائر(٢).

وقالوا : بأنه لايخلد فى النار من أهل التوحيد أحد(٣).

والذى ذهب إليه أهل السنة والجماعة من إثبات الشفاعة هو الذى تؤيده أدلة الكتاب والسنة ، وعلى ذلك الصحابة والتابعون لهم بإحسان ، بل والإجماع منعقد عليه قبل ظهور المبتدعة ، والعقل الصريح لايحيل إثباتها(٤).

ويمكن أن نجمل شبه المعتزلة فيما يلى :

* الأحاديث فى الشفاعة أكثرها مضطرب ، ومايعرف منها فهو ماروى "إن شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى"(٥)ثم ردوه بالآتى :

---

(١) شرح الأصول ص٦٩٠،٦٩١ بتصرف .

(٢) وسوف تأتى بعض الأدلة على ذلك .

(٣) انظر : اقتضاء الصراط المستقيم ٨٢١/٢ ، شرح العقيدة الطحاوية ص٢٣٥ .

(٤) انظر : مجموع الفتاوى ١١٦/١،١٤٩،١٥٤،٣١٨ ، لوامع الأنوار ٢٠٨/٢،٢١٨ .

(٥) سوف يأتى تخريجه والكلام عنه .

(أ) إنه لم تثبت صحته .

(ب) لو صح فهو خبر آحاد ومسألة الشفاعة طريقها العلم ، فلايصح الاحتجاج به .

(ج) إنه معارض بأخبار أخرى :

١ - "لايدخل الجنة نمام ولامدمن خمر ولاعاق"(١).

٢ - "من قتل نفسه بحديدة ..." الحديث(٢).

فإما أن تطرح جميعاً أو يحمل أحدها على الآخر ، فنحمله على مايقتضيه كتاب الله وسنة رسوله .

فنقول : "المراد به شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى إذا تابوا".

وبالتالى لاشفاعة لأهل الكبائر . والنبى صلى الله عليه وسلم لايشفع فيهم لأنه يلزم حينئذ أن يكون محباً لهم راضياً عنهم وذلك لايصح لأنهم يستحقون اللعن والغضب والسخط . وإنما تكون الشفاعة للمؤمنين فقط لزيادة الثواب ، تفضلاً من الله عليهم لقوله : {ويزيدهم من فضله}(٣)، وفائدتها : رفع مرتبة الشفيع ، والدلالة على منزلته من المشفوع .

واستدلوا على ذلك بأدلة عقلية ونقلية :

(١) **الدليل العقلى** :

إن الله يجب عليه أن يثيب الطائع ويعاقب العاصى ، وإثابة من لايستحق الثواب قبيحة . والعصاة ليسوا من أهل الثواب ، ولامن أهل التفضل لأنهم مكلفون ، فلاشفاعةلهم .

(٢) **الأدلة النقلية** :

(أ) قوله تعالى : {واتقوا يوما لاتجزى نفس عن نفس شيئاً ولايقبل منها شفاعة}(٤).

---

(١) سبق تخريجه .انظر : ص : ٢٩٢، ٢٩٣

(٢) سبق تخريجه .انظر : ص : ٢٩٣

(٣) سورة النساء : آية ١٧٣

(٤) سورة البقرة : آية ٤٨

(ب) قوله تعالى : {ياأيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لابيع فيه ولاخلة ولاشفاعة}(١).

(ج) قوله تعالى :{ماللظالمين من حميم ولاشفيع يطاع}(٢).

(د) قوله تعالى : {أفأنت تنقذ من فى النار}(٣).

(هـ) قوله تعالى : {ولايشفعون إلا لمن ارتضى}(٤).

(و) قوله تعالى : {وماللظالمين من أنصار}(٥).

ويجاب على شبههم بما يلى :

(١) زعمهم أن الأحاديث أكثرها مضطرب .

هذه حجة واهية ، وزعم عار عن الصحة، لايتفوه به إلا من جهل حديث النبى صلى الله عليه وسلم ، أو أغمض عينيه عنه، بل الأحاديث فى إثبات الشفاعة لأهل الكبائر ثابتة . منها فى الصحيحين أحاديث متعددة ، وفى السنن والمسانيد مما يكثر عدده(٦).

---

(١) سورة البقرة : آية ٢٥٤

(٢) سورة غافر : آية ١٨

(٣) سورة الزمر : آية ١٩

(٤) سورة الأنبياء : آية ٢٨

(٥) سورة البقرة : آية ٢٧٠ ، آل عمران : آية ١٩٢، المائدة : آية : ٧٢

(٦) انظر مجموع الفتاوى ٣١٤/١ .

وانظر صحيح البخارى ، كتاب الإيمان (١) ، باب الحرص على الحديث (٣٣) ، ٣٣/١ ، كتاب التفسير (٦٥) ، تفسير سورة بنى إسرائيل (١٧) ، باب ذرية من حملنا مع نوح (٥) ، ٢٢٥/٥-٢٢٧ ، كتاب التوحيد (٩٧) ، باب قول الله {لما خلقت بيدى} (١٩) ، ١٧٢/٨-١٧٣ . =

وقد نص جماعة من العلماء على أنها تبلغ حد التواتر المعنوى[(١)].
(٢) (أ) زعمهم أن حديث "شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى"[(٢)] لم تثبت صحته زعم مردود .

= صحيح مسلم ، كتاب الإيمان (١) ، باب إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار (٨٢) ، حديث رقم ١٨٤،١٨٥ ، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (٨٤) ، حديث رقم ١٩١،١٩٣،١٩٤،١٩٦ ، باب اختباء النبى صلى الله عليه وسلم دعوة الشفاعة لأمته (٨٦) ، حديث رقم ١٩٨،١٩٩،٢٠٠،٢٠١ ، ١٧٢/١-١٩٠ .
سنن أبى داود ، كتاب السنة ، باب فى الشفاعة ٢٣٦/٤ .
سنن الترمذى ، كتاب صفة القيامة (٣٨) ، باب ماجاء فى الشفاعة ١٠،١١،١٢،١٣ ، ٥٣٧/٤-٥٤٢ .
سنن ابن ماجه ، كتاب الزهد (٣٧) ، باب ذكر الشفاعة (٣٧) ، ١٤٤٠/٢-١٤٤٤ .
سنن الدارمى ، كتاب الرقاق ، باب فى الشفاعة ٣٢٧/٢-٣٢٩ .

(١) انظر : مجموع الفتاوى ١٤٩/١،٣١٤ ، شرح العقيدة الطحاوية ص٢٣٣ ، لوامع الأنوار ٢٠٨/٢،٢١٨ .

(٢) أخرجه أبوداود فى سننه عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، كتاب السنة ، باب فى الشفاعة برقم ٤٧٣٩ ، ٢٣٦/٤ .
والترمذى فى سننه عن أنس برقم ٢٤٣٥ .
وقال : "حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه" .
وعن جابر بن عبد الله برقم ٢٤٣٦ ، وقال : "هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه" ، كتاب صفة القيامة (٣٨) ، باب ماجاء فى الشفاعة (١١) ، ٥٣٩/٤-٥٤٠
وابن ماجه فى سننه عن جابر ، كتاب الزهد (٣٧) ، باب ذكر الشفاعة (٣٧) ، برقم ٤٣١٠ ، ١٤٤١/٢ .
وأحمد فى المسند عن أنس ٢١٣/٣ .
وابن حبان عن جابر فى كتاب التاريخ (٦٠) ، باب ذكر البيان بأن الشفاعة فى القيامة إنما تكون لأهل الكبائر برقم ٦٤٦٧ .
وعن أنس فى باب ذكر إثبات الشفاعة فى القيامة برقم ٦٤٦٨ ، ٣٨٦/١٤-٣٨٧ ، الإحسان فى تقريب صحيح ابن حبان .
والحاكم فى المستدرك عن أنس وقال : "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه بهذا اللفظ" ثم ذكر له متابعات ، وشاهد من حديث جابر ، وقال عنه : "صحيح على شرط مسلم" . ووافقه الذهبى ٦٩/١ . =

لأن الحديث قد ثبتت صحته ، وأيدته الأحاديث الثابتة(١).

= وابن خزيمة فى التوحيد عن أنس ص٢٧٠ ، وعن جابر ص٢٧١ ،والآجرى فى الشريعة عن أنس وعن جابر ص٣٣٨ .
وأبو نعيم فى الحلية من طرق عن جابر ٣/٢٠٠-٢٠١ ، وعن أنس ٢٦١/٧ .
وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد عن ابن عباس وقال : "رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط .. وفيه موسى بن عبد الرحمن الصنعانى وهو وضاع" .
وعنه أيضا ، وقال : "رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه حرب بن سريح وقد وثقه غير واحد وفيه ضعف ، وبقية رجاله رجال الصحيح" .
وعن أنس وقال : "رواه البزار والطبرانى فى الصغير والأوسط" . ٣٨١/١٠ .
والحديث صحيح كما نص على ذلك الشيخ ناصر الدين الألبانى .
انظر : صحيح سنن أبى داود ٨٩٨/٣ ، صحيح سنن ابن ماجه ٤٣١/٢ ، شرح العقيدة الطحاوية ص٢٣٣ هامش ٢٠٦ .
والشيخ شعيب الأرناؤوط . انظر الإحسان ٣٨٦/١٤،٣٨٧ فى الهامش .

(١) من ذلك :
ماروواه مسلم بسنده إلى أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لكل نبى دعوةمستجابة ، فتعجل كل نبى دعوته ، وإننى اختبأت دعوتى شفاعة لأمتى يوم القيامة . فهى نائلة إن شاء الله من مات من أمتى لايشرك بالله شيئاً".
صحيح مسلم ، كتاب الإيمان (١) ، باب اختباء النبى صلى الله عليه وسلم دعوة الشفاعة لأمته (٨٦) برقم ١٩٩ ، ١٨٩/١ .
وانظر صحيح البخارى ، كتاب الدعوات (٨٠) ، باب قوله {ادعونى أستجب لكم} الآية (١) ، ١٤٥/٧ ، كتاب التوحيد (٩٧) ، باب فى المشيئة والإرادة (٣١) ، ١٩٢/٨-١٩٣ .
وروى البخارى من حديثه رضى الله عنه أنه قال : قيل يارسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لقد ظننت ياأبا هريرة أن لايسألنى عن هذا الحديث أحد أول منك لما رأيت من حرصك على الحديث . أسعد الناس بشفاعتى يوم القيامة من قال لاإله إلا الله خالصاً من قلبه أو نفسه".
صحيح البخارى ، كتاب العلم (٣) ، باب الحرص على الحديث (٣٣) ، ٣٣/١ ، كتاب الرقاق (٨١) ، باب صفة الجنة والنار (٥١) ، ٢٠٤/٧ .

(ب) زعمهم بأنه خبر آحاد لايحتج به ، والشفاعة طريقها العلم .

زعم أوهى من سابقه ، وبيان ذلك :

كونه خبر آحاد لايحتج به . قد سبق الحديث عن خبر الآحاد ، والاحتجاج به(١). كما سبق بيان أن أحاديث الشفاعة لأهل الكبائر تواترت معنوياً(٢). فبطلت حجتهم .

(ج) زعمهم أنه معارض بحديث "لايدخل الجنة نمام ..." الحديث .

وبحديث "من قتل نفسه بحديدة ..." الحديث .

فقد أجيب على ذلك من قبل ، بما يرفع التعارض ، ويوفق بين النصوص(٣).

وأما حملهم للحديث على أن المراد به شفاعة النبى صلى الله عليه وسلم لأهل الكبائر إذا تابوا . لادليل لهم على ذلك.

وهو مع أنه تأويل مناهض للنصوص الثابتة ، ولايدل عليه لفظ الحديث ، فهو أيضا معنى فاسد لأن الذى يتوب من الذنب لايوصف به بعد ذلك ، بل يبدل الله سيئاته حسنات فضلاً منه وكرماً(٤).

فصاحب الكبيرة إذا تاب عن كبيرته وصحت توبته زال عنه هذا الاسم .

(٣) زعمهم أن النبى صلى الله عليه وسلم لايشفع لأهل الكبائر لأنه يلزم حينئذ أن يكون محباًلهم راضياًعنهم وذلك لايصح لأنهم يستحقون اللعن والغضب والسخط ، وإنما تكون الشفاعة لزيادة الثواب .

---

(١) انظر ص : ١١٢ فما بعدها .

(٢) انظر ص : ٣١٩

(٣) انظر ص : ٣٠٩ ، ٣١٠

(٤) قال الله تعالى : {إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً} .
سورة الفرقان : آية ٧٠

يرد على ذلك بما يأتى :

شفاعة النبى صلى الله عليه وسلم يوم القيامة لأهل الكبائر وغيرهم ثابتة بالنصوص الدالة على ذلك(١).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

"أجمع المسلمون على أن النبى صلى الله عليه وسلم يشفع للخلق يوم القيامة بعد أن يسأله الناس ذلك ، وبعد أن يأذن الله له فى الشفاعة . ثم إن أهل السنةوالجماعة متفقون على مااتفق عليه الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، واستفاضت به السنن من أنه صلى الله عليه وسلم يشفع لأهل الكبائر من أمته ، ويشفع أيضاً لعموم الخلق"(٢).

وشفاعته صلى الله عليه وسلم ليست فقط فى زيادة الثواب ورفع الدرجات كما تزعم المعتزلة ، بل له شفاعات أخرى دلت عليها النصوص ، ونص عليها أهل العلم . من ذلك :

(١) الشفاعة العظمى فى أهل الموقف .

وهى التى تتدافعها الأنبياء حتى تصل إليه ، فيشفع فيهم عند الله ليقضى بين أهل الموقف الذين لحقهم من الكرب والغم مالايطيقون . وهى المقام المحمود الذى اختص به صلى الله عليه وسلم . وهى مجمع عليها(٣).

ومما دل عليها من النصوص حديث أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يجمع الله المؤمنين يوم القيامة ... إلى أن قال : "... ولكن ائتوا محمداً صلى الله عليه وسلم عبداً غفر له ماتقدم من ذنبه وماتأخر فيأتونى فأنطلق فأستأذن على ربى فيؤذن لى عليه فإذا رأيت ربى وقعت له ساجداً ، فيدعنى ماشاء الله أن يدعنى ثم يقال لى ارفع يامحمد

---

(١) انظر ص: ٣٢٠

(٢) مجموع الفتاوى ٣١٤/١ .

(٣) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص٢٢٩ ، لوامع الأنوار ٢١١،٢٠٨/٢ ، شرح لمعة الاعتقاد ص٧٣ ، الشفاعة ص٣١ .

وقل يسمع وسل تعطى واشفع تشفع فأحمد ربى بمحامد علمنيها ثم أشفع ..." الحديث(١).

وحديث أبى هريرة قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بلحم فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه فنهس منها نهسة ثم قال : "أنا سيد الناس يوم القيامة وهل تدرون مم ذلك؟ يجمع الناس الأولين والآخرين فى صعيد واحد ..." إلى أن يقول : "... فيأتون محمداً صلى الله عليه وسلم فيقولون يامحمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء وقد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وماتأخر اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى مانحن فيه فانطلق فأتى تحت العرش فأقع ساجداً لربى عز وجل ثم يفتح الله على من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبلى ثم يقال يامحمد ارفع رأسك سل تعطى واشفع تشفع ..." الحديث(٢).

(٢) شفاعته لأمته فى دخول الجنة(٣).

مما دل عليها حديث أبى هريرة ، وفيه قال صلى الله عليه وسلم : "فأقول أمتى يارب ، أمتى يارب ، فيقال : يامحمد أدخل من أمتك من لاحساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب"(٤).

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه ، كتاب التوحيد (٩٧) ، باب قول الله تعالى {لما خلقت بيدى} (١٩) ، ١٧٢/٨-١٧٣ .
وبلفظ مقارب فى باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم (٣٦) ٢٠٠/٨-٢٠١ .
وأخرجه مسلم فى صحيحه بألفاظ مقاربة فى كتاب الإيمان (١) ، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (٨٤) برقم ١٩٣ ، ١٨٠/١-١٨٤ .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه ، فى كتاب التفسير (٦٥) ، فى تفسير سورة بنى إسرائيل (١٧) ، باب {ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً} (٥) ، ٢٢٥/٥-٢٢٧ .
وأخرجه مسلم فى صحيحه ، بلفظ مقارب ، فى كتاب الإيمان (١) ، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (٨٤) برقم ١٩٤ ، ١٨٤/١-١٨٦ .

(٣) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص٢٣٣ ، الشفاعة ص١٨ .

(٤) انظر تخريج الحديث السابق .

وفى حديث أنس : "فأحمد ربى بمحامد علمنيها ثم أشفع فيحد لى حداً فأدخلهم الجنة"(١).

(٣) شفاعته للمؤمنين من أهل الكبائر(٢).

وقد سبقت بعض النصوص التى تدل عليها(٣). وهى لاتختص به صلى الله عليه وسلم وإنما يشركه فيها الملائكة والنبيون والمؤمنون(٤).

ولـه شفاعات أخرى صلى الله عليه وسلم ، منها مـايشركه فيها غيره ، ومنها مايختص به(٥).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

"فلـه صلى اللـه عليه وسلم شفـاعات يختـص بها لايشـركه فيهـا أحد ، وشفاعات يشركه فيها غيره من الأنبياء ، والصالحين ، ولكـن ماله فيها أفضل مما لغيره فإنه صلى الله عليه وسلم أفضل الخلق وأكـرمهم على ربه عز وجل وله من الفضائل التى ميزه الله بها على سائر النبيين"(٦).

---

(١) سبق تخريجه انظر ص: ٣٢٣

(٢) انظر : مجموع الفتاوى ٣١٨/١ ، شرح العقيدة الطحاوية ص٢٣٣ ، شرح لمعة الاعتقاد ص٧٣،٧٤ ، الشفاعة ص٦١ .

(٣) انظر ص : ٣٢٠

(٤) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص٢٣٣ .
روى مسلم بسنده إلى أبى سعيد الخدرى أن ناساً فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : يارسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "نعم" . قال : "هل تضارون فى رؤية الشمس بالظهيرة صحواً ليس معها سحاب؟ ـ فذكر الحديث ـ وفيه :
"فيقول الله عز وجل : شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون . ولم يبق إلا أرحم الراحمين ، فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوماً لم يعملواخيراً قط ..." الحديث .
صحيح مسلم ، كتاب الإيمان (١) ، باب معرفة طريق الرؤية (٨١) برقم ١٨٣ ، ١٦٧/١-١٧١ .

(٥) انظر : مجموع الفتاوى ٣١٧/١،٣١٨ ، شرح العقيدة الطحاوية ص٢٣٢،٢٣٣ ، لوامع الأنوار ٢١١/٢،٢١٢ ، شرح لمعة الاعتقاد ص٧٢-٧٥ ، الشفاعة ص١٨،٣١،٦١

(٦) مجموع الفتاوى ٣١٤/١ ، وانظر ١٥٣/١،١٥٤ .

(٤) أما دليلهم العقلى فى نفى الشفاعة :

وهو زعمهم أن الله يجب عليه أن يثيب الطائع ويعاقب العاصى ، وإثابة من لايستحق الثواب قبيحة ، والعصاة ليسوا من أهل الثواب . سبق جوابه عند الحديث عن أفعال العباد(١)، وصاحب الكبيرة(٢)بما يغنى عن الإعادة .

(٥) أدلتهم النقلية :

أما ماستدل به المعتزلة من آيات ، إنما تتعلق بالشفاعة المنفية ، وهذه بخلاف الآيات التى أثبتت الشفاعة يوم القيامة . وقد غضوا الطرف عنها .

من ذلك قوله تعالى : {من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه}(٣).

وقوله : {ولايملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون}(٤).

وقوله : {يومئذ لاتنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولاً}(٥).

والآيات فى ذلك كثيرة جداً فى إثبات الشفاعة .

وأما الآيات النافية للشفاعة يوم القيامة ، فما فهمه السلف منها مخالف لما فهمه أهل الاعتزال ، وإيضاح ذلك فيما يلى :

(أ) إن المراد بالشفاعة المنفية فى تلك الآيات الشفاعة للمشركين والكفار .فهؤلاء لاتنفعهم الشفاعة أصلاً كما دل على ذلك قوله تعالى : {ماسلككم فى سقر . قالوا لم نك من المصلين . ولم نك نطعم المسكين . وكنا نخوض مع الخائضين . وكنا نكذب بيوم الدين . حتى أتانا اليقين . فما تنفعهم شفاعة الشافعين}(٦).

---

(١) انظر ص : ٢٤٣ فما بعدها .
(٢) انظر ص : ٢٨٩ فما بعدها .
(٣) سورة البقرة : آية ٢٥٥
(٤) سورة الزخرف : آية ٨٦
(٥) سورة طه : آية ١٠٩
(٦) سورة المدثر : آية ٤٢-٤٨

(ب) المراد بذلك الشفاعة التى يثبتها أهل الشرك وأهل البدع ، الذين يعتقدون أن الخلق يشفعون عند الله بغير إذن كما يشفع بعضهم لبعض فى الدنيا(١).

والشفاعة إنما تطلب من الله تعالى لأنه هو المالك لها سبحانه كما قال {قل لله الشفاعة جميعاً}(٢).

وأما الشفاعة المثبتة فهى لاتثبت عند السلف إلا بشروط وهى :

(١) الإذن للشافع بالشفاعة . كما قال سبحانه : {من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه}(٣). وقال : {مامن شفيع إلا من بعد إذنه}(٤).

(٢) الرضا عن المشفوع فيه . كما قال سبحانه : {وكم من ملك فى السموات لاتغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى}(٥). وقال : {ولا يشفعون إلا لمن ارتضى}(٦)(٧).

---

(١) مجموع الفتاوى ١٤٩/١-١٥٠ بتصرف . وانظر فى الرد على استدلالات المعتزلة بالآيات مفصلاً فى لوامع الأنوار ٢١٧/٢ .

(٢) سورة الزمر : آية ٤٤

(٣) سورة البقرة : آية ٢٥٥

(٤) سورة يونس : آية ٣

(٥) سورة النجم : آية ٢٦

(٦) سورة الأنبياء : آية ٢٨

(٧) انظر : مجموع الفتاوى ١١٨/١،١١٩،١٤٥،١٤٩،٢٣٤،٣٣٢ ، اقتضاء الصراط المستقيم ٨٢١/٢،٨٢٢ ، شرح لمعة الاعتقاد ص٧٤،٧٥ ، الشفاعة ص١٢،١٣ .

(٦) **عذاب القبر** .

عـذاب القبر أو نعيمه حق ثابت بظاهر القرآن وصـريح السنة ، وعلى ذلك إجماع أهل السنة(١).

فـإن الميت إذا مات يكون فى نعيم أو عـذاب وأن ذلـك يحصل لروحه وبدنه ، وأن الـروح تبقـى بعـد مفارقة البدن منعمة أو معـذبة،وأنهـاتتصل بالبـدن أحياناً ويحصل له معهـا النعيم أو العذاب ، ثم إذا كـان يوم القيامة الكبرى أعيـدت الأرواح إلى الأجسـاد وقاموا من قبـورهم لرب العالمين(٢).

والآيات الدالة على إثباته كثيرة ، من ذلك قوله سبحانه : {يثبت الله الـذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضـل الله الظالمين ويفعل الله مايشـاء}(٣)، وقـوله : {فوقاه اللـه سيئات مامكـروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب . النار يعرضون عليها غدواً وعشيـاً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العـذاب}(٤). وكقـوله : {وإن للذين ظلمـوا عذاباً دون ذلك ولكن أكثرهم لايعلمون}(٥).

وأمـا الأحاديث فى إثبـاته فقـد تواترت تواتراًمعنـوياً فيجـب اعتقـاد مادلت عليه والإيمان به(٦)، وسوف نورد طرفاً منها عند الحديث عـن كشف شبهات المعتزلة .

وقد صدق السلف رضوان الله عليهم بذلك وأيقنـوا وأثبتوا ماجاءت به الأحاديث ولم يردوا شيئـاً منهـا ، ولم يعـارضوها بعقـل ولارأى ، وإنما منهجهم التسليم والانقياد(٧).

---

(١) شرح لمعة الاعتقاد ص٦٩ .
(٢) الروح ص٥٢ ، لوامع الأنوار ٢٥/٢ .
(٣) سورة إبراهيم : آية ٢٧
(٤) سورة غافر : آية ٤٥-٤٦
(٥) سورة الطور : آية ٤٧
(٦) انظر : الروح ص٥٢، شرح العقيدة الطحاوية ص٣٩٩، لوامع الأنوار ٥/٢، ١٣، ٢٣
(٧) انظر فى بيان مذهب السلف فى إثبات عذاب القبر :
الروح ص٥٢ ، لوامع الأنوار ٢٥/٢ ، شرح لمعة الاعتقاد ص٦٩ .

قال المروزى : قال أبو عبد الله : عذاب القبر حق لاينكره إلا ضال أو مضل .

وقال حنبل : قلت لأبى عبد الله فى عذاب القبر . فقال : هذه أحاديث صحاح نؤمن بها ونقر بها ، كلما جاء عن النبى صلى الله عليه وسلم باسناد جيد أقررنا به . إذا لم نقر بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ودفعناه ورددناه رددنا على الله أمره . قال الله تعالى : {وماآتاكم الرسول فخذوه}(١). قلت له : وعذاب القبر حق؟ قال : حق يعذبون فى القبور . قال : وسمعت أبا عبد الله يقول : نؤمن بعذاب القبر وبمنكر ونكير وأن العبد يسأل فى قبره فـ{يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة}(٢)(٣)فى القبر .

ويمكن أن نعرض شبهات المعتزلة حول عذاب القبر فيما يأتى :

(١) لقد زعم المعتزلة أن الأخبار الدالة على عذاب القبر مجملة .

ولذلك انقسموا حوله إلى ثلاث فرق :

١ - أنكره ضرار بن عمرو(٤).

٢ - قطع به بعضهم فى الجملة .

٣ - جوزه آخرون(٥).

---

(١) سورة الحشر : آية ٧

(٢) سورة إبراهيم : آية ٢٧

(٣) الروح ص٥٧ ، لوامع الأنوار ٢٣/٢ .

(٤) ضرار بن عمرو :

هو ضرار بن عمرو الغطفانى ، قاضى من كبار المعتزلة ، وهو زعيم الفرقة الضرارية له مقالات خبيثة كفره المعتزلة من أجلها وطردوه .

انظر : فضل الاعتزال ص٣٩١ ، ميزان الاعتدال ٢٣٨/٢،،٢٣٩ ، سير أعلام النبلاء ٥٤٤/١٠-٥٤٦ ، لسان الميزان ٢٠٣/٣ ، الأعلام ٢١٥/٣ .

(٥) انظر : فضل الاعتزال ص٢٠١،٢٠٢ ، شرح الأصول ص٧٣٠ ، الفصل فى الملل والنحل ٦٧/٤ .

(٢) وتدور شبههم حول كيفية ثبوته ووقت ذلك الثبوت .

أما بالنسبة لكيفية ثبوته فإنهم قالوا :

(أ) مايروى بأن الموتى يسمعون لايصح إلا أن يراد أنهم فى تلك الحال يسمعون بأن أحياهم الله وقوى سمعهم .

وماروى بأن الميت يسمع خفق النعال لايصح أيضاً .

الدليل العقلى على ذلك :

الإدراك إنما يترتب على الحياة ، وبالتالى لابد من إحياء الموتى لكى يصح تعذيبهم ، ولابد من خلق العقل فيهم ليحسن ذلك التعذيب ، وإلا اعتقد المعذب أنه مظلوم ، والميت كالجماد لايسمع ولايبصر ولايلتذ ، وتعذيب الجماد محال . وهذا إنما يعلم من جهة العقل ولامدخل للسمع فيه(١).

(ب) عذاب القبر إن صح لبعض الناس فإنه لايصح لبعضهم وهم الذين فقدت أجسادهم أو تعذر وصول الحياة إليها(٢).

وأما بالنسبة لوقته فقد قالوا :

(أ) الأخبار دلت على أن وقت العذاب يكون قرب الدفن ولكنا لانعين ذلك ، لأنه لاطريق إلى تعيينه ، والقوى فى ذلك أنه يؤخر إلى مابين النفختين لقوله : {ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون . فإذا نفخ فى الصور فلاأنساب بينهم يومئذ ولايتسآلون}(٣)(٤).

(ب) أما كون نباشى القبور لايرون أثر العقوبة على الميت :

أولاً : من المجوز أن الله لايعذبه فى حالة اطلاع النباش أو غيره .

ثانياً : جائز أن يعذبه على وجه يستتر عنهم لوجه من المصلحة يرى فى ذلك.

---

(١) انظر : فضل الاعتزال ص٢٠١،٢٠٢ ، شرح الأصول ص٧٣١،٧٣٢ .

(٢) انظر : فضل الاعتزال ص٢٠٣ .

(٣) سورة المؤمنون : آية ١٠٠،١٠١

(٤) انظر : فضل الاعتزال ص٢٠٢ ، شرح الأصول ص٧٣١،٧٣٢ .

ثالثاً : الصحيح أنه يؤخر ذلك إلى مابين النفختين(١).
(ج) قوله : {النار يعرضون عليها غدواً وعشياً}(٢).
هذا فى آل فرعون خاصة فلايقاس عليهم غيرهم(٣).
ويجاب على هذه الشبه بما يلى :
إن زعمهم أن الأخبار مجملة فى إثبات عذاب القبر ثم انقسامهم حوله إلى ماذكرنا ، يتبين منه أن المعتزلة وإن زعم بعضهم بأنه يقطع بوقوعه لدلالة الأخبار عليه ، إلا أنهم لم يسلموا للنصوص فى ذلك تسليماً كاملاً . ولم يسلم هذا الأمر من إقحام عقولهم فى جزئيات منه .
نعم إن من أثبته منهم أثبته فى الجملة ، ولكنهم خاضوا فى كيفية ثبوته ووقت ذلك الثبوت مما دفعهم إلى رد بعض النصوص وتأويل بعضها.
وإليك بيان ذلك :
فيما يتعلق بالكيفية :
(أ) زعموا أن مايروى بأن الموتى يسمعون ، وأن الميت يسمع خفق النعال لايصح .
هذا زعم فى مناهضة الثابت من الأدلة الصريحة التى تثبت ذلك .
منها : مارواه البخارى بسنده إلى أنس بن مالك رضى الله عنه قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إن العبد إذا وضع فى قبره وتولى عنه أصحابه وإنه ليسمع قرع نعالهم ..." الحديث(٤).

---

(١) انظر : شرح الأصول ص٧٣٣ .
(٢) سورة غافر : آية ٤٦
(٣) انظر : فضل الاعتزال ص٢٠٣ .
(٤) صحيح البخارى ، كتاب الجنائز (٢٣) ، باب ماجاء فى عذاب القبر (٨٧) ١٠٢/٢ وبلفظ مقارب فى باب الميت يسمع خفق النعال (٦٨) ، ٩٢/٢ .
وأخرجه مسلم فى صحيحه ، فى كتاب الجنة وصفة نعيمها (٥١) ، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه (١٧) برقم ٢٨٧٠ ، ٢٢٠٠/٤-٢٢٠١ .

ومارواه بسنده إلى ابن عمر رضى الله عنهما قال : "اطلـع النبى صلى الله عليه وسلم على أهل القليب فقال :"وجدتم ماوعد ربكم حقاً". فقيل له : تدعو أمواتاً؟ فقال :"ماأنتم بأسمع منهم ، ولكن لايجيبون"(١).

ولادليل على خصوصية ذلك بأهل البدر .

قال القاضى عياض رحمه الله :

"يحتمـل سمـاعهم على مايحتمـل عليـه سماع الموتى فى أحاديث عـذاب القبر وفتنته التى لامدفع لها . وذلك بإحيائهم أو إحياء جزء منهم يعقلون به ويسمعون فى الوقت الذى يريد الله تعالى" .

وقال الإمام النووى رحمه الله بعد نقله لكلام القـاضى عياض السابق "وهو الظاهر المختار الذى يقتضيه أحاديث السلام على القبور"(٢).

وأما دليلهم العقلى فيجاب عنه بالآتى :

أولاً : هذا إقحام منهم للعقل فى أمر لاطاقة له به ولامـدخل له فيه ، لأن عـذاب القبر أمـر غيبى لاعهـد للعقول به فى هذه الـدار ، ولايمكنهـا أن تصل إلى كيفيته ، وإنما يتوقف الإيمان فيه على النصوص الواردة ، وإن كان العقـل لايمنع وقوعه ، والشرع لايأتى بما تحيلـه العقول ، ولكنـه قـد يأتى بما تحار فيه العقول(٣).

---

(١) صحيـح البخـارى ، كتـاب الجنـائز (٢٣) ، باب مـاجاء فى عـذاب القبر (٨٧) ، ١٠١/٢ . وبلفـظ مقـارب فى كتـاب المغـازى (٦٤) ، باب قتـل أبى جهـل ٩/٥ . وأخرجه مطولاً عن أبى طلحة فى الكتاب والباب السابقين ٨/٥ .
وأخرج مسلم فى صحيحـه نحوه ، فى كتاب الجنائز (١١) ، باب الميـت يعذب ببكاء أهله عليه (٩) ، برقم ٩٣٢ ، ٦٤٣/٢ .

(٢) شرح النووى على صحيح مسلم ٢٠٦/١٧-٢٠٧ .

(٣) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص٣٩٩ .

ثانياً : إن الحياة التى يحياها الميت فى قبره والتى دل عليها حديث النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله : "فتعاد روحه إلى جسده"(١).

حياة أخرى غير هذه الحياة المعهودة فى الدنيا التى تقوم فيها الروح بالبدن وتدبره وتصرفه وتحتاج إلى مايحتاج إليه الأحياء ، وهذا أمر لايكذبه العقل ولاينفيه(٢).

يقول ابن القيم رحمه الله :

"إن الروح لها بالبدن خمسة أنواع من التعلق متغايرة الأحكام :

أحدها : تعلقها به فى بطن الأم جنيناً .

الثانى : تعلقها به بعد خروجه إلى وجه الأرض .

الثالث : تعلقها به فى حال النوم فلها به تعلق من وجه ومفارقة من وجه .

الرابع : تعلقها به فى البرزخ فإنها وإن فارقته وتجردت عنه فإنها لم تفارقه فراقاً كلياً بحيث لايبقى لهاالتفات إليه البتة.

الخامس : تعلقها به يوم بعث الأجساد وهو أكمل أنواع تعلقها بالبدن ولانسبة لما قبله من أنواع التعلق إليه ، إذ هو تعلق لايقبل البدن معه موتاً ولانوماً ولافساداً .

---

(١) هذاجزء من حديث البراء بن عازب الطويل فى شأن عذاب القبر .
والحديث أخرجه أبو داود فى سننه بطوله ، فى كتاب السنة ، باب فى المسألة فى القبر وعذاب القبر برقم ٤٧٥٣ ، ٤/٢٣٩-٢٤٠ .
وأحمد فى المسند ٤/٢٨٧-٢٨٨ .
والحاكم فى المستدرك ، وذكر له طرقاً . وقال : "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين" ووافقه الذهبى ١/٣٧-٤٠ .
وأخرج جزء منه فى كتاب العلم ١/١٢٠ .
وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد وقال : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح ٣/٥٢-٥٣ .
ونص الشيخ ناصر الدين الألبانى على صحته . انظر صحيح سنن أبى داود ٣/٩٠٢ شرح العقيدة الطحاوية ص٣٩٨ هامش رقم ٥٢٥ .

(٢) انظر : الروح ص٤٣ ، فتح البارى ٣/٢٤١ .

وإذا كان النائم روحه فى جسده وهو حى وحياته غير حياة المستيقظ فإن النوم شقيق الموت ، فهكذا الميت إذا أعيدت روحه إلى جسده كانت له حال متوسطة بين الحى وبين الميت الذى لم ترد روحه إلى بدنه كحال النائم المتوسطة بين الحى والميت ، فتأمل هذا يزيح عنك إشكالات كثيرة"(١).

فقياس حياة البرزخ بحياة الدنيا قياساً عقلياً هو سر تخبط المعتزلة وانحرافهم عن جادة الصواب ، وقدحهم فى الأحاديث الصحيحة بالرد والتأويل .

فعذاب القبر ونعيمه من الأمور التى لاطريق للعلم بها إلا النصوص الواردة فى الكتاب والسنة مما ليس للعقل فيه مجال(٢).

والرسل صلوات الله وسلامه عليهم لايخبرون بما تحيله العقول وتنافيه ولكن إخبارهم إما أن يشهد به العقل والفطرة ، وإما لايدركه العقل لعجزه عن الوصول إلى حقيقته وكنهه ولايكون الخبر بذلك محالاً فى العقل ، وبالتالى كل خبر يظن أن العقل يحيله فإما أن يكون كذباً أو يكون ذلك العقل فاسداً .

وسوء الفهم عن الله وعن رسوله صلى الله عليه وسلم وتحميل الكلام مالايحتمل أو التقصير به عن مراد الله ورسوله هو الذى أوقع أهل الاعتزال ومن على شاكلتهم فى تلك الضلالات والبدع ، ففهموا خطأ ثم جعلوا مافهموه هو الدين الذى جاء عن الله وعن رسوله صلى الله عليه وسلم فوالوا فيه وعادوا فيه . ومافهمه صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن سار على نهجهم لايلتفت إليه ولايعول عليه(٣).

---

(١) الروح ص٤٣-٤٤ ، وانظر : شرح العقيدة الطحاوية ص٣٩٩ .
(٢) انظر : لوامع الأنوار ٣/٢ .
(٣) انظر : الروح ص٦٢،٦٣ .

(ب)قولهم إن عذاب القبر وإن صح لبعض الناس فلايصح لبعضهم ، ويعنون بذلك الذين فقدت أجسادهم أو تعذر وصول الحياة إليها .

ويجاب على هذا :

إن كل من مات وهو مستحق للعذاب ناله نصيبه منه سواء قبر أو لم يقبر ، فإن أكلته السباع أو أحرق حتى صار رماداً ونسف فى الهواء ، أو صلب أو أغرق فى البحر ، وصل إلى روحه وبدنه من العذاب مايصل إلى المقبور(١).

وكون الميت قد تفرقت أجزاؤه أو أكلته السباع أو الحيتان أو فقد شىء من جسمه لايمنع ذلك من إحياء جزء من أجزائه وإيصال العذاب إليه(٢).

يقول ابن القيم رحمه الله :

"إنه غير ممتنع أن ترد الروح إلى المصلوب والغريق والمحرق ونحن لانشعر بها لأن ذلك الرد نوع آخر غير المعهود ، فهذا المغمى عليه والمسكوت والمبهوت(٣)أحياء وأرواحهم معهم ولانشعر بحياتهم ، ومن تفرقت أجزاؤه لايمتنع على من هو على كل شىء قدير أن يجعل للروح اتصالاً بتلك الأجزاء على تباعد مابينها وقربه ويكون فى تلك الأجزاء شعور بنوع من الألم واللذة ، وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد جعل فى الجمادات شعوراً وإدراكاً تسبح ربها به ، وتسقط الحجارة من خشيته(٤)، وتسجد له

---

(١) الروح ص٥٨ بتصرف ، وانظر : شرح العقيدة الطحاوية ص٤٠٠ .

(٢) انظر : شرح النووى على صحيح مسلم ٢٠١/١٧ .

(٣) المبهوت : هو الذى أخذ بغتة .
انظر : القاموس المحيط ص١٨٩ ، مادة (بهت) .

(٤) جاء ذلك فى قوله تعالى : {وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله ومالله بغافل عما تعملون} . سورة البقرة : آية ٧٤

الجبال والشجر(١)، وتسبحه الحصى والمياه والنبات ، قال تعالى : {وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم}(٢)... وقد كان الصحابة يسمعون تسبيح الطعام وهو يؤكل(٣)، وسمعوا حنين الجذع اليابس فى المسجد(٤)، فإذا كانت هذه الأجسام فيها الإحساس والشعور فالأجسام التى كانت فيها الروح والحياة أولى بذلك"(٥).

والحاصل إن الله جعل الدور ثلاثاً ، دار الدنيا ، ودار البرزخ(٦)، ودار القرار ، وجعل الإنسان من بدن ونفس ، وجعل لكل دار أحكاماً تختص بها ، فجعل أحكام الدنيا على الأبدان والأرواح تبعاً لها ، وجعل أحكام البرزخ على الأرواح والأبدان تبعاً لها ، وجعل أحكام الآخرة على

---

(١) وجاء ذلك فى قوله تعالى : {ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس ...} الآية . سورة الحج : آية ١٨

(٢) سورة الإسراء : آية ٤٤

(٣) روى البخارى بسنده إلى عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : "كنا نعد الآيات بركة وأنتم تعدونها تخويفاً ، كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر فقل الماء فقال : اطلبوا فضلةمن ماء فجاؤا بإناء فيه ماء قليل فأدخل يده فى الإناء ثم قال : "حى على الطهور المبارك والبركة من الله" فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل".
صحيح البخارى ، كتاب المناقب (٦١) ، علامات النبوة فى الإسلام (٢٥) ، ١٧١/٤ .

(٤) وروى بسنده إلى جابر بن عبد الله قال : "كان المسجد مسقوفاً على جذوع من نخل ، فكان النبى صلى الله عليه وسلم إذا خطب يقوم إلى جذع منها ، فلما صنع له المنبر وكان عليه فسمعنا لذلك الجذع صوتاً كصوت العشار ، حتى جاء النبى صلى الله عليه وسلم فوضع يده عليها فسكنت".
صحيح البخارى ، الكتاب والباب السابقين ١٧٣/٤-١٧٤ .

(٥) الروح ص٧٢-٧٣ .

(٦) البرزخ : هو الحاجز بين الشيئين ، والمراد به الفترة مابين الموت إلى القيامة . انظر : القاموس المحيط ص٣١٨ .

الأبدان والأرواح جميعاً ، فأحكام البرزخ تجرى على الأرواح فيسرى ذلك على أبدانها نعيماً أو عذاباً(١).

والروح تنعم أو تعذب منفردة عن البدن ومتصلة به فيكون النعيم أو العذاب عليهما جميعاً ، كما يكون على الروح منفردة(٢).

فالميت يقع عليه النعيم أو العذاب ولو لم يقبر ، وإنما أضيف العذاب إلى القبر لكون معظمه يقع فيه ، وإن أكثر الموتى يقبرون ، ومن يقبر فإن جسده يتحلل ويتحول إلى تراب ومع ذلك يصل إليه النعيم أو العذاب ، وهذا محجوب عن الخلق(٣).

ومايتعلق من شبه بوقت عذاب القبر فإنهم زعموا :

(أ) أن الأخبار دلت على أن وقته قرب الدفن ، ولكنا لانعين ذلك ، لأنه لاطريق إلى تعيينه ، والصحيح أنه يؤخر إلى مابين النفختين لقوله : {ومن ورائهم برزخ ...} الآية(٤).

الذى يلقى نظرة على الأدلة من الكتاب والسنة يجد أن عذاب من يستحق العذاب يبدأ منذ قدوم الملائكة لأخذ روحه عند الموت . قال الله تعالى : {ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بماكنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون}(٥).

فقوله : "والملائكة باسطوا أيديهم" أى بالضرب حتى تخرج أنفسهم من أجسادهم ، وهو كقوله : {ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم}(٦)(٧).

---

(١) انظر : الروح ص٦٣،٦٤ ، شرح العقيدة الطحاوية ص٤٠١ .

(٢) انظر : الروح ص٥١ ، شرح العقيدة الطحاوية ص٤٠٠ .

(٣) انظر : الفصل فى الملل والنحل ٦٧/٤ ، فتح البارى ٢٣٣/٣ .

(٤) سورة المؤمنون : آية ١٠٠

(٥) سورة الأنعام : آية ٩٣

(٦) سورة الأنفال : آية ٥٠

(٧) انظر تفسير القرآن العظيم ١٥٧/٢ .

كما دلت الأدلة على وقوع العذاب عقب الدفن وبعد سؤال الملكين وامتحانهما له . فقد جاء فى حديث البراء بن عازب فى شأن المؤمن "فينادى مناد من السماء أن صدق عبدى فأفرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة وافتحوا له باباً إلى الجنة فيأتيه من ريحها وطيبها ويفسح له فى قبره" .

وقال فى الكافر "فينادى مناد من السماء أن كذب عبدى فأفرشوه من النار وافتحوا له باباً من النار فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه" الحديث(١).

فهذا نص على وقوع العذاب بعد الدفن .

وفى حديث ابن عباس رضى الله عنهما قال : "مر النبى صلى الله عليه وسلم بحائط من حيطان المدينة أو مكة فسمع صوت إنسانين يعذبان فى قبورهما ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : يعذبان ، ومايعذبان فى كبير . ثم قال : بلى ، كان أحدهما لايستتر من بوله ، وكان الآخر يمشى بالنميمة ثم دعا بجريدة فكسرها كسرتين فوضع على كل قبر منهما كسرة ، فقيل له : يارسول الله لم فعلت هذا؟ قال صلى الله عليه وسلم : لعله أن يخفف عنهما مالم تيبسا"(٢).

وفى حديث زيد بن ثابت رضى الله عنه قال : بينما النبى صلى الله عليه وسلم فى حائط لبنى النجار على بغلة له ، ونحن معه ، إذ حادت به فكادت تلقيه ، وإذا أقبر ستة أو خمسة أو أربعة ، فقال : "من يعرف

---

(١) سبق تخريجه انظر : ٣٣٢

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه ، فى كتاب الوضوء (٥٥) ، باب من الكبائر أن لايستتر من بوله (٥٥) ٦٠/١-٦١ ، وبلفظ مقارب : فى باب ماجاء فى غسل البول (٥٦) ، ٦١/١ ، وفى كتاب الجنائز (٢٣) ، باب الجريد على القبر (٨٢) ، ٩٨/٢-٩٩ ، وفى باب عذاب القبر من الغيبة والبول (٨٩) ، ١٠٣/٢ ، وفى كتاب الأدب (٧٨) ، باب الغيبة (٤٦) ، ٨٥/٧-٨٦ .

وأخرجه مسلم فى صحيحه ، بلفظ مقارب . فى كتاب الطهارة (٢) ، باب الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه (٣٤) برقم ٢٩٢ ، ٢٤٠/١-٢٤١ .

أصحـاب هذه الأقبر"؟ فقال رجل : أنا . قـال : "فمتى مـات هـؤلاء"؟ قال : ماتوا فى الإشراك . فقال : "إن هــذه الأمــة تبتلى فى قبــورها . فلــولا أن لاتدافنـوا لـدعوت الله أن يسمعكـم من عذاب القبر الـذى أسمع منه ..." الحديث(١).

وفى حديث سمـرة بن جندب رضـى الله عنه فى ذكـر منام النبى صلى الله عليه وسلم ورؤيته للمعذبين كيف يعذبون(٢).

فقد دلت هذه الأحاديث على استمرارية عذاب القبر بعد الدفن ، وهل يدوم ذلك الى يوم القيامة أم ينقطع؟

الظـاهر من النصوص أن منه ماهو دائم إلى يوم القيـامة ،وهو عذاب الكفـار ، كمـا قال تعالى : {النـار يعرضون عليها غـدوا وعشيـا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب}(٣)، وفى حديث أبى هريرة فى شأن المنـافق : "فيقـال للأرض التئمـى عليـه فتلتئم عليـه فتختلـف فيهـا أضلاعـه فلايزال فيها معذبا حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك"(٤).

ومنـه الـذى يدوم مدة ثم ينقطـع وهو عذاب بعـض العصـاة ، فإنهم يعذبون على قدر جرائمهم ثم يخفف عنهم(٥).

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه فى كتـاب الجنة وصفة نعيمها (٥١) ، باب عــرض مقعـد الميت من الجنة أو النار عليه (١٧) ، ورقمه ٢٨٦٧ ، ٢١٩٩/٤-٢٢٠٠ .

(٢) وهـو حديث طـويل . أخرجه البخـارى فى صحيحه . كتاب الجنائز (٢٣) ، باب (٩٣) ، ١٠٤/٢-١٠٥ ، وفى كتــاب التعبير (٩١) ، باب تعبير الــرؤيا بعــد صلاة الصبح (٤٨) ، ٨٤/٨-٨٦ .

وأخرج مسلم فى صحيحـه طرفا يسيرا منـه فى كتاب الرؤيا (٤٢) ، باب رؤيا النبى صلى الله عليه وسلم (٤) ، برقم ٢٢٧٥ ، ١٧٨١/٤ .

(٣) سورة غافر : آية ٤٦

(٤) أخرجه الترمذى فى سننه ، كتاب الجنائز (٨) ، باب ماجاء فى عـذاب القبر (٧١) برقـم ١٠٧١ ، ٣٨٣/٣ ، وحسنـه الشيـخ ناصـر الألبـانى . صحيــح سنن الترمـذى ٣١١/١ ، وانظـر : مشكـاة المصـابيح ٤٧/١ ، سلسلـة الأحاديث الصحيحـة ٣٨٠/٣ ورقمه ١٣٩١ .

(٥) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص٤٠١ .

فزعمهم أن العذاب يؤخر إلى مابين النفختين زعم لاحقيقة له لأن الأدلة السابقة تخالفه ، والآية التى استدلوا بها دليل عليهم لالهم ، لأن المراد بالبرزخ هو الحاجز الذى بين الدنيا والآخرة وهى فترة بقاء الناس فى قبورهم(١).

فالآية نص على عذاب القبر . وهو عذاب البرزخ(٢).

(ب)أما كون نباشى القبور لايرون أثر العقوبة على الميت :

وجوابهم على ذلك بأنه من المجوز أن الله لايعذبه فى حالة اطلاع النباش أو غيره ...الخ .

والجواب :

أولاً : إن المعتزلة وهم فى معرض الرد على المنكرين لوقوع عذاب القبر بهذه الشبهة العقلية ، يقرون فى ردهم أصل الشبهة التى انطلق منها أولئك ، وهى قياسهم حياة البرزخ بالحياة الدنيا . وقولهم "أو يعذبه على وجه يستتر عنهم" لايشفع لهم فيما قالوا لأنه أورد فى معرض الجواز كما أورد عدم وقوع العذاب فى حال اطلاع النباش أو غيره على الميت . بل وترجيح أن العذاب يقع بين النفختين كما زعموا فيه دلالة على تأييد شبهة أولئك المنكرين .

ثانياً : إن الله عزوجل جعل أمر الآخرة ومايتصل بها من حياة البرزخ أمراً غيبياً محجوباً عن المكلفين فى هذه الدار لكمال حكمته سبحانه وتعالى وليتميز المؤمنون بالغيب من غيرهم(٣).

ثالثاً : إن أحوال الآخرة وحياة البرزخ لاتقاس بأحوال الدنيا ، لأن ذلك قياس للغائب على الشاهد وهو محض الضلال والجهل وتكذيب الرسل صلوات الله وسلامه عليهم(٤).

---

(١) انظر : تفسير القرآن العظيم ٢٥٦/٣ .

(٢) الروح ص٥٨ ، شرح العقيدة الطحاوية ص٤٠٠ .

(٣) انظر : الروح ص٦٤ .

(٤) انظر : المرجع السابق ص٧١ ، فتح البارى ٢٣٥/٣ ، شرح لمعة الاعتقاد ص٧٠ .

رابعاً : إن العذاب الذى فى القبر ، والنعيم الذى فيه ليس من عذاب الدنيا ولانعيمها . فإن الميت يعذب أو ينعم ، وأهل الدنيا لايحسون بذلك .
بل لو دفن رجلان أحدهما إلى جنب الآخر ، وكان أحدهما منعماً ، والآخر معذباً ، فإن نعيم الأول لايصل إلى الثانى ، وكذا عذاب الثانى لايصل إلى الأول ، وقدرة الرب سبحانه أعجب وأوسع من ذلك ، ولكن النفوس مولعةبتكذيب مالم تحط به علماً ، إلا من عصمه الله ووفقه (١).
خامساً : إن الله عز وجل حجب بنى آدم من رؤية كثير مما يحدث فى هذه الدنيا ، فجبريل عليه السلام كان ينزل بالوحى على النبى صلى الله عليه وسلم ويخاطبه على كثب من الصحابة رضوان الله عليهم وهم لايرونه ، والجن يعيشون بيننا ويتكلمون فيما بينهم ونحن لانراهم ولانسمع كلامهم ، والنائم يجد ألماً ولذة فى نومه ولايحس بذلك جليسه ، بل اليقظان يحس بالألم ويشعر باللذة ولايجد ذلك من يجالسه (٢).

والمحتضر يشعر بالألم عند احتضاره وتضربه الملائكة والحاضرون لايرون ذلك . كذلك عذاب القبر يقع على الميت وهو يتألم ولو كان موضوعاً بين الناس ، وتسأله الملائكة ويجيبها ومع ذلك لايراه الناس ولايسمعون كلامه (٣).

سادساً : لو أُطلع الله العباد على عذاب القبر لزالت حكمة التكليف والإيمان بالغيب ، ولما تدافن الناس ، كما ثبت فى صحيح مسلم عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : "فلولا أن لاتدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذى أسمع منه"(٤).

---

(١) انظر : الروح ص٦٦ ، شرح العقيدة الطحاوية ص٤٠٠،٤٠١ .
(٢) انظر : شرح النووى على صحيح مسلم ٢٠١/١٧ ، الروح ص٧١ ، فتح البارى ٢٥٣/٣ .
(٣) انظر : الاعتصام ٣٢٩/٢ ، الروح ص٧٢ .
(٤) سبق تخريجه انظر ص : ٣٣٨

ولما كانت هذه الحكمة منفية فى البهائم سمعت ذلك وأدركته[(١)].

(ج) دعواهم : إن قوله تعالى {النار يعرضون عليها غدواً وعشياً}[(٢)] فى آل فرعون خاصة .

يجاب على ذلك :

بأن دعوة الخصوصية ممتنعة ولادليل عليها ، ومما يؤيد ذلك :

أولاً : لقد احتج أهل العلم بهذه الآية على عذاب القبر ومازالوا يستشهدون بها على إثباته[(٣)]، حتى قال الإمام ابن كثير رحمه الله : "وهذه الآية أصل كبير فى استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ فى القبور"[(٤)].

ثانياً : لقد فهم الصحابة والتابعون رضى الله عنهم عدم الخصوصية فى الآية ولذلك جعلوها مستنداً لهم فى إثبات عذاب القبر[(٥)].

---

(١) انظر : الروح ص٦٦ ، شرح العقيدة الطحاوية ص٤٠١ ، فتح البارى ٢٣٥/٣ .
روى البخارى بسنده إلى عائشة رضى الله عنها قالت : "دخلت علىّ عجوزان من عجز يهود المدينة فقالتا لى : إن أهل القبور يعذبون فى قبورهم فكذبتهما ولم أنعم أن أصدقهما فخرجتا ، ودخل النبي صلى الله عليه وسلم ، فقلت : يارسول الله إن عجوزين وذكرت له . فقال : "صدقتا إنهم يعذبون عذاباً تسمعه البهائم كلها" . فما رأيته بعد فى صلاة إلا تعوذ من عذاب القبر .
صحيح البخارى ، كتاب الدعوات (٨٠) ، باب التعوذ من عذاب القبر (٣٧()) ، ١٥٨/٧-١٥٩ .
وانظر صحيح مسلم ، كتاب المساجد (٥) ، باب استحباب التعوذ من عذاب القبر (٢٤) برقم ٥٨٦ ، ٤١١/١ .

(٢) سورة غافر : آية ٤٦

(٣) انظر : زاد المسير ٤٦/٧ ، شرح النووى على صحيح مسلم ٢٠٠/١٧ ، الجامع لأحكام القرآن ٣١٨/١٥،٣١٩ ، الروح ص٧٥ ، تفسير القرآن العظيم ٨١/٤ ، شرح العقيدة الطحاوية ص٣٩٦ ، فتح البارى ٢٣٣/٣ .

(٤) تفسير القرآن العظيم ٨١/٤ .

(٥) انظر : الجامع لأحكام القرآن ٣١٩/١٥ .

ثالثاً : روى البخارى بسنده إلى ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى . إن كان من أهل الجنة ، فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار ، فيقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة(١)" وهذا فى معنى الآية .

(١) صحيح البخارى ، كتاب الجنائز (٢٣) ، باب الميت يعرض عليه بالغداة والعشى (٩٠) ١٠٣/٢ ، وبلفظ مقارب فى كتاب بدء الخلق (٥٩) ، باب ماجاء فى صفة الجنة (٨) ، ٨٥/٤ ، وفى كتاب الرقاق (٨١) ، باب سكرات الموت (٤٢) ، ١٩٣/٧ .
وأخرجه مسلم فى صحيحه وزاد : "وإن كان من أهل النار فمن أهل النار" . فى كتاب الجنة وصفة نعيمها (٥١) ، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه (١٧) برقم ٢٨٦٦ ، ٢١٩٩/٤ .

الباب الثاني

موقف المستشرقين من السنة النبوية

وفيه تمهيد وفصلان :

التمهيد : المستشرقون : صلتهم بالفكر الإسلامي وأثر تلك الصلة في إثارة الشبهات حول السنة النبوية

الفصل الأول : شبهات المستشرقين حول الوحي النبوي .

الفصل الثاني : موقف المستشرقين من صحة الحديث .

التمهيد
المستشرقون ـ صلتهم بالفكر الإسلامى وأثر تلك الصلة فى إثارة الشبهات حول السنة النبوية .

مفهوم الاستشراق ومن هم المستشرقون :

الاستشراق اتجاه فكرى يعنى بدراسة حضارة الأمم الشرقية بصفة عامة وحضارة الإسلام والعرب بصفة خاصة . وقد كان مقتصراً فى بداية ظهوره على دراسة الإسلام واللغة العربية ، ثم اتسع ليشمل دراسة الشرق كله ـ لغاته ، أديانه ، تقاليده ، آدابه(١).

والمستشرقون هم علماء الغرب الذين اعتنوا بدراسة الإسلام واللغة العربية(٢)، ولغات الشرق وأديانه وآدابه .

تاريخ الاستشراق :

من الشائك تحديد نشأة الاستشراق تحديداً دقيقاً ، ولذا اختلف المحققون فى مبدأ نشأته .

فقد حدده بعض المؤرخين بدخول القوات العسكرية الاستعمارية قبيل القرن التاسع عشر .

وبعض المشتغلين باللغة العربية وآدابها يرون أنه بدأ من القرن السابع عشر متمثلاً فى ترجمة بعض الكتب العربية وطباعتها .

ويرى بعض الباحثين المتخصصين أنه أقدم من ذلك بكثير فقد يرجع تاريخه فى بعض البلدان الأوربية إلى القرن الثالث عشر .

ويكاد المؤرخون يجمعون على أنه انتشر فى أوربا بصفة جديدة بعد فترة عهد الاصلاح الدينى(٣).

---

(١) انظر : الاستشراق والمستشرقون وجهة نظر ص١٥ .

(٢) انظر : الإسلام والمستشرقون ص٣٧٤ ، وانظر المصدر السابق ص١٥ .

(٣) انظر : الرسول صلى الله عليه وسلم فى كتابات المستشرقين ص١٠-١٢ ، الإسلام والمستشرقون ص٢٧٦-٤٥٨ .

أهداف الاستشراق :

انطلق المستشرقون فى دراستهم للإسلام من منطلقين كان لهما أبلغ الأثر فى توجيه الدراسات الاستشراقية .

المنطلق الأول : النزعة الصليبية التنصيرية التى خيمت على أذهان المستشرقين وغطت على أفكارهم ، فجاءت دراساتهم فى ثوب تنصيرى ، إذ الاستشراق ارتبط فى جميع مراحله ارتباطاً وثيقاً بالمؤسسات الكنسية التنصيرية .

المنطلق الثانى : النزعة الاستعمارية السياسية المادية التى تهدف إلى بث النفوذ الغربى على البلدان الإسلامية ، وسرقة خيرات تلك البلدان .

ولذلك جاءت بحوثهم ودراساتهم تهدف إلى الآتى :

(١) إفساد صورة الإسلام بطمس معالمه ، وتشويه محاسنه ، وتحريف حقائقه وتقديمه للعالم مهلهلاً متناقضاً .

(٢) تشكيك المسلمين فى دينهم بإثارة الشبهات حول هدى الإسلام ورسوله صلى الله عليه وسلم ، لاضعاف صلتهم بهذا الدين وارتباطهم به .

(٣) إحياء النعرات القبلية ، والعصبيات المذهبية ، والنزعات الطائفية والعقائدية ، وإثارة الخلافات ، لتفريق وحدة المسلمين ، وإضعاف روح الإخاء الإسلامى بينهم ، وإثارة اللهجات العامية بالتشكيك فى مصادر اللغة العربية ، فيشتت شملهم وتضعضع قوتهم .

(٤) غرس المبادىء الغربية فى نفوس أهل الإسلام وتمجيدها ، والعمل على إضعاف القيم الإسلامية وتحقيرها حتى يتم لهم إفساد أبنا المسلمين وتحللهم ويتمكنوا من توجيههم لخدمة مصالحهم .

(٥) إزالة الثقة بعلماء وأعلام الأمة الإسلامية لقطع الصلة بين المسلمين وماضيهم المجيد ، وبالتالى تمجيد الشخصيات الغربية وتعظيمها ليسهل التأثر والانقياد لهم .

(٦) بعض المستشرقين المعتدلين قاموا بتحقيق بعض المصادر الإسلامية وترجموا بعضها إثراء للجانب العلمى ونشراً للتراث ، مع وجود كثير

من الأخطاء فى بعض تلك الدراسات ، وكانت لبعضهم سلاحاً ذا حدين (١).

منهج المستشرقين فى دراسة الإسلام والدافع من ورائه :

لقد كشف الله سبحانه وتعالى الدافع الحقيقى لهؤلاء المستشرقين فى دراستهم للإسلام ، ذلك الدافع الذى يتمثل فى العداء السافر لهذا الإسلام ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، والذى بدأ منذ فجر الإسلام الأول ، فالمستشرقون عبارة عن امتداد لليهود والنصارى الأول الذين بذلوا كل مافى وسعهم لطمس دين الإسلام ، وإزالة معالمه عن الوجود .

وقد فضحهم الله سبحانه وهتك أستارهم ، وكشف دسائسهم ، وأبان أحقادهم .

ولن يرضى هؤلاء من المسلمين صرفاً ولاعدلاً إلا أن ينخرط المسلمون فى اليهودية والنصرانية . {ولن ترضى عنك اليهود ولاالنصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولانصير}(٢).

والانخراط فى دينهم هو الكفر الذى يسعى أولئك الحاسدون لغمس المسلمين فيه كما قال سبحانه وتعالى :

{ود كثير من أهل الكتاب لويردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ماتبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره إن الله على كل شىء قدير}(٣).

---

(١) وللوقوف على أهداف المستشرقين انظر :
مناهج المستشرقين فى الدراسات العربية الإسلامية ٢٥/١ ، الإسلام والمستشرقون ص٢٣٩،٤٦٠-٤٦١،٤٥٧ ، الاستشراق والمستشرقون للسباعى ص٥-٧،٢٣-٢٤ ، الفكر الإسلامى الحديث ص١٦-١٧،٤٣،٤١٧،٤٢٣ ، الرسول صلى الله عليه وسلم فى كتابات المستشرقين ص١٣-١٤،٧٨،٨٠،٨١،٨٤،٨٩-٩٢ ، الاستشراق والمستشرقون وجهة نظر ص٣٦-٣٩،٥١-٥٢،٥٩،٦٣،٦٩ .

(٢) سورة البقرة : آية ١٢٠

(٣) سورة البقرة : آية ١٠٩

يقول العلامة ابن كثير رحمه الله :

"يحذر تعالى عباده المؤمنين عن سلوك طريق الكفار من أهل الكتاب ويعلمهم بعداوتهم لهم فى الباطن والظاهر ، وماهم مشتملون عليه من الحسد للمؤمنين مع علمهم بفضلهم وفضل نبيهم"(١).

بل بلغت تلك العداوة شأواً بعيداً حيث تمنوا أن يحجب كل خير فلا يصل لمسلم كما قال سبحانه : {مايود الذين كفروا من أهل الكتاب ولاالمشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم}(٢).

وهذا السيل العارم من العداء تجاه الإسلام وأهله ، لم تخف وطأته طيلة القرون السابقة ، وإنما ظل يلتهب مع مر العصور والأزمان ، يأخذ صوراً شتى وأشكالاً متنوعة تعلن تارة وتخفى أخرى ، تظهر فى ثوب الود والولاء حيناً وتكشر عن أنياب العداء أحياناً .

ولقد اشتدت هذه العداوة بعد الحروب الصليبية (١٠٩٧ - ١٢٩٥م) التى كانت نقطة تحول فى الصراع الفكرى والعقائدى والسياسى بين الغرب المسيحى المدعم باليهود وبين الشرق الإسلامى(٣).

ولقد وجد أعداء الإسلام فى تلك الحروب الصليبية متنفساً بالرغم من الهزائم المتتالية التى حلت بهم ، وظهر هنالك الحقد الدفين وعلا على السطح.

يقول المونسنيور كولى فى كتابه "البحث عن الدين الحق" :

"برز فى الشرق عدو جديد هو الإسلام الذى أسس على القوة وقام على أشد أنواع التعصب ، ولقد وضع محمد السيف فى أيدى الذين اتبعوه ، وتساهل فى أقدس قوانين الأخلاق ، ثم سمح لأتباعه بالفجور والسلب ،

---

(١) تفسير القرآن العظيم ١٥٣/١ .

(٢) سورة البقرة : آية ١٠٥

(٣) انظر : الاستشراق والمستشرقون وجهة نظر ص٢٧ ، الإسلام على مفترق الطرق ص٥٥-٥٦ ، الإسلام والمستشرقون ص٢٤٦ .

ووعـد الذين يهلكون فى القتال بالاستمتاع الدائم بالملـذات فى الجنة ، وبعد قليل أصبحت آسيا الصغرى وإفريقيا وأسبانيا فريسة له . حتى ايطاليا هددها الخطر ، وتناول الاجتياح نصف فرنسا ، لقد أصيبت المدنيـة .. ولكن انظرها هى النصرانية تضع بسيف شارل مارتل(١)سداً فى وجه سير الإسلام المنتصر عنـد بواتيـه - - - ثم تعمـل الحروب الصليبيـة فى مـدى قـرنين تقـريباً (١٠٩٩-١٢٥٤م) فى سبيل الدين ، فتدجج أوربا بالسلاح وتنجي النصرانية ، وهكـذا تقهقرت قوة الهلال أمـام راية الصليب وانتصـر الإنجيل على القرآن وعلى مافيه من قوانين الأخلاق الساذجة"(٢).

ولقـد أورثت الحروب الصليبيـة الغـربيين عـداء جديداً للإسلام مشـوباً بالخوف والـرعب ، ولذا كرثوا الجهـود للنيل منه بكـل الأساليب والوسائل حتى لاتعاد الكرة وتصبح للإسلام الهيمنة .

قال مكسيم رودنسون(٣):

"فقـد أوجدت الحروب الصليبيـة حاجة كبيرة وملحـة للحصـول على صور كاملة ومسلية ومرضيـة لأيديولـوجية الخصـوم . وكـان رجل الشارع يرغـب فى صورة تبين الصفة الكـريهة للإسلام عن طريق تمثيلـه بشكله الفج

---

(١) شارل مارتل :
حاكـم ألمانى الأصل ، دانت لـه أجزاء واسعة من أوربا بعـد قتـال مرير ، خاض عدة معارك مع المسلمين أشهرهـا معـركة "تور" التى قتل فيهـا قـائد المسلمين عبـد الـرحمن الغـافقى ، وهزم فيهـا جيـش المسلمين ، وكان لهـا أثر بالـغ فى إخراج المسلمين من الأندلس . مات سنة ٧٤١ .
انظر : المعرفة ٣٦٨/٣ .

(٢) الإسلام والمستشرقون ص٢٤٤ .

(٣) مكسيم رودنسون :
يهـودى مـاركسى ولـد سنة ١٩١٥م ، كـان مـن أساتذة مدرسـة الـدراسات العليـا ببـاريس ثم مـديرها . ألف كتاباً بالفـرنسية عن محمد صلى اللـه عليـه وسلم "حياة محمد" مشحون بالافتراءات على النبى صلى الله عليه وسلم .
انظر : المستشرقون ٣٢٨/١-٣٢٩ ، آراء المستشرقين حول القرآن ٧٠/١ .

على أن تكون فى الوقت نفسه مرسومة بشكل يرضى الذوق الأدبى الميال إلى كل ماهو غريب ، وهو ميل يشكل سمة بارزة فى جميع الأعمال فى ذلك الوقت"(١).

واتخذ المستشرقون تلك الحروب مطية لهم فشوهوا من خلالها الإسلام لرجل الشارع الغربى حتى تتأصل تلك العداوة فى أذهان الجميع ، ولتكون الحملة على الإسلام حملة شعواء لاهوادة فيها ، كل فرد بما يقدر عليه ويستطيعه من دور . يقول كيمون المستشرق الفرنسى فى كتابه "باثولوجيا الإسلام" :

"إن الديانة المحمدية جذام تفشى بين الناس وأخذ يفتك بهم فتكاً ذريعاً ، بل هى مرض مريع ، وشلل عام ، وجنون ذهولى يبعث الإنسان على الخمول والكسل ، ولايوقظه منهما إلا ليسفك الدماء ، ويدمن على معاقرة الخمور ، ويجمح فى القبائح ، وماقبر محمد إلا عمود كهربائى يبعث الجنون فى رؤوس المسلمين ، ويلجئهم إلى الإتيان بمظاهر الصرع العامة والذهول العقلى ، وتكرار لفظة "الله" إلى مالانهاية ، والتعود على عادات تنقلب على طباع أصيلة ككراهية لحم الخنزير والنبيذ ، والموسيقى ، وترتيب مايستنبط من أفكار القسوة والفجور فى الذات"(٢).

وأصبح الغرب كله يضج بالعداء للإسلام ، عداء لايقف عند حد ، ولايعرف المهادنة ، الكل ينظر إليه بمنظار قاتم يحجب الأبصار عن رؤية الحق.

وإليك تصويراً بليغاً بقلم غربى ولكنه عرف الحق فاهتدى يكشف عن حقائق طالما خفيت على كثير من أبناء الإسلام المسبحين بحمد الغرب .

يقول محمد أسد "ليوبولد فايس" :

---

(١) تراث الإسلام ٣٤/١ .

(٢) الفكر الإسلامى الحديث ص٥٥ .

"فيمـا يتعلق بالإسلام لاتجد مـوقف الأوربى موقف كـره فى غير مبـالاة فحسـب كما هى الحال فى موقفـه من سائر الأديان والثقـافات ، بل هو كره عميق الجذور يقوم فى الأكثر على صدود من التعصب الشـديد . وهذا الكره ليس عقلياً فحسب ، ولكنه يصطبغ أيضاً بصبغة عاطفية قوية .

قد لاتتقبل أوربا تعاليم الفلسفة البوذية(١)، أو الهندوكية(٢)، ولكنها تحتفـظ دائماً فيما يتلعق بهذين المذهبين بموقف عقلى متزن ومبنى على التفكير . إلا أنها حالما تتجه إلى الإسلام يختل التوازن ويأخذ الميـل العاطفى بالتشرب حتى إن أبرز المستشـرقين الأوربيين جعلـوا مـن أنفسهـم فـريسة التحزب غير العلمـى فى كتاباتهم عن الإسلام . ويظهـر فى جميع بحوثهـم على الأكثر كما لو أن الإسلام لايمكن أن يعـالج على أنه موضوع بحت فى البحـث العلمى ، بل على أنه متهم يقف أمام قضاته ، إن بعض المستشرقين يمثلون دور المدعى العـام الذى يحاول إثبات الجريمة ، وبعضهم يقوم مقام المحـامى فى الدفاع ، فهـو مع اقتناعه شخصياً بإجرام مـوكله لايستطيع أكثر مـن أن يطلـب له مع شىء من الفتور ، اعتبار الأسباب المخففة"(٣).

---

(١) البوذية :
هـى ديانة ظهـرت فى الهند بعد الـديانة البرهميـة فى القرن الخامس قبـل الميلاد . كانت فى بدايتها متوجهة إلى العنـاية بالإنسـان كمـا أن فيهـا دعـوة إلى التصـوف والخشـونة ونبـذ الترف والمناداة بالمحبـة والتسامح وفعل الخير لكنهـا لم تلبـث بعد موت مؤسسها ـ سد هارتا جوتامـا الملقب ببوذا ـ أن تحولـت إلى معتقـدات باطلة ذات طابع وثنى ، ولقد غالى أتباعها فى مؤسسها حتى ألهوه .
الموسـوعة الميسـرة فى الأديان والمذاهـب المعاصرة ص١٠٧ ، وانظـر : أديان الهنـد الكبرى ص١٦٦-١٧٢ .

(٢) الهندوكية أو الهندوسية :
هـى ديانة وثنيـة يعتنقها معظـم أهل الهند ، وقد تشكلـت عبر مسيرة طـويلة من القـرن الخامس عشر قبل الميلاد إلى وقتنـا الحاضر . إنها ديانة تضـم القيم الروحية والخلقيـة إلى جانب المبادىء القانونية والتنظيمية متخذة عـدة آلهة بحسب الأعمال المتعلقة بها ، فلكل منطقة إله ، ولكل عمل أو ظاهرة إله .
الموسوعة الميسرة ص٥٣١ ، وانظر : أديان الهند الكبرى ص٤٣-٤٤ .

(٣) الإسلام على مفترق الطرق ص٥٢-٥٣ .

وقال : "إن "النهضة" أو إحياء الفنون والعلوم الأوربية باستمدادها الواسع من المصادر الإسلامية والعربية على الأخص ، كانت تعزى فى الأكثر إلى الاتصال المادى بين الشرق والغرب . لقد استفادت أوربا أكثر مما استفاد العالم الإسلامى ولكنها لم تعترف بهذا الجميل وذلك بأن تنقص من بغضائها للإسلام ، بل كان الأمر على العكس ، فإن تلك البغضاء قد نمت مع تقدم الزمن ثم استحالت عادة . ولقد كانت هذه البغضاء تغمر الشعور الشعبى كلما ذكرت كلمة "مسلم" ، ولقد دخلت فى الأمثال السائرة عندهم حتى نزلت فى قلب كل أوربى رجلاً كان أم امرأة . وأغرب من هذا كله أنها ظلت حية بعد جميع أدوار التبدل الثقافى ، ثم جاء عهد الإصلاح الدينى حينما انقسمت أوربا شيعاً ، ووقفت كل شيعة مدججة بسلاحها فى وجه كل شيعة أخرى ، ولكن العداء للإسلام كان عاماً فيها كلها ، بعدئذ جاء زمن أخذ الشعور الدينى فيه يخبو ولكن العداء للإسلام استمر"(١).

وقال : "إن المدنية الغربية لم تبدل اتجاهها العقلى نحو الإسلام ، وإنها اليوم شديدة المناهضة للفكرة الدينية فى الحياة كما كانت دائماً من قبل"(٢).

لقد عاش المستشرقون فى هذه البيئة المفعمة ببغض الإسلام ، وارتضعوا من ثديها ، وارتووا بلبانها ، ولذا جاء منهجهم الذى اختطوه فى دراسة الإسلام منهجاً معوجاً ملتوياً ، يحوى بين طياته كل دسيسة وشبهة تقدح فى الدين الذى ارتضاه الله ديناً للبشرية جمعاء .

وإليك أبرز سمات ذلك المنهج والمقاييس الجائرة التى درسوا بها الإسلام :

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق ص٥٩-٦٠ .
(٢) المرجع السابق ص٦٤ .

(١) تحليل الإسلام ودراسته بعقلية أوربية ، فهم حكموا على الإسلام معتمدين على القيم والمقاييس الغربية المستمدة من الفهم القاصر والمحدود والمغلوط الذى يجهل حقيقة الإسلام(١).

(٢) تبييت فكرة مسبقة ثم اللجوء إلى النصوص واصطيادها لإثبات تلك الفكرة واستبعاد مايخالفها ، وذلك منهج معكوس وليد للهوى (٢).

(٣) اعتمادهم على الضعيف والشاذ من الأخبار وغض الطرف عما هو صحيح وثابت منها(٣).

(٤) تحريف النصوص ، ونقلها نقلاً مشوهاً ، وعرضها عرضاً مبتوراً ، وإساءة فهم مالايجدون سبيلاً لتحريفه(٤).

(٥) غربتهم عن العربية والإسلام منحهم عدم الدقة والفكر المستوعب فى البحث الموضوعى ، حتى ولو اختص أحدهم بأمر واحد من أمور الإسلام طيلة حياته(٥).

(٦) تحكمهم فى المصادر التى ينقلون منها ، فهم ينقلون مثلاً من كتب الأدب مايحكمون به فى تاريخ الحديث ، ومن كتب التاريخ مايحكمون به فى تاريخ الفقه ، ويصححون ماينقله "الدميرى"(٦)فى كتاب

---

(١) انظر : السنة ومكانتها ص١٨٨ ، الاستشراق والمستشرقون للسباعى ص٤٩ ، مناهج المستشرقين فى الدراسات العربية الإسلامية ص٣٦٤ ، الإسلام والمستشرقون ص١٩١ الاستشراق والمستشرقون وجهة نظر ص١٢٤ .

(٢) انظر : السنة ومكانتها فى التشريع ص١٨٨ ، الاستشراق والمستشرقون للسباعى ص٤٣ ، الإسلام والمستشرقون ص٢٥١ .

(٣) انظر : الإسلام والمستشرقون ص٢٤٨ .

(٤) انظر : السنة ومكانتها ص١٨٨ ، الاستشراق والمستشرقون وجهة نظر ص١٣٠ .

(٥) انظر : الرسول صلى الله عليه وسلم فى كتابات المستشرقين ص١٦ .

(٦) الدميرى :

هو محمد بن موسى بن عيسى بن على الدميرى ، أبو البقاء الشافعى ، من أهل دميرة بمصر ، مفسر ، محدث ، فقيه ، أصولى ، أديب ، نحوى ، ناظم . مات سنة ٨٠٨هـ .

من آثاره : "حياة الحيوان" ، "الديباجة" فى شرح سنن ابن ماجه ، "النجم الوهاج" فى شرح منهاج النووى . =

"الحيوان" ويكذبون مايرويه "مالك" فى "الموطأ" ، كل ذلك انسياقاً مع الهوى ، وانحرافاً عن الحق(١).

(٧) إبراز الجوانب الضعيفة والمعقدة والمتضاربة كالخلاف بين الفرق ، وإحياء الشبه ، وكل مايفرق وإخفاء الجوانب الإيجابية والصحيحة وتجاهلها(٢).

(٨) الاستنتاجات الخاطئة والوهمية وليدة التعصب ، وجعلها أحكاماً ثابتة ، يؤكدها أحدهم المرة تلو المرة ، ويجتمعون عليهاحتى تكاد تكون يقينا عندهم(٣).

(٩) النظرة العقلية المادية البحتة التى تعجز عن التعامل مع الحقائق الروحية(٤).

وسائل المستشرقين :

لقد استخدم المستشرقون كل وسيلة توصلهم إلى أهدافهم وغايتهم كتأليف الكتب ونشرها ، والبث الإعلامى بجميع أنواعه وألوانه ، والتعليم فى الجامعات وغيرها ، وعقد المؤتمرات العلمية العامة والجمعيات ، وتقديم الخدمات الاجتماعية الإنسانية ، وغير ذلك(٥).

= انظر : الضوء اللامع ٥٩/١٠-٦٢ ، شذرات الذهب ٧٩/٧-٨٠ ، البدر الطالع ٢٧٢/٢ ، معجم المؤلفين ٦٥/١٢-٦٦ ، الأعلام ١١٨/٧ .

(١) انظر : السنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى ص١٨٨-١٨٩ .

(٢) انظر : الإسلام والمستشرقون ص٢٤١-٢٤٢ .

(٣) انظر : المرجع السابق ص٢٤٧ .

(٤) انظر : الرسول صلى الله عليه وسلم فى كتابات المستشرقين ص١٦ .

(٥) انظر : الإسلام والمستشرقون ص٤٦٠ ، الفكر الإسلامى الحديث ص٤١٨ .

صلتهم بالفكر الإسلامى
وأثر تلك الصلة فى إثارة الشبه حول السنة :

إذا بدأنا بالحروب الصليبية التى كانت نقطة التحول فى الصراع الفكرى والعقائدى والسياسى بين الغرب المسيحى والشرق المسلم ، وأنها الدافع الأساسى للنشاط الاستشراقى المكثف ، نستطيع أن نقول : إن اتصال الغرب بالشرق فى ذلك الوقت وخلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلادى اتصال عدائى مسلح ، متمثلاً فى تلك الحروب الطاحنة ، التى ظلت آثارها باقية حتى الآن .

ولما كان القرن السادس عشر هو منطلق الإصلاح الدينى فى الغرب ، كانت نهايته بداية الاتصال الاقتصادى المتمثل فى كشف موارد الثروة فى العالم الإسلامى أو استغلالها ونقلها إلى الغرب فى صورة تبادل تجارى أو غيرها .

وتبع هذا الاتصال الاتصال السياسى المتمثل فى سيطرة الغرب ونفوذه على العالم الإسلامى حتى بلغ أوجه خلال الفترة مابين النصف الثانى من القرن التاسع عشر حتى الربع الأول من القرن العشرين .

وخلال هذه الفترة الاستعمارية عمل الغربيون على تخلف المسلمين بإبعادهم عن دينهم الحنيف حتى يتمكنوا من إخضاعهم إخضاعاً تاماً للسيطرة الغربية (١).

وفى تلك الفترة كان الاستشراق فى ذروته لأنه كان مسنداً من قبل الحكومات الغربية التى كانت توفر لهم من الأسباب المعينة على دراسة العلوم الإسلامية حتى يتمكن الاستعمار الغربى فى البلاد الإسلامية ، وسبق أن ذكرنا أن من أهداف الاستشراق الهدف الاستعمارى (٢).

---

(١) انظر : الفكر الإسلامى الحديث ص١٥-١٧ .
(٢) انظر : الإسلام والمستشرقون ص٣٥٤ ، الفكر الإسلامى الحديث ص٤٣،٤١٧ .

وقد بحث المستشرقون فى كل مايتصل بالإسلام من تاريخ وفقه وتفسير وحديث وأدب وحضارة وصبغوا كل ذلك بصبغة علمية مما أدى بتلك البحوث أن تكون مراجع لكثير من طلبة العلم المتخصصين فى المعاهد والجامعات العالمية(١).

وقد غزت تلك البحوث العالم الإسلامى فى مؤسساته الفكرية والتربوية ومناهج التعليم ، وكان العديد من قادة الفكر الإسلامى قد تتلمذوا على أيدى أولئك المستشرقين عن طريق إيفادهم إلى الخارج واستقدام المستشرقين إلى البلاد الإسلامية للعمل فى المؤسسات الإسلامية الفكرية ومناهج التربية والتعليم(٢).

وهكذا ظلت العلاقة موصولة ، والصلة وثيقة بين العالم الغربى والفكر الإسلامى ، ولكنها علاقة تستهدف الإسلام وبناءه الشامخ .

والمستشرقون الذين بحثوا فى كل جوانب الإسلام لم يغب عنهم أهمية السنة النبوية ـ على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم ـ فقد علموا أنها تتبوأ منزلة رفيعة ومكانة سامية فى الإسلام ، إذ هى المصدر التشريعى الثانى بعد القرآن ، وهى توضيحه وبيانه ، ولذا تناولوها بالطعن والتشويه والشبه ليتسنى لهم بعد ذلك أن يتلاعبوا بالقرآن الكريم ويؤولوه بما يحلو لهم ، بل وفى طعنهم فى السنة وهدمهم لصرحها هدم للإسلام برمته ، وعند ذلك تتهاوى أركان المجتمع الإسلامى ـ كما يزعمون ـ ويتبدد نظامه ويكون فريسة سهلة المنال لأعداء الإسلام المستشرقين(٣).

قال محمد أسد : "إن العمل بسنة رسول الله هو عمل على حفظ كيان الإسلام وعلى تقدمه ، وإن ترك السنة هو انحلال الإسلام . لقد كانت السنة

---

(١) انظر : السنة ومكانتها ص١٨٩ ، الاستشراق والمستشرقون للسباعى ص٤٠ .

(٢) انظر : الإسلام والمستشرقون ص٣٥٤ ، الرسول صلى الله عليه وسلم فى كتابات المستشرقين ص٧٦ .

(٣) انظر : الاستشراق والمستشرقون وجهة نظر ص٤٩ ، مناهج المستشرقين فى الدراسات العربية الإسلامية ٦٧/١ ، الإسلام والمستشرقون ص٢١٩،٤٥٣ .

الهيكل الحديدى الذى قام عليه صرح الإسلام ، وإنك إذا أزلت هيكل بناء ما ، أفيدهشك أن يتقوض ذلك البناء كأنه بيت من ورق؟"(١).

وقال د. تقى الدين الندوى :

"فمن المعروف أن المستشرقين والمضلين ومنكرى السنة يبذلون قصارى جهودهم لاسقاط السنة النبوية من مكانتها الرفيعة كمصدر تشريعى ثانى بعد كتاب الله العزيز إذ إنها شرحه وتفسيره وبيانه .

ويستهدفون من وراء ذلك هدم مجتمع الإسلام ونظامه لكى تسود الفوضى وتنتشر البلوى ، وعلى هذا التقى أعداء الإسلام ... فى عصور الحضارة الإسلامية الزاهرة مع أعداء الإسلام اليوم من المستشرقين ومن لف لفهم فى الحضارة الغربية المعاصرة ، لأن ضوء الإسلام الباهر يغيظ أعداء الإسلام ويغشى أبصارهم فيندفعون بعصبية عمياء حمقاء لتهديم كل مايتصل به من قرآن وسنة واجتهاد ولتشويه كل من حمل لواء الإسلام من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى حملته من أعلام السنة والحديث ، ولإفساد الحقائق المتصلة به من حضارة وتاريخ ، ولانشك أن هذه المعركة بين الإسلام وخصومه ستنتهى إلى هزيمتهم وكشف مقاصدهم الخبيئة الخبيثة . وسنة الله فى الحياة أن ينتصر الحق والعلم والنور دائماً وأبداً {بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه ، فإذا هو زاهق}"(٢).

ولقد بارك المستشرقون موقف المعتزلة من السنة النبوية ، ورأوا أن وجهتهم فى رد الأحاديث بالعقل هى الوجهة الصحيحة التى يجب أن تناصر وتؤيد ضد المتشددين الحرفيين الجامدين على النصوص . وأنهم ـ أى المعتزلة ـ هم الذين طهروا الإسلام مما به من شوائب التجسيم والأفهام الخاطئة التى نتجت من التمسك بظواهر النصوص والجمود عليها . فهم أهل العقل الحر والمنهج القويم الذى يجب أن يبقى ويستمر .

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق ص٨٧ .

(٢) الإسلام والمستشرقون ص٣٥٣-٣٥٤ .
والآية (١٨) من سورة الأنبياء .

قال جولد زيهر(١):

"إنه إذاً ، ضد أشياع مذهب التجسيم أو التشبيه القديم هذا ، كان على المعتزلة أولاً وقبل كل شيء أن يقاتلوا فى الميدان الدينى كل هذه الآيات والأحاديث والنصوص المقدسة ، التى تنسب لله بظواهرها الصورة الإنسانية ، وأن يجعلوها لاتدل إلا على معان روحية ، وذلك بتآويل استعارية أو مجازية مؤسسة على مانعرف لله من نقاء وطهارة ومكانة ... أما فيما يختص بالحديث ، فإن المعتزلة كانوا يملكون تحت تصرفهم الوسيلة لرفض الأحاديث التى يلوح منها مالايصح أن يقبل من التجسيم أو التشبيه ، أو التى تجعل لمثل هذا مكاناً ، وهذه الوسيلة هى : الطعن فيها بعدم الصحة وبذلك يتحرر الإسلام من مجموعة كبيرة من الأقاصيص التى تراكمت ، بمساعدة الاعتقاد الشعبى الشره إلى الأساطير ، بصفة خاصة فيما يتصل بالدار الأخرى ومافيها ، والتى أيدتها دينياً صيغة الحديث"(٢).

وقال :

"ولكن مذهباً جديداً قدر له أن يكون أداة فى المحافظة على الإسلام وتقاليده الفكرية فى عالم العقول المستنيرة ، وهذا المذهب أو النظام هو

---

(١) جولد زيهر :
مستشرق مجرى يهودى ، رحل إلى سورية وفلسطين ومصر ولازم بعض علماء الأزهر . له تصانيف باللغات الألمانية والانكليزية والفرنسية . ترجم بعضها إلى العربية . مات سنة ١٩٢١م .
من آثاره : "ديوان الحطيئة" ، "فضائح الباطنية" ، "العقيدة والشريعة" . وغير ذلك .
انظر : الأعلام ٨٤/١ ، المستشرقون ٩٠٦/٣-٩٠٨ ، آراء المستشرقين حول القرآن ١٦١/١-١٦٢ .
قال السباعى :
"عرف بعدائه للإسلام وبخطورة كتاباته عنه ، ومن محررى دائرة المعارف الإسلامية. كتب عن القرآن والحديث ، ومن كتبه : "تاريخ مذاهب التفسير الإسلامى" .
الاستشراق ص٣١-٣٢ .

(٢) العقيدة والشريعة ص١٠٩-١١٠ .

ماعرف فى تاريخ الفلسفة باسـم "علم الكلام" كمـا عـرف رجالـه باسـم "المتكلمـون" ... إنه كان من هؤلاء الجماعة الأتقياء الـورعين ، المعتزلة ، أى الزهاد الذين يعتزلون الناس أولئك الذين دفعوا هذه الحركة أولاً إلى الأمام هذه الحركة التى جمعت الأوسـاط العقلية ، والتى دخلـت لهـذا فى تعارض - كان يزيد ويتضح شيئاً فشيئاً مع الآراء الدينية السائدة حينذاك .

وإنه فى نهـاية تطـور هـذه الحركـة فقـط أن استحـق أنصـارها اسـم المفكـرون الأحرار فى الإسلام ... وبداية هـذا المذهـب الاعتزالى تدلنـا على الأقـل على نزعة التحرر من القيود الثقيلة المتعبة ، وعلى القضـاء على الفهم السنى الصارم للحياة ... لقد كانوا الأوائل الذين وسعـوامعين المعرفة الدينية بأن أدخلـوا فيها عنصراً آخر قيمـا وهو العقل الذى كـان ، حتى ذلك الحين مبعداً بشدة عن هذه الناحية"(١).

هكذا مجد المستشرقون المعتزلة ومدحوا منهجهم العقلانى لأنهـم وجدوا فيـه تحقيقاً لمآربهم السيئة ونواياهـم الخبيثة التى تهـدف لهـدم السنة وبالتالى إزالـة الإسلام من على الأرض ، وقـد فتح لهم المعتزلـة الباب على مصراعيه وأعطـوهم سلاحاً مضاءً ليفتكوا به الأحاديث الصحيحـة الثابتة ، إنه سلاح الشبه العقلية التى يحكمها الهوى .

ومـن هنا نستطيع أن نقول : إن المدرسة الاستشراقيـة امتداد للمدرسة الاعتزالية القديمة فى التعامل مع الأحاديث النبوية مـع تباين هدف الرفض ، إذ المستشـرقون همهم تشويه الإسلام والقضاء عليه ، وهـو أمر لم يتظاهر به المعتزلة. والذى يتتبع كتب المستشرقين ومؤلفاتهم يجدهـا زاخرة بتمجيد العقل وتصويب منهج أهل الكلام الداعى إلى معارضة السنة الصحيحة بالعقل(٢).

---

(١) العقيـدة والشـريعة ص١٠٠-١٠٢ ، وانظـر : ص١١٨-١٢٠ ، وانظـر : تراث الإسلام ص٢١٨،٢٠٣ .

(٢) انظـر : دراسات فى حضارة الإسلام ص٢٦٨-٢٧٤،٢٦٩ ، دائرة المعـارف الإسلاميـة ص٥٨٤،٥٨٠،٥٧٦ ، العقيدة والشريعة ص١٠٧-١١١،١٠٨-١١٢ .

الفصل الأول
شبهات المستشرقين حول الوحى النبوى

إن من أهم الأمور بل من أعظمها خطراً أمر الوحى والنبوة الذى أطلق المستشرقون لعقولهم الأعنة بالخوض والطعن فيه مستهدفين بذلك الإسلام كله ، لأنهم يعلمون أن القدح فى نبوته صلى الله عليه وسلم والنيل منها يؤدى إلى انهيار صرح الإسلام وتداعيه ، إذ الوحى هو الأساس الذى ينبنى عليه الدين فإذا فقد فقد الدين .

ومن هنا كثفوا حملاتهم ، وزادوا هجماتهم ، يحملهم الحقد وتدفعهم البغضاء والعداء السافر ، يصدرون عن أحكام مغرضة ، وأقوال جائرة ، مجافين طرق البحث العلمى النزيه {ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون}(١).

لقد كان عدم التصديق بنبوته صلى الله عليه وسلم هو القاعدة التى انطلقوا منها فى بث كل شكوكهم ومطاعنهم فى بقية جوانب الإسلام .

وقبل أن نتناول شبهات أولئك القوم لابد من وقفة نكشف من خلالها بالبراهين الساطعة والأدلة الدامغة التى تثبت صدق الرسول صلى الله عليه وسلم فى نبوته ، وأنه رسول من عند الله حقاً يوحى إليه ، لم يكن دعياً ولاكذاباً ولامخادعاً، بل ابتعثه الله لحمل رسالته ، وتبليغ دينه ، وإقامة حجته على جميع أهل الأرض ، فالسعيد من احتذى حذوه وسار على نهجه والشقى من تنكب طريقه {واتبع هواه وكان أمره فرطاً}(٢).

من ذلك :

---

(١) سورة التوبة : آية ٣٢

(٢) سورة الكهف : آية ٢٨

الفرط : هو الإسراف فى التقدم ومجاوزة الحد .

انظر : معجم ألفاظ القرآن الكريم ٣٢٣/٢ .

"وكان أمره فرطاً" : أى أعماله وأفعاله سفه وتفريط وضياع .

تفسير القرآن العظيم ٨١/٣ .

(١) قال تعالى : {إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده}(١).

ففى الآية دلالة على أن الله قد أوحى إلى محمد صلى الله عليه وسلم كما أوحى إلى الأنبياء السابقين ، فوحيه إليه كوحيه إليهم فى جنسه وموضوعه والغرض منه(٢).

فلم يكن بدعاً فى رسالته كما قال سبحانه : { قل ماكنت بدعاً من الرسل وماأدرى مايفعل بى ولابكم إن أتبع إلا مايوحى إلى وماأنا إلا نذير مبين}(٣). فلم يكن أول من أرسله الله ، فقد بعث من قبله رسل كثر .

يقول ابن كثير رحمه الله :

{قل ماكنت بدعاً من الرسل} أى لست بأول رسول طرق العالم بل قد جاءت الرسل من قبل فما أنا بالأمر الذى لانظير له حتى تستنكرونى وتستبعدون بعثتى إليكم فإنه قد أرسل الله جل وعلا قبلى جميع الأنبياء إلى الأمم "(٤).

وجنس الرسل معروف وهو معتاد فى الآدميين وإن كان قليلاً ، وقد جاء النبى بجنس ماجاءوا به ، بل أعظم مما جاءوا به فهو أحق بالتسليم له بالنبوة من سواه(٥).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

"نبوة عين هذا النبى تكون ظاهرة ، لأن الذى جاء به أكمل مما جاء به جميع الأنبياء فمن أقر بجنس الأنبياء كان إقراره بنبوة محمد فى غاية الظهور ... ولهذا كان من نازع من أهل الكتاب فى نبوة محمد إما أن يكون بجهله بما جاء به وهو الغالب على عامتهم ، أو لعناده وهو حال طلاب

---

(١) سورة النساء : آية ١٦٣

(٢) انظر : تفسير القرآن العظيم ٥٨٥/١ ، فتح البارى ٩/١ ، الوحى المحمدى ص٣٥ .

(٣) سورة الأحقاف : آية ٩

(٤) تفسير القرآن العظيم ١٥٤/٤ .

(٥) انظر : نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فى القرآن ص٢٩ .

الرياسة بالدين منهم"(١).

(٢) قال تعالى : {لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً}(٢).

فقد شهد الله لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم بأنه رسوله حقاً الذى أنزل عليه القرآن ، فما أعظمها من شهادة ، وماأعظمه من شاهد ثم ثنى بملائكته الذين شهدوا أيضاً بصحة الوحى للرسول صلى الله عليه وسلم(٣).

فمن لم يقبل شهادة الله بصدق نبيه وشهادة ملائكته بإثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فليس من المؤمنين ، ولذا عقب الآية بقوله : {إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالاً بعيداً}(٤). أى كفروا فى أنفسهم بعدم التصديق بوحيه إلى نبيه ثم صدوا غيرهم بإثارة الشبه والشكوك عن اتباع ذلك النبى والاقتداء به(٥).

(٣) قامت الشواهد على صدقه صلى الله عليه وسلم وشهد له بذلك العدو والصديق .

فقريش التى جابهته العداء ، وأخرجته من بينها ، وآذت من آمنوا معه ، كانت تقر بصدقه وأمانته .

عن ابن عباس رضى الله عنهما لما نزلت هذه الآية : {وأنذر عشيرتك الأقربين}(٦) ورهطك منهم المخلصين ، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صعد الصفا .

---

(١) كتاب النبوات ص٣٨-٣٩ .
(٢) سورة النساء : آية ١٦٦
(٣) انظر : الوحى المحمدى ص٣٦ .
(٤) سورة النساء : آية ١٦٧
(٥) انظر : تفسير القرآن العظيم ٥٨٩/١ .
(٦) سورة الشعراء : آية ٢١٤

فهتف "ياصباحاه"(١) فقالوا : من هذا الذى يهتف؟ قالوا : محمد ، فاجتمعوا إليه ، فقال : "يابنى فلان! يابنى فلان! يابنى فلان! يابنى عبد مناف! يابنى عبد المطلب!" فاجتمعوا إليه فقال : "أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح(٢) هذا الجبل أكنتم مصدقى؟" قالوا : ماجربنا عليك كذباً . قال : "فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد ..."(٣). وهذا من أقوى الأدلة على صدقه قبل البعثة وبعدها ، وأدرى الناس به قومه وعشيرته وقد شهدوا له بذلك .

وخديجة رضى الله عنها لما جاء إليها وأخبرها بأمر الوحى وقال لها : "لقد خشيت على نفسى" قالت : "كلا والله مايخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث وتحمل الكل(٤)، وتكسب المعدوم(٥) ،

---

(١) ياصباحاه : قال ابن الأثير : "هذه كلمة يقولها المستغيث ، وأصلها إذا صاحوا للغارة ، لأنهم أكثر ماكانوا يغيرون عند الصباح ، ويسمون يوم الغارة يوم الصباح ، فكأن القائل "ياصباحاه" يقول : غشينا العدو . وقيل : إن المقاتلين كانوا إذا جاء الليل يرجعون عن القتال ، فإذا عاد النهار عاودوه ، فكأنه يريد بقوله : ياصباحاه : قد جاء وقت الصباح فتأهبوا للقتال" . النهاية ٣/٦-٧ .

(٢) السفح : عرض الجبل المضطجع ، أو أصله ، أو أسفله ، أو الحضيض . والجمع سفوح . القاموس المحيط ص٢٨٧ .

(٣) أخرج البخارى نحوه فى كتاب التفسير (٦٥) ، تفسير سورة الشعراء (٢٦) ، باب قوله : {وأنذر عشيرتك الأقربين} (٢) ، ٦/١٦-١٧ ، وفى تفسير سورة سبأ (٣٤) ، باب إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد (٢) ، ٦/٢٩ ، وفى تفسير سورة تبت يدا أبى لهب (المسد) (١١١) ، باب (١) ، وباب قوله : {وتب ماأغنى عنه ماله} (٢) ، ٦/٩٤-٩٥ .
وأخرجه مسلم واللفظ له ، كتاب الإيمان (١) ، باب فى قوله تعالى : {وأنذر عشيرتك الأقربين} (٨٩) برقم ٢٠٨ ، ١/١٩٣-١٩٤ .

(٤) الكل : بفتح الكاف : هو من لايستقل بأمره . كما قال تعالى : {وهو كل على مولاه} . (سورة النحل : آية ٧٦) . فتح البارى ١/٢٤ . وانظر النهاية : ٤/١٩٨

(٥) تكسب المعدوم : قال ابن الأثير : "أى يكسب مايحرمه غيره . وقيل : أرادت تكسب الناس الشىء المعدوم الذى لايجدونه مما يحتاجون إليه . وقيل : أرادت بالمعدوم الفقير الذى صار من شدة حاجته كالمعدوم نفسه . فعلى الأول يكون تكسب متعدياً الى مفعول واحد . وعلى القولين الأخيرين يكون متعدياً إلى مفعولين". النهاية ٣/١٩١-١٩٢ .

وتقرى (١) الضيف وتعين على نوائب (٢) الحق" (٣).

فاستدلت على صدقه بمكارم الأخلاق وماتصف به من أصولها صلى الله عليه وسلم فمثله لايخزى ولايهان .

وورقة بن نوفل الذى تنصر فى الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبرانى مايكتب ، لما أخبره النبى صلى الله عليه وسلم خبر مارأى قال له ورقة : "هذا الناموس (٤) الذى نزل الله على موسى" (٥) فلم يكذبه فيما رأى وأخبر ، بل ثبته فى أمره وأيده فى قوله .

ومثله قول النجاشى (٦) عندما قرىء عليه القرآن من قبل الصحابة

---

(١) تقرى الضيف : أى تضيفه . انظر : القاموس المحيط ص١٧٠٦ .

(٢) نوائب : جمع نائبة . وهى ماينوب الإنسان : أى ينزل به من المهمات والحوادث النهاية ١٢٣/٥ .

(٣) أخرجه البخارى فى كتاب بدء الوحى (١) ، باب (٣) ، من حديث عائشة رضى الله عنها ، ولم يذكر قولها : "وتصدق الحديث" ٣/١-٤ ، وفى كتاب التفسير (٦٥) ، تفسير سورة اقرأ باسم ربك الذى خلق (العلق) (٩٦) ، باب (١) ٨٧/٦-٨٩ ، وفى كتاب التعبير (٩١) ، باب التعبير وأول مابدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحى الرؤيا (١) ، ٦٧/٨-٦٨ .
وأخرجه مسلم ، كتاب الإيمان (١) ، باب بدء الوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم (٧٣) برقم ١٦٠ ، ١٣٩/١-١٤٢ .

(٤) الناموس : هو صاحب سر الخير ، كما أن الجاسوس صاحب سر الشر . وأراد بذلك جبريل عليه السلام ، لأن الله تعالى خصه بالوحى والغيب الذين لايطلع عليهما غيره .
انظر : الفائق ١٨٣/١ ، النهاية ١١٩/٥ .

(٥) انظر تخريج الحديث السابق .

(٦) النجاشى :
هو أصحمة بن أبجر النجاشى . ملك الحبشة . واسمه بالعربية عطية ، والنجاشى لقب . أسلم على عهد النبى صلى الله عليه وسلم ولم يهاجر إليه ، وليس له رؤية ، فهو صحابى من وجه ، تابعى من وجه . وكان ردأً للمسلمين الذين هاجروا إليه فى صدر الإسلام ، نافعاً لهم ، محسناً إليهم . قيل إنه توفى فى العام التاسع للهجرة وصلى عليه النبى صلى الله عليه وسلم وصحابته صلاة الغائب .
انظر : أسد الغابة ١١٩/١-١٢٠ ، سير أعلام النبلاء ٤٢٨/١-٤٤٣ ، الإصابة ١٠٩/١

رضى الله عنهم وأجلوا له الأمر ، قال : "إن هذا والذى جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة"(١).

ومن أبلغ الأدلة والشواهد ماستدل به هرقل(٢)عظيم الروم على صدقه وإثبات نبوته . وذلك عندما وصله كتاب النبى صلى الله عليه وسلم الذى يدعوه فيه إلى الإسلام . فاستدعى أبا سفيان ومن معه ثم طرح عليهم مجموعة من الأسئلة ، فسألهم عن نسبه فيهم ، وهل قال هذا القول أحد قبله؟ وهل كان فى آبائه من ملك؟ وهل يتبعه أشرافهم أم ضعفاؤهم؟ وهل يزيدون أم ينقصون؟ وهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه؟ وهل كانوا يتهمونه بالكذب قبل أن يقول ماقال؟ وهل يغدر؟ وهل قاتلوه؟ وكيف كان قتالهم إياه؟ وبماذا يأمرهم؟

ثم استدل بما أجابه به على صدق نبوته صلى الله عليه وسلم فقال للترجمان(٣): "قل له سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب ، فكذلك الرسل تبعث فى نسب قومها . وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول؟ فذكرت أن لا ، فقلت لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يأتسى بقول قيل قبله . وسألتك هل كان من آبائه من ملك؟ فذكرت أن لا ، قلت فلو كان من آبائه من ملك قلت رجل يطلب ملك أبيه . وسألتك هل كنتم

---

(١) وهو طرف من حديث أم سلمة فى شأن الهجرة الأولى إلى الحبشة . أورده ابن هشام فى السيرة النبوية من طريق ابن إسحاق ٢٠٥/١-٢٠٨ .
وأخرجه أحمد عنها فى المسند ٢٠٣/١ ، ٢٩١/٥ .
وحسنه الشيخ ناصر الدين الألبانى . انظر شرح الطحاوية ص١٥٣ الهامش .

(٢) هرقل :
هوملك الروم ، وهرقل اسمه ، ولقبه قيصر . وكان له علم فى دين النصرانية ، وهو الذى أرسل إليه النبى صلى الله عليه وسلم خطاباً يدعوه فيه إلى الإسلام ، فأراد أن يسلم ولكن الروم أبت عليه فضن بملكه فلم يسلم .
انظر : البداية والنهاية ٢٦٢/٤-٢٦٨ ، فتح البارى ٣٣/١-٣٧ .

(٣) الترُجمان : وتفتح . وهو الذى يترجم الكلام . أى ينقله من لغة إلى لغة أخرى والجمع التراجم . والتاء والنون زائدتان . النهاية ١٨٦/١ .

تتهمـونه بالكـذب قبل أن يقـول ماقال؟ فذكرت أن لا ، فقـد أعـرف أنه لم يكـن ليترك الكذب على النـاس ويكذب على الله . وسـألتك أشـراف الناس اتبعـوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرت أن ضعفـاءهم اتبعوه ، وهـم أتبـاع الرسل . وسـألتك أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرت أنهم يزيدون ، وكـذلك أمر الإيمان حتى يتم . وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيـه ، فذكرت أن لا ، وكـذلك الإيمان حين تخالـط بشـاشته[(١)] القلـوب . وسألتك هل يغـدر؟ فذكرت أن لا ، وكذلك الرسـل لاتغدر . وسألتك بما يأمـركم؟ فـذكرت أنه يأمـركم أن تعبـدوا الله ولاتشـركوا به شيئـاً وينهاكـم عـن عبـادة الأوثان ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف ، فإن كان ماتقـول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين . وقد كنت أعلم أنه خارج لم أكـن أظـن أنه منكـم ، فلـو أني أعلم أني أخلـص إليـه لتجشمـت[(٢)] لقـاءه ، ولـو كنـت عنده لغسلـت عـن قدمه "[(٣)].

(٤) النبـوة لهـا خواص مستلـزمة لهـا تعـرف بها ، وتلك الخواص خارقـة لعـادة غير الأنبياء ، وإن كـانت معتادة للأنبياء فهـى لاتوجد لغيرهم .

فـإذا أتى مـدعى النبـوة بالأمـر الخارق للعـادة الـذى لايكـون إلا لنبى لايحصل مثله لساحر ولاكاهن ولاغيرهما كان دليلاً على نبوته[(٤)].

---

(١) البشاشة : هى الفرح بالشىء والانبساط إليه ، والإنس به .
انظر : النهاية ١/١٣٠ .

(٢) تجشمت الشىء إذا تكلفته . انظر المرجع نفسه ١/٢٧٤ .

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه ، كتاب بدء الوحى (١) ، باب (٦) مـن حديث ابن عبـاس رضـى اللـه عنهمـا ١/٥-٧ ، وفى كتـاب التفسير (٦٥) تفسير سـورة آل عمران (٣) ، باب {قل ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء} (٤) ، ٥/١٦٧-١٦٩ وأخرجه مختصـراً فى كتـاب الجهـاد والسير (٥٦) ، باب مـن استعـان بالضعفـاء والصـالحين فى الحرب (٧٦) ٣/٢٢٥ ، وفى باب هـل يرشد المسلم أهـل الكتاب أو يعلمهم الكتاب (٩٩) ٣/٢٣٤ .
وأخرجه مسلم فى صحيحـه ، كتـاب الجهـاد والسير (٣٢) ، باب كتـاب النبى صلى الله عليه وسلم إلى هرقل (٦) برقم ١٧٧٣ ، ٣/١٣٩٣-١٣٩٧ .

(٤) كتاب النبوات ص٣٣ .

وقد اقتضت حكمة الله عدم التسوية بين الصادق والكاذب ، فهو لايؤيد الكذاب بمثل ماأيد به الصادق قط ، بل لابد أن يفضحه ولاينصره ، بل لابد أن يهلكه(١).

ومامن أحد ادعى النبوة من الكذابين إلا وقد ظهر عليه من الجهل والكذب والفجور واستحواذ الشياطين عليه ماظهر لمن له أدنى تمييز(٢).

فالذى يتتبع أحوال نبينا صلى الله عليه وسلم وأخباره ومعجزاته ، وأخلاقه وصفاته ، ونصر الله له وتأييده ، وقيامه بما كلفه الله به على أكمل وجه ، وصبره على الأذى فى سبيل دين الله ، قطع قطعاً جازماً بصدق ذلك النبى صلى الله عليه وسلم .

قال أبو الحسن الماوردى :

"ولم تزل أمارات النبوة لائحة فى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين تدرج إليها وهو غافل عنها وغير متصنع بها فنهض بأعبائها حين أتته وقام بحقوقها حين لزمته غير واهل فيها ولاعاجز عنها إلى أن تكامل به الشرع فتم على أصل مستقر وقياس مستمر لايدفعه عقل ولايأباه قلب ولاتنفر منه نفس ، وهذا وهو أمى لم يقرأ كتاباً ولااكتسب علماً ، فأوضح كل ملتبس ، وبين كل مشتبه حتى رجع كثير من الملل إلى شريعته فى علم ماقصروا عنه من حقوق وعقود استوعب أقسامها وبين أحكامها ، وماذلك إلا بعون إلهى وتأييد لاهوتى ، وحسبك بهذا شاهداً لو اقتصرنا عليه ، وحجاباً لو اكتفينا به"(٣).

(٥) إن كمال الإسلام وسده لحاجة البشرية فى كل زمان ومكان ، واستمراريته طيلة القرون السابقة ، وإقبال الناس عليه ، والتمسك به والدفاع عنه ، أصدق دلالة وأقوى حجة على أنه دين من عند الله تعالى أوحى به إلى نبيه صلى الله عليه وسلم ، لادخل للبشر فيه .

---

(١) المرجع السابق ص٢٤٤،٢٤٥ .
(٢) شرح العقيدة الطحاوية ص١٥٠ .
(٣) أعلام النبوة ص٥٦ .

قال كارليل (١):

"لقد أصبح من أكبر العار على أى فرد متمدن من أبناء هذا العصر أن يصغى إلى مايظن من أن دين الإسلام كذب ، وأن محمداً خداع مزور ، وآن لنا أن نحارب مايشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة . فإن الرسالة التى أداها ذلك الرسول مازألت السراج المنير مدة اثنى عشر قرناً لنحو مائتى مليون من الناس أمثالنا خلقهم الله الذى خلقنا ، أفكان أحدكم يظن أن هذه الرسالة التى عاش بها ومات عليها هذه الملايين الفائتة الحصر والإحصار أكذوبة وخدعة؟ أما أنا فلاأستطيع أن أرى هذا الرأى أبداً . ولو أن الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج ويصادفان منهم مثل ذلك التصديق والقبول فما الناس إلا بله ومجانين ومالحياة إلا سخف وعبث وأضلولة كان الأولى بها ألا تخلق . فوأسفاه! ماأسوأ مثل هذا الزعم ومـاأضعف أهله ... فعلى من أراد أن يبلغ منزلة ما فى علوم الكائنات أن لايصدق شيئاً البتة من أقوال أولئك السفهاء فإنها نتاج جيل كفر وعصر جحود والحاد وهى دليل على خبث القلوب وفساد الضمائر وموت الأرواح فى حياة الأبدان"(٢).

هذا قليل من كثير مما يؤيد صدق نبوته صلى الله عليه وسلم ، وأنه رسول من عند الله يوحى إليه . وسوف تأتى بعض الأدلة الأخرى من خلال الرد على الشبه .

---

(١) هو توماس كارليل . كان من المستشرقين المنصفين الذين قالوا كلمة حق فى الإسلام ، ولم يؤمن به . له كتاب "الأبطال" عقد فيه فصلاً رائعاً عن النبى صلى الله عليه وسلم . مات سنة ١٨٨١م .
انظر : المستشرقون ٤٨١/٢ ، آراء المستشرقين حول القرآن ٧٤/١ .

(٢) الأبطال ص٥٤-٥٥ ، وانظر ص٥٨ .

عرض شبهات المستشرقين حول الوحى النبوى والجواب عنها:

الوحى لغة :هو إعلام فى خفاء(١).

وفى الشرع : هو الإعلام بالشرع(٢).

وسنة النبى صلى الله عليه وسلم وحى من عند الله كصنوها القرآن ، وتصديق ذلك قوله سبحانه وتعالى : {ومابنطق عن الهوى.إن هو إلا وحى يوحى}(٣). وقال صلى الله عليه وسلم : "ألا إنى أوتيت القرآن ومثله معه" الحديث (٤).

وقال حسان بن عطية (٥)رحمه الله : "كان جبريل (عليه السلام) ينزل على النبى صلى الله عليه وسلم بالسنة كما ينزل عليه بالقرآن"(٦).

ومن هنا كان القدح فى الوحى وفى نبوة النبى صلى الله عليه وسلم قدحاً فى السنة كما هو قدح فى القرآن .

ولقد ركز المستشرقون جل جهودهم ، وبذلوا قصارى جهدهم فى الوصول إلى نفى النبوة وسلبها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن

---

(١) لسان العرب ٢٥٧/١٢ ، مختار الصحاح ص٧٣٨ .

(٢) فتح البارى ٩/١ .

(٣) سورة النجم : آية ٣،٤

(٤) أخرجه أبو داود فى سننه من حديث المقدام بن معديكرب . إلا أنه قال : "أوتيت الكتاب" . كتاب السنة ، باب فى لزوم السنة برقم ٤٦٠٤ ، ٢٠٠/٤ ؛
وسنده صحيح . انظر مشكاة المصابيح ٥٨/١ ، الهامش .
وأخرجه الإمام أحمد فى مسنده بلفظه عن المقدام ١٣١/٤ .
وقد نص الشيخ ناصر الدين الألبانى على صحة الحديث .
انظر : صحيح سنن أبى داود ٨٧١/٣ ، حديث رقم ٣٨٤٨ .

(٥) هو المحاربى ، مولاهم ، أبو بكر الدمشقى ، ثقة ، فقيه ، عابد . روى عن أبى أمامة ، وابن المسيب ، وعنه الأوزاعى ، وأبو غسان محمد بن مطرف . مات بعد العشرين ومائة .
انظر : الجرح والتعديل ٢٣٦/٣ ، الكاشف ٢١٧/١ ، تقريب التهذيب ١٦٢/١ .

(٦) سنن الدارمى ، المقدمة ، باب السنة قاضية على الكتاب ١٤٥/١ .

ماجاء به نتاج بشرى وليس من عند الله تعالى . ولذا حاولوا أن يفسروا الوحى تفسيراً يؤدى بهم إلى هذا الزعم الجائر والضلال البين .

وقد تباينت أقوالهم وتضاربت آراؤهم فى بيان حقيقة أمر الوحى وكنهه .

وإليك ماأنتجته عقولهم وسطرته أقلامهم من شبه حول ظاهرة الوحى الإلهى إلى خاتم الرسل ، صلى الله عليه وسلم . وهى تدور حول محورين :

الأول : إنه أمر ذاتى ، أى من داخل نفس النبى صلى الله عليه وسلم.

الثانى : إنه أمر خارج عنه ، ولكن ليس من عند الله سبحانه .

(أ) أما المحور الأول فانه يحوى بين طياته عدة تفسيرات للوحى :

(١) **الوحى النفسى :**

إن محمداً كان من أصحاب النفوس الصافية والخيال الواسع ، والإحساس العميق ، والعقل المتوقد ، ولذا انصرف فى وقت مبكر إلى التفكير فى المسائل الدينية ، ولم يجد فى العبادة الوثنية التى تقوم من حوله مايروى ظمأه الروحى(١).

وهذه الأفكار ولدت إلهاماً فى نفسه فاض من عقله الباطن على مخيلته وانعكس على بصره وسمعه فتصور أنه يرى ملكاً يخاطبه ، أو يتمثل له رجلاً ، أو يرى فى منامه ماعتقد أنه وحى من الله كلف بإبلاغه إلى بنى وطنه(٢).

يقول المستشرق بروكلمان(٣)، مصوراً لنا الوحى النفسى :

"بينما كان بعض معاصرى النبى كأمية بن أبى الصلت(٤)شاعر الطائف وهى بلدة بحذاء مكة ، يكتفون بوحدانية عامة ، كان محمد يأخذ بأسباب

---

(١) انظر : تاريخ الشعوب الإسلامية ص٣٤ .

(٢) انظر : مناهج المستشرقين فى الدراسات العربية الإسلامية ٢٦/١ ، ٢٢٨/١-٢٢٩ ، تاريخ الشعوب الإسلامية ص٦٨ ، آراء المستشرقين حول القرآن ٣٨٢/١ .

(٣) بروكلمان :
هو كارل بروكلمان . مستشرق ألمانى ، تعلم اللغة العربية وكان عالما بتاريخ الأدب العربى . عضو المجمع العربى وكثير من المجامع الأخرى بألمانيا . مات سنة ١٩٥٦م. من آثاره : "تاريخ الأدب العربى" ، "تاريخ الشعوب الإسلامية" وغيرها .
انظر : الأعلام ٢١١/٥-٢١٢ ، المستشرقون ٧٧٧/٢-٧٨٣ ، المستشرقون الألمان ص١٥٣-١٦٢ ، آراء المستشرقين حول القرآن ١٩٧/١-١٩٨ .

(٤) أمية بن أبى الصلت :
هو أمية بن عبد الله بن أبى الصلت بن أبى ربيعة بن عوف الثقفى . شاعر جاهلى من أهل الطائف . فى شعره حكم . اطلع على الكتب القديمة ، وقد لقى النبى صلى الله عليه وسلم ولم يؤمن به . مات سنة ٥هـ على خلاف فى ذلك .
انظر : البداية والنهاية ٢٢٠/٢-٢٢٩ ، الإصابة ١٢٩/١-١٣٠ ، الأعلام ٢٣/٢ .

التحنث[١]، والتنسك[٢]، ويسترسل فى تأملاته حول خلاصه الروحى ، ليالى بطولها فى غار حراء[٣] قرب مكة. لقد تحقق عنده أن عقيدة مواطنيه الوثنية فاسدة فارغة ، فكان يضج فى أعماق نفسه هذا السؤال : إلى متى يمدهم الله فى ضلالهم ، مادام هو عز وجل قد تجلى ، آخر الأمر ، للشعوب الأخرى بواسطة أنبيائه؟ وهكذا نضجت فى نفسه الفكرة أنه مدعو إلى أداء هذه الرسالة ، رسالة النبوة ، ولكن حياءه الفطرى حال بينه وبين إعلان نبوته فترة غير قصيرة ، ولم تتبدد شكوكه إلا بعد أن خضع لإحدى الخبرات الخارقة فى غار حراء . ذلك بأن طائفا تجلى له هنالك يوما ، هو الملك جبريل على ماتمثله محمد فى مابعد ، فأوحى إليه أن الله قد اختاره لهداية الأمة . وآمنت زوجه فى الحال ، برسالته المقدسة ، وتحرر هو نفسه من آخر شكوكه بعد أن تكررت الحالات التى ناداه فيها الصوت الإلهى وتكاثرت . ولم تكد هذه الحالات تنقضى حتى أعلن ماظن أنه قد سمعه ، كوحى من عند الله"[٤].

---

(١) التحنث : هو التعبد . من الحنث وهو الإثم . أى يفعل فعلا يخرج به من الاثم والحرج . انظر : لسان العرب ١٣٨/٢-١٣٩ ، الصحاح ٢٨٠/١ مادة (حنث) . وانظر : الفائق ٢٧٢/١ ، النهاية ٤٤٩/١ .

(٢) التنسك : هو التعبد . من النسك وهو الطاعة والعبادة ، وكل مايتقرب به إلى الله تعالى . انظر : لسان العرب ٤٩٨/١٠-٤٩٩ ، الصحاح ١٦١٢/٤ مادة (نسك) . وانظر : النهاية ٤٨/٥ .

(٣) حراء : جبل من جبال مكة على ثلاثة أميال .
معجم البلدان ٢٣٣/١ ، مراصد الاطلاع ٣٨٨/١ .

(٤) تاريخ الشعوب الإسلامية ص٣٦ .

ويجاب عن ذلك بما يلى :

(١) لقد بين الله سبحانه وتعالى أن الوحى أمر خارج عن نفس النبى صلى الله عليه وسلم ، وليس نابعاً من داخلها ، بل حمله جبريل عليه السلام من عند الله إليه ، كما قال سبحانه :

{وإنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربى مبين}(١).

فحامله عليه السلام ملك منفصل عن ذات محمد صلى الله عليه وسلم ليس خيالاً فيها ، وله من الصفات مابينها الله فى قوله :

{إنه لقول رسول كريم . ذى قوة عند ذى العرش مكين . مطاع ثم أمين . وماصاحبكم بمجنون . ولقد رآه بالأفق المبين . وماهو على الغيب بضنين . وماهو بقول شيطان رجيم . فأين تذهبون . إن هو إلا ذكر للعالمين . لمن شاء منكم أن يستقيم . وماتشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين}(٢).

(٢) إن النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن يستشرف النبوة ، وماكان يرجوها ، ولم يطمع فى حصولها له ، بل لم يرد فى الأخبار الصحيحة أنه صلى الله عليه وسلم يرجو أن يكون هو النبى المنتظر الذى يتحدث عنه علماء اليهود والنصارى قبل البعثة ، ولو ثبت ذلك عنه لما ترك المحدثون تدوينه ، وقد دونوا ذلك عن أمية بن أبى الصلت لما كان يتوقع أن يكون نبياً .

---

(١) انظر مناهج المستشرقين فى الدراسات العربية الإسلامية ٢٦/١ .
والآيات هى ١٩٢-١٩٥ من سورة الشعراء .

(٢) انظر كتاب النبوات ص٢٥١ . والآيات هى ١٩-٢٨ من سورة التكوير .

وقد جاء فى القرآن نفى ذلك عنه صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى : {وماكنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك} . فما كان صلى الله عليه وسلم يظن أن الوحى قبل إنزاله عليه يتزل عليه ، وإنما أنزله الله رحمة به وبالعباد ، فهو نعمة من الله وفضل(١).

وأما اختلاؤه صلى الله عليه وسلم وتعبده فى الغار عام الوحى ، فلاشك فى أنه كان عملاً كسبياً مقوياً لذلك الاستعداد الوهبى ، ولذلك الاستعداد السلبى ، من العزلة وعدم مشاركة المشركين فى شىء من عباداتهم ولاعاداتهم ، ولكنه لم يكن يقصد به الاستعداد للنبوة ، لأنه لو كان لأجلها لاعتقد حين رأى الملك أو عقب رؤيته حصول مأموله وتحقق رجائه ، ولم يخف منه على نفسه ، وإنما كان الباعث لهذا الاختلاء والتحنث اشتداد الوحشة من سوء حال الناس والهرب منها إلى الأنس بالله تعالى والرجاء فى هدايته إلى المخرج منها(٢).

(٣) إن الوحى الذى حدث للنبى صلى الله عليه وسلم هو حدث إلزامى فجائى طارىء لايمكن إحضاره واجتلابه ، وبالتالى لايمكن دفعه ورده .

ومن أوضح الأدلة على ذلك مايعتريه من أعراض جسدية لاسيطرة له عليها ، كاحمرار وجهه وتتابع أنفاسه وسماع غطيط منه(٣)، ومايتقاطر منه من عرق فى اليوم الشديد البرد(٤).

---

(١) انظر : الوحى المحمدى ص١٢٣،١٢٤ ، نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فى القرآن ص٢٢٥ ، الإسلام والمستشرقون ص٢٠٨ ، تفسير القرآن العظيم ٣/٣-٤ .
والآية هى ٨٦ من سورة القصص .

(٢) الوحى المحمدى ص١٣١-١٣٢ .

(٣) انظر : صحيح البخارى ، كتاب الحج (٢٥) ، باب غسل الخلوق ثلاث مرات (١٧) من حديث يعلى بن أمية ١٤٤/٢ .
صحيح مسلم ، كتاب الحج (١٥) ، باب مايباح للمحرم (١) برقم ١١٨٠ ، ٨٣٦/٢-٨٣٧ .

(٤) انظر : صحيح البخارى ، كتاب بدء الوحى (١) ، باب كيف كان بدء الوحى (١) ، من حديث عائشة رضى الله عنها ٢/١-٣ .

وثقل جسمه(١)، ومايسمعه الصحابة عند وجهه من صوت كدوى النحل(٢).

وهـذه الأعـراض لاتعتريه صلى اللـه عليـه وسلم إلا فى فترات وجيزة وبرهات متقطعة وذلك عند نزول الوحى عليه .

ومما يدل على ذلك أيضاً ماانتابه من أحوال نفسية تمثلت فى خوفه صلى الله عليـه وسلم من ملك الوحى فى مبدأ أمره ، كما جاء فى رواية عائشة رضى الله عنها . وقوله : "لقد خشيت على نفسى"(٣).

وقوله : "زملونى زملونى حتى ذهب عنه الروع"(٤).

وفى رواية جابر : "فجثثت منه فرقاً حتى هويت إلى الأرض"(٥)(٦).

قال النووى رحمه الله فى شرحه لرواية عائشة رضى الله عنها :

---

(١) انظر : صحيح البخارى ، كتاب الصلاة (٨) ، باب مايذكر فى الفخذ (١٢) من حديث زيد بن ثابت ٩٧/١ ، كتاب التفسير (٦٥) ، تفسير سورة القيامة (٤) ، باب {لايستوى القاعدون من المؤمنين} (١٨) ، ١٨٢/٥ .

(٢) انظر : مسند أحمد ، من حديث عمر ٣٤/١ .
قال الشيخ أحمد محمد شاكر : "إسناده صحيح" .
مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر ٢٥٥/١ ، مصنف عبد الرزاق ، باب تعليم القرآن وفضله برقم ٦٠٣٨ ، ٣٨٣/٣ .
مستدرك الحاكم ٥٣٥/١ ، وقال : "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه" ووافقه الذهبى .

(٣) الحديث سبق تخريجه . انظر ص : ٣٦٢

(٤) سبق تخريجه . انظر ص : ٣٦٢
وزملونى : أى لفونى بالثياب . انظر : الفائق ١٢٢/٢ ، النهاية ٣١٣/٢ .
والروع هو الخوف والفزع . انظر : النهاية ٢٧٧/٢ .

(٥) أخرجه مسلم فى صحيحه ، كتاب الإيمان (١) ، باب بدء الوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم (٧٣) ، برقم ١٦١ ، ١٤٣/١ .
وجثثت منه : أى فزعت منه وخفت . وقيل معناه : قلعت من مكانى . من قوله تعالى : {اجتثت من فوق الأرض} (سورة إبراهيم : آية ٢٦) . النهاية ٢٣١/١-٢٣٩

(٦) انظر : نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فى القرآن ص١٩٨،١٩٩،٢٠٠ .

"حتى فجئه الحق وهو فى غار حراء فجاءه الملك"(١) قال :

"أى جاءه الوحى بغتة فإنه صلى الله عليه وسلم لم يكن متوقعاً الوحى"(٢).

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله فى قولها "فى اليوم الشديد البرد"(٣): دلالة على كثرة معاناة التعب والكرب عند نزول الوحى ، لما فيه من مخالفة العادة ، وهو كثرة العرق فى شدة البرد ، فإنه يشعر بوجود أمر طارىء زائد على الطباع البشرية"(٤).

والدليل على أنه صلى الله عليه وسلم لاقدرة له على إحضار الوحى وجلبه ، فتور الوحى وانقطاعه عنه فترة من الزمن حتى شق ذلك عليه وأحزنه وأقض مضجعه ، ثم جاءه جبريل بعد ذلك بقوله : {والضحى . والليل إذا سجى . ماودعك ربك وماقلى}(٥).

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه ، كتاب التفسير (٦٥) ، باب تفسير سورة اقرأ باسم ربك الذى خلق (العلق) (٩٦) ، ٦/٨٧-٨٩ ، وفى كتاب التعبير (٩١) ، باب التعبير وأول مابدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) ٨/٦٧-٦٨ . وأخرجه مسلم فى صحيحه ، كتاب الإيمان (١) ، باب بدء الوحى (٧٣) برقم ٢٥٢ ١/١٣٩-١٤٢ .

(٢) شرح النووى على صحيح مسلم ٢/١٩٩ .

(٣) سبق تخريجه . انظر ص، ٣٧٢

(٤) فتح البارى ١/٢١ .

(٥) انظر : السيرة النبوية لابن هشام ١/١٥٠ ، نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فى القرآن ص٢٠٠ .
والآيات هى ١-٣ من سورة الضحى .
وانظر : صحيح البخارى ، كتاب التفسير (٦٥) ، تفسيرة سورة الضحى (٩٣) ، ٦/٨٦ .
وانظر فى انقطاع الوحى وحزن النبى صلى الله عليه وسلم : صحيح البخارى ، كتاب التفسير (٦٥) ، باب تفسير سورة اقرأ باسم ربك الذى خلق (العلق) (٩٦) ٦/٨٨ .
صحيح مسلم ، كتاب الإيمان (١) ، باب بدء الوحى (٧٣) ١/١٤٣ .

ومـن ذلك ماروواه الإمام البخـارى فى صحيحه مــن حديث ابن عباس رضى الله عنهما عندما أبطأ جبريل فى النزول عليه فقال له رسول الله صلى اللـه عليه وسلم : "مايمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟" فنزلـت : {ومانتنزل إلا بأمر ربك له مابين أيدينا وماخلفنا}(١)(٢).

ومن ذلك حادثة الإفك(٣)عندما رميت السيدة عائشة رضى الله عنها زوجه بما رميت به ، ولبث صلى الله عليه وسلم شهراً لايوحى إليـه فى شأنها حتى استـدعى على بن أبى طالب وأسامة بن زيد يستأمـرهما فى فراق أهله ، وحتى قال لها :

"ياعائشة فإنه بلغنى عنك كذا وكذا ، فإن كنت بريئـة فسيبرؤك الله ، وإن كنـت ألمت بذنب فاستغفـرى الله وتوبى إليه ، فـإن العبـد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه"(٤).

---

(١) سورةمريم : آية ٦٤

(٢) صحيـح البخارى ، كتاب بدء الخلق (٥٩)، باب ذكر الملائكـة صلوات الله عليهم (٦) ، ٨٠/٤ ، وفى كتـاب التفسير (٦٥) ، تفسير سورة كهيعـص (مريم) (١٩) ، باب قوله : {ومانتنزل إلا بأمر ربك} (٢) ، ٢٣٧/٥ ، وفى كتاب التوحيد (٩٧) ، باب {ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين} (٢٨) ، ١٨٨/٨ .

(٣) الإفـك : فى الأصل الكذب . وأريد به هنا ماكذب به على عـائشة رضى الله عنها فيما رميت به .
انظر : الفائق ٤٩/١ ، النهاية ٥٦/١ .

(٤) هذا جزء من حديث عائشة رضى الله عنها الطويل فى حادثة الإفك .
والحديث أخرجه البخـارى فى صحيحـه ، كتـاب الشهـادات (٥٢) ، باب تعـديل النســاء بعضهـن بعضاً (١٥) ، ١٥٤/٣-١٥٨ ، وفى كتـاب المغـازى (٦٤) ، باب حديث الإفـك (٣٤) ، ٥٥/٥-٦٠ ، وفى كتاب التفسير (٦٥) ، تفسير سـورة النور (٢٤) ، باب {لـولا إذ سمعتمـوه ظـن المؤمنـون والمؤمنات بأنفسهـم خيراً} (٦) ، ٥/٦-٩ .
وأخرجه مختصـراً فى كتـاب الشهـادات ، باب إذا عدل رجل أحداً فقـال لانعلم إلا خيراً (٢) ، ١٤٦/٣-١٤٧ ، وفى كتاب التفسير ، تفسر سـورة يوسف (١٢) ، باب قوله {بل سولت لكم أنفسكــم أمـراً فصبر جميــل} (٣) ، ٢١٦/٥ ، وفى تفسير سورة النور ، باب {إن الذين يحبـون أن تشيـع الفـاحشة فى الـذين آمنـوا} (١١) ١١/٦-١٣ . =

ففى هذه الحادثة أقوى دلالة على أنه صلى الله عليه وسلم لاسيطرة له على الوحى ولاهيمنة ، وإنما هو أمر من عند الله تعالى .

ومن ذلك : إن قريشاً بعثت النضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط إلى يهود المدينة يستخبروهم فى أمر النبى صلى الله عليه وسلم فأمروهم أن يسألوه عن أهل الكهف ، وذى القرنين والروح ، فسألوه ، فقال صلى الله عليه وسلم : "أخبركم بما سألتم عنه غداً" ولم يستثن . فانصرفوا عنه ، فمكث خمس عشرة ليلة لم يأته الوحى ، حتى أرجف أهل مكة ، وقالوا : وعدنا محمد غداً ، واليوم خمس عشرة ليلة ، وقد أصبحنا منها لايخبرنا بشىء مما سألناه عنه وحتى أحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم مكث الوحى عنه وشق عليه مايتكلم به أهل مكة . ثم جاءه جبريل من الله عز وجل بسورة الكهف ، وفيها معاتبته على حزنه عليهم وخبر ماسألوه(١).

(٤) أقام صلى الله عليه وسلم فى قومه أربعين سنة قبل أن يوحى إليه ولم يكن معروفاً بينهم بالعلم والمعرفة ، ولاالتخيل ، ولاالوهم الدينى ، ولاالشعر ، ولاالخطابة ، بل كان أمياً لامعرفة له بالكتابة ولاالقراءة ، ولكنه فجأة يدعوهم إلى عقيدة حكيمة ، وعبادات سليمة ، وآداب مستقيمة ، وأخلاق قويمة ، فأشربها ملايين البشر ودانوا لله بها ، ولم يأت مايبين عدم صحتها أو استقامتها .

= وفى كتاب التوحيد (٩٧) ، باب قول الله تعالى {يريدون أن يبدلوا كلام الله} (٣٥) ، ١٩٨/٨ ، وفى باب قول النبى صلى الله عليه وسلم الماهر بالقرآن مع الكرام البررة (٥٢) ، ٢١٤/٨ .
وأخرجه مسلم فى صحيحه ، كتاب التوبة (٤٩) ، باب فى حديث الإفك (١٠) برقم ٢٧٧٠ ، ٢١٢٩/٤-٢١٣٦ .

(١) انظر : السيرة النبوية لابن هشام ١٨٠/١،١٨١ ، تفسير القرآن العظيم ٧١/٣-٧٢ . وقد أورده البيهقى من طريق ابن إسحاق . وفى سنده راو لم يسم . دلائل النبوة ٢٦٩/٢-٢٧١ .

فلايمكن لهذه الأحكام التى تتسم بالكمال والاستمرارية أن تكون صادرة إلا من الخالق العظيم المطلع على غيب السموات والأرض سبحانه وتعالى(١).

قال الله تعالى : {قل لو شاء الله ماتلوته عليكم ، ولاأدراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون}(٢).

قال ابن كثير رحمه الله فى تفسير قوله تعالى :

{قل لو شاء الله ماتلوته عليكم ولاأدراكم به} : "أى هذا إنما جئتكم به عن إذن الله لى فى ذلك ومشيئته وإرادته ، والدليل على أنى لست أتقوله من عندى ولاافتريته أنكم عاجزون عن معارضته وأنكم تعلمون صدقى وأمانتى منذ نشأت بينكم إلى حين بعثنى الله عز وجل لاتنتقدون على شيئا تغمصونى به ولهذا قال : "فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلاتعقلون" : أى أفليس لكم عقول تعرفون بها الحق من الباطل"(٣).

(٥) النبوة ليست أمرا كسبيا يناله المرء بسعيه وكسبه ، ولاتخضع لجهد فكرى أو ترقى روحى وأخلاقى ، ولاتنال بالقيم الدنيوية ، ولاالاعتبارات المادية ، فليست بابا مفتوحا يلج من خلاله من سمت نفسه ، أو عظم إشراقه ، بل هى اصطفاء إلهى يختص به من يشاء من عباده ،{والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم}(٤).

وقد حكى الله عن المشركين عندما قالوا : {وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم} أجابهم بقوله : {أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض

---

(١) انظر : الوحى المحمدى ص٩٣،١٣٧ ، الإسلام والمستشرقون ص٣٢٢ .
(٢) سورة يونس : آية ١٦
(٣) تفسير القرآن العظيم ٤١٠/٢ .
(٤) انظر : كتاب النبوات ص٤٢٢ ، نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فى القرآن ص٢٠٦ مناهج المستشرقين فى الدراسات العربية الإسلامية ٢٧/١ .
والآية هى ١٠٥ من سورة البقرة .

درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمة ربك خير مما يجمعون}(١).

وقال تعالى : {الله أعلم حيث يجعل رسالته}(٢)، وقد جعلها فى محمد صلى الله عليه وسلم كما جعلها فى الرسل قبله ، واصطفاه لذلك ، فأى غرابة وعجب فى ذلك؟ إن قدح بروكلمان ومن شايعه فى إثبات الوحى لمحمد صلى الله عليه وسلم يقدح فى ديانته وفى رسوله الذى يؤمن به ، فما قاله هنالك فى إثبات الوحى يلزمه أن يقوله هنا ، إذ لافارق بين الوحيين (٣).

ولكن لعل بروكلمان يرى كما يرى غيره من أهل ملته أن الوحى هو حلول روح الله فى روح الموحى إليه . ولأجل ذلك ألهوا رسولهم ، وهذا تعريف خاطىء للوحى ، وقول فاسد بل هو كفر والحاد ، فالله لايحل فى غيره ولايحل فيه غيره(٤).

(٦) أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يصدع بدعوته فى قوله : {فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين}(٥)، فالتزم صلى الله عليه وسلم أمر ربه وأعلنها مدوية فى سماء مكة ، وبادى قومه بالإسلام ، مظهراً لأمره ، معلناً له ، فعاب آلهتهم وبين ضلالهم وانحرافهم عن الحق ، فقاموا فى وجهه وكاشفوه العداء ، وهو فى صلابة لاينثنى ولايلين ، فذهبوا إلى عمه الذى حدب عليه وحماه فقالوا : ياأبا طالب ، إن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفه أحلامنا ، وضلل آباءنا ، فإما أن تكفه عنا ، وإما أن تخلى بيننا وبينه ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم مضى على ماهو عليه ، يظهر دين الله ، ويدعو إليه ، فعاد زعماء القوم إلى أبى طالب مرة أخرى ، فقالوا : إنا والله لانصبر على هذا من شتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا

---

(١) سورة الزخرف : آية ٣٢،٣١

(٢) سورة الأنعام : آية ١٢٤

(٣) انظر : نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فى القرآن ص١٧٠،١٦٦ .

(٤) انظر : مناهج المستشرقين فى الدراسات العربية الإسلامية ص٢٧ .

(٥) سورة الحجر : آية ٩٤

وعيب آلهتنا ، حتى تكفه عنا ، أو ننازله وإياك ، حتى يهلك أحد الفريقين (١).

فقد لقى النبى صلى الله عليه وسلم من قومه مالقى ، من العنت والشدة ، فلو أن أمر الوحى كان ذاتياً ينبع من نفسه كيف صبر على مواجهة أولئك ، وهو أمر لاتستحسنه النفوس ، ولاتسعى إليه؟ بل هو وحى من الله وماعلى الرسول إلا الالتزام والانصياع والطاعة (٢).

---

(١) انظر : السيرة النبوية لابن هشام ١/١٥٩-١٦١ .

(٢) انظر : نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فى القرآن ص٢٠٨ .

(٢) أن الوحى ظاهرة للإصلاح الاجتماعى :

لقد عاش محمد فى مكة وكان على علم ودراية بحالة المجتمع الذى يعيش فيه ، فقد كانت المادية مؤثرة على ذلك المجتمع ، وتحكم فيه الكبراء على الضعفاء والأغنياء على الفقراء، وساد فيه الظلم والأنانية وحب الذات ، وسوء المعاملة ، وقد لمس محمد ذلك بنفسه لأنه كان يتيماً ، فأثرت تلك العوامل فى نفسه فلجأ إلى الكهوف والغيران ليفكر فى أمور دينية يعالج من خلالها مايسود فى مجتمعه من فساد اجتماعى .

وهنالك تملكه شعور بأن الله يدعوه ، وأصبح هذا الشعور قوة تدفعه إلى أن يكون مربياً لقومه ، ومبشراً ومنذراً لهم(١).

يقول المستشرق وات(٢):

"لابد أن محمداً كان واعياً منذ وقت مبكر من عمره بمشاكل مكة الاجتماعية والدينية ، وكونه يتيماً جعله بلاشك أكثر إدراكاً للعلة الموجودة فى المجتمع . أما نظرته الدينية فالمحتمل أنها كانت نوعاً من التوحيد الغامض الموجود بين أكثر المكيين استنارة ولكن لابد أنه كان بالإضافة إلى ذلك يبحث عن نوع من الإصلاح فى مكة وكل الأشياء فى بيئته ستجتمع لتقترح أن هذا الإصلاح لابد أن يكون دينياً .

بهذه الحالة العقلية تعمد محمد فيما يبدو البحث عن العزلة ليفكر فى مسائل إلهية ويقوم ببعض العبادات ربما للتكفير عن الذنوب"(٣).

---

(١) انظر : العقيدة والشريعة ص٧-٨ .

(٢) هو دبليو منتجمرى وات . عميد قسم الدراسات العربية فى جامعة أدنبرة . له عدة مؤلفات عن الإسلام منها : "محمد فى مكة" ، "محمد فى المدينة" ، "الوحى الإسلامى فى نظر العالم الحديث" ، "الجدل الدينى" .
انظر : المستشرقون ٥٥٤/٢ ،آراء المستشرقين حول القرآن ١٠٧/١ .

(٣) مناهج المستشرقين فى الدراسات العربية الإسلامية ٢٢٠/١-٢٢١ .

ويقول المستشرق الألمانى هوبرت جريمى[(١)]فى كتابه محمد :

"لم يكن محمد فى بادىء الأمر يبشر بدين جديد ، بل إنما كان يدعو إلى نوع من الاشتراكية . فالإسلام فى صورته الأولى الأصلية لم يكن يحتاج إلى أن نرجعه إلى ديانة سابقة تفسر لنا تعاليمه ، ذلك لأننا إذا نظرنا إليه عن كثب ، نراه لم يظهر إلى الوجود كعقيدة دينية ، بل كمحاولة للإصلاح الاجتماعى تهدف إلى تغير الأوضاع الفاسدة ، وعلى الأخص إلى إزالة الفروق الصارخة بين الأغنياء الجشعين ، والفقراء المضطهدين ... لذلك نراه يفرض ضريبة معينة لمساعدة المحتاجين ، وهو إنما يستخدم فكرة الحساب فى اليوم الآخر كوسيلة للضغط المعنوى وتأييد دعوته"[(٢)].

---

(١) هو برت جريمى "جريمه" :
هو أستاذ اللغات الشرقية فى مونستر .
من آثاره : "محمد" ، "ترجمة القرآن"، "عرب الشام قبل الإسلام" . وله عدة دراسات أخرى . مات سنة ١٩٤٢م .
انظر : المستشرقون ٧٦٠/٢ .

(٢) مناهج المستشرقين فى الدراسات العربية الإسلامية ٢٧/١ ، وانظر : ٢٧/١-٢٨ .

ويجاب عن ذلك بما يلى :

إن تصور المستشرقين للنبى صلى الله عليه وسلم بأنه مصلح اجتماعى وليس نبياً من عند الله ، تصور ينبنى على عجز هؤلاء المستشرقين عن فهم الوحى فهماً حقيقياً .

وذلك لانغماسهم فى الماديات التى أثرت على تلك العقول فلم تصفوا لفهم ماوراء حاجز المادة ، وإنما حصرت نفسها بين جدران المحسوسات ، وليتها وقفت هنالك صامتة مكممة الأفواه ولكنها كشفت عن مزيد جهلها بإنكارها لعالم الغيب ، أضف إلى ذلك مايساير هذا الإنكار من دس وطعن وتشويه وتعصب وتضليل .

لقد وصفوا النبى صلى الله عليه وسلم بكونه مصلحاً اجتماعياً ليضاف إلى صف المصلحين الكثر الذين وجدوا فى هذا العالم فتخلع عنه عند ذلك صفة النبوة ويذوب فى مجاهل التاريخ كما ذاب كثير من أولئك الذين قاموا بخدمات جليلة لإصلاح مفاسد فى مجتمعاتهم .

هذا خلط وفهم سقيم لمقام النبوة التى هى وهب إلهى مع مواقف بعض البشر الذين سمت أنفسهم وصفت أذهانهم فثاروا على وضع ما أو تصحيح خطأ ما .

يقول د. نذير حمدان :

"ومعظم المستشرقين الذين يدرسون ظاهرة الوحى والنبوة إنما يدرسونها من خلال الأحداث الإنسانية والأحوال البشرية ، وكثيراً مايستعينون بالدراسات النفسية والتحليلات التاريخية فى دراسة هذه الظاهرة كما تدرس بطولات آدمية وعبقريات إنسانية ، فإذا بهم يخلطون بين النبوة والعبقرية ، ويلتبس عليهم معانى البطولة ومعانى الرسالة"(١).

---

(١) الرسول صلى الله عليه وسلم فى كتابات المستشرقين ص٢٩ .

ويقول د. عماد الدين خليل كاشفاً للمنطلق الذى انطلق منه وات فى زعمه السابق . يقول :

"فإنه ـ أى وات ـ لم يستطع الفكاك من نقاط الشد الأخرى التى تمسك بتلابيب العقل الغربى : النزوع العلمانى ، والمسلمات المادية ، والرؤية الوضعية ، والانحسار على المنظور ، واعتقاد القدرة على إخضاع كل ظاهرة تاريخية أو بشرية لمقولات التحليل العقلى الخالص ، حتى ولو كانت "غيبية" تند عن التعليل والتحليل"(١).

وعجباً لهؤلاء المستشرقين الذين يغمضون أعينهم عن رؤية الحقائق البينة الماثلة أمام كل ذى لب وعقل ، فإن هذا الدين الإسلامى الذى سعدت به شعوب شتى ، وقامت به دول ، واستقامت به مجتمعات ، وظل طيلة هذه القرون صامداً فى وجه كل تحدى ، وعجزت الإنسانية أن توجد مثيلاً له ، لكماله وتمامه وسده لحاجات البشرية فى جميع جوانبها ، وصدق الله إذ يقول : {وماأرسلناك إلا رحمة للعالمين}(٢)فهل يقصر كل ذلك على تصحيح وضع معين فى بيئة جاهلية يحدها الزمان والمكان؟ وهل التاريخ الذى لجأ إليه أولئك وجعلوه مقياساً للحكم من خلاله على دين الله الموحى به إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، يقف سنداً لهم فى حكمهم ذاك؟

إن التاريخ يثبت بقاء هذا الدين ودوامه وصلاحه لكل عصر ومصر . فهلا نظروا إلى عصور الإسلام الزاهية ، عندما كان الغرب يغط فى نوم عميق ويحيط به ظلام دامس ، والمسلمون يعيشون الحضارة فى أوجها والسعادة فى قمتها ، فى ذلك الوقت الذى لجأ الغرب فيه إلى علوم المسلمين وثقافتهم ينهل من معينها ، فكانت له كالنافذة التى بدأ يبصر من خلالها نور الرقى والتقدم؟ أما كان الإسلام صالحاً لذاك الوقت ، الذى انحنت فيه أوربا ذليلة تستجدى مايضمن لها سعادتها وبقائها من ثقافة الإسلام وعلومه؟

---

(١) مناهج المستشرقين فى الدراسات العربية الإسلامية ١/١٧٤ .

(٢) سورة الأنبياء : آية ١٠٧

أم كانوا ينظرون إليه فى ذلك الزمان بأنه صيحة إصلاحية لتصحيح وضع جاهلية قريش المحاطة بجبال مكة العالية ، حيث لامجال لنفوذ تلك الصيحة من خلال تلك الجبال؟

إنه حكم جائر ، وزعم مناف للصواب ، {يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون . هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون}(١).

يقول الشيخ محمد رشيد رضا :

"فإذا فرضنا أنه يحتمل أن يكون شىء منها من تأثير الوراثة ، والبيئة والتربية ، وأن يكون قد تسرب إلى ذهنه بعض مسائلها من أفواه عقلاء قومه أو غيره ممن لقى فى أسفاره القليلة ، أو أنه فكر فى حاجة البشر إلى مثلها بما أدركه بذكائه الفطرى من سوء حالهم ، فهل يعقل أن تكون تلك الفلتات الشاردة ، وهذه الخطرات الواردة ، تبلغ هذا الحد من التحقيق ، والوفاء بحاجة الأمم كلها ، وأن تظل كلها مكتومة من سن الصبا ، وعهد حب الظهور إلى أن تظهر فى سن الكهولة بهذه الروعة من البيان ، وسلطان البلاغة على القلوب ، وقوة البرهان فى العقول ، فتحدث هذه الثورة فى الأمة العربية ، المغيرة لطباعها ، المبدلة لأوضاعها ، بحيث تسود بها شعوب المدنية كلها ، ويتلو ذلك ماقصه التاريخ من الانقلاب فى العالم كله بها"(٢).

ثم إن ماجاء به النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن لعلاج الفروق بين الأغنياء والفقراء فقط ، وإنما جاء بشرع متكامل فى كل جوانبه ، فجاء ببيان التوحيد الخالص والعقيدة الصافية من كل شوائب الشرك، كما جاء بإيضاح العبادات السامية التى تربط الإنسان بربه وخالقه ، وبين المعاملات التى تربط الإنسان بجميع أفراد المجتمع ، ورسم الأخلاق التى يسمو ويعلو من قام بها والتزمها ، فالإسلام جاء بكل مايصلح البشر ويضمن لهم سعادة الدنيا والآخرة .

---

(١) سورة التوبة : آية ٣٢،٣٣

(٢) الوحى المحمدى ص٣٤٣ .

وهنـالك أحوال وحوادث غيبيـة كشـف عنها الوحى مما لايمكـن أن تؤخذ مـن بشـر قط . ففى الماضـى ، مـافصل فيه من أخبـار الأمـم السابقة ومـواقفهم من الرسل وغير ذلـك . وفى المستقبل فيمـا أخبر به مـن حوادث ستقـع فوقعت كما أخبر . وهذا لايمكن أن يتأتى لأحد مـن الخلق . وقد قال سبحـانه لرسوله صلى الله عليـه وسلم : {تلك من أنبـاء الغيـب نوحيها إليك ماكنت تعلمها أنت ولاقومـك مـن قبـل هـذا فاصبر إن العـاقبة للمتقين}(١).

والـذى يستغرب له الإنسان ويستعجب منه أن يصـل الأمر بالمستشرق (جريمى) أن ينفـى النبوة عـن النبى صلى الله عليه وسلم ويصفـه بأنه داعية من دعاة الاشتراكية ، تلك الفلسفة المادية الالحادية الباطلة التى اقتلع الإسلام جذورهـا وبين فسادها وضلالها ، إن (جريمى) لايدرى مـايخرج من رأسه أن يصل به السخف والسذاجة إلى هذا الحد(٢).

---

(١) انظر : نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فى القرآن ص٢٦٣،٢٦٤ .
والآية هى ٤٩ من سورة هود .

(٢) انظر : مناهج المستشرقين فى الدراسات العربية الإسلامية ٢٧/١ .

(٣) أن الوحى عبارة عن أمراض عقلية ونفسية :

ذهب بعض المستشرقين إلى أن النبى صلى الله عليه وسلم كان مصاباً ببعض الأمراض العقلية والنفسية التى أثرت عليه تأثيراًبالغاً ونتج من تلك الآثار مادعى أنه وحى من الله .

قال جولد زيهر :

"وفى خلال النصف الأول من حياته اضطرته مشاغله إلى الاتصال بأوساط استقى منها أفكاراً أخذ يجتريها فى قرارة نفسه ، وهو منطو فى تأملاته أثناء عزلته ، ولميل إدراكه وشعوره للتأملات المجردة والتى يلمح فيها أثر حالته المرضية ، نراه ينساق ضد العقلية الدينية والأخلاقية لقومه الأقربين والأبعدين"(١).

ولكن ماحقيقة هذه الأمراض ومانوعيتها؟

يجيب على ذلك عدد من المستشرقين مع تباين تشخيصاتهم .

زعم الويز شبرنجر(٢)، وجوستاف فايل(٣)وغيرهم أنه كان مصاباً بحالات من الصرع يغيب فيها عن الناس وعما حوله ويظل ملقى على أثرها بين الجبال لمدة طويلة ، يسمع له على إثرها غطيط كغطيط النائم ، ويتصبب عرقاً ، ويثقل جسمه(٤).

---

(١) العقيدة والشريعة ص٧ .

(٢) الويز شبرنجر :
هو ابن كرستوفر شبرنجر . مستشرق نمسوى ، يجيد كثيراً من اللغات ، وله المام بالأدب الشرقى . مات سنة ١٨٩٣م .
من آثاره : "حياة محمد" ، وقد نشر بعض الكتب العربية مثل "الإصابة فى تمييز الصحابة" ، "الإتقان فى علوم القرآن" .
انظر : الأعلام ٨/٢ ، المستشرقون ٦٣١/٢-٦٣٢ .

(٣) جوستاف فايل :
مستشرق ألمانى ، له كتاب مدخل تاريخى نقدى إلى القرآن . مات سنة ١٨٨٩م .
انظر : آراء المستشرقين ٢٢٩/١ .

(٤) انظر : آراء المستشرقين حول القرآن ٣٩٨/١ .

وتعتريه التشنجات ، وتخرج منه الرغوة . فإذا أفاق ذكر أنه أوحى إليه وتلا على أتباعه مايزعم أنه وحى من الله(١).

وبعضهم اعتبرها حالة هستيريا ، وتهيجاً عصبياً ، يظهر عليه أثرها فى مزاجه العصبى القلق ، ونفسه كثيرة العواصف بشكل غامض ، حتى كان يصل به الأمر أن لايفرق بين تعاقب الليل والنهار ، وقد هزل على إثرها جسمه ، وشحب لونه ، وخارت قواه(٢).

ويذهب المفكر الفرنسى جوستاف لبون (٣)إلى أنه نوع من الهوس(٤)، فيقول :

"ونرى محمداً الثاقب النظر من الناحية العلميةمن ذوى الهوس ، كما هو شأن أكثر مؤسسى الديانات ، وليس فى ذلك مايحط من قدره ، فلم يكن ذوو المزاج البارد من المفكرين هم الذين أنشأوا الديانات وقادوا الناس ، وإنما أولو الهوس هم الذين أقاموا الأديان وهدموا الدول ، وأثاروا الجموع ، وذللوا الصعاب . ولو كان القصد لاالهوس ، هو الذى يسود العالم لكان للتاريخ مجرى آخر"(٥).

وزعم نولدكه(٦)بأنها نوبات انفعالية طاغية ، حيث يقول :

---

(١) الإسلام والمستشرقون ص٢٠٢ .

(٢) آراء المستشرقين حول القرآن ٣٩٨/١ ، نقلاً عن مقدمة القرآن لمونتجمرى وات ص١٧-١٨ ، ومقدمة القرآن لبل ص٢٩-٣٠ .

(٣) جوستاف لبون :
لم أقف له على ترجمة .

(٤) الهوس : بالتحريك ، طرف من الجنون ، ويرادفه المس .
انظر : المعجم الفلسفى ٥٢٦/٢-٥٢٧ ، القاموس المحيط ص٥٧١ .

(٥) حضارة العرب ص١٢٦-١٢٧ .

(٦) نولدكه :
هو تيودور نولدكه شيخ المستشرقين الألمان ، وكانت له مكانة بين المستشرقين عامة يحسن اللغات الشرقية . مات سنة ١٩٣٠م .
من آثاره : "تاريخ القرآن" ، "حياة النبى محمد"، "دراسات لشعر العرب القدماء"
انظر : الأعلام ٩٦/٢ ، المستشرقون الألمان ص١١٥-١٢٤ ، المستشرقون ٧٣٨/٢-٧٤٠ ، آراء المستشرقين حول القرآن ١٨٥/١ .

"وكانت نبوة محمد نابعة من الخيالات المتهيجة والإلهامات المباشرة للحس أكثر من أن تأتي من التفكير النابع من العقل الناضج ، فلولا ذكاؤه الكبير لما استطاع الارتقاء على خصومه ... مع هذا كان يعتقد أن مشاعره الداخلية قادمة من الله بدون مناقشة"(١).

(١) آراء المستشرقين حول القرآن ٣٨٧/١ ، نقلاً عن تاريخ القرآن لنولدكة ٥/١ .

ويجاب على ذلك :

هذا أيضاً نشأ من التصور الخاطىء والفهم السقيم لحقيقة الوحى والنبوة ، والعجز التام عن معرفة العلاقة التى تربط بين جبريل الملك ومحمد النبى عليهما السلام ، ومايظهر من آثار على النبى صلى الله عليه وسلم من تلك العلاقة(١).

فتلك ظاهرة لاتخضع للعلوم التجريبية والتحليلات النفسية ، أو الاستنتاجات العقلية لعجز البشر عن إدراك كنهها وحقيقتها .

يقول د. التهامى نقرة :

"فوصف ظاهرة الوحى الإلهى، وماكان يعترى النبى عند تلقيه من حالة خاصة ناشئة عن انسلاخه من البشرية الجسمانية ، واتصاله بالملكية الروحانية بالهوس أو الصرع أو نحو ذلك من الانحرافات النفسية على ضوء التحليل النفسى جهل خطير بحقيقة النبوة . وهل يكفى لصنف من العلوم أن يصل إلى حد من الدقة والتطور ، بحيث تفرض طريقته فى البحث على الميادين الأخرى ، وينتصب معياراً؟ إن تطور منهج من المناهج العلمية لايعطى كمعيار خارج ميدانه"(٢).

إن المستشرقين كالببغاوات يرددون شبه إخوانهم أعداء الأنبياء والرسل الذين جعلوا مايحصل لأنبياء الله مثل الذى يحصل للمجانين والسحرة كما قال تعالى : {كذلك ماأتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون . أتواصوا به بل هم قوم طاغون}(٣).

---

(١) انظر : الإسلام والمستشرقون ص٢٢٩ ، مناهج المستشرقين فى الدراسات العربية الإسلامية ٢٨/١ .

(٢) مناهج المستشرقين فى الدراسات العربية الإسلامية ٢٨/١-٢٩ .

(٣) انظر : كتاب النبوات ص٢٥٠ .
والآيات هى ٥٢،٥٣ من سورة الذاريات .

وهى عين الفرية التى رمت بها قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم فبرأه الله مما قالوا ، بقوله سبحانه وتعالى :

{فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولامجنون}(١).

وقد ضلوا بذلك وانحرفوا عن الحق فمثلهم كمثل من ضل الطريق وتشعبت عليه السبل فيأخذ يميناً وشمالاً ولايهتدى أبداً ، كما قال سبحانه : {انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلايستطيعون سبيلاً}(٢).

يقول الإمام ابن كثير رحمه الله عند تفسير قوله تعالى : {هل أنبئكم على من تنزل الشياطين . تنزل على كل أفاك أثيم . يلقون السمع وأكثرهم كاذبون}(٣)يقول :

"يقول تعالى مخاطباً لمن زعم من المشركين أن ماجاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ليس بحق وأنه شىء افتعله من تلقاء نفسه أو أنه أتاه به رءى من الجان ، فنزه الله سبحانه جناب رسوله عن قولهم وافترائهم ونبه أن ماجاء به إنما هو من عند الله وأن تنزيله ووحيه نزل به ملك كريم أمين عظيم وأنه ليس من قبل الشياطين ... وإنما ينزلون على من يشاكلهم ويشابههم من الكهان الكذبة"(٤).

أرأيت كيف يردد المستشرقون شبهة عفا عنها الدهر وطوتها السنون وبين الله فسادها قبل أربعة عشر قرناً من الزمان ثم جاءوا يلوكونها ويدندنون بها تشويهاً للإسلام وتشكيكاً فى نبيه صلى الله عليه وسلم(٥).

وهل ياترى يغيب الفرق بين العاقل والذى اختل عقله؟

---

(١) انظر : السيرة النبوية لابن هشام ١٧٩/١ فى رميهم النبى بالجنون . والآية هى ٢٩ من سورة الطور .
(٢) انظر : كتاب النبوات ص٣١٤ ، تفسير القرآن العظيم ٣١٠/٣ . والآية هى ٩ من سورة الفرقان .
(٣) سورة الشعراء : آية ٢٢١-٢٢٣
(٤) تفسير القرآن العظيم ٣٥٢/٣-٣٥٣ .
(٥) انظر : نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فى القرآن ص٢٢٨ .

إن التسوية بينهما من التسوية بين الأضداد المختلفة التى يستحيل أن يختلط أمرها على عاقل ، إن الذى يجعل العاقل مجنوناً كالذى يجعل المجنون عاقلاً ، وهذا من أبطل الباطل ، فكيف يجعل النبى الذى هو أكمل البشر عقلاً مجنوناً ، سبحانك هذا بهتان عظيم(١).

وهل يعقل أن تصدر كل هذه الشرائع السامية الرفيعة والتشريعات التى حلت أعتى مشاكل الحياة ، بل وهذا القرآن الذى أعجز عقلاء البشر . عن رجل خولط عقله فلايعى مايقول؟

قال د. حسن عتر :

"ولو نظرت فى الشريعة الإسلامية ومافيها من حكم ومواعظ وأحكام تشريعية سامية وأخلاق رفيعة لأثار فيك ذلك تساؤلاً هل يصدر كل ذلك التعقل والحكمة عن الجنون واختلال المشاعر؟ ومتى كان الجنون منبع الحكمة ، والفساد مصدر الخير؟ ثم انظر فى سيرة سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم هل تراه كان مبتلى بالغفلة والبلاهة فيتراءى له مايتراءى؟ تراه بنى مجتمعاً قوياً على دعائم وطيدة ، وقاد معارك النصر والظفر ،وأسس دولة على أسس منيعة منحتها قوة للاتساع بعده من جبال الصين شرقاً الى حدود فرنسا غرباً؟

إن محمداً وكافة الرسل قبله ، قد اشتهروا بالتعقل والنباهة والفطنة قبل النبوة وبعدها . يعترف لهم بهذا أتباعهم وأعداؤهم على السواء .

وهنا نتيقن أن مثله فى نباهته ويقظته وذكائه لاتختلط عليه الأمور ولاتقلبه الأوهام والهواجس"(٢).

لقد كان صلى الله عليه وسلم أكمل الرجال عقلاً ، وأشدهم فطنة ، وأصوبهم قولاً ، وأحكمهم فعلاً . وقد تحدى الله المشركين الذين عرفوه وعايشوه وخبروا حاله أن يثبتوا عليه جنوناً أو اختلال عقل ، وذلك فى

---

(١) انظر : كتاب النبوات ص٢٣٦ .
(٢) نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فى القرآن ص٢٢٧ .

قوله : {قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا مابصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد}(١).

يقول ابن كثير رحمه الله :

"يقول تبارك وتعالى قل يامحمد لهؤلاء الكافرين الزاعمين أنك مجنون {إنما أعظكم بواحدة} أى إنما آمركم بواحدة وهى "أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا مابصاحبكم من جنة" أى تقوموا قياماً خالصاً لله عز وجل من غير هوى ولاعصبية فيسأل بعضكم بعضاً هل بمحمد من جنون فينصح بعضكم بعضاً (ثم تتفكروا) أى ينظر الرجل لنفسه فى أمر محمد صلى الله عليه وسلم ويسأل غيره من الناس عن شأنه إن أشكل عليه . ويتفكر فى ذلك"(٢).

وقال القاسمى رحمه الله :

"وقوله تعالى : {مابصاحبكم من جنة} أى جنون . مستأنف منبه لهم على أن ماعرفوه من رجاحة عقله كاف فى ترجيح صدقه . والتعبير عنه صلى الله عليه وسلم بـ(صاحبهم) للإيماء أن حاله معروف مشهور بينهم ، لأنه نشأ بين أظهرهم معروفاً بقوة العقل ، ورزانة الحلم وسداد القول والفعل"(٣).

وأما زعمهم بأنه مصاب بالصرع، فهذا زعم باطل وخطأ علمى فاحش فإن أعراض الصرع تختلف كل الاختلاف عما كان يعترى النبى صلى الله عليه وسلم عندما يأتيه الوحى . فالصرع مرض مصحوب باصفرار الوجه وبرودة فى الأطراف ، واصطكاك فى الأسنان ، ويتعطل تفكير المصروع وإدراكه تماماً ويدخل فى غيبوبة كاملة ، فلايدرى أثناء نوبته مايدور حوله ، وتعتريه تشنجات ، وينسى ماحدث له خلال ذلك نسياناً تاماً ، وهذا بخلاف أمره صلى الله عليه وسلم ، فلايظهر عليه شىء مما ذكر من أعراض هذا

---

(١) سورة سبأ : آية ٤٦

(٢) تفسير القرآن العظيم ٥٤٣/٣ ، وانظر : الجامع لأحكام القرآن ٣١١/١٤-٣١٢ .

(٣) محاسن التأويل ٤٩٦٦/١٤ .

المرض عند نزول الوحى عليه ، بل يظل فى تمام وعيه وكامل قوته العقلية ، قبل وأثناء وبعد الوحى ، كما قال فى حديثه : "فيفصم عنى وقد وعيت عنه ماقال"(١)(٢).

وقد كان جبريل عليه السلام يأتى إلى النبى صلى الله عليه وسلم فى صورة الرجل فيحادثه أمام جمع من الحضور وهم يشاهدون ذلك كما ثبت ذلك من حديث عمر(٣)وعائشة(٤)رضى الله عنهما .

لقد عاش النبى صلى الله عليه وسلم طيلة حياته فى صحة نفسية وعصبية وعقلية دائمة ، لم يطرأ عليه أى خلل فى عقله أو أعصابه فى يوم من الأيام ، بل كان كمال عقله مضرب الأمثال .

وليس أدل على انتفاء هذه الفرية وبطلانها ، من كفاحه المرير فى سبيل نشر دعوته ، ومن سياسته الحكيمة وخططه الحربية وتنظيماته

---

(١) قطعة من حديث أخرجه البخارى فى صحيحه . من حديث عائشة رضى الله عنها كتاب بدء الوحى (١) ، باب (٢) ، ٢/١-٣ ، وفى كتاب بدء الخلق (٥٩) ، باب ذكر الملائكة صلوات الله عليهم (٦) ، ٨٠/٤ .
وأخرجه مسلم فى صحيحه ، كتاب الفضائل (٤٣) ، باب عرق النبى صلى الله عليه وسلم فى البرد (٢٣) برقم ٢٣٣٣ ، ١٨١٦/٤-١٨١٧ .
فيفصم : أى يقلع . والفصم هو أن يتصدع الشىء فلايبين .
النهاية ٤٥٢/٣ ، وانظر : الفائق ١٢٢/٣ .

(٢) انظر : النبأ العظيم ص٧٢ ، محمد صلى الله عليه وسلم فى كتابات المستشرقين ص١١٣-١١٤ ، آراء المستشرقين حول القرآن الكريم ٤٠١/١ .

(٣) انظر : صحيح مسلم ، كتاب الإيمان (١) ، باب بيان الإيمان والإسلام (١) برقم ٨ ، ٣٦/١-٣٨ . وهو حديث سؤال جبريل عليه السلام النبى صلى الله عليه وسلم عن الإسلام والإيمان والإحسان .

(٤) روى البخارى بسنده إلى مسروق قال : قلت لعائشة رضى الله عنها فأين قوله : {ثم دنا فتدلى.فكان قاب قوسين أو أدنى} (سورة النجم : آية ٨،٩) قالت : ذاك جبريل كان يأتيه فى صورة رجل وإنه أتاه هذه المرة فى صورته فسد الأفق" . كتاب بدء الخلق (٥٩) ، باب إذا قال أحدكم آمين (٧) ، ٨٤/٤ .

الاجتماعية ، فلو كان مصاباً بالانهيار العصبى كما يزعمون ، فهل يقوى على مثل هذا النضال الطويل وهل يؤثر عنه تلك السياسة البارعة والتنظيمات الدقيقة(١).

يقول الأستاذعبد الكريم الخطيب :

"أمجنون مصروع يبنى دولة ، وينشىء نظاماً ، ويقيم دنيا ، ويعيش فى أجيال الناس منذ قام إلى اليوم دون أن يصاب بنكسة أو خلل؟ أمجنون مصروع يثبت لهذه العواصف العاتية المزمجرة وحيداً فى وجه أمة صحراوية النفوس صخرية الطباع ثم لايكون منه فى حال من الأحوال تخاذل أو ضعف حتى يحول هذه العواصف إلى أنسام عليلة وريح رخاء"(٢).

يقول المستشرق ماكس مايرهوف(٣):

"أراد بعضهم أن يرى فى محمد رجلاً مصاباً بمرض عصبى أو بداء الصرع ، ولكن تاريخ حياته من أوله إلى آخره ليس فيه شىء يدل على هذا كما أن ماقام به فيما بعد من التشريع والإدارة يناقض هذا القول"(٤).

وأما زعمهم بأنه مصاب بمرض الهستريا وهو مرض عصبى عضال ، وراثى يكثر فى النساء ، من أعراضه شذوذ فى الخلق ، وضيق فى التنفس

---

(١) انظر : الأدلة على صدق النبوة المحمدية ص٤٥٥ .

(٢) النبى محمد ص١٣٩ .

(٣) مستشرق ألمانى . من كبار أطباء العيون العالميين ، وفى طليعة مؤرخى الطب العربى ، تعد اكتشافاته فيه وكتابته عنه ، بالفرنسية والإنجليزية والألمانية مرجعاً دقيقاً وافياً . سكن مصر وانتخب نائباً لرئيس المعهد المصرى والجمعية الطبية المصرية . توفى بالقاهرة سنة ١٩٤٥م .
من آثاره : "فصلاً فى حياة حنين بن إسحاق" . نشر "شرح أسماء العقار" لموسى ابن عبد الله القرطبى وغير ذلك .
انظر : المستشرقون ٧٦٦/٢-٧٦٨ ، الأعلام ٢٥٦/٥-٢٥٧ .
وانظر ترجمته فى : المستشرقون الألمان ص١٤١-١٤٤ .

(٤) الأدلة على صدق النبوة المحمدية ص٤٥٥ .
نقلاً عن : الإسلام والرسول فى نظر منصفى الشرق والغرب ص١٦٢ ، والقرآن والمستشرقون ص٢٦-٢٧ .

والصدر ، واضطراب فى الهضم ، وقد يحدث اضطراباً فى اليدين والرجلين ، إلى حد الشلل فى بعض أعضاء المريض ، فإذا تقدم المرض وصل إلى حالة من التشنج يسبقها بكاء وهذيان ، وقد يصل إلى حد الإغماء ، وقد يستمر الحال بالمريض حتى يرى أشباحاً وأعداء تحاربه وتقاتله ، ويسمع أصواتاً لاحقيقة لها ، فيتحرك حركات مضطربة ، ويقفز من مكان إلى آخر بصورة مرعبة(١).

فهذا الزعم لايستند إلى الحقيقة بأى وجه من الوجوه ، وواقع النبى صلى الله عليه وسلم وحاله يشهد ببطلان ذلك ، وبراءته عنه ، فهو صاحب الطبع الرصين ، والنفس الهادئة ، والخلق الحسن ، وكان صلى الله عليه وسلم صبوراً عند الغضب ، حليماً عند المقدرة ، وكيف لايكون كذلك وهو الذى قالت عنه عائشة رضى الله عنها عندما سئلت عن خلقه ، فقالت : "فإن خلق نبى الله صلى الله عليه وسلم كان القرآن"(٢). وفى حديث معاوية بن الحكم السلمى عندما تكلم فى الصلاة ، قال : "فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فبأبى هو وأمى! مارأيت معلماً قبله ولابعده أحسن تعليماً منه . فوالله ماكهرنى(٣)ولاضربنى ولاشتمنى . قال : "إن هذه الصلاة لايصلح فيها شىء من كلام الناس . إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن"(٤).

فهل يعقل لمن اتصف بهذه الخصال الكريمة والسجايا الحميدة أن يكون مصاباً بمرض يحدث الرعب فى قلب من يراه؟

---

(١) انظر : آراء المستشرقين حول القرآن ص٤٠٢-٤٠٣ ، المعجم الفلسفى ٥٢٠/٢ .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه ، كتاب صلاة المسافرين (٦) ، باب جامع صلاة الليل (١٨) برقم ١٣٩ ، ٥١٣/١ .

(٣) كهرنى : أى نهرنى . يقال كهره إذا زبره واستقبله بوجه عبوس .
انظر : الفائق ٢٨٨/٣ ، النهاية ٢١٢/٤ .

(٤) أخرجه مسلم فى صحيحه ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة (٥) ، باب تحريم الكلام فى الصلاة (٧) برقم ٥٣٧ ، ٣٨١/١-٣٨٢ .

إن المستشرقين لم يجدوا مايتشبثون به من مطاعن حول نبى الإسلام صلى الله عليه وسلم ، فراحوا يهرفون بما لايعقلون ، وينعقون بما لايدرون ، فكانت مزاعمهم أضحوكة للولدان ، يعرف فسادها كل من وقف عليها ، إلا من طمس الله بصيرته فلايعى ولايفقه . {ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً}(١).

وأما زعم لبون أنه مصاب بالهوس ، فالجواب عما سبق جواب عنه ولكن من المستحسن أن نورد ماذكره د. التهامى نقرة فى رده عليه إذ يقول :

"أليس من مجازفة القول أن يعد "لبون" محمداً صلى الله عليه وسلم من المتهوسين ، ولم يثبت تاريخياً قبل البعثة ولابعدها ، أنه كان من ذوى الوساوس أو السلوك الشاذ والتصرف الغريب ، أو نحو ذلك من الانحرافات النفسية التى لابد لها من انعكاسات وردود فعل . ألم تشهد خديجة وتعرفه بحقيقته لما جاءه الحق وهو فى غار حراء لتدفع عنه الخوف مما رأى وسمع؟

"كلا والله لايخزيك الله أبداً . إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق"(٢).

فما أبعد هذا الكمال الإنسانى عن الهوس الذى قد يملى على صاحبه مواقف غريبة ، وأفعالاً ينبو عنها الذوق السليم!

ولكنه الجهل بحقيقة الدين واستعمال منهج النقد العلمى فى موضوعه ويقول :

"وهل الذين آمنوا به منذ أربعة عشر قرناً واتبعوا الدين الذى جاء به - من قادة الفكر على امتداد العصور - كلهم أغبياء مغرورون ، لم يميزوا بين الحق والباطل ، والصدق والكذب؟

والعلم وحده لايستطيع أن يقدم تفسيراً مقنعاً لهذا التحول الجذرى ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم إلا على ضوء الإيمان بما تضمنه هذا الوحى

---

(١) سورة الكهف : آية ١٧

(٢) سبق تخريج الحديث . انظر ص ٣٦٢

السماوى الذى ظل يقودها على مايزيد من عشرين عاماً ولم يخلف ماوعده ، ولاكذبه فيما أخبر به من أنباء الغيب .

وأى فرق بين تقولات المشركين فى الجاهلية وتفسيرهم لظاهرة الوحى عندما ينزل على الرسول ، ومايناله عند التلقى من جهد وعناء بالجنون أو السحر تارة ، وبالشعر أو الكهانة أخرى ، وبين تفسير المستشرقين الأكاديميين للوحى من الوجهة النفسية أو العقل الباطن أو نحو ذلك مما اخترعوه وانتحلوه كالهوس الذى يزعمه لبون"(١).

وكونه مصاباً بنوبات انفعالية تطغى عليه وتسيطر عليه كما يدعى "نولد كه" ، فتلك شبهة لاتخرج عما سبق ذكره فى شأن الوحى النفسى ، فليس هنالك انفعالات ولاهيجان أحاسيس عند نزول الوحى عليه صلى الله عليه وسلم ، بل يكون فى قمة الهدوء وسلامة الأعصاب ورزانة الطبع لاكما يقول "نولد كه"(٢).

---

(١) مناهج المستشرقين فى الدراسات العربية الإسلامية ٢٩/١،٣٠ .
(٢) انظر : آراء المستشرقين حول القرآن العظيم ٣٨٩/١ .

(ب) المحور الثانى :

وهو أن الوحى أمر خارج عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو أيضاً مفسر عندهم بعدة تفسيرات :

(١) أن الوحى مقتبس من اليهودية والنصرانية :

لقد زعم المستشرقون أن الوحى انبثق فى الدرجة الأولى عن اليهودية والنصرانية ولكن محمد كيفه تكيفاً بارعاً وفقاً لمتطلبات شعبه الدينية (١).

ويشرح لنا جولد زيهر كيف تم له ذلك ، وكيف أصبحت تعاليم اليهودية والنصرانية وحياً تبناه محمد صلى الله عليه وسلم يقول :

"فتبشير النبى العربى ليس إلا مزيجاً منتخباً من معارف وآراء دينية ، عرفها أو استقاها بسبب اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية وغيرها التى تأثر بها تأثراً عميقاً ، والتى رآها جديرة بأن توقظ عاطفة دينية حقيقية عند بنى وطنه ، وهذه التعاليم التى أخذها عن تلك العناصر الأجنبية كانت فى رأيه كذلك ضرورية لتثبيت ضرب من الحياة فى الاتجاه الذى تريده الإرادة الإلهية.

لقد تأثر بهذه الأفكار تأثراً وصل إلى أعماق نفسه ، وأدركها بايحاء قوته التأثيرات الخارجية ، فصارت عقيدة انطوى عليها قلبه ، كما صار يعتبر هذه التعاليم وحياً إلهياً ، فأصبح - بإخلاص - على يقين بأنه أداة لهذا الوحى "(٢).

وقد وصل الأمر ببعضهم وهو ماحكاه فيليب حتى ، أن زعموا أن الإسلام برمته بدعة نصرانية أكثر منه ديناً جديداً (٣).

ولم يخف جولد زيهر قوله فى أن النبى صلى الله عليه وسلم قد تتلمذ على رهبان النصارى وأحبار اليهود الذين كانوا أساتذة له (٤).

---

(١) انظر : تاريخ الشعوب الإسلامية ص٦٩ .
(٢) العقيدة والشريعة ص٥-٦ الأولى .
(٣) انظر : تاريخ العرب ١٧٦/١ .
(٤) انظر : العقيدة والشريعة ص١٣-١٤ الأولى .

وكيف تم له الاتصال بأولئك؟

يرى بروكلمان أن ذلك تم من خلال رحلاته(١).

ويضيف جولد زيهر أن ذلك تم أيضاً عن طريق التقاليد أو الروايات المتواترة المحرفة ، وعن ابتداعات المسيحية الشرقية(٢).

وقد حاول المستشرقون إرجاع كثير من شعائر الإسلام إلى اليهودية أو النصرانية أو الاثنين معاً(٣).

فبعد أن هاجر النبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة ووجد بعض قبائل اليهود يقطنونها ، وطمع فى إسلامهم فأصبح يجاريهم فى شعائرهم ليوفق بين الدينين اليهودى والإسلامى .

قال بروكلمان :

"وتأثرت اتجاهات النبى الدينية فى الأيام الأولى من مقامه فى المدينة، بالصلة التى كانت بينه وبين اليهود . وأغلب الظن أنه كان يرجو ، عقب وصوله إلى المدينة ، أن يدخل اليهود فى دينه . وهكذا حاول أن يكسبهم من طريق تكييف شعائر الإسلام بحيث تتفق وشعائرهم فى بعض المناحى .

فشرع صوم العاشوراء وهو اليوم العاشر من المحرم ، على غرار الصوم اليهودى فى يوم الكفار الذى يقع عندهم فى العاشر من شهر تشرى ، وبينما كان المؤمنون فى مكة لايصلون إلا مرتين فى اليوم ، أدخل فى المدينة على غرار اليهودية أيضاً ، صلاة ثالثة عند الظهر ... كذلك جعل يوم الجمعة يوم صلاة عامة على غرار "السبت" اليهودى ، ولكنه خالف اليهود حين سمح للمؤمنين بأن ينصرفوا فى ذلك النهار ، إلى شؤونهم الدنيوية ، قبل أداء الصلاة وبعدها"(٤).

---

(١) انظر : تاريخ الشعوب الإسلامية ص٣٤ .

(٢) العقيدة والشريعة ص١٨ الأولى .

(٣) انظر : العقيدة والشريعة ص١٧-١٨ الأولى ، تاريخ الشعوب الإسلامية ص٤٧-٤٨ ٧١،٧٩ ، تاريخ العرب ص١٨١،١٨٢،١٨٣ ، ملوك الطوائف ص٤٠٥ .

(٤) تاريخ الشعوب الإسلامية ص٤٦-٤٧ .

وقد ادعى بعض المستشرقين أن النبى صلى الله عليه وسلم قد أخذ تعاليم الوحى عن بعض الشخصيات النصرانية ، من أولئك :

(أ) بحيرى الراهب(١):

قالوا : إن محمداً لقى بحيرى فى مدينة بصرى (٢)بالشام ، وكان نسطورياً(٣)من أتباع آريوس(٤)فى التوحيد ، وينكر الوهية المسيح وعقيدة التثليث (٥)، وكان عالماً فلكياً منجماً وحاسباً وساحراً ، فتعلم منه محمد

---

(١) بحيرى :
راهب . قيل إنه كان يهودياً من يهود تيماء ، وقيل : كان نصرانياً من عبد القيس يقال له جرجس . لقيه النبى صلى الله عليه وسلم قبل البعثة .
انظر : أسد الغابة ١٩٩/١ ، البداية والنهاية ٢٢٩/٢-٢٣٠ ، الإصابة ١٧٦/١-١٧٧ .

(٢) بصرى : موضع بالشام وهى التى وصل إليها النبى صلى الله عليه وسلم فى رحلته مع عمه .
انظر : معجم البلدان ٤٤١/١ ، مراصد الاطلاع ٢٠١/١ .

(٣) نسطور هو بطريرك الاسكندرية سنة ٤٣١م . وهو الذى قال بأن مريم لم تلد إلا الإنسان ، فهى بذلك أم الإنسان وليست أماً لإله ، وأتباعه هم النساطرة ، ومذهبهم وضع الأساس للقول بطبيعتين فى المسيح .
انظر : الموسوعة الميسرة ص٥٠٢-٥٠٣ ، الملل والنحل ٢٢٤/١ .

(٤) آريوس : كان قسيساً بالاسكندرية . وكان فى زمن قسطنطين الأول . وهو القائل بأن الله واحد ، سماه أباً، وأن المسيح كلمة الله وابنه على طريق الاصطفاء ، وهو مخلوق قبل خلق العالم ، وهو خالق الأشياء، وزعم أن لله روحاً مخلوقة أكبر من سائر الأرواح ، وأنها واسطة بين الأب والابن ، تؤدى إليه الوحى . وقد تبرأ منه النصارى لمخالفته لهم فى مذهب التثليث .
انظر : الملل والنحل ٢٢٧/١-٢٢٨ ، الفصل فى الملل والأهواء والنحل ٤٨/١ ، الموسوعة الميسرة ص٥٠٢ .

(٥) عقيدة التثليث :
وهى الركن الأول الذى يبنى عليه النصارى عقائدهم . ومع اختلاف مللهم إلا أنهم مجمعون على التثليث . وهواعتقاد وجود ثلاثة آلهة وهى الأب (الله) والابن (عيسى) وروح القدس (جبريل) أو هى الأب والابن ومريم . ويقررون ذلك بما يسمى الأقانيم الثلاثة،والأقنوم يطلق على الجوهر والأصل والشخص . ويفسرونه بأنه وحدانية فى تثليث ، وتثليث فى وحدانية . وبين فرق النصارى اختلاف شديد فى تقرير ذلك . =

عقيدته ، بل زعم بعضهم أنه كان مصاحباً له بعد رسالته ، وأن محمداً ماحرم الخمر إلا لأنه قتل أستاذه بحيرى وهو سكران(١).

(ب) ورقة بن نوفل(٢):

قال الحداد(٣):

"والسر الكبير فى ثقافة محمد الكتابية والإنجيلية وجود العالم المسيحى ورقة بن نوفل من بنى أسد ابن عم السيدة خديجة فى جوار النبى ، وهو الذى زوجه ابنة عمه ، فقد أجمعت الآثار على أن ورقة تنصر ، وكان يترجم التوراة والإنجيل إلى العربية ، فهو إذن عالم مسيحى كبير ، وقد عاش محمد فى جواره خمسة عشر عاماً قبل مبعثه . ألا تكفى هذه المدة لنابغة العرب محمد بن عبد الله لكى يأخذ عنه شيئاً من علوم التوراة والإنجيل ؟"(٤)

وقال وات :

= انظر : الشامل فى أصول الدين ص٥٧٥-٥٧٦ ، الملل والنحل ٢٢٦/١-٢٢٧ ، الموسوعة الميسرة ص٥٠٣-٥٠٤ ، عقيدة التثليث والصلب وموقف الإسلام منها ص٧٦١ ، تحفة الأريب فى الرد على الصليب ص١٥٥-١٥٦ ، العلمانية نشأتها وتطورها ص٣٨ .

(١) الوحى المحمدى ص٩٥-٩٦ بتصرف .

(٢) ورقة بن نوفل :
هو ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصى القرشي الأسدى ابن عم خديجة رضى الله عنها زوج النبى صلى الله عليه وسلم . قرأ الكتب السابقة وتنصر . أقر بنبوة النبى صلى الله عليه وسلم ولكنه مات قبل الدعوة على الصحيح ذكره جماعة من العلماء فى الصحابة .
انظر : أسد الغابة ٤٤٧/٥-٤٤٨ ، البداية والنهاية ٩/٣-١١ ، الإصابة ٦٣٣/٤-٦٣٥ .

(٣) الحداد :
لم أقف له على ترجمة .

(٤) مناهج المستشرقين فى الدراسات العربية الإسلامية ٣٧/١ نقلاً عن القرآن والكتاب للحداد ١٠٥٩/٢-١٠٦٠ .

"من الأفضل الافتراض بأن محمداً كان قد عقد صلات مستمرة مع ورقة منذ وقت مبكر وتعلم أشياء كثيرة ، وقد تأثرت التعاليم الإسلامية اللاحقة كثيراً بأفكار ورقة"(١).

(ج) الحاشية اليهودية والمسيحية المسلمة :

قال الحداد :

"ونجد فى المدينة فى معية النبى حاشية مسيحية ويهودية قد أسلمت أو سايرت الإسلام ، نجد بلالاً الحبشى مؤذن النبى ، وصهيباً الرومى المسيحى الثرى ، وسلمان الفارسى المسيحى الأصل ، وعبد الله بن سلام اليهودى الوحيد الذى أسلم فى المدينة مع كعب الأحبار . وهل كان حديث هذه الحاشية الكريمة سوى التوراة والإنجيل؟ إن ذلك حجة قاطعة على أن بيئة النبى والقرآن كانت كتابية من كل نواحيها ، وإن ثقافة محمد والقرآن كتابية فى كل مظاهرها ، وذلك بمعزل عن الوحى والتنزيل"(٢).

(١) مناهج المستشرقين فى الدراسات العربية : الإسلامية ١/٣٧-٣٨ .
(١) المرجع السابق ١/١٥٠ .

ويجاب عن ذلك بما يلى :

هذه أقوال ومزاعم عارية عن الصحة لم تستند إلى دليل ، ولم تقم على أساس ، وإنما بنيت على التشكيك والتعصب كمزاعمهم السابقة ، وقد تضافرت الأدلة على بطلانها وعدم صحتها ، وإليك طرفاً من ذلك :

(١) لو تلقى صلى الله عليه وسلم شيئاً عن أهل الكتاب لنقل ذلك أتباعه الذين كانوا أحرص الناس على نقل أخباره وآثاره صلى الله عليه وسلم ، ولكنهم لم يفعلوا فعلم فساده(١).

(٢) لو ثبت ماذكر لاتخذه أعداؤه من المشركين حجة لهم للنيل منه والطعن فيه ، وهم الذين تعلقوا بأوهى الشبه وأضعفها كزعمهم أنه تعلم ذلك وتلقاه من رومى حداد أعجمى ، فرد الله عليهم بقوله : {ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين}(٢).

ولكان اليهود والنصارى أعرف الناس بهذا ، ولما سكتوا أبداً ، وهم الذين بذلوا كل مايملكون من جهد للنيل من هذا الدين وإخماد أنفاسه ، وقد كانت هنالك علاقة تربطهم مع المشركين ، وقد التقوا سوياً فى عداوتهم للنبى صلى الله عليه وسلم ، فكيف صبروا على ذلك؟ ولماذا لم يخبروا أصدقاءهم بهذا المطعن الخطير ، ولماذا لجأوا إلى عرض الأسئلة عليه صلى الله عليه وسلم للتثبت من نبوته وهم يعلمون أن دينه مأخوذ من دينهم؟(٣)

إن الذى يريد أن ينقد أمراً معيناً عليه قبل ذلك أن ينظر إلى مايترتب على نقده من ملابسات ومعارضات حتى لايصبح نقده نقداً عليه

---

(١)،(٢) انظر : الوحى المحمدى ص١٢٢ .
والآية هى ١٠٣ من سورة النحل .

(٣) انظر : الإسلام والمستشرقون ص٢٠٦ .

وطعنه طعناً فيه كهؤلاء المستشرقين الذين ينقدون نقداً مكشوفاً ويكذبون كذباً واضحاً لايخفى على من له أدنى مسكة من عقل .

(٣) إن النبى صلى الله عليه وسلم لم يثبت له أن رأى التوراة والإنجيل ، ولم يقرأ فيهما وهو الأمى الذى لايعرف قراءة ولاكتابة(١).

ولم يثبت عنه أنه تلقى عن أحد من علماء اليهود أو النصارى أو غيرهم ، والذين لقيهم لم يتصل بهم صلة تمكنه من الأخذ عنهم(٢).

بل ونصوص القرآن صريحة فى أنه لم يكن يعرف شيئاً من أخبار الرسل وقصصهم قبل أن يأتيه الوحى ، قال له سبحانه وتعالى عقب قصة نوح عليه السلام : {تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ماكنت تعلمها أنت ولاقومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين}(٣). وقال عقب قصة يوسف عليه السلام : {ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وماكنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون}(٤). وقال عقب قصة موسى عليه السلام : {وماكنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر وماكنت من الشاهدين. ولكنا أنشأنا قروناً فتطاول عليهم العمر وماكنت ثاوياً فى أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين}(٥).

وقال عقب قصة زكريا عليه السلام وولادة مريم : {ذلك من أنباءالغيب نوحيه إليك وماكنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وماكنت لديهم إذ يختصمون}(٦).

---

(١) انظر : الرسول صلى الله عليه وسلم فى كتابات المستشرقين ص١٣٧ .

(٢) انظر : المرجع السابق ص٢٢١ ، مناهج المستشرقين فى الدراسات العربية الإسلامية ١٦٥/١ .

(٣) سورة هود : آية ٤٩

(٤) سورة يوسف : آية ١٠٢

(٥) سورة القصص : آية ٤٤،٤٥

(٦) انظر : الوحى المحمدى ص١٢٣ . والآية هى ٤٤ من سورة آل عمران .

ولـو ثبت أنه اطلع على تلك الكتب لردها لما فيهـا من باطل وانحراف عن الحق ، وقد شهد بذلك منصفوهم .

قال المفكر الفرنسى الكونت هنرى دى كاسترى :

"ولقد يستحيل أن يكون هذا الاعتقاد وصل إلى النبى محمد من مطالعة التوراة والإنجيل (يعنى قبل بعثته) إذ لو قرأ تلك الكتـب لردها ، لاحتوائها على مـذهب التثليـث ، وهو منـاقض لفطـرته ومخالف لـوجدانه عنـد خلقته. فظهـور هذا الاعتقاد فى جزيرة العـرب بواسطة محمد دفعـة واحدة هـو أعظم مظهـر فى حيـاته كما أنه بذاته أكبر دليـل على صدقه فى رسـالته وأمـانته فى نبوته"(١).

(٤) لقـد كشف الله بهذا الوحى الـذى أنزله على الرسـول صلى الله عليه وسلم أسرار أهل الكتاب ، وفضحهم ، وهتك أستارهم ، وبين انحراف عقـائدهم ، وناصبهـم العـداء ، وذمهـم ذماً منكـراً ، وذلـك فى آيات كثيرة منهـا قـوله تعالى : {أفتطمعـون أن يؤمنوا لكـم وقـد كان فريق منهـم يسمعـون كلام اللـه ثم يحرفـونه مـن بعـد مـاعقلوه وهـم يعلمون}(٢).

وقـال سبحانه : {ياأهل الكتـاب لاتغلوا فى دينكم ولاتقـولوا على الله إلا الحق إنما المسيـح عيسـى ابن مـريم رسول الله وكلمتـه ألقـاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسـله ولاتقولواثلاثة انتهوا خيراً لكـم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له مافى السموات ومافى الأرض وكفـى بالله وكيلاً}(٣).

وقال سبحانه : {قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عنـد الله من لعنه اللـه وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبـد الطاغوت أولئك شر مكاناً وأضل عن سواءالسبيل}(٤).

---

(١) الإسلام والمستشرقون ص٣١٥ .
(٢) سورة البقرة : آية ٧٥ ، وانظر الآيات بعدها .
(٣) سورة النساء : آية ١٧١
(٤) سورة المائدة : آية ٦٠ ، وانظر الآيات بعدها إلى ٨١ .

وقال تعالى : {فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به ولاتزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلاً منهم فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين}(١).

فلو أنهم كانوا معلمين له صلى الله عليه وسلم لمدحهم وجاملهم وتودد إليهم وتقرب منهم ، ولم يقف منهم هذا الموقف العدائى ، حتى لايفضحوا أمره ، ويكشفوا حاله(٢).

(٥) أين هذه الرحلات التى يتكلم عنها جولد زيهر وبروكلمان والتى التقى فيها النبى صلى الله عليه وسلم بأحبار اليهود ورهبان النصارى وأخذ عنهم؟ ومتى كانت؟ وأين تم هذا اللقاء؟ وكم مدة قضاها ليتلقى تلك الدروس حتى يهضمها ويستوعبها؟ ومن هم الذين أخذ عنهم؟ وماذا أخذ؟

أسئلة يعجز المستشرقون عن إجابتها ، لأنها لاإجابة لها البتة ، إذ الإجابة عنها من صنع الخيال ، وترهات الأفكار .

إن النبى صلى الله عليه وسلم لم تثبت له إلا رحلتان كلتاهما إلى الشام إحداها مع عمه أبى طالب فى تجارة له وهو طفل صغير ، وقد أعاده عمه إلى مكة قبل إتمام رحلته ، والثانية فى تجارة لخديجة بنت خويلد رضى الله عنها وهو شاب فى الخامسة والعشرين من عمره صحبة غلامها ميسرة، ولم يتجاوز سوق مدينة بصرى فى المرتين ، ولم يذهب يتعلم وإنما ذهب ليتاجر ، ومعه من يصحبه فى الرحلتين ، ولم يذكروا شيئاً من ذلك أبداً . ولماذا سكت طيلة هذه الفترة من عمره حتى أظهر ذلك عندما بلغ الأربعين ، وتلك مدة كافية لنسيان ماحصل عليه عرضاً؟(٣)

---

(١) سورة المائدة : آية ١٣ ، وانظر الآيات بعدها حتى آية ١٨ .

(٢) انظر الأدلة على صدق النبوة المحمدية ص٤٢٩،٤٣٠ .

(٣) انظر : الوحى المحمدى ص١٠١ ، نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فى القرآن ص٢١٦ .

(٦) إن الدين اليهودى والمسيحى لم يكونا نافقين ذلك الحين فى جزيرة العرب ، لعدم تقبل العرب لهما لما فيهما من التعقيد والغموض والقومية والتعصب المقيت .

يقول المستشرق دوزى[(١)]:

"أما فى أواسط بلاد العرب ، وفى قلب جزيرتهم حيث نبتت جرثومة[(٢)] العربى القح[(٣)] وأرومته[(٤)]، فلم تنجح فيها الدعاية للدين المسيحى ، ولم نكن لنرى ثم إلا أثراً ضعيفاً له - إن لم نقل معدوماً .

وكان المسيحية فى ذلك الزمن - على وجه عام - بما تحويه من معجزات وبما فيها من عقيدة التثليث ، ومايتصل بذلك من رب مصلوب - قليلة الجاذبية ، بعيدة عن التأثير فى نفس العربى الساخر الذكى "[(٥)].

وقال : "وقد صارت اليهودية نفسها - فى زمن ما - دين اليمن الرسمى . على أنها ضعفت - على مرور الزمن - وقل إقبال العرب عليها ، لأن اليهودية لاتلائم إلا شعباً مختاراً ، أما أن تكون ديناً عاماً للناس قاطبة فلا! ذلك أنها ملأى بالشكايات والآمال الغامضة التى تعلق بها اليهود بعد أن خرب "بيت المقدس" وليس هذا مما تلائم طبيعته الشعب الطموح إلى المجد"[(٦)].

---

(١) دوزى :

هو رينهارت بيتر آندوزى ، مستشرق هولندى ، من أصل فرنسى . بروتستانتى المذهب ، كان من أعضاء عدة مجامع علمية ، وتعلم عدة لغات . عين أستاذاً للعربية فى جامعة ليدن . مات سنة ١٨٨٣م على خلاف فى ذلك .

من آثاره : "معجم دوزى" ، "تاريخ المسلمين فى أسبانية" ، "ملوك الطوائف ونظرات فى تاريخ الإسلام" وغيرها .

انظر : الأعلام ٣٩/٣ ، المستشرقون ٦٥٨/٢-٦٦٠ .

(٢) جرثومة الشىء : أصله . القاموس المحيط ص١٤٠٥ .

(٣) القح : هو الخالص . المرجع السابق ص٣٠٠ .

(٤) أرومته : وتضم أصله . المرجع نفسه ص١٣٨٩ .

(٥) ملوك الطوائف ص٣٥٤-٣٥٥ .

(٦) المرجع السابق ص٣٥٦ .

فاذا كان هذا حكم المستشرقين على أديانهم، فكيف يجعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم مصدراً للتلقى ، وهو يعلم سلفاً أن قومه يرفضون التدين بها لأنها لاتواكب طموحاتهم ، وقد غصت بالعقائد الساذجة التى يسخرون منها؟

(٧) إن أحكام الشريعة الإسلامية كانت تأتى على حسب الحوادث والوقائع وكان صلى الله عليه وسلم يبين عند كل أمر مايحتاج إليه ، ويتوقف فى بعض الأمور لينتظر الوحى ، وفى ذلك دلالة على أنه صلى الله عليه وسلم لم يتلق علماً سابقاً من أهل الكتاب أو غيرهم ، ويلزم من تلقيه أن يكون على صلة دائمة بهم .

إن يعلى بن أمية رضى الله عنه كان يقول لعمر بن الخطاب رضى الله عنه : ليتنى أرى نبى الله صلى الله عليه وسلم حين ينزل عليه . فلما كان النبى صلى الله عليه وسلم بالجعرانة ، وعلى النبى صلى الله عليه وسلم ثوب قد أظل به عليه معه ناس من أصحابه ، فيهم عمر . إذ جاءه رجل عليه جبة صوف ، متضمخ بطيب فقال : يارسول الله! كيف ترى فى رجل أحرم بعمرة فى جبة بعدما تضمخ بطيب؟

فنظر إليه النبى صلى الله عليه وسلم ساعة ثم سكت . فجاءه الوحى ، فأشار عمر بيده إلى يعلى بن أمية : تعال . فجاء يعلى فأدخل رأسه ، فإذا النبى صلى الله عليه وسلم محمر الوجه يغط ساعة ، ثم سرى عنه ، فقال : "أين الذى سألنى عن العمرة آنفاً؟" فالتمس الرجل فجىء به . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : "أما الطيب الذى بك فاغسله ثلاث مرات . وأما الجبة فانزعها . ثم اصنع فى عمرتك ماتصنع فى حجك"(١).

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه، كتاب الحج (٢٥) ، باب غسل الخلوق ثلاث مرات (١٧) ١٤٤/٢ ، وفى كتاب المغازى (٦٤) ، باب غزوة الطائف (٥٦) ، ١٠٣/٥ ، وفى كتاب فضائل القرآن (٦٦) ، باب نزل القرآن بلسان قريش والعرب (٢) ، ٩٧/٦-٩٨ ، وأخرجه مسلم فى صحيحه ، كتاب الحج (١٥) ، باب مايباح للمحرم (١) برقم ١١٨٠ ، وسياق القصة له ٨٣٧/٢ .

(٨) ومن أقوى مايدل على أن الإسلام لم يكن مقتبساً من اليهودية أو النصرانية ، وجود الخلاف فى كثير من العقائد والأحكام . بل جعل الشارع الحكيم جنس مخالفتهم أمراً مقصوداً له ، ومن متطلبات الشرع، وهنالك كثير من الأحكام جعلت العلة فيها هى مخالفة اليهود أو النصارى (١).

من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : "إن اليهود والنصارى لايصبغون فخالفوهم"(٢).

وقال صلى الله عليه وسلم : "خالفوا اليهود فإنهم لايصلون فى نعالهم ولاخفافهم"(٣).

عن أنس إن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم ، لم يؤاكلوها ولم يجامعهن فى البيوت . فسأل أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم النبى صلى

---

(١) انظر : اقتضاء الصراط المستقيم ١/١٦٠،١٦١،١٧٣،١٧٧ .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، كتاب الأنبياء (٦٠) ، باب ماذكر عن بنى إسرائيل (٥٠) ، ٤/١٤٥-١٤٦ ، وفى كتاب اللباس (٧٧) ، باب الخضاب (٦٧) ، ٧/٥٧ .
وأخرجه مسلم فى صحيحه ، كتاب اللباس والزينة (٣٧) ، باب فى مخالفة اليهود فى الصبغ (٢٥) برقم ٢١٠٣ ، ٣/١٦٦٣ .

(٣) أخرجه أبو داود فى سننه من حديث شداد بن أوس ، كتاب الصلاة ، باب الصلاة فى النعال برقم ٦٥٢ ، ١/١٧٦ .
قال الشيخ ناصر الدين الألبانى : "وإسناده صحيح" . مشكاة المصابيح ١/٢٣٨ الهامش .
وأخرجه البيهقى فى سننه ، كتاب الصلاة ، باب سنة الصلاة فى النعلين ٢/٤٣٢ ، والحاكم فى المستدرك ، كتاب الصلاة . وقال : "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه" ووافقه الذهبى ١/٢٦٠ .
وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد من حديث أنس بن مالك . وزاد فيه : "وصلوا فى خفافكم ونعالكم" . وقال : رواه البزار ٢/٥٧ .
وقد نص الشيخ ناصر الدين الألبانى على صحة الحديث .
انظر : صحيح سنن أبى داود ١/١٢٨ ورقمه ٦٠٨ .

الله عليه وسلم . فأنزل الله تعالى : {ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلواالنساء فى المحيض} الى آخر الآية(١). فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اصنعوا كل شىء إلا النكاح" فبلغ ذلك اليهود فقالوا : "مايريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه"(٢)الحديث .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

"فهذا الحديث يدل على كثرة ماشرعه الله لنبيه من مخالفة اليهود ، بل على أنه خالفهم فى عامة أمورهم ، حتى قالوا : مايريد أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه"(٣).

فهذا إقرار من اليهود عليهم لعائن الله ، بمخالفة النبى صلى الله عليه وسلم لما كانوا عليه من شعائر حتى اشتهر ذلك بينهم ، ألا يكفى ذلك برهاناً ساطعاً على بطلان قول المستشرقين أنه كيف شعائر الإسلام لتتفق مع شعائر اليهود؟ أولم يكفهم أنه صلى الله عليه وسلم أخرج اليهود أذلاء حقيرين من المدينة وأجلاهم عنها لما نقضوا عهودهم معه ، وأبى عليهم أن يساكنوه فى بلد واحد؟(٤)

---

(١) سورة البقرة : آية ٢٢٢

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه ، كتاب الحيض (٣) ، باب الاضجاع مع الحائض فى لحاف واحد (٢) برقم ٣٠٢ ، ٢٤٦/١ .

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم ١٨٧/١ .

(٤) روى البخارى ومسلم بسنديهما إلى ابن عمر رضى الله عنهما قال : "حاربت النضير وقريظة فأجلى بنى النضير وأقر قريظة ومن عليهم حتى حاربت قريظة فقتل رجالهم وقسم نساءهم وأولادهم وأموالهم بين المسلمين إلا بعضهم لحقوا بالنبى صلى الله عليه وسلم فأمنهم وأسلموا وأجلى يهود المدينة كلهم بنى قينقاع وهم رهط عبد الله بن سلام ويهود بنى حارثة وكل يهود المدينة" . هذا لفظ البخارى كتاب المغازى (٦٤) ، باب حديث بنى النضير (١٤) ، ٢٢/٥ .
وصحيح مسلم ، كتاب الجهاد والسير (٣٢) ، باب إجلاء اليهود من الحجاز (٢٠) برقم ١٧٦٦ ، ١٣٨٧/٣-١٣٨٨ .

أما وقف المستشرقون على الآيات والأحاديث العديدة الذامة لليهود ، والهاتكة لستورهم؟ أفى ذلك أيضاً دلالة على أن النبى كان يتقرب منهم ويتزلف لهم لكسبهم وإرضائهم؟

إن النبى صلى الله عليه وسلم منذ أن بعث وحمل رسالة الإسلام ، نسخ الأديان السابقة ، وأبطل شرعيتها ، فلانجاة لأحد من الخلق يهودياً كان أو نصرانياً إلا بالتزام شرعه والسير على نهجه ، وهو القائل صلى الله عليه وسلم : "والذى نفس محمد بيده لايسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ولانصرانى ، ثم يموت ولم يؤمن بالذى أرسلت به ، إلا كان من أصحاب النار"(١).

فلابقاء لدين مع دينه صلى الله عليه وسلم ، ولاشريعة مع شريعته ، بل دينه هو الحاكم والمهيمن على كل الأديان . قال سبحانه وتعالى : {وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولاتتبع أهواءهم عما جاءك من الحق}(٢)الآية . وقال تعالى : {قل ياأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك السموات والأرض لاإله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون}(٣).

واستدلالهم بصوم عاشوراء على موافقة اليهود فيه أمور تحتاج إلى إيضاح :

أولاً : جاءت الأحاديث تترى عن النبى صلى الله عليه وسلم تأمر بصيام يوم عاشوراء ، وكان مفروضاً فى بادىء الأمر ، فلما شرع صوم رمضان ، أصبح صيامه مستحباً .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، كتاب الإيمان (١) باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته (٧٠) برقم ٢٤٠ ، ١٣٤/١ .

(٢) سورة المائدة : آية ٤٨

(٣) سورة الأعراف : آية ١٥٨

وذلك لقول عائشة رضى الله عنها : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بصيام يوم عاشوراء ، فلما فرض رمضان كان من شاء صام ومن شاء أفطر"(١).

ثانياً : وردت بعض الأحاديث الصحيحة التى يمكن أن يؤخذ منها موافقته صلى الله عليه وسلم لليهود . من ذلك : عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : "قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء فقال : ماهذا؟ قالوا : هذا يوم صالح ، هذا يوم نجى الله بنى إسرائيل من عدوهم فصامه موسى ، قال : فأنا أحق بموسى منكم فصامه وأمر بصيامه"(٢).

وعلة الموافقة هى التى بنى عليها المستشرقون شبهتهم السابقة .

ويجاب بالآتى :

(١) لقد ثبت أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يصوم عاشوراء فى الجاهلية قبل قدومه المدينة .

عن عائشة رضى الله عنها قالت : "كان يوم عاشوراء تصومه قريش فى الجاهلية ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصومه فلما قدم المدينة

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه ، كتاب الصوم (٣٠) ، باب صوم يوم عاشوراء (٦٩) ٢٥٠/٢ .
وأخرجه مسلم بلفظ مقارب ، كتاب الصيام (١٣) ، باب صوم يوم عاشوراء (١٩) ٧٩٢/٢ .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه ، كتاب الصوم (٣٠) ، باب صوم يوم عاشوراء (٦٩) ٢٥١/٢ .
وأخرج نحوه فى كتاب الأنبياء (٦٠) ، باب قول الله تعالى : {وكلم الله موسى تكليماً} (٢٤) ١٢٦/٤ ، وفى كتاب مناقب الأنصار (٦٣) ، باب إتيان اليهود النبى صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة (٥٢) ، ٢٦٩/٤ ، وفى كتاب التفسير (٦٥) ، تفسير سورة يونس (١٠) ، باب (١) ، ٢١١/٥-٢١٢ ، وفى تفسير سورة طه (٢٠) ، باب (٢) ، ٢٣٩/٥ .
وأخرج مسلم فى صحيحه نحوه ، فى الكتاب والباب السابقين برقم ١١٣٠ ، ٧٩٥/٢-٧٩٦ .

صامه وأمر بصيامه ، فلما فرض رمضان ترك يوم عاشوراء ، فمن شاء صامه ومن شاء تركه"(١).

وفى رواية : "وكان يوم تستر فيه الكعبة"(٢).

فدل بهذا على أنه صلى الله عليه وسلم لم يصمه موافقة لليهود واقتداء بهم ، فيكون قوله فى الحديث "فأنا أحق بموسى منكم" ، توكيداً لصومه ، وبياناً لليهود : أن الذى يفعلونه من موافقة موسى نحن أيضاً نفعله ، فنكون أولى بموسى منكم(٣).

(٢) إن النبى صلى الله عليه وسلم بين نوع مخالفة لليهود فى صيام عاشوراء عندما شرع صيام يوم قبله أو بعده .

فعن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "صوموا يوم عاشوراء ، وخالفوا فيه اليهود ، صوموا قبله يوماً أو بعده يوماً"(٤).

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه ، كتاب الصوم (٣٠) ، باب صوم يوم عاشوراء (٦٩) ٢٥٠/٢ .
وأخرجه بلفظ مقارب فى كتاب الحج (٢٥) ، باب قول الله تعالى : {جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس} (٤٧) ، ١٥٩/٢ ، كتاب الصوم (٣٠) ، باب وجوب صوم رمضان (١) ، ٢٢٦/٢ ، كتاب مناقب الأنصار (٦٣) ، باب أيام الجاهلية (٢٦) ، ٢٣٤/٤ ، كتاب التفسير (٦٥) ، تفسير سورة (٢) ، باب {ياأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام} (٢٤) ، ١٥٥/٥ .
وأخرجه مسلم فى صحيحه بلفظ مقارب ، فى الكتاب والباب السابقين برقم ١١٢٥ ، ٧٩٢/٢-٧٩٣ .

(٢) هذه الرواية أخرجها البخارى فى صحيحه فى كتاب الحج (٢٥) ، باب قول الله تعالى : {جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس} (٤٧) ، ١٥٨/٢-١٥٩ .

(٣) انظر : اقتضاء الصراط المستقيم ٤١٣/١-٤١٤ ، فتح البارى ٢٤٨/٤ .

(٤) أخرجه أحمد فى مسنده ٢٤١/١ ، والبيهقى فى سننه موقوفاً على ابن عباس ، كتاب الصيام ، باب صوم يوم التاسع ٢٨٧/٤ .
قال الشيخ الأرناؤوط : "وسنده صحيح" . زاد المعاد ٦٩/٢ الهامش .
وأخرج عبد الرزاق فى المصنف نحوه موقوفاً على ابن عباس أيضاً ، باب صيام يوم عاشوراء برقم ٧٨٣٩ ، ٢٨٧/٤ .

وعنـه قال : حين صام رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم عـاشوراء وأمر بصيامه ، قالوا : يارسول الله إنه يوم تعظمه اليهود والنصارى . فقال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : "فـإذا كان العام المقبـل ، إن شـاء الله ، صمنـا اليوم التاسع" ، قال : فلم يأت العـام المقبل ، حتى توفى رسـول اللـه صلى الله عليه وسلم(١).

فدل ذلك على مخالفته لهم فى صيامه(٢).

وأما زعمهم أن المؤمنين كانوا لايصلون فى مكة إلا مـرتين فى اليوم ، ثم أدخلـت صلاة ثالثـة عندمـا ذهبوا إلى المدينة على غـرار اليهـودية . فهو زعـم أوهـى من خيط العنكبـوت ، إذ الصلـوات الخمـس فـرضت بمكة ليلة الإسـراء حين عـرج بالنبى صلى اللـه عليـه وسلم إلى السمـاء ، ولاخلاف بين أهل العلم وأهل السير فى ذلك(٣).

وهــذا الـذى دلـت عليـه الأحاديث الصحيحـة التى وردت فى صفــة الإسراء والمعراج فى الصحيحين وغيرهما ، من أحاديث جمـاعة من الصحابة رضى الله عنهم(٤).

وفى أحدها قوله صلى الله عليه وسلم : "فلم أزل أرجع بين ربى تبـارك وتعالى وبين موسى عليه السلام حتى قال : يامحمـد إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة لكل صلاة عشر فذلك خمسون صلاة"(٥)الحديث .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه ، كتاب الصيام (١٣) ، باب أى يوم يصـام فى عاشوراء (٢٠) برقم ١١٣٤ ، ٧٩٧/٢-٧٩٨ .

(٢) انظر : اقتضاء الصراط المستقيم ٤١٥/١ ، فتح البارى ٢٤٥/٤ .

(٣) انظر : الجامع لأحكام القرآن ٢١٠/١٠ .

(٤) انظـر : صحيح البخارى ، كتـاب الصلاة (٨) ، باب كيـف فرضت الصلاة (١) ، ٩١/١-٩٣ ، كتـاب الحج (٢٥) ، باب مـاجاءفى زمـزم (٧٦) ، ١٦٧/٢ ، كتــاب الأنبياء (٦٠) ، باب ذكر إدريس عليه السلام (٥) ، ١٠٦/٤-١٠٨ .
صحيـح مسلم ، كتاب الإيمان (١) ، باب الإسراء برسول اللـه صلى الله عليه وسلم إلى السموات (٧٤) ، ١٤٥/١-١٥١ .

(٥) هـذه الرواية بهذا اللفظ أخرجهـا مسلم فى صحيحه ، فى الكتـاب والباب السابقين من حديث أنس بن مالك ، ورقمه ١٦٢ ، ١٤٥/١-١٤٧ .

وأما زعمهم أنه جعل الجمعة يوم صلاة عامة على غرار السبت عند اليهود . فهو أيضاً قول مخالف للصواب ، لأن الله سبحانه شرع لعباده المؤمنين الاجتماع لعبادته يوم الجمعة فقال تعالى : {ياأيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون}(١).

وقد ثبت أن الله أمر الأمم السابقة بتعظيمه فضلوا عنه ، واختار اليهود السبت والنصارى الأحد ، وفضل الله هذه الأمة بيوم الجمعة لفضيلته(٢).

عن أبى هريرة وحذيفة قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا . فكان لليهود يوم السبت . وكان للنصارى يوم الأحد . فجاء الله بنا ، فهدانا الله ليوم الجمعة فجعل الجمعة والسبت والأحد . وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة . نحن الآخرون من أهل الدنيا . والأولون يوم القيامة . المقضى لهم قبل الخلائق"(٣).

ففى الحديث ذم لأهل الكتابين على تفريطهم فى يوم الجمعة . ثم شرع صلى الله عليه وسلم صيام يوم السبت ويوم الأحد مخالفة لهما . كما جاء فى حديث أم سلمة أنها قالت : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم يوم السبت ويوم الأحد أكثر مما يصوم من الأيام ويقول : إنهما عيد

---

(١) سورة الجمعة : آية ٩

(٢) انظر : تفسير القرآن العظيم ٣٦٥/٤ .

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه ، كتاب الجمعة (٧) ، باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة (٦) برقم ٨٥٦ ، ٥٨٦/٢ .
وأخرج البخارى نحوه من حديث أبى هريرة ، كتاب الجمعة (١١) ، باب فرض الجمعة (١) ، ٢١١/١-٢١٢ ، وفى باب هل على من لم يشهد الجمعة غسل (١٢) ، ٢١٦/٢ .
وأخرج مسلم نحوه أيضاً من حديث أبى هريرة فى الكتاب والباب السابقين برقم ٨٥٥ ، ٥٨٥/٢-٥٨٦ .

المشركين فأنا أحب أن أخالفهم"(١).

قال الحافظ ابن حجر : "يوم السبت عيد عند اليهود والأحد عيد عند النصارى وأيام العيد لاتصام فخالفهم بصيامها"(٢).

بعد هذا يتضح لنا أن وحى الله إلى رسوله صلى الله عليه وسلم لم يكن مأخوذاً من اليهودية أو النصرانية وإنما هو وحى مستقل لم يتأثر بغيره. وبالتالى دين الإسلام دين قائم بذاته متميز عن غيره ، وإذا وجد تشابه بين نسك إسلامى وبين عمل سابق منسوب إلى دين اليهود أو النصارى . دل ذلك على أن أصل الدين الذى جاء به رسل الله واحد(٣).

قال تعالى : {إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون}(٤).

وقال صلى الله عليه وسلم : "أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم فى الدنيا والآخرة ، والأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد"(٥).

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده ٣٢٤/٦ .
وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد . وقال : "رواه الطبرانى فى الكبير ورجاله ثقات وصححه ابن حبان" ٢٠١/٣ .
وأخرج الترمذى نحوه من حديث عائشة رضى الله عنها ، كتاب الصوم (٦) ، باب ماجاء فى صوم يوم الاثنين والخميس (٤٢) برقم ٧٤٦ ، ١٢٢/٣ .
وقد جاء من الأحاديث مايدل على النهى عن صيام يوم السبت . إلا أن الإمام أبا داود رحمه الله يرى أن ذلك منسوخ .
انظر : سنن أبى داود ٣٢١/٢ ، فتح البارى ٣٦٢/١٠ .

(٢) فتح البارى ٣٦٢/١٠ .

(٣) انظر : اقتضاء الصراط المستقيم ٨٣٨/٢ ، مناهج المستشرقين فى الدراسات العربية الإسلامية ١٦٥/١ ، الرسول فى كتابات المستشرقين ص١٢٥ ، نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فى القرآن ص٢٩١ .

(٤) سورة الأنبياء : آية ٩٢

(٥) أخرجه البخارى فى صحيحه من حديث أبى هريرة ، كتاب الأنبياء (٦٠) ، باب : {واذكر فى الكتاب مريم} (٤٨) ، ١٤٢/٤ .
وأخرجه مسلم فى صحيحه عنه رضى الله عنه بألفاظ مقاربة . كتاب الفضائل (٤٣) ، باب فضائل عيسى عليه السلام (٤٠) ، ورقمه ٢٣٦٥ ، ١٨٣٧/٤ . =

أى أصل إيمانهم واحد لأنهم متفقون فى أصول التوحيد ، وأما فروع الشريعة فوقع فيها اختلاف(١).

وقد أوضح شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله العلاقة بين شريعة الإسلام والشرائع السابقة ، مقسماً ذلك إلى ثلاثة أقسام :

(أ) قسم مشروع فى ديننا ، مع كونه كان مشروعاً لهم ، أو لايعلم أنه كان مشروعاً لهم لكنهم يفعلونه الآن .

(ب) وقسم كان مشروعاً ثم نسخه شرع القرآن .

(ج) وقسم لم يكن مشروعاً بحال ، وإنما هم أحدثوه .

وهذه الأقسام الثلاثة : إما أن تكون فى العبادات المحضة ، وإما أن تكون فى العادات المحضة ، وهى الآداب . وإما أن تجمع العبادات والعادات(٢).

(أ) **الإدعاء بأنه أخذ ذلك من بحيرى الراهب :**

لقد تعرضت كثير من كتب السير إلى قصة بحيرى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وملخص ماأورده ابن هشام رحمه الله :

إن أبا طالب خرج فى ركب تاجراً إلى الشام ومعه النبى صلى الله عليه وسلم وهو حديث السن ، فمروا براهب يدعى بحيرى فى صومعة له وكان إليه علم أهل النصرانية ، فصنع لهم طعاماً فدعاهم إليه، وذلك أنه رأى غمامة تظل النبى صلى الله عليه وسلم من بينهم فلما حضروا إليه جعل يلحظ النبى صلى الله عليه وسلم لحظاً شديداً وينظر إلى أشياء من جسده ، قد كان يجدها عنده من صفته ، ثم جعل يسأله عن أشياء من حاله فى نومه

= إخوة لعلات : هم الذين أمهاتهم مختلفة وأبوهم واحد . أراد أن إيمانهم واحد وشرائعهم مختلفة .
النهاية ٢٩١/٣ ، وانظر : الفائق ٤٤/٣ .

(١) انظر : شرح النووى على صحيح مسلم ١٢٠/١٥ ، فتح البارى ٤٨٩/٦ .

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم ٤٢٠/١ .

وهيئته وأموره ، فأخبره ، فوافق ذلك ماعند بحيرى من صفته ، ثم سأل أبا طالب عنه فأخبره أنه ابن أخيه ، فأمره أن يرجع به إلى بلده ، وحذره عليه من اليهود ، وأخبره أنه كائن له أمر عظيم .

فخرج به عمه سريعاً حتى أقدمه مكة حين فرغ من تجارته(١).

---

(١) انظر : السيرة النبوية لابن هشام ص١١٠-١١٢ .
والقصة رواها الإمام الترمذى فى سننه ، من طريق أبى موسى الأشعرى ، كتاب المناقب (٥٠) ، باب ماجاء فى بدء نبوة النبى صلى الله عليه وسلم (٣٠) ، برقم ٣٦٢٠ ، ولم يرد اسم (بحيرى) فى القصة ، وقال : "حسن غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه" ٥/٥٥٠-٥٥١ .
وروى الخبر الحاكم فى المستدرك . وقال : "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه" . قال الذهبى : "أظنه موضوعاً فبعضه باطل" . ٢/٦١٥-٦١٦ .
ورواه البيهقى فى دلائل النبوة ، باب ماجاء فى خروج النبى صلى الله عليه وسلم مع أبى طالب ٢/٢٤-٢٥ .
وأورده ابن كثير من طريق ابن إسحاق ، ثم قال : "هكذا ذكر ابن إسحاق هذا السياق من غير إسناد منه . وقد ورد نحوه من طريق مسند مرفوع .
فقال الحافظ أبو بكر الخرائطى حدثنا عباس بن محمد الدورى حدثنا قراد أبو نوح حدثنا يونس عن أبى إسحاق عن أبى بكر بن أبى موسى عن أبيه . فساق رواية الترمذى .
ثم قال : "وهكذا رواه غير واحد من الحفاظ من حديث أبى نوح عبد الرحمن ابن غزوان الخزاعى مولاهم ، ويقال له الضبى ويعرف بقراد . سكن بغداد وهو من الثقات الذين أخرج لهم البخارى ، وثقه جماعة من الأئمة والحفاظ ولم أر أحداً جرحه ، ومع هذا فى حديثه هذا غرابة ... قال عباس الدورى : ليس فى الدنيا أحد يحدث به غير قراد أبى نوح وقد سمعه منه أحمد بن حنبل رحمه الله ويحي بن معين لغرابته وانفراده .
قلت : فيه من الغرائب أنه من مرسلات الصحابة . فإن أبا موسى الأشعرى إنما قدم فى سنة خيبر ، سنة سبع من الهجرة . ولايلتفت إلى قول ابن إسحاق فى جعله له من المهاجرة إلى أرض الحبشة من مكة . وعلى كل تقدير فهو مرسل . فإن هذه القصة كانت ولرسول الله صلى الله عليه وسلم من العمر فيما ذكره بعضهم ثنتا عشرة سنة ، ولعل أبا موسى تلقاه من النبى صلى الله عليه وسلم ، فيكون أبلغ ، أو من بعض كبار الصحابة رضى الله عنهم ، أو كان هذا مشهوراً مذكوراً أخذه من طريق الاستفاضة" . البداية والنهاية ٢/٢٨٤-٢٨٥ .
وقد ذهب الشيخ ناصر الدين الألبانى إلى صحة الرواية . وذكر أن إسناد الترمذى صحيح . انظر : فقه السيرة ص٦٨ الهامش .

وقد دفع هذه الشبهة الشيخ الزرقانى رحمه الله دفعاً رد به مزاعم المستشرقين ، بحيث لايجدون بعد ذلك متعلقاً فى هذه الحادثة البتة . قال : "يقولون إن محمداً صلى الله عليه وسلم لقى بحيرى فأخذ عنه وتعلم منه ... وندفع هذا :

أولاً : بأنها دعوى مجردة عن الدليل ، خالية من التحديد والتعيين . ومثل هذه الدعاوى لاتقبل مادامت غير مدللة ، وإلا فليخبرونا ماالذى سمعه محمد من بحيرى الراهب؟ ومتى كان ذلك وأين كان؟

ثانياً : أن التاريخ لايعرف أكثر من أنه صلى الله عليه وسلم سافر إلى الشام فى تجارة مرتين ، مرة فى طفولته ومرة فى شبابه ، ولم يسافر غير هاتين المرتين ، ولم يجاوز سوق بصرى فيهما . ولم يسمع من بحيرى ولامن غيره شيئاً من الدين . ولم يك أمره سراً هنالك بل كان معه شاهد فى المرة الأولى وهو عمه أبو طالب ، وشاهد فى الثانية وهو ميسرة غلام خديجة التى خرج الرسول بتجارتها أيامئذ .

وكل ماهنالك أن بحيرى الراهب رأى سحابة تظله صلى الله عليه وسلم من الشمس ، فذكر لعمه أن سيكون لهذا الغلام شأن ، ثم حذره عليه من اليهود . وقد رجع به عمه خوفاً عليه ولم يتم رحلته .

كذلك روى هذا الحادث من طرق فى بعض أسانيدها ضعف . ورواية الترمذى ليس فيها اسم بحيرى . وليس فى شىء من الروايات أنه صلى الله عليه وسلم سمع من بحيرى أو تلقى منه درساً واحداً أو كلمة واحدة ، لافى العقائد ولافى العبادات ولافى المعاملات ولافى الأخلاق . فأنى يؤفكون؟

ثالثاً : أن تلك الروايات التاريخية نفسها تحيل أن يقف هذا الراهب موقف المعلم المرشد لمحمد صلى الله عليه وسلم ، لأنه بشره أو بشر عمه بنبوته ، وليس بمعقول أن يؤمن رجل بهذه البشارة التى يزفها ، ثم ينصب نفسه أستاذاً لصاحبها الذى سيأخذعن الله ويتلقى عن جبريل ويكون هو أستاذ الأستاذين ، وهادى الهداة والمرشدين! وإلا كان هذا الراهب متناقضاً مع نفسه .

رابعاً : أن بحيرى لو كان مصدر هذا الفيض الإسلامى المعجز لكان هو أحرى بالنبوة والرسالة والانتداب لهذا الأمر العظيم .

خامساً : أنه يستحيل فى مجرى العادة أن يتم إنسان على وجه الأرض تعليمه وثقافته ، ثم ينضج النضج الخارق للمعهود فيما تعلم وتثقف ، بحيث يصبح أستاذ العالم كله ، لمجرد أنه لقى مصادفة واتفاقاً راهباً من الرهبان مرتين . على أن هذا التلميذ كان فى كلتا المرتين مشتغلاً عن التعلم بالتجارة وكان أمياً لايعرف القراءة والكتابة ، وكان صغيراً تابعاً لعمه فى المرة الأولى وكان حاملاً لأمانة ثقيلة فى عنقه لابد أن يؤديها كاملة فى المرة الثانية ، وهى أمانة العمل والإخلاص فى مال خديجة وتجارتها .

سادساً : أن طبيعة الدين الذى ينتمى إليه الراهب بحيرى ، تأبى أن تكون مصدراً للقرآن وهدايته ، خصوصاً بعد أن أصاب ذلك الدين ماأصابه من تغيير وتحريف .

سابعاً : أن هذه التهمة لو كان لها نصيب من الصحة ، لفرح بها قومه وقاموا لها وقعدوا ، لأنهم كانوا أعرف الناس برسول الله ، وكانوا أحرص الناس على تبهيته وتكذيبه وإحباط دعوته بأية وسيلة"(١).

يتبين لنا مما سبق أن لقاءه ببحيرى كان فى وقت وجيز ، وكان لقاء سريعاً لايكفى لحمل هذا العلم الذى نثره النبى صلى الله عليه وسلم فى مدة ثلاثة وعشرين عاماً ، وقد كان صلى الله عليه وسلم فى سن التاسعة أو الثانية عشرة من عمره ، وهذه سن لاتؤهله لحمل واستيعاب كثير من المسائل ، وعمه ماكان يفارقه طرفة عين ، ولم ينفرد به بحيرى ليلقنه ذاك الدرس المزعوم .

ومع أن هذه الحادثة ليس لها كبير أهمية إلا أن أعداء الإسلام من المستشرقين يتشبثون بها ، ويركزون عليها ، ولاحجة لهم فى ذلك(٢).

---

(١) مناهل العرفان ٢/٤٢١-٤٢٣ .

(٢) انظر : الإسلام والمستشرقون ص٢٢٨ .

(ب) الادعاء بأنه أخذ من ورقة بن نوفل :

روى البخارى رحمه الله بسنده إلى عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها أنها قالت : "أول مابدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم ، فكان لايرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه ـ وهو التعبد ـ الليالى ذوات العدد ، قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء فجاءه الملك فقال : اقرأ . قال : ماأنا بقارىء . قال : فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ . قلت : ماأنا بقارىء . فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال : اقرأ . فقلت : ماأنا بقارىء . فأخذنى فغطنى الثالثة ، ثم أرسلنى فقال : {اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق . إقرأ وربك الأكرم}(١). فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد رضى الله عنها فقال : زملونى زملونى . فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة وأخبرها الخبر : لقد خشيت على نفسى . فقالت خديجة كلا والله مايخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ـ ابن عم خديجة ـ وكان امرءاً تنصر فى الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبرانى ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ماشاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عمى ، فقالت له خديجة : ياابن عم اسمع من ابن أخيك . فقال له ورقة : ياابن أخى ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر مارأى . فقال له ورقة : هذا الناموس الذى نزل الله على موسى ، ياليتنى فيها جذعاً ، ليتنى أكون حياً إذ يخرجك قومك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أومخرجى هم؟ قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ماجئت به إلا عودى ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً. ثم لم ينشب

---

(١) سورة العلق : آية ١-٣

ورقة أن توفى وفتر الوحى"(١).

وعلى ضوء هذه الرواية الصحيحة يمكن أن نبين بطلان مزاعم المستشرقين ، وتهافت أقوالهم ، وفسادها . وذلك فى النقاط التالية :

الأولى : تبين الرواية أن ورقة كان قد تنصر فى الجاهلية ، ولكن المحدثون والمؤرخون استقصوا كل ماعرف عنه مما صح سنده ومما لم يصح فلم يعثروا على رواية تبين أنه كان داعية إلى النصرانية(٢).

الثانية : لم ينقل أن النبى صلى الله عليه وسلم قد لقى ورقة قبل هذا اللقاء أو رآه(٣).

الثالثة : لقد تم هذا اللقاء بعد مجىء ملك الوحى فى المرة الأولى ، وقد حضرت اللقاء خديجة رضى الله عنها وشهدته ، وقد آمنت بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم بعد ذلك ، فلو كان هنالك تعلم وتلقى ماغاب ذلك عن بالها أبداً(٤).

الرابعة : إن موقف ورقة من ذلك الأمر كان موقف المستطلع المستخبر لاموقف المعلم ، فلما أخبره النبى صلى الله عليه وسلم خبر مارأى كان موقفه موقف المبشر المصدق المؤمن المتطوع لمناصرة الحق ، المؤيد للنبى صلى الله عليه وسلم ، فموقف هذا شأن صاحبه لايمكن أن يكون هذا الصاحب مصدر علم الوحى الذى شرف به رسول الله صلى الله عليه وسلم(٥).

---

(١) الحديث سبق تخريجه . انظر ص: ٣٦٢
(٢) انظر : الوحى المحمدى ص٩٦ ، نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فى القرآن ص٢١٧ ، الأدلة على صدق النبوة المحمدية ص٤٢٢ .
(٣) انظر : الوحى المحمدى ص٩٦ .
(٤) انظر : نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فى القرآن ص٢١٨ ، الأدلة على صدق النبوة المحمدية ص٤٢٣ .
(٥) انظر : نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فى القرآن ص٢١٨ ، الأدلة على صدق النبوة المحمدية ص٤٢٣ .

الخامسة : لم تذكر الروايات أنه ألقى إلى النبى صلى الله عليه وسلم درساً أو عظة فى أى جزء من جزئيات الإسلام ولم تثبت أنه كان صلى الله عليه وسلم يتردد عليه لتلقى تلك الدروس ، والذى يفهم من كلمته المختصرة أنه كان يتمنى أن يبقى حتى يصبح ناصراً لدين الله ، وجندياً مخلصاً ، وتلميذاً ناجحاً للنبى صلى الله عليه وسلم لاأستاذاً مربياً ، ولاعالماً معلماً(١).

السادسة : لقد مات ورقة مبكراً ، ولم يمكث زمناً طويلاً . فكيف كان هو سر نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟(٢)

وكيف تنبأ للنبى صلى الله عليه وسلم بتلك الحوادث والأمور التى حدثت فيما بعد؟ أكان يعلم الغيب؟ {قل لايعلم من فى السماوات والأرض الغيب إلا الله ومايشعرون أيان يبعثون}(٣).

السابعة : لو ثبت أنه صلى الله عليه وسلم أخذ ذلك من ورقة لما سكت أعداؤه أبداً ، ولروجوا ذلك ، وساروا به فى الناس جميعاً ، وهم الذين تشبثوا بما هو أوهى من ذلك(٤).

الثامنة : لو كان ورقة هو الذى أعطى علوم النبوة للنبى صلى الله عليه وسلم لكان هو أولى بالنبوة منه صلى الله عليه وسلم .

التاسعة : لو كان ورقة هو المعلم ، وقد كان معايشاً للنبى فى مكة ، فلماذا انتظر إلى أن هرم وبلغ النبى من العمر أربعين .

(ج) **ادعاؤهم أنه أخذ من الحاشية اليهودية والمسيحية المسلمة :**

إن هذا ادعاء يعلم ببداهة العقول فساده ، فأغلب هؤلاء الذين ذكرهم الحداد لم يلتق بهم النبى صلى الله عليه وسلم إلا بعد الهجرة ، وقد سبق

---

(١) انظر : مناهل العرفان ٤٢٨/٢ .

(٢) انظر : نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فى القرآن ص٢١٨ ، الأدلة على صدق النبوة المحمدية ص٤٢٣ .

(٣) سورة النمل : آية ٦٥

(٤) انظر : الإسلام والمستشرقون ص٢٢٨ .

عمر مديد من حياة النبوة ، وقد التقى بهم تابعين له لامتبوعين ، ومتعلمين منه لامعلمين ، ومؤمنين به ومصدقين لامكذبين(١).

قال د. التهامي نقرة :

"إن مايدعيه المستشرقون من إفادة الرسول من حاشيته اليهودية والمسيحية الذين أسلموا وكانوا في صحبته ، هو محض افتراض ، لأن إسلامهم حجة قائمة على صدق ماجاء به من الوحي الإلهي . ولو تبين لهم أنه كان يتتلمذ لهم في خفاء ليتلقى عنهم ماكان يدعو إليه لانفضوا من حوله ، ولعادوا إلى دينهم ، ولم تكن لهم تلك المنزلة الرفيعة في الدعوة إلى الإسلام والذود عنه ، والإخلاص للرسول ، فإن ثباته في الشدائد والمحن ، ومثابرته على مغالبة الكبر والعناد ، أول برهان قدمه للإنسانية على مدار التاريخ ، يشهد بصحة نبوته وصدق رسالته"(٢).

---

(١) انظر : نبوة محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن ص٢٢١،٢٢٢ ، الأدلة على صدق النبوة المحمدية ص٤٢٦ .

(٢) مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية ٣٥/١ .

(٢) أن الوحى مقتبس من العقائد والأديان القديمة المختلفة :

لقد زعم المستشرقون أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يأت بجديد من الأفكار ، ولم يبشر بدين إلهى كما يقول ، وإنما أخذ أفكاره من الأديان والعقائد والنظريات السائدة فى عهده ، وطور فى بعضها لتساير مجتمعه الذى يعيش فيه . فالوحى الذى يزعمه هو عبارة عن لميم ومزيج من العقائد والعبادات الهندية والفارسية واليونانية والبابلية والوثنية والمجوسية وشرائع العرب فى الجاهلية والأساطير الإبراهيمية والنزعات الصوفية وغير ذلك، فلم يأت بما لم يسبق إليه(١).

---

(١) انظر تفاصيل ذلك فى: العقيدة والشريعة ص٤،٥،١٨،١٩ الأولى ، تراث الإسلام٢/٢٠٦ ، ٣/١٠ ، تاريخ الشعوب الإسلامية ص٤٨،٧١،٧٤،٧٦،٨٠ ، تاريخ العرب ١/١٨٣-١٨٥ ، ملوك الطوائف ص٤١١،٤٧٠ .

والجواب عن ذلك :

إن الله سبحانه قد بعث محمداً صلى الله عليه وسلم على فترة من الرسل ، وذلك حين انحرفت الإنسانية عن طريق الرسل عليهم السلام ، وانغمست فى لجج الضلال ، وانطمس نور الهداية ، فعاش الجميع فى ظلام دامس ، إلا ماندر ممن بقى من أهل الكتاب على عقيدة التوحيد .

قال صلى الله عليه وسلم : "إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب"(١).

واختلفت عقيدة الإيمان بالله فى نفوس البشر :

فالإله فى التوراة له تصور خاص يتعلق ببنى إسرائيل وأنبيائهم وليس له صفة العموم والشمول .

وفى الإنجيل فكرة التثليث التى تنافى الوحدانية(٢).

والبيئة التى نشأ فيها الرسول صلى الله عليه وسلم ، بيئة جاهلية اتخذت من الأصنام والأوثان آلهة تلجأ إليها فى الشدة والرخاء ، لاتعرف معروفاً ولاتنكر منكراً ، اختلط عندهم الحق بالباطل ، وذلك الضلال الذى وصفهم الله به فى قوله : {هو الذى بعث فى الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين}(٣).

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه . وهو جزء من حديث رواه عياض بن حمار المجاشعى رضى الله عنه . كتاب الجنة وصفة نعيمها (٥١) ، باب الصفات التى يعرف بها فى الدنيا أهل الجنة وأهل النار (١٦) ، ورقمه ٢٨٦٥ ، ٢١٩٧/٤ .

قال النووى رحمه الله :

"المقت أشد البغض . والمراد بهذا المقت والنظر ماقبل بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم . والمراد ببقايا أهل الكتاب : الباقون على التمسك بدينهم الحق من غير تبديل" .

شرح النووى على صحيح مسلم ١٧/١٩٧-١٩٨ .

(٢) انظر : الرسول صلى الله عليه وسلم فى كتابات المستشرقين ص٣٤،٣٥ .

(٣) سورة الجمعة : آية ٢

وأما الهنود فلهم أديان كثيرة وعبادات مختلفة تجمع بين الوثنية الساذجة ، والآراء الفلسفية [١]. وقد عبدوا عدداً من الآلهة ، فعبدوا الحيوانات وقوى الطبيعة وغير ذلك [٢].

والمجوسية التى هى دين الفرس وغيرهم أثبتوا أصلين مدبرين ، أحدهما النور وهو إله الخير والنفع والصلاح ، والآخر الظلمة وهى إله الشر والضر والفساد [٣]. وجعلوا للنار بيوتاً وعبدوها من دون الله [٤].

وعقائد اليونانيين والبابليين من الفلاسفة والصابئة الذين ينكرون النبوات [٥]. فالصابئة يعبدون الكواكب والهياكل [٦]، والفلاسفة هم المقدسون للعقل القائلون بالوجود المطلق [٧]. والصوفية التى انحرفت عن الصراط المستقيم وشابت عقائدها بالفلسفات الهندية والفارسية واليونانية وغير ذلك ، كعقيدة الحلول [٨] والاتحاد [٩].

---

(١) انظر : الملل والنحل ٢/٩ .

(٢) انظر : أديان الهند الكبرى ص٣٢،٣٣،٢١٣ .

(٣) انظر : الملل والنحل ١/٢٣٢ .

(٤) انظر : المرجع السابق ١/٢٥٤ .

(٥) انظر : المرجع السابق ١/٣٨ .

قال الشهرستانى : "صبأ الرجل إذا مال وزاغ ، فبحكم ميل هؤلاء عن سنن الحق وزيفهم عن نهج الأنبياء ، قيل لهم صابئة" . المرجع نفسه ٢/٥ .

(٦) انظر : المرجع السابق ٢/٧ .

(٧) انظر : المرجع السابق ٢/٥٨،٥٩ .

(٨) الحلول : عقيدة باطلة من عقائد المتصوفة أخذت عن العقائد الهندية والنصرانية . يزعمون فيها أن الله يحل فى الأشخاص ، حتى يصبح الشخص رباً أو إلهاً يتصرف فى الكون ويعلم الغيب . ومن أقوالهم فى ذلك : "أنا الحق" . "ومافى الجبة إلا الله". تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

انظر : الفكر الصوفى فى ضوء الكتاب والسنة ص٦٥ ، الموسوعة الميسرة ص٣٤٧ .

(٩) الاتحاد أو وحدة الوجود : هى عقيدة الحادية باطلة من عقائد المتصوفة . يزعمون فيها : أن كل شىء فى الوجود هو الله . وأن الله هو الذى فى الكون وحده ولاشىء معه ، وماهذه الظواهر من المخلوقات إلا مظاهر لحقيقة واحدة هى حقيقته . تعالى الله عما يقول الجاهلون .

انظر : الفكر الصوفى فى ضوء الكتاب والسنة ص٦٩ ، الموسوعة الميسرة ص٣٤٧ .

والفناء(١)(٢).

قال محمد الغزالى :

"فماذا كان مصير الحضارات فى مصر واليونان ، وفى الهند والصين ، وفى فارس وروما؟ لاأقصد مصيرها من ناحية السياسة والحكم ، بل من ناحية العاطفة والعقل .

إن الوثنية الوضيعة اغتالتها ، وفرضت عليها السقوط فى هذه الوهدة الزرية . فأمسى الإنسان الذى استخلفه الله ليكون ملكاً فى السماوات والأرض أمسى عبداً مسخراً لأدنى شىء فى السموات والأرض . وماذا بعد أن تقدس العجول والأبقار ، ويعبد الأخشاب والأحجار ، وتطبق شعوب بأسرها على الخرافة؟"(٣)

فيستحيل على هذه النحل الفاسدة ، والعقائد المنحرفة أن تكون مصدراً لعقيدة التوحيد الصافية الخالية من كل شائبة شرك ، ولذلك الدين القويم والهدى المستقيم الذى جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

---

(١) الفناء :
عقيدة الحادية باطلةمن عقائد المتصوفة يزعمون فيها أن العبد يفنى فى الله بمعنى أنه يرى أن الله هو الوجود وأنه لاوجود لسواه ، لابه ولابغيره .
قال ابن القيم رحمه الله :
"زعم أهل الاتحاد ـ القائلون بوحدة الوجود ـ أن الفناء هوغاية الفناء عن وجود السوى . فلايثبت للسوى وجود البتة . لافى الشهود ولافى العيان . بل يتحقق بشهود وحدة الوجود . فيعلم حينئذ : أن وجود جميع الموجودات هو عين وجود الحق ، فما ثم وجودان . بل الموجود واحد .
وحقيقة الفناء عندهم : أن يفنى عما لاحقيقة له . بل هو وهم وخيال ، فيفنى عما هو فان فى نفسه . لاوجود له . فيشهد فناء وجود كل ماسواه فى وجوده . وهذا تعبير محض . وإلا ففى الحقيقة :ليس عند القوم "سوى" ولا"غير" وإنما السوى والغير فى الوهم والخيال . فحول هذا الفناء يدندنون وعليه يحومون".
مدارج السالكين ٣٧٨/٣ .

(٢) انظر : الموسوعة الميسرة ص٣٤١،٣٥٢ .

(٣) فقه السيرة ص١٦-١٧ .

فأحيا الله به قلوباً غلفاً ، وأبصاراً عمياً ، وآذاناً صماً ، وانتشل به البشرية من وهدة الظلام وضلال العقول إلى بر الأمان وسلامة المعتقد .

وهذه النحل تحوى بين طياتها لميماً من العقائد والعبادات المختلفة المتباينة ، فكيف استقى النبى صلى الله عليه وسلم منها جميعاً ثم خرج بهذا الدين الذى لاتباين فيه ولااختلاف؟ وهل لبشر مهما أوتى من النبوغ وحصافة العقل أن يجمع بين ملل تفرقت بها الأهواء وانحرفت بها السبل ، وتشعبت بها الطرق ، واختلفت مصادرها ومشاربها هذه الاختلافات البينة التى غصت بها كتب النحل والملل والأديان؟

لقد كان صلى الله عليه وسلم أمياً لايقرأ ولايكتب فى بيئة أمية جاهلية تقبع فى جزيرة العرب ليس لها معرفة واطلاع على عقائد وأديان الشعوب الأخرى إلا ماقل وندر ، ولم يخرج صلوات الله وسلامه عليه من جزيرة العرب قط ، ولم يختلط مع تلك الشعوب ويتعرف على عقائدها وثقافاتها ليكون منها فكرة دينية ثم يزعم أنه أرسل لتبليغها للناس .

وقد أسلم كثير من أصحاب تلك النحل ، وحملوا هذا الدين ، وأصبحوا من أبنائه ، فلماذا لم يكشفوا عن هذه الحقيقة لأبناء نحلهم؟ ولماذا رضوا بالبقاء واستمرارية الانتماء له وهو دين منحول من أديانهم وغيرها؟

وأين هو الدليل الذى يثبت مزاعم المستشرقين على إفكهم هذا؟

وماهى العقيدة أو الشعيرة التى اقتبست من تلك النحل؟

لقد حارب رسول الله صلى الله عليه وسلم الوثنيين وطهر أرض الحجاز منهم ومن أوثانهم ، وأجلى اليهود عن المدينة .

وكاتب ملوك الفرس والروم وغيرهم ، يدعوهم إلى ترك ماهم فيه والانخراط فى دينه ، وواصل خلفاؤه من بعده الفتوح فدكوا عرش الفرس واقتلعوا دولتهم من جذورها ، وأخرجوا الروم من الجزيرة العربية ، وظل الإسلام يواصل سيره شرقاً وغرباً ، شمالاً وجنوباً ، ويغزو تلك النحل والملل فى عقر دورها ، ويخضع أصحابها إلى الانتماء إليه وترك أديانهم وعقائدهم ، فلو كان ملفقاً من تلك العقائد لماذا لم يحاربه أربابها الفاتحين

بتلك الحجة - وماأسهلها - بدلاً من حمل السيف ومواجهة التقتيل والتشريد والسبى؟

ثم لماذا يحارب المسلمون أصحاب نحل يعلمون أن نبيهم عليه السلام قد استقى دينه منها؟ ولماذا لم يكرموهم ويقدروهم ، ويجلوا عقائدهم بدلا من سفك الدماء ، وسبى النساء ، وفرض الجزية؟.

كل هذا وغيره يبين فساد ادعاء المستشرقين وبطلان قولهم ، وتهافت عقولهم ، وانكشاف دسائسهم وأحقادهم .

(٣) أن الوحى كهانة :

قال بروكلمان :

"واستخدم محمد فى دعوته أساليب الكاهن ، كما عزا على غراره أحوال غيبوبته ومايصدر فى هذه الأحوال من تصريحاته إلى رفيق ذكر فيما بعد أنه الملك جبريل ، واعتقد أنه رسول الله إليه . ولاحاجة هنا إلى ذكر تاريخ دعوته التى ضاها بها فى مكة أسلوب الدعوة النصرانية ، ولعله كان يعرف هذه الدعوة عن طريق المبشرين النساطرة وقد زجت هذه الدعوة بمحمد فى خصومة مع قومه"(١).

---

(١) تاريخ الأدب العربى ١٣٤/١ ، وانظر تاريخ الشعوب الإسلامية ص٣٦-٣٧ .

والجواب عن ذلك :

هـذه شبهة قديمة قذف بهـا النبى كفار قريش وضلالهـا ورمـوه بها(١).

وقـد تولى الله عز وجل دحض ذلـك فى قرآنه الكـريم فقال : {فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولامجنون}(٢).

وقال : {فلاأقسم بما تبصرون . ومالاتبصرون . إنه لقـول رسول كريم وماهو بقول شاعر قليلاً ماتؤمنون . ولابقول كاهن قليلاً مـاتذكرون . تنزيل من رب العالمين}(٣).

يقول الإمام ابن كثير رحمه الله فى تفسير الآية الأولى :

"يقـول تعـالى آمراً رسوله صلى اللـه عليه وسلم بأن يبلـغ رسـالته إلى عبـاده وأن يذكرهم بما أنزل الله عليه ثم نفى عنه مـايرميه به أهل البهتان والفجور فقال : {فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولامجنون} أى لست بحمد الله بكاهن كما تقول الجهلة من كفار قريش والكاهن الـذى يأتيه الرئى من الجان بالكلمة يتلقاها من خبر السماء"(٤).

فقـد أوضـح ابن كثير رحمـه اللـه أن مثيرى الشبهـة هـم أهل بهتان وفجـور ، وجهلة ، وهى من أبرز صفـات المستشرقين الـذين ضاهوا بقولهم قول المشركين ، فهم قوم بهـت لايتـوانون عـن الكذب والفجـور والإفـك ، وذلك لجهلهم وخفة عقولهم .

---

(١) انظر : السيرة النبوية لابن هشام ١٦٣/١-١٧٩ .
(٢) سورة الطور : آية ٢٩
(٣) سورة الحاقة : آية ٣٨-٤٣
(٤) تفسير القرآن العظيم ٢٤٣/٤ .
انظر فى معنى الآية : زاد المسير ٢٢٠/٧ ، تفسير أبى السعود ١٥٠/٨ .

(٤) أن الوحى أسطورة :

بلغ الزعم بالمستشرق (تولستوف) إلى أن ينفى وجود النبى صلى الله عليه وسلم ويعتبره شخصية أسطورية . وأن الإسلام نشأ عن أسطورة صنعت فى الخلافة لمصلحة الطبقة الحاكمة ، وأنها مستمدة من اعتقادات سابقة تسمى الحنيفية (١).

---

(١) انظر : الإسلام والمستشرقون ص ٢٦٧ .

والجواب عن ذلك :

هـذه شبهـة لاتحتاج إلى رد ، وذكـرها يكفى لبيان بطلانهـا ، لأن خبر مبعـث النبى صلى الله عليه وسلم نقـل بالتواتر ، وعلم بذلـك الأمـم مسلمها وكـافرها ، جيلاً بعد جيل ، وعصراً بعد عصر ، فإنكار ذلـك كإنكار الحقائق الثابتة ، والأمور المعلومة ضرورة التى لايختلف فيها اثنان .

يقول الإمام ابن حزم رحمه الله فى شأن ماتواتر من الأخبار :

"وهـو مانقلته كافة بعد كافة حتى تبلغ به النبى صلى اللـه عليه وسلم . وهذا خبر لم يختلف مسلمان فى وجوب الأخذ به .

وفى أنه مقطـوع على غيبه ، لأن بمثلـه عرفنا أن القـرآن هو الذى أتى به محمـد صلى الله عليه وسلم ، وبه علمنا صحة مبعث النبى صلى اللـه عليه وسلم ... إن البرهان قائم على صحته ..."(١).

ومـازعمه تلستـوف أن النبى صلى اللـه عليه وسلم شخصيـة أسطـورية لاحقيقـة لها ، يقدح فى عقلـه الذى خالف به العقلاء الـذين أقـروا بوجوده صلى الله عليه وسلم ، ومن أولئك المستشرقون أنفسهـم . كما يقدح ذلك فى ديانته إن كان له ديانة ، ونبيه ان كان يؤمن بنبى .

وزعمه أن ذلك مستمد من اعتقادات سابقة تسمى الحنيفية زعم واهى أيضاً ، لأن الحنفاء الذين كانوا فى وسط البيئة الجاهليـة التى بعث فيها النبى صلى اللـه عليه وسلم عدد قليل امتازوا بسلامة الفطرة ، وعـرفوا ماكان عليه قومهم من الفساد والضلال ، وأيقنـوا بوجود إله واحد هـو الـذى يجب أن تصـرف لـه العبادة ، ولكنهـم كـانوا فى حيرة من أمرهـم لم يعـرفوا الطريق الصحيحة لعبادة الله وحده .

فما كانوا عليه لايصلح أن يكون أساساً ومصدراً للـذى جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم(٢).

---

(١) الإحكام فى أصول الأحكام ١٠٤/١ .
وقد سبق كلامه بطوله فى موضع الحديث عن المتواتر ص: ١٠٩ - ١١٠
(٢) انظر الأدلة على صدق النبوة المحمدية ص٤٥٣ .

(ج) مطاعن المستشرقين فى شخص النبى صلى الله عليه وسلم :

أراد المستشرقون أن يدعموا شبهاتهم السابقة فقذفوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بتهم جائرة ، وكالوا له أبشع الشتائم وأسوأ السباب ، حتى يجردوه من مقام العصمة الملازمة لمنزلة النبوة ، ولكى يقولوا للناس هذا فرد من أفراد البشرية لايختلف عنهم ، بل قد يكون دون الكثيرين منهم لما اتصف به من أخلاق ذميمة ، وأفعال تنافى الفضيلة ، فمثله لايصلح أن يكون موضعاً لاصطفاء الرب سبحانه وتعالى ، إذ النبوة مقام سامى ودرجة رفيعة لاينالها إلا الأصفياء الخلص من البشر ، ومحمد صلى الله عليه وسلم ليس كذلك فلايحق له أن يدعى هذه المنزلة العظيمة هكذا زعموا ، وبئس مازعموا .

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرفع مكانة من أن تناله مطاعن أولئك ، وأسمى منزلة من أن تصل إليه تهمهم ، وهو أكمل الناس خلقاً ، وأحسنهم سجية ، وأصفاهم طبعاً ، وأوسعهم صدراً ، وأبلغهم حلماً ، فطر على مكارم الأخلاق ، وجبل على محاسن الصفات ، ومعالى الشيم .

ويكفى فى ذلك وصف الله له بقوله : {وإنك لعلى خلق عظيم}(١).

وقد كان خلقه القرآن صلوات الله وسلامه عليه .

وهذه مطاعنهم مشفوعة بالرد عليها ودحضها :

---

(١) سورة القلم : آية ٤

(أ) **انشغاله بالنساء :**

لقد صوروا النبى صلى الله عليه وسلم بأنه كان ميالاً إلى النساء منشغلاً بهن ، حتى تطرق المرض والضعف إلى نشاطه بسبب الحياة الزوجية الواسعة التى عاشها(١).

فقد تزوج اثنتى عشرةامرأة منهن من تزوجها بدافع الحب ومنهن من كان زواجه منها لغرض سياسى أو اجتماعى(٢).

فقد روى عنه أنه قال : "إنما حبب الى من دنياكم النساء والطيب"(٣).

وأضيف إلى ذلك فيما بعد "وجعلت قرة عينى فى الصلاة".

وهذه الرواية وأمثالها تجعله بحق موضع اتهام خصومه الذين أخذوا عليه أنه لايشتغل بغير النساء مما لايتفق وصفة النبوة(٤).

---

(١) انظر : تاريخ الشعوب الإسلامية ص٦٧ .

(٢) انظر : تاريخ العرب ص١٦٦ .

(٣) يأتى تخريج الحديث والكلام عنه .

(٤) انظر : العقيدة والشريعة ص١٤٣ .

الجواب على ذلك :

هـذا محض افتراء على رسول الهدى صلى الله عليه وسلم الذى ابتعثه الله مربياً وهادياً إلى أحسن الأخلاق وأقومها سبيلاً ، فلم يتزوج صلى الله عليه وسلم بنسائه بدافع هوى أو غرام ، ولامجرد شهوة ولاحب ، وهو الطاهر العفيف المنزه عن النقائص والعيوب والشهوات النفسية والمطامع الشخصية .

والدليل على ذلك أمور نجملها فيما يلى :

(أ) لقد تزوج صلى الله عليه وسلم خديجة رضى الله عنها وهو فى عنفوان شبابه ، وكانت فى الأربعين من عمرها ولم يزد عليها حتى توفاها الله ، وقد بلغ الخمسين من عمره ، فلم يكن إلى هذا العمر رجلاً شهوانياً لاكتفائه بامرأة واحدة ، فمن باب أولى ألايكون كذلك وقد جاوز سن الشباب والفتوة والرغبة فى النساء(١).

(ب) لم يكن فيمن تزوجهن بكراً سوى عائشة رضى الله عنها وقد خطبها وهى صغيرة فى عمرها ، وأما سواها من نسائه صلى الله عليه وسلم فمنهن من كانت طاعنة فى السن ، ومن يصحبها أبناؤها ، وأمثال هؤلاء تقل الرغبة فيهن ويضعف الاستمتاع بهن(٢).

(ج) لم يكن زواجه منهن صلى الله عليه وسلم بقصد رغبة أو شهوة وإنما لحكم ومصالح اقتضتها دعوة الإسلام ، من إيجاد روابط أسرية ، وتأليف للقلوب ، وكفالة لليتامى ، وإحسان إلى الأرامل وغير ذلك من أوجه المصالح التى ترتبط بزواجه من كل واحدة منهن(٣).

---

(١) انظر : حياة محمد ص٣٢٨ ، محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ص٣٦١-٣٦٢ ، الإسلام والمستشرقون ص٢٢٨ .

(٢) انظر : حياة الرسول المصطفى ٦٤٦/٣ ، محمد صلى الله عليه وسلم فى التوراة والإنجيل والقرآن ص٢١٩ .

(٣) انظر : حياة محمد ص٣٣٠-٣٣٦ ، محمد رسول الله ص٣٦٢ ، حياة الرسول المصطفى ٦٤٥/٣ ، محمد صلى الله عليه وسلم فى التوراة والإنجيل والقرآن ص٢٢٠

قال الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله :

"وجملة القول أنه صلى الله عليه وسلم راعى المصلحة فى اختيار كل زوج من أزواجه عليهن الرضوان فى التشريع والتأديب والمودة والتأليف وكفالة الأرامل والأيتام ، فجذب إليه كبار القبائل بمصاهرتهم ، وعلم أتباعه احترام النساء وإكرام كرائمهن ، والعدل بينهن ، وقرر الأحكام بذلك ، وترك من بعده تسع أمهات للمؤمنين يعلمن نساءهم من الأحكام مايليق بهن مما ينبغى أن يتعلمنه من النساء دون الرجال ، ولو ترك واحدة فقط لما كانت تغنى فى الأمة غناء التسع . ولو كان صلى الله عليه وسلم أراد بتعدد الزواج مايريده الملوك والأمراء من التمتع بالحلال فقط لاختار حسان الأبكار على أولئك الثيبات المكتهلات منهن"(١).

(د) لقد كان صلى الله عليه وسلم بشراً يخضع لصفات البشرية ، فهو يحب ويبغض ، ويشتهى ويأنف ، ويرغب ويكره ، قال سبحانه : {قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى}(٢). ومع ذلك لم يكن يتصرف فى كل أموره الخاصة كما يحلو له ويشاء وإنما كان يخضع لأوامر ربه سبحانه وتوجيهاته(٣)، كحادثة زواجه من زينب بنت جحش رضى الله عنها فقد تم بأمر من الله تعالى(٤).

---

(١) نداء إلى الجنس اللطيف ص٧٤ ، وانظر : ص٥٧-٥٨،٦٠-٧٤ من الكتاب نفسه .

(٢) سورة الكهف : آية ١١٠

(٣) انظر : حياة الرسول المصطفى ٦٤٥/٣ .

(٤) قال الله تعالى : {وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى فى نفسك مالله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكى لايكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولاً} ، سورة الأحزاب : آية ٣٧

قال ابن كثير رحمه الله :

"وكان الذى ولى تزويجها منه هو الله عز وجل ، بمعنى أنه أوحى أن يدخل عليها بلاولى ولاعقد ولامهر ولاشهود من البشر". تفسير القرآن العظيم ٤٩١/٣ . =

وقـد أباح الله لنبيه صلى الله عليه وسلم أن يتزوج مـاشاء من النساء ثم قصـره على أزواجه اللائى كن فى عصمته وحرم عليــه أن يتزوج بغيرهن أو يستبدل بهن أزواجاً ولو أعجبه حسنهن إلا الإماء أو السـرارى وذلك فى قوله له : {لايحل لك النسـاء مـن بعـد ولاأن تبـدل بهــن مـن أزواج ولـو أعجبـك حسنهن إلا ماملكـت يمينك وكان الله على كـل شىء رقيباً}(١)جزاء لهـن على اختيارهن الله ورسـوله والدار الآخرة لما خيرهـن اللـه سبحانه فى ذلـك بقوله لنبيه صلى الله عليه وسلم : {ياأيها النبى قـل لأزواجك إن كنتن تردن الحيـاة الدنيا وزينتهـا فتعالين أمتعكن وأسرحكـن سراحاً جميلاً . وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعـد للمحسنات منكن أجراً عظيماً}(٢). ثم رفـع اللـه هذا الحكـم عنـه صلى الله عليـه وسلم وأباح لـه التزوج ولكنه لم يقع منه زواج صلى الله عليه وسلم بعد ذلك(٣) .

(هـ) لم يكـن صلى اللـه عليه وسلم يعيـش فراغاً فى حيـاته ، وهـو الذى لم يذق طعم الراحة منذ أن بعث إلى أن توفى صلى الله عليه وسلم ، فقد قام بأعباء دعوة الله خير قيـام ، فجـاهد فى سبيلهــا ونشـرها بالسيـف والسنـان والقول واللسان ، وكـان معلماً لأصحابه مـؤدباً لهـم حاكماً فيهم قاضياً بينهم ، مراعياً لحقوقهم ، وكان مجاهداً لنفسه ملازماً لعبادة

= ومما يؤيد ذلك مارواه البخارى بسنده إلى أنس بن مالك قال :
"فكـانت زينـب تفخـر على أزواج النبى صلى اللـه عليــه وسلم تقـول : زوجكـن أهاليكن وزوجنى الله تعالى من فوق سبع سموات" .
وفى رواية : "إن الله أنكحنى فى السماء" .
صحيـح البخارى ، كتاب التوحيـد (٩٧) ، باب {وكان عرشـه على الماء} (٢٢) ، ١٧٦/٨ .

(١) سورة الأحزاب : آية ٥٢

(٢) سورة الأحزاب : آية ٢٨،٢٩

(٣) انظر : تفسير القرآن العظيم ٤٨٠/٣،٥٠١،٥٠٢ .

ربه ، وكان يقوم حتى تتفطر أقدامه(١)، ويصوم حتى يظن أنه لايفطر(٢)، فأين فراغه الذى يقضيه فى شهواته وملذاته(٣).

ولكن المستشرقين عدموا الحياء فأساءوا الأدب ، وليس بعد الكفر ذنب.

(و) إن تعدد النساء ليس مما يطعن به الأنبياء ، ولايعد قدحاً فيهم ، ولو كان قادحاً فى نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم لقدح فى نبوة الأنبياء السابقين الذين عرفوا بتعدد النساء فى كتب العهد القديم التى يؤمن بها أولئك المستشرقون الحاقدون(٤).

فقد نصت تلك الكتب على أن إبراهيم عليه السلام تزوج سارة ثم هاجر فى حياة الأولى ، ويعقوب عليه السلام قد تزوج بأربع نسوة ، وداود عليه السلام تزوج نساء كثيرة، وسليمان عليه السلام تزوج بألف امرأة ، وجاء فى شريعة موسى عليه السلام مايدل على تعدد الزوجات وعدم تحريمه(٥).

فلم يكن صلى الله عليه وسلم فى ذلك بدعاً من الرسل ، ولايخفى أن تعدد الزوجات كان أمراً شائعاً عند العرب مألوفاً لهم(٦).

---

(١) انظر : صحيح البخارى ، كتاب التهجد (١٩) ، باب قيام النبى صلى الله عليه وسلم حتى تتورم قدماه (٦) ، ٤٤/٢ ، كتاب التفسير (٦٥) ، باب تفسير سورة الفتح (٤٨) ، باب قوله {ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك} (٢) ، ٤٤/٦ ، كتاب الرقاق (٨١) ، باب الصبر عن محارم الله (٢٠) ، ١٨٣/٧ .
صحيح مسلم ، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم (٥٠) ، باب إكثار الأعمال والاجتهاد فى العبادة (١٨) ، ٢١٧١/٤-٢١٧٢ .

(٢) انظر : صحيح البخارى ، كتاب التهجد (١٩) ، باب قيام النبى صلى الله عليه وسلم بالليل (١١) ، ٤٦/٢ ، كتاب الصوم (٣٠) ، باب صوم شعبان (٥٢) ، وباب مايذكر من صوم النبى صلى الله عليه وسلم (٥٣) ، ٢٤٣/٢-٢٤٤ .
صحيح مسلم ، كتاب الصيام (١٣) ، باب صيام النبى صلى الله عليه وسلم فى غير رمضان (٣٤) ، ٨٠٩/٢-٨١٢ .

(٣) انظر : محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ص٣٦٢ .

(٤) انظر : حياة الرسول المصطفى ٦٤٥/٣ .

(٥) انظر : إظهار الحق ص٦١٦-٦١٩ .

(٦) انظر : حياة محمد ص٣٢٨،٣٢٩ ، محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ص٣٦٢ .

ومع ذلك لم يكن دافع الشهوة هو الذى سيطر عليه صلى الله عليه وسلم فى زواجه ممن تزوج بهن . إضافة إلى أن تعدد الزوجات نفسه له حكم كثيرة يقصر هذا المقام عن ذكرها(١).

(ز) لقد تنبه العقلاء من أولئك القوم إلى فساد هذه الشبهة وبطلانها ، فكشفوا عن افتراء قومهم ومزاعمهم .

من أولئك الفيلسوف الإنجليزى توماس كارليل الذى يقول :

"وماكان محمد أخا شهوات - برغم ماتهم به ظلماً وعدواناً ، وشد مانجور ونخطىء إذا حسبناه رجلاً شهوياً لاهم له إلا قضاء مآربه من الملاذ . كلا فما أبعد ماكان بينه وبين الملاذ أية كانت"(٢).

وأما حديث "حبب إلى من دنياكم النساء والطيب وجعلت قرة عينى فى الصلاة" ، وزعم جولد زيهر أن قوله "وجعلت قرة عينى فى الصلاة" زيادة موضوعة أضيفت إلى الحديث فيما بعد ، والحديث يدل على أن النبى صلى الله عليه وسلم موضع اتهام خصومه لانشغاله بالنساء .

يجاب على هذه الفرية بما يلى :

أولاً : الحديث أخرجه النسائى (٣)، والإمام أحمد (٤)، وعبد الرزاق (٥)، والحاكم (٦)من حديث أنس بن مالك بزيادة قوله : "وجعلت قرة عينى فى الصلاة" .

---

(١) انظر : المرجع السابق ص٣٦٣-٣٦٦ .

(٢) الأبطال ص٨٩ .

(٣) سنن النسائى ، كتاب عشرة النساء ، باب حب النساء ٥٨/٣،٦٠ .

(٤) مسند أحمد ١٢٨/٣،٢٨٥ ، ١٩٩/٣ ولم يذكر "الدنيا" . وأخرجه عن عائشة بمعناه ٧٢/٦ .

(٥) مصنف عبد الرزاق ، باب المرأة تصلى وليس فى رقبتها قلادة وتطيب الرجال برقم ٧٩٣٩ ، ولم يذكر "الدنيا" ٣٢١/٤ .

(٦) مستدرك الحاكم ١٦٠/٢ ولم يذكر "الدنيا" .

وهو حديث صحيح بزيادته . وقد صححه جماعةمن العلماء(١).

ثانياً : ليس فى الحديث دلالة على انشغال النبى صلى الله عليه وسلم بالنساء حتى يكون موضع اتهام خصومه .

نقل السيوطى عن التسترى فى شرح الأربعين أنه قال :

"من" فى هذا الحديث بمعنى فى ، لأن هذه من الدين ، لامن الدنيا وإن كانت فيها . والإضافة فى رواية (دنياكم) للايذان بأن لاعلاقة له بها"(٢).

وقال الشيخ المناوى :

"إنه لم يضفها لنفسه ـ أى الدنيا ـ فما قال "أحب" تحقيراً لأمرها لأنه أبغض الناس فيها لالأنها ليست من دنياه بل من آخرته كما ظن إذ كل مباح دنيوى ينقلب طاعة بالنية فلم يبق لتخصيصه حينئذ وجه ، ولم يقل من هذه الدنيا لأن كل واحد ناظر إليها وإن تفاوتوا فيه وأما هو فلم يلتفت إلا إلى ماترتب عليه مهم دينى ، فحبب إليه (النساء) والإكثار منهن لنقل مابعث من الشريعة مما يستحيا من ذكره من الرجال ولأجل كثرة سواد المسلمين ومباهاته بهم يوم القيامة"(٣).

والرسول صلى الله عليه وسلم بشر وقد أباح الله له الأخذ من الطيبات وتناول الشهوات المباحة من غير إسراف كما قال تعالى : {ياأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً}(٤).

---

(١) قال الحاكم : "هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه" ووافقه الذهبى . المستدرك ١٦٠/٢ .
وقال المناوى : "قال الحافظ العراقى : "إسناده جيد" ، وقال ابن حجر : حسن" . فيض القدير ٣٧١/٣
وقال الشيخ ناصر الدين الألبانى : "صحيح" . صحيح الجامع ٨٧/٣ .
وانظر : مشكاة المصابيح ١٤٤٨/٣ فى الهامش ، ورقم الحديث ٥٢٦١ ، سير أعلام النبلاء ٩٠/١٢ ، ٣٩٤/١٥ فى الهامش .

(٢) زهر الربا على هامش سنن النسائى ٥٩/٧ .

(٣) فيض القدير ٣٧١/٣ .

(٤) سورة المؤمنون : آية ٥١

وقد قال صلى الله عليه وسلم : " لكنى أصوم وأفطر ، وأصلى وأرقد، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى " (١) .

فلم يكن صلى الله عليه وسلم راهباً متبتلاً كما يفعل رهبان النصارى، وجهلة المتصوفة ، كما أنه لم يطلق لنفسه العنان لتنغمس فى الشهوات والملذات كما يفعل عباد الدنيا ومقدسو المادة . إذ كان دينه وسطاً عدلاً فى كل شىء. لاإفراط ولاتفريط (٢) .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه من حديث أنس بن مالك ، كتاب النكاح : (٦٧) باب الترغيب فى النكاح : (١) ، ١١٦/٦ .
ومسلم فى صحيحه بلفظ مقارب ، كتاب النكاح : (١٦) ، باب استحباب النكاح: (١) ، برقم : (١٤٠١) ، ١٠٢٠/٢ .

(٢) انظر : سير أعلام النبلاء ٨٩/١٢،٩٠ .

(ب) اهتمامه بالدنيا والغنائم وعيشه على التلصص والسلب :

لقد كان النبى ميالاً فى بدء دعوته إلى الزهد فى الدنيا والتهوين من أمرها ، ولكن لما بدأت الفتوحات وظهرت الغنائم ، تغير مبدأ الزهد فى الدنيا إلى الطمع فيها ، وأصبح أمر الغنائم هو الذى يشغل باله ويدفعه إلى خوض الحروب وقتال الأعداء ، وهو الهدف نفسه الذى أثار به حماس جنوده ، الذين ماانضووا تحت لوائه إلا لعقدهم الآمال على الكسب والفوائد الميسورة التى عرضت لهم ، وعلى السعى للاحتفاظ بها(١).

قال مرجليوث(٢):

"عاش محمد هذه السنين الست مابعد هجرته إلى المدينة على التلصص والسلب والنهب ، ولكن نهب أهل مكة قد يبرره طرده من بلده ومسقط رأسه وضياع أملاكه ، وكذلك بالنسبة إلى القبائل اليهودية فى المدينة فقد كان هناك - على أى حال - سبب ما ، حقيقياً كان أم مصطنعاً يدعو إلى انتقامه منهم ، إلا أن خيبر(٣) التى تبعد عن المدينة كل هذا البعد لم يرتكب أهلها فى حقه ولافى حق أتباعه خطأ يعتبر تعدياً منهم جميعاً لأن قتل

---

(١) انظر : العقيدة والشريعة ص١٣٤-١٣٥ ، تاريخ الشعوب الإسلامية ص٤٩ .

(٢) مرجليوث :

هو دافيد صمويل مرجليوث إنجليزى يهودى ، من كبار المستشرقين ، متعصب ضد الإسلام ، ومن محررى "دائرة المعارف الإسلامية" ، كان عضوا بالمجمع اللغوى المصرى ، والمجمع العلمى فى دمشق . عين أستاذاً للعربية فى جامعة اكسفورد . له كتب عن الإسلام والمسلمين لم يكن مخلصاً فيها للعلم . مات سنة ١٩٤٠م.

من آثاره : "التطورات المبكرة فى الإسلام" ، "محمد ومطلع الإسلام" ، "الجامعة الإسلامية" وغيرها .

انظر : الأعلام ٣٢٩/٢-٣٣٠ ، المستشرقون ٥١٨/٢-٥٢٠ ، الاستشراق ص٣٦-٣٧ آراء المستشرقين حول القرآن ٨٨/١ .

(٣) خيبر : موضع مشهور على ثمانية برد من المدينة . من جهة الشام . كان بها سبعة حصون لليهود وحولها مزاع ونخل . والخيبر بلسان اليهود الحصن .

انظر : معجم البلدان ٤٠٩/٢-٤١٠ ، مراصد الاطلاع ٤٩٤/١ . وهى الآن مدينة معروفة من مدن المملكة العربية السعودية .

أحدهم رسول محمد لايصح أن يكون ذريعة للانتقام .

وهـذا يبين لنا ذلك التطـور العظيم الذى طرأ على سيـاسة محمد ، ففى أيامه الأولى فى المدينة أعلن معاملة اليهود كمعاملة المسلمين لكنه الآن (بعد السنة السادسة للهجرة) أصبح يخالف تماماً موقفه ذاك فقـد أصبح مجرد القول بأن جماعة ماغير مسلمة يعتبر سبباً كافياً لشن الغارة عليهـا ، وهذا يفسر لنا تلك الشهوة التى أثرت على نفس محمد والتى دفعته إلى شن غارات متتابعة ، كمـا سيطرت على نفس الاسكنـدر (١)من قبل ونابليـون (٢)مـن بعد ، ... إن استيلاء محمـد على خيبر يبين لنـا إلى أى حد قـد أصبـح الإسلام خطـراً على العالم"(٣).

---

(١) الاسكندر :

حاكـم يونانى قديم . خلف أباه فيليب عام ٣٣٦ ق.م على مملكـة الروم الغربية . أخضـع جميع بلاد الاغريق لحكمـه ، ثم استولى على دولـة الفرس ومصر وسوريا والهند وأفغانستان ، وأخضع أجزاء كبيرة من العالم لحكمـه . وكان يطمع فى مده إلى جميـع أنحاء العالم ، ليتسنى لـه نشر الثقافة الإغريقيـة فى جميع بقاعه . ولكن عاجلته المنية فمات فى الثالـث والثلاثين مـن عمـره . ثم انقسـم ملكـه بعـد موته وتفـرقت أجزاؤه . وقـد بنى مـدينة الاسكنـدرية فى مصـر التى سميـت باسمـه . والصحيح أنه ليس ذا القرنين الذى ورد ذكره فى القرآن .

انظـر : تاريخ الطبرى ٥٧٢/١-٥٧٨ ، البـداية والنهـاية ١٠٥/٢-١٠٦ ، البـدء والتـاريخ ١٥٢/٣-١٥٥ ، التـاريخ القـديم ص٩٢-٩٥ ، دائرة المعـارف الإسلاميـة ١٢٦/٢-١٢٨ .

(٢) نابليون :

هو نابليون بونبارت قائد فرنسى تغلب على كثير من بلاد أوربا وغيرهـا . ثم تولى حكـم فرنسا ونصب نفسه امبراطـوراً عليها وعلى معظم بلاد أوربا ، وكـان حاكماً استبدادياً .

تحالفـت عليه دول أوربا فعزل فى سنـة ١٨١٤م ، ثم عين ملكـاً على جزيرة "إلبـا" الصغيرة . ثم عـاد إلى حكـم فـرنسا وغير سياسة الاستبداد . ولكـن الحلفـاء ثاروا عليه مرة أخرى فوقعت بينهما معارك أدت إلى هزيمته ، ثم نفى إلى جزيرة "سانت هيلانة" حيث توفى عام ١٨٢١م .

انظر : تاريخ أوربا الحديث وآثار حضارتها ص١-٦٣ .

(٣) الإسلام والمستشـرقون ص٢٥٦ نقلاً عـن "محمـد وقيـام السـاعة" لمرجليـوث ص٢٦٢-٢٦٣ .

والجواب على ذلك :

لقد عاش رسول الله صلى الله عليه وسلم بعيداً عن مطامع الدنيا مترفعاً عنها ، وصان دعوته التى كلفه الله بتبليغها للناس عن كل هدف وغاية رخيصة ، ولم يقرنها فى لحظة من اللحظات أو وقت من الأوقات بمطمع دنيوى أو عطاء بشرى ، لأنه جاء ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ومن الضلال إلى الهدى لاليأخذ أموالهم ويستمتع بحقوقهم ، {قل ماأسألكم عليه من أجر وماأنا من المتكلفين}(١)، فهو لايريد من الناس مالاً ولايريد ضياعاً ، وإنما يرجو ثواب الله والدار الآخرة ، {قل ماسألتكم من أجر فهو لكم ، إن أجرى إلا على الله وهو على كل شىء شهيد}(٢).

وذلك هو منهج الرسل صلوات الله عليهم جميعاً فى دعوتهم إلى الله فإنهم مترفعون عن أغراض الدنيا الزائلة ، متزهون عن مطامعها الدنيئة ، وإنما همهم رضا الله وثوابه(٣).

وقد عرض عليه صلى الله عليه وسلم القرشيون فى مبدأ دعوته المال والشرف والملك لكى يتنازل عما يقول ، ولكنه أجابهم بما ينفى عنه كل غرض أو مطمع زائل فقال لهم : "ماجئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم ، ولاالشرف فيكم ، ولاالملك عليكم ، ولكن الله بعثنى إليكم رسولاً ، وأنزل على كتاباً ، وأمرنى أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فبلغتكم رسالات ربى ، ونصحت لكم ، فإن تقبلوامنى ماجئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم" . أو كما قال صلى الله عليه وسلم(٤).

---

(١) سورة ص : آية ٨٦

(٢) سورة سبأ : آية ٤٧

(٣) انظر الآيات فى : سورة يونس : آية ٧٢ ، سورة هود : آية ٥١،٢٩ ، سورة الشعراء : آية ١٨٠،١٦٤،١٤٥،١٢٧،١٠٩ .

(٤) السيرة النبوية لابن هشام ١٧٧/١ .

ولقد ظل صلى الله عليه وسلم على هذا الدرب لم يتغير ولم يتبدل لاكما يزعم المستشرقون .

يقول فخر الدين الرازى :

"إنه صلى الله عليه وآله وسلم تحمل فى أداء الرسالة أنواعاً من المشاق والمتاعب ، ولم يتغير عن المنهج الأول البتة . ولم يطمع فى مال أحد ولاجاهه . بل صبر على تلك المشاق والمتاعب ، ولم يظهر فى عزمه فتور ولافى إصراره قصور . ثم إنه لما قهر الأعداء ووجد العسكر العظيم والدولة القاهرة القوية ، ونفذ أمره فى الأموال والأزواج لم يتغير عن منهجه الأول والزهد فى الدنيا والإقبال على الآخرة ، وكل من أنصف علم أن المزور لايكون كذلك ، فإن المزور إنما يزور الكذب والباطل على الخلق ليجد الدنيا ، فإذا وجدها ولم ينتفع بها كان ساعياً فى تضييع الدنيا والآخرة على نفسه . وذلك مالايفعله أحد من العقلاء"(١).

لقد ضاق أزواجه يوماً من شظف العيش وضيق الحال ، وقلة المتاع فاشتكين حالهن له ، فأمره الله سبحانه أن يخيرهن بين فراقه لهن حيث يذهبن إلى من يجدن عنده الحياة الدنيا وزينتها وبين البقاء معه على ماهو عليه ، كما قال سبحانه : {ياأيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلاً . وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً} فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة(٢).

لقد دانت له جزيرة العرب وانقادت له الجموع الهائلة وحكم أمره فى الأموال ، فلم يرض لنفسه أبهة الملك وعظمته ، وثناء الخلق وتعظيمهم له كما أطرت النصارى عيسى وعظمت الأعاجم ملوكها ، فقال :

---

(١) الأربعين فى أصول الدين ص٣١٢ .

(٢) انظر : تفسير القرآن العظيم ٤٨٠/٣ ، نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فى القرآن ص١٣٩ . والآيات هى ٢٨،٢٩ من سورة الأحزاب .

"لاتطـرونى كما أطرت النصارى ابن مريم فإنما أنا عبـده ، فقولوا عبد الله ورسوله"(١).

وقـال : "إن كـدتم آنفاً لتفعلـون فعل فارس والـروم . يقـومون على ملـوكهم وهم قعود ، فلاتفعلوا ائتموا بأئمتكم . إن صلى قـائماً فصلوا قياماً ، وإن صلى قاعداً فصلوا قعودًا"(٢). وذلك حين صلى أصحابه خلفه قياماً وهو قاعد .

قال الماوردى :

"مـامنع من السخاء والجود حتى جاد بكـل موجود وآثر بكـل مطلوب ومحبـوب ومات ودرعه مرهونة عنـد يهودى على آصع مـن شعير لطعام أهله وقـد ملك جزيرة العـرب وكان فيها ملـوك وأقيال(٣)لهم خزائن وأمـوال يقتنونها ذخراً ويتباهون بها فخراً ويستمتعـون بها أشراً(٤)، وبطراً(٥)، وقد حاز ملك جميعهم فما اقتنى ديناراً ولادرهماً ، لايأكل إلا الخشن ولايلبس إلا الخشن ، ويعطى الجزل(٦)الخطير ويصل الجم الفقير ، ويتجرع مرارة الإقلال ويصبر على سغب(٧) الاختلال ،

---

(١) انظر : نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فى القرآن ص١٠٣ .
والحديث أخرجه البخارى فى صحيحـه ، كتـاب الأنبياء (٦٠) ، باب {واذكـر فى الكتاب مريم} (٤٨) من حديث عمر رضى الله عنه ١٤٢/٤ .
تطـرونى : الإطـراء هو مجاوزة الحد فى المدح ، والكـذب فيـه . النهـاية ١٢٣/٣ .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه من حديث جابر بن عبد الله . كتاب الصلاة (٤) ، باب ائتمام المأموم بالإمام (١٩) برقم ٤١٣ ، ٣٠٩/١ .

(٣) أقيال : جمع مقول ، وقيل . وهو الملك . أو هو دون الملك .
انظر : القاموس المحيط ص١٣٥٨ .

(٤) أشَراً : ويحرك . وهو المرح . والفعل منه أشر كفرح .
انظر : المرجع السابق ص٢٣٨ .

(٥) بطراً : بالتحريك : قلة احتمال النعمة . أو الطغيان بها .
انظر : المرجع نفسه ص٤٤٩ .

(٦) الجزل : هو الكثير من الشىء . انظر المرجع نفسه ص١٢٦٢ .

(٧) سغب : هو جوع مع تعب . انظر المرجع نفسه ص١٢٤ .

وقد حاز غنائم هوازن(١)، وهى من السبى ستة آلاف رأس ومن الإبل أربعة وعشرون ألف بعير ومن الغنم أربعون ألف شاة ومن الفضة أربع آلاف أوقية ، فجاد بجميع حقه وعاد خلواً"(٢).

لقد زهد صلى الله عليه وسلم فى الدنيا بكل ماتحمل كلمة الزهد من معنى حتى أشفق عليه صحابته رضى الله عنهم وراجعوه فى ذلك فأبى إلا الحالة التى كان عليها .

قال ابن مسعود رضى الله عنه : نام رسول الله صلى الله عليه وسلم على حصير فقام وقد أثر فى جنبه قلنا : يارسول الله لو اتخذت لك وطاءً (٣)فقال : "مالى وللدنيا؟ ماأنا فى الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها"(٤).

---

(١) هوازن : بطن من قيس عيلان من العدنانية وهم بنو هوازن بن منصور بن عكرمة وهى التى حاربها النبى صلى الله عليه وسلم فى غزوة حنين .
انظر : معجم قبائل الحجاز ص٥٢٤-٥٢٦ ، السيرة النبوية لابن هشام ٩/١ ، ٣٣١/٤ ، البداية والنهاية ٣٢٢/٤ .

(٢) أعلام النبوة ص٢١٨-٢١٩ .

(٣) الوطاء : هو الفراش الممهد المذلل الذى لايؤذى جنب النائم .
انظر : الفائق ٦٨/٤ ، النهاية ٢١٠/٥ .

(٤) أخرجه الترمذى فى سننه من حديث ابن مسعود رضى الله عنه . كتاب الزهد (٣٧) ، باب (٤٤) برقم ٢٣٧٧ .
وقال : "وفى الباب عن عمر وابن عباس" . وقال : "هذا حديث حسن صحيح" ٥٠٨/٤ . قال الشيخ ناصر الدين الألبانى : "وهو كما قال" . سلسلة الأحاديث الصحيحة ١٨٠/١ .
وأخرج ابن ماجه فى سننه نحوه من حديث ابن مسعود ، كتاب الزهد (٣٧) ، باب مثل الدنيا (٣) ، برقم ٤١٠٩ ، ١٣٧٦/٢ .
وأخرج أحمد فى مسنده نحوه من حديث ابن مسعود أيضاً ٣٩١/١،٤٤١ .
ومن حديث ابن عباس ولفظه : "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليه عمر وهو على حصير قد أثر فى جنبه فقال : يانبى الله لو اتخذت فراشاً أوثر من هذا؟ فقال : "مالى وللدنيا مامثلى ومثل الدنيا إلا كراكب سار فى يوم صائف فاستظل تحت شجرة ساعة من نهار ثم راح وتركها" . ٣٠١/١ . =

قالت عائشة رضى الله عنها : "ماشبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام تباعاً من خبز بر حتى مضى سبيله"(١).

وقالت : "إن كنا آل محمد لنمكث شهراً مانستوقد بنار إن هو إلا التمر والماء"(٢).

وقال النعمان بن بشير رضى الله عنهما : ذكر عمر (رضى الله عنه) ماأصاب الناس من الدنيا فقال :"لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يظل اليوم يلتوى مايجد دقلاً(٣)يملأ به بطنه"(٤).

= وأخرجه ابن حبان من حديث ابن عباس بلفظ مقارب لرواية أحمد ، كتاب التاريخ (١٠) ، باب صفته صلى الله عليه وسلم وأخباره (٣) ، ذكر مامثل المصطفى صلى الله عليه وسلم نفسه والدنيا بمثل مامثل به برقم ٦٣٥٢ . قال الأرناؤوط : "إسناده قوى" . الإحسان ٢٦٥/١٤-٢٦٦ .

وأخرجه الحاكم فى مستدركه من حديث ابن عباس نحو رواية أحمد وقال : "هذا حديث صحيح على شرط البخارى ولم يخرجاه" . ووافقه الذهبي .

وقال الحاكم : "وله شاهد من حديث عبد الله بن مسعود" . ثم ساق الحديث نحواً من رواية الترمذى ٣٠٩/٤-٣١٠ .

وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد ونسبه لأحمد . وقال : "رجاله رجال الصحيح غير هلال بن خباب وهو ثقة" ٣٢٦/١٠ . وأورد الشيخ ناصر الدين الألبانى : حديث ابن مسعود برقم ٤٣٩ ، وحديث ابن عباس برقم ٤٤٠ فى سلسلة الأحاديث الصحيحة ١٧٩/١-١٨٠ .

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه بلفظ مقارب ، كتاب الأطعمة (٧٠) ، باب ماكان النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه يأكلون (٢٣) ، ٢٠٥/٦ ، وفى باب ماكان السلف يدخرون فى بيوتهم وأسفارهم من الطعام وغيره (٢٧) ، ٢٠٦/٦ ، وفى كتاب الرقاق (٨١) ، باب كيف كان عيش النبى صلى الله عليه وسلم (١٧) ، ١٨٠/٧ .

وأخرجه مسلم فى صحيحه ، واللفظ له . كتاب الزهد والرقائق (٥٣) برقم ٢٩٧٠ ٢٢٨١/٤ .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه ، بلفظ مقارب ، كتاب الرقاق (٨١) ، باب كيف كان عيش النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه (١٧) ، ١٨١/٧ .

وأخرجه مسلم فى صحيحه واللفظ له ، فى الكتاب السابق برقم ٢٩٧٢ ، ٢٢٨٢/٤

(٣) الدقل : هو ردىء التمر ويابسه ، وماليس له اسم خاص فتراه ليبسه ورداءته لايجتمع ويكون منثوراً . النهاية ١٢٧/٢ ، وانظر : الفائق ٤/٢ .

(٤) أخرجه مسلم فى صحيحه فى الكتاب السابق برقم ٢٩٧٨ ، ٢٢٨٥/٤ .

بل قد حذر أصحابه رضى الله عنهم من الانغماس فى شهوات الدنيا وملذاتها ، وتخوف عليهم منها فقال : "إن مما أخاف عليكم من بعدى مايفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها"(١).

وقال : "إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت فى النساء"(٢).

ولقد فارق رسول الله صلى الله عليه وسلم الحياة وماترك خلفه درهماً ولاديناراً .

روى البخارى بسنده إلى عمرو بن الحارث ختن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخى جويرية بنت الحارث قال : "ماترك رسول الله صلى الله عليه وسلم عند موته درهماً ولاديناراً ولاعبداً ولاأمة ولاشيئاً إلا بغلته البيضاء وسلاحه وأرضاً جعلها صدقة"(٣).

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه ، من حديث أبى سعيد الخدرى ، وهو جزء من حديث ، كتاب الزكاة (٢٤) ، باب الصدقة على اليتامى (٤٧) ، ١٢٧/٢ .
وأخرج نحوه فى كتاب الجهاد والسير (٥٦) ، باب فضل النفقة فى سبيل الله (٣٧) ، ٢١٣/٣-٢١٤ ، وفى كتاب الرقاق (٨١) ، باب مايحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها (٧) ، ١٧٣/٧ .
وأخرجه مسلم فى صحيحه بلفظ مقارب ، فى كتاب الزكاة (١٢) ، باب تخوف مايخرج من زهرة الدنيا (٤١) برقم ١٠٥٢ ، ٧٢٨/٢-٧٢٩ .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه ، كتاب الذكر والدعاء (٤٨) ، باب أكثر أهل الجنة الفقراء (٢٦) برقم ٢٧٤٢ ، من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ٢٠٩٨/٤
قال النووى رحمه الله :
"معنى الدنيا خضرة حلوة ، يحتمل أن المراد به شيئان ، أحدهما : حسنها للنفوس ونضارتها ولذتها كالفاكهة الخضراء الحلوة فإن النفوس تطلبها طلباً حثيثاً فكذا الدنيا . والثانى : سرعة فنائها كالشيء الأخضر فى هذين الوصفين . ومعنى مستخلفكم فيها جاعلكم خلفاء من القرون الذين قبلكم فينظر هل تعملون بطاعته أو بمعصيته وشهواتكم". شرح النووى على مسلم ٥٥/١٧ .

(٣) صحيح البخارى ، كتاب الوصايا (٥٥) ، باب الوصايا (١) ، ١٨٦/٣ . =

هـذا إرثه فى هذه الدنيا التى يزعـم المستشرقون أنه عـاش على الطمـع فيها والسلب والنهب .

ومـع هـذا فلم يرث أهلـه عنـه شيئـاً لقـوله : "لانورث مـاتركنا فهـو صدقة"(١).

ويكفينـا فى ذلك قول عائشة رضى الله عنها إذ تقـول : "توفى رسول اللـه صلى الله عليه وسلم ومـافى بيتى من شىء يأكله ذو كبـد إلا شطر شعير فى رف لى فأكلت منه حتى طال على فكلته ففنى"(٢).

= وأخرج نحوه فى كتاب الجهاد والسير (٥٦) ، باب بغلة النبى صلى اللـه عليه وسلم (٦١) ٣/٢٢٠ ، وفى باب مـن لم ير كسـر السلاح عنـد الموت (٨٦) ، ٣/٢٢٩ ، وكتـاب فرض الخمس (٥٧) ، باب نفقـة نساء النبى صلى اللـه عليـه وسلم (٣) ، ٤/٤٥ ، وكتـاب المغـازى (٦٤) ، باب مـرض النبى صلى اللـه عليـه وسلم ووفـاته (٨٣) ، ٥/١٤٤ .

(١) سبق تخريجه انظر ص: ١٦

(٢) أخرجه البخـارى فى صحيحه ، كتـاب فرض الخمس (٥٧) ، باب نفقـة نساء النبى صلى اللـه عليـه وسلم بعد وفـاته (٣) ، ٤/٤٥ ، وفى كتـاب الـرقاق (٨١) ، باب فضل الفقر (١٦) ، ٧/١٧٩ .
وأخرجه مسلم فى صحيحـه ، كتـاب الزهد والرقائق (٥٣) برقـم ٢٩٧٣ ، إلا أنها قالت : (ومافى رفى) ٤/٢٢٨٢-٢٢٨٣ .

ولكن إن كان ماسبق هو رأى بعض المستشرقين الجائرين فى رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم فقد أنصفه غيرهم من بنى جلدتهم ، وردوا على فريتهم تلك بما يكمم الأفواه ويخرس الألسنة .

قال كارليل :

"أيزعم الكاذبون أن الطمع وحب الدنيا هو الذى أقام محمداً وأثاره ، حمق وأيم الله وسخافة وهوس . أى فائدة لمثل هذا الرجل فى جميع بلاد العرب ، وفى تاج قيصر(١)، وصولجان(٢)كسرى(٣)وجميع مابالأرض من تيجان وصوالجة . وأين تصير الممالك والتيجان والدول جميعها بعد حين من الدهر؟ أفى مشيخة مكة وقضيب مفضض الطرف أو فى ملك كسرى وتاج ذهبى الذؤابة منجاة للمرء ومظفرة؟ كلا إذن فلنضرب صفحاً عن مذهب الجائرين القائل إن محمداً كاذب ، ونعد موافقتهم عاراً وسبة وسخافاً وحمقاً ، فلنربأ بنفوسنا عنه ولنترفع"(٤).

وقال :

"لقد كان زاهداً متقشفاً فى مسكنه ومأكله ومشربه وملبسه وسائر أموره وأحواله ، وكان طعامه عادة الخبز والماء وربما تتابعت الشهور ولم توقد بداره نار ، وإنهم ليذكرون - ونعم مايذكرون - إنه كان يصلح ويرفو ثوبه بيده ، فهل بعد ذلك مكرمة ومفخرة؟ فحبذا محمد من رجل خشن اللباس ، خشن الطعام ، مجتهد فى الله ، قائم النهار ، ساهر الليل ، دئباً فى نشر دين الله ، غير طامع إلى مايطمح إليه أصاغر الرجال ، من رتبة ، أو دولة ، أو سلطان ، غير متطلع إلى ذكر أو شهرة"(٥).

وقال المفكر الفرنسى الكونت هنرى دى كاسترى :

---

(١) هو لقب لملوك الروم . أسد الغابة ١٢٠/١ .

(٢) صولجان : بفتح الصاد واللام : هو المحجن . انظر القاموس ص٢٥١ .

(٣) هو لقب لملوك الفرس . أسد الغابة ١٢٠/١ .

(٤) الأبطال ص٧١-٧٢ .

(٥) المرجع السابق ص٨٩-٩٠ .

"لايمكن أن ننكر على محمد فى الدور الأول من حياته كمال إيمانه وإخلاصه وصدقه ، أما فى الدور الثانى فلم يتزعزع الإيمان من قلبه مثقال ذرة ، ... ولم يكن فيه أى عيب ، بل مانسبوه إليه (من قبل بعض الكتاب الأوربيين) لايؤثر بشىء فى سيرته الطاهرة. إن محمداً ماكان يميل إلى زخارف الدنيا ، ولم يكن بخيلاً وكان يستدر اللبن من نعاجه بنفسه ويجلس على التراب ، ويرقع ثوبه ونعاله بيده ويلبسها مرقعة ، وكان قنوعاً ، وقد خرج محمد من هذا الباب (يعنى توفى) ولم يشبع من خبز الشعير مرة فى حياته ، وتجرد من الطمع ، وتمكن من نوال المقام الأعلى فى بلاد العرب ، ولكنه لم يجنح إلى الاستبداد فيها ، فلم تكن له حاشية ولم يتخذ وزيراً ولاحشماً ، وقد احتقر المال ، وأنه بلغ من السلطان منتهاه ، ومع ذلك لم يكن له علامات الإمارة والملك سوى خاتم من الفضة مكتوب عليه (محمد رسول الله)"(١)(٢).

وأما زعم مرجليوث أن النبى صلى الله عليه وسلم انتقم من يهود المدينة بسبب حقيقى أو مصطنع ، يدل على جهل هذا المستشرق بتاريخ اليهود ، أو تجاهله لذلك .

لأن النبى صلى الله عليه وسلم لما وصل إلى المدينة لم يكن فى سياسته إبعاد اليهود أو مصادرة أموالهم أو الخصام والتنازع معهم ، وأصدق دليل على ذلك ماأبرمه معهم من معاهدة تقرهم على دينهم وتؤمنهم فى أموالهم ، وجاء فيها نصرة المظلوم وحماية الجار ورعاية الحقوق(٣).

---

(١) انظر : صحيح البخارى ، كتاب اللباس (٧٧) ، باب خاتم الفضة (٤٦) ، والأبواب التى تليه ٥١/٧-٥٤ .
صحيح مسلم ، كتاب اللباس والزينة (٣٧) ، باب لبس النبى صلى الله عليه وسلم خاتماً من ورق نقشه محمد رسول الله (١٢) ، والأبواب بعده ١٦٥٦/٣-١٦٥٨ .

(٢) الإسلام والمستشرقون ص٣١٧ .

(٣) انظر : السيرة النبوية لابن هشام ٣١٨/٢،٣١٩ ، فقه السيرة ص١٩٦،١٩٧ .

وكـان على اليهـود وهم أهـل كتاب ولهم عهد بالـديانة والـرسل أن يقفـوا مـع الإسلام ويؤيدوه ويناصروه ، وإن لم يفعلـوا ذلـك فعلى الأقـل يقفوا على الحياد ، ولكنهم لم يفعلوا هذا ولاذاك وإنما ناصبوا الإسلام العداء حسـداً وبغضـاً ومالؤا أعداء الإسلام مـن المنافقين والمشـركين فهتـك القرآن استارهم ، وكشف دواخل قلوبهم المريضة ونفوسهم العليلة ، وبين ماتنطوى عليه تلك النفوس من عقائد باطلة ، وأخلاق منحطة ، وعـادة سيئة ، ونبش تاريخهـم المظلم تجاه أنبيـاء اللـه والصد عـن سبيله ، وتحريف التـوراة وغير ذلك (١).

فثارت ثائرتهم ، واشتدت عداوتهم ، ولم يقف بهم الأمر عند المخالفة وحيـاكة الدسائس ، بل تعدوا إلى تفضيل عبادة الأوثان على عبـادة الواحد الديان ، وقد ذكر الله عنهم ذلك صراحة فى قوله : "ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبـاً مـن الكتاب ، يؤمنون بالجبـت والطاغوت ، ويقـولون للـذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً"(٢).

وخانوا العهـود ونقضوها وأسفروا عن وجه كالح ملىء حقـداً وعداءً للإسلام ونبيـه صلى الله عليـه وسلم ، واستحالت مسـاكنتهم ومجاورتهـم مع المؤمنين فى مكان واحد ، عند ذلك قلب لهم الإسلام ظهر المجن ، وأجلاهم نبى اللـه صلى اللـه عليه وسلم مـن المدينـة بما هو معلـوم فى تاريخ السيرة .

وخيبر التى يزعم مرجليوث تجنى النبى صلى الله عليـه وسلم على أهلها. لم يكـن الأمـر كـذلك ، بل كـانت خيبر قلعـة حربيـة لليهـود ، وهـى آخر معـاقلهم فى جزيرة العـرب ، وكـان يتربص أهلها بالمسلمين الـدوائر ، وقـد

---

(١) انظر : السيرة النبوية لأبى الحسن الندوى ص٢٢٨-٢٣٣ .

(٢) انظر : المرجع السابق ص٢٣١ ، والآية هى ٥١ من سورة النساء .
وفى معنى الجبت والطاغوت أقوال منها : السحر ، الأصنـام ، الكاهن ، الشيطان .
انظر : تفسير القرآن العظيم ٥١٢/١ ، زاد المسير ١٣٨/٢-١٣٩ .

خافوا أن يصيبهم ماأصاب يهود المدينة ، فتآمروا مع غطفان(١) لغزو المدينة فتنبه النبي صلى الله عليه وسلم لأمرهم فسير الجيوش نحوهم لكسر شوكتهم وتأمين جهتهم(٢).

وإن كان هذا المستشرق قد جهل ذلك فغيره من المستشرقين لم يجهلوه . فقد قال مونتجمرى واث :

"كان يهود خيبر وخاصة رؤساء قبيلة بنى النضير التى أجلاها الرسول من المدينة يضمرون الحقد لمحمد ، وهم الذين نجحوا فى حمل قبائل العرب المجاورة على حمل السلاح على المسلمين والزحف عليهم ، بما بذلوه من أموال ، وكان ذلك هو السبب الرئيسى فى توجه محمد إلى خيبر بجيوشه"(٣).

ومع أن النبى صلى الله عليه وسلم فتحها عنوة بعد قتال مرير إلا أنه دفع إليهم أموالهم على أن يعملوها بينهم وبين المسلمين بالمناصفة كما جاء ذلك عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : "أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر لليهود أن يعملوها ويزرعوها ، ولهم شطر مايخرج منها"(٤).

---

(١) غطفان : اسم لقبيلة من قبائل العرب ، من قيس عيلان . وهو غطفان بن سعد ابن قيس عيلان . نزلت الكوفة .
انظر : الأنساب ٥٩/١٠ .

(٢) انظر : السيرة النبوية لأبى الحسن الندوى ص٣٥١-٣٥٢ ، فقه السيرة ص٣٦٨ .

(٣) السيرة النبوية لأبى الحسن الندوى ص٣٥٢ الهامش ، نقلاً عن محمد النبى السياسى ص١٨٩ .

(٤) أخرجه البخارى فى صحيحه ، فى كتاب الإجارة (٣٧) ، باب إذا استأجر أرضاً فمات أحدهما (٢٢) ، ٥٥/٣ ، وفى كتاب الحرث والمزارعة (٤١) ، باب المزارعة مع اليهود (١١) ٦٩/٣ ، كتاب الشركة (٤٧) ، باب مشاركة الذمى والمشركين فى المزارعة (١١) ، ١١٣/٣ ، وفى كتاب الشروط (٥٤) ، باب الشروط فى المعاملة (٥) ، ١٧٥/٣ ، وفى كتاب المغازى (٦٤) ، باب معاملة النبى صلى الله عليه وسلم أهل خيبر (٤٠) ، ٨٤/٥ .
وأخرجه مسلم فى صحيحه ، كتاب المساقاة (٢٢) ، باب المساقاة والمعاملة بجزء من الثمر والزرع (١) برقم ١٥٥١ ، ١١٨٦/٣-١١٨٧ .

وظـل الحال كـذلك حتى توفى رسـول اللـه صلى اللـه عليـه وسلم ، وأقـرهم أبو بكـر على معاملـة رسـول الله صلى الله عليـه وسلم حتى توفى ، وأقـرهم عمـر أيضـا صـدراً مـن خلافتـه ، ولكـن بغضـاؤهم وحقـدهم على الإسلام دفعهم لارتكاب بعض الجرائم فى حق المسلمين ، فقتلـوا عبد الله بن سهـل الأنصارى ، وفدعوا يدى عبـد الله بن عمر فمـا كان من عمر إلا أن قام فى الناس خطيباً فقال :

"أيهـا الناس ، إن رسول اللـه صلى الله عليه وسلم كـان عـامل يهود خيبر على أنا نخرجهـم إذا شئنا ، وقد عدوا على عبد اللـه بن عمر ، ففدعوا يديه ، كمـا قـد بلغكـم ، مـع عـدوهم على الأنصارى قبلـه ، لانشـك أنهـم أصحـابه ليس لنا هنالك عدو غيرهـم ، فمن كان له مال بخيبر فليلحـق به ، فإنى مخرج يهود ، فأخرجهم"(١).

وقـد أيد فعل عمر رضى الله عنه حديث رسول اللـه صلى الله عليه وسلم : "لأخرجن اليهـود والنصـارى مـن جزيرة العـرب ، حتى لاأدع إلا مسلماً"(٢).

---

(١) انظر : السيرة النبوية لابن هشام ٣/٢٦٨-٢٦٩ ، فقه السيرة ص٣٧٧ .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه مـن حديث عمـر بن الخطـاب رضـى اللـه عنـه ، كتاب الجهـاد والسير (٣٢) ، باب إخراج اليهـود والنصـارى مـن جزيرة العـرب (٢١) برقم ١٧٦٧ ، ٣/١٣٨٨ .

(ج) اتباعه لهواه :

لقد زعم المستشرقون أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يسير وفقاً لهواه ومزاجه ، فلاوحى يرشده ولادين يقوده ، وإنما الهوى هو الذى يسيطر عليه ويحركه كما يشاء .

يقول د. جلاوور[١]فى كتابه "تقدم التبشير العالمى" :

"كان محمد حاكماً مطلقاً ، وكان يعتقد أن من حق الملك على الشعب أن يتبع هواه ويفعل مايشاء ، وكان مجبولاً على هذه الفكرة ، فقد كان عازماً على أن يقطع عنق كل من لايوافقه فى هواه . أما جيشه العربى فكان يتعطش للتهديم والتغلب ، وقد أرشدهم رسولهم أن يقتلوا كل من يرفض اتباعهم ويبعد عن طريقهم"[٢].

---

(١) جلاوور :
لم أقف له على ترجمة .

(٢) الإسلام والمستشرقون ص٢٤٥ . نقلاً عن "تقدم التبشير العالمى" .

والجواب على ذلك :

لقد عصم الله رسوله صلى الله عليه وسلم عن اتباع الهوى ومدحه بذلك فى قرآنه ، فهو لايقول إلا حقاً ولايفعل إلا حقاً . وأكد ذلك سبحانه بإقسامه على نفى الهوى عنه ، وذلك فى قوله : {والنجم إذا هوى . ماضل صاحبكم وماغوى . وماينطق عن الهوى . إن هو إلا وحى يوحى}(١).

قال العلامة ابن كثير رحمه الله :

"وقوله تعالى {ماضل صاحبكم وماغوى} هذا هو المقسم عليه ، وهو الشهادة للرسول صلى الله عليه وسلم بأنه راشد تابع للحق ليس بضال : وهو الجاهل الذى يسلك على غير طريق بغير علم ، والغاوى هو العالم بالحق العادل عنه قصداً إلى غيره ، فنزه الله رسوله وشرعه عن مشابهة أهل الضلال كالنصارى وطرائق اليهود ، وهى علم الشىء وكتمانه والعمل بخلافه بل هو صلاة الله وسلامه عليه ومابعثه الله به من الشرع العظيم فى غاية الاستقامة والاعتدال والسداد ، ولهذا قال : {وماينطق عن الهوى} أى مايقول قولاً عن هوى وغرض {إن هو إلا وحى يوحى} أى إنما يقول مايؤمر به يبلغه إلى الناس كاملاً موفوراً من غير زيادة ولانقصان"(٢).

وفى الحقيقة إن اليهود والنصارى هم الذين انطمست بصائرهم ، وضلت عقولهم ، واتبعوا أهواءهم ، حتى حذر الله رسوله صلى الله عليه وسلم من سلوك مسلكهم واتباع أهوائهم فقال له : {ولاتتبع أهواءهم عما جاءك من الحق}(٣)، وقال : {وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولاتتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ماأنزل الله إليك}(٤). وأى هوى أعظم من معرفة الحق ثم العدول عنه أو عبادة الله على الجهل والضلالة وتلك سمات أهل الكتابين التى وسمهم الله بها فى قوله : {اهدنا الصراط

---

(١) سورة النجم : آية ١-٤

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤/٢٤٦-٢٤٧ .

(٣) سورة المائدة : آية ٤٨

(٤) سورة المائدة : آية ٤٩

المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولاالضالين}(١).

إن أعداء الإسلام من المستشرقين لايرعوون عن إلحاق كل ذم وعيب بهذا الإسلام ورسوله صلى الله عليه وسلم ورميه بكل فرية ، وهم أولى بكل ذم وعيب ، وهل رميهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بما رموه به وهو منه برىء إلا من نتاج الهوى والحقد الذى ران على قلوبهم وتشربته نفوسهم حتى أصبح من أبرز السمات لهم؟، فهذه بحوثهم وتلك أقوالهم وآراؤهم التى مزجت بالهوى والضلال فراحوا يرمون غيرهم بما هم فيه ، وقد قيل فى المثل (رمتنى بدائها وانسلت)(٢).

فياأعداء الإسلام إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لايقول ولايفعل ولايأمر ولاينهى إلا بما أمره به ربه وخالقه سبحانه وتعالى ولايمكنه أن ينقص شيئا أو يزيد فيه من عند نفسه وقد قال له سبحانه : {ولو تقول علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين}(٣).

ولو فعل وحاشاه أن يفعل لتعرض لعقاب ربه وعذابه ، ولكنه الصادق فيما يقول ، الملتزم لأمر ربه المنصاع له المجتنب لما نهاه عنه ، فمثله لايكون متبعا لهوى البتة .

ثم أين الدليل على مازعمه جلاوور؟ كان عليه أن يمثل لنا بمثال يثبت به ماقال ، وأنى له ذلك ، انه لايملك مايدلل به على باطله ، فعاد قوله عليه ، لأن من الهوى أن يطلق الإنسان الحكم قبل إيجاد الدليل ، وقد فعل جلاوور ، فهو صاحب الهوى إذن .

لقد نبه الله رسوله صلى الله عليه وسلم فى أمور ليست من أساس الدين ، كعتابه له فى قوله : {عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين}(٤)، وفى قوله : {ياأيها النبى لم تحرم ماأحل

---

(١) سورة الفاتحة : آية ٦،٧

(٣) سورة الحاقة : آية ٤٤-٤٧

(٢) مثل يضرب لمن يعير صاحبه بعيب هو فيه . مجمع الأمثال للميدانى ٢٣/٢ . وانظر كتاب جمهرة الأمثال لأبى هلال العسكرى ٤٧٥/١-٤٧٦ .

(٤) سورة التوبة : آية ٤٣

الله لك}(١)، وقوله : {عبس وتولى}(٢)، وفى ذلك أصدق دليل على أنه رسول من الله لايفعل إلا مايرضى ربه ، ولو قال قولاً أو فعل فعلاً مهما قل ودق ولم يأت على مراد الله وأمره ، لعاتبه الله فيه . وحصر ماوقع فيه صلى الله عليه وسلم من أمور يسيرة ، وذكر الله لذلك فى القرآن ، دلالة على أن كل مانطق به وفعله وأقر عليه سوى ماذكر حق مؤيد بوحى من الله تعالى بعيداً عن الهوى والزلل(٣).

---

(١) سورة التحريم : آية ١
(٢) سورة عبس : آية ١
(٣) انظر : السنة حجيتها ومكانتها فى الإسلام ص٢٧٥ .

(د) **تناقضه :**

لقد حكموا على النبى صلى الله عليه وسلم بالتناقض فى أوامره وأحكامه ، ينفى اليوم مايثبته بالأمس ، ويثبتماينفيه ، ويفعل ماحذر منه ، ويأمر بما نهى عنه ، حتى أصبح ذلك مدعاة لبعث النقاد الذين كشفوا هذه التناقضات .

يقول جولد زيهر بعد زعمه بأن القرآن متناقض :

"ورسالة النبى الدينية تنعكس فى روحه بألوان مختلفة باختلاف الاستعدادات السائدة فى نفسه ... ويبدو فضلاً عن ذلك أنه فيما يتعلق بمحمد نفسه شرع منذ القدم فى البحث عن تناقض فيما يبشر به . ولاغرو فقد كان وحى النبى ، حتى فى حياته ، معرضاً لحكم النقاد الذين كانوا يحاولون البحث عما فيه من نقص ، وكان عدم الاستقرار والطابع المتناقض البادى فى تعاليمه موضع ملاحظات ساخرة"(١).

ومن الأمثلة على تناقضه :

(١) بعث مرة سرية من جيشه لمباغتة قافلة بالعروض(٢)، فأصابت القافلة وأصابت منها غنائم كثيرة وكان ذلك فى الشهر الحرام ، فأثار ذلك عاصفة من الاستنكار ، فما كان من محمد إلا أن أنكر صنيع أتباعه ، الذى تم وفق رغباته بلاخلاف ، وعزاه إلى سوء فهم أوامره(٣).

---

(١) العقيدة والشريعة ص٧٩ .

(٢) العروض :

تطلق على المدينة ومكة واليمن . وقيل : على مكة واليمن . وقيل : على مكة والطائف وماحولهما . وقيل : على بلاد اليمامة والبحرين . وقيل تجمع ذلك كله. وسميت العروض لأنها تقع مستطيلة مع ساحل البحر .

انظر : معجم البلدان ١٦٠/٦ ، مراصد الاطلاع ٩٣٥/٢ .

(٣) انظر : تاريخ الشعوب الإسلامية ص٤٩ .

(٢) لقد كان فى بادىء أمره لايهتم بأمر الدنيا ، ولايطمع فى نيلها ولكنه انتقل فى مراحله الأخيرة إلى الأمانى الدنيوية القوية التى صار لها التفوق خلال مراحل نجاحه،وهذا ماطبع الدين الإسلامى بطابع التناقض (١).

(١) انظر : العقيدة والشريعة ص٣٠-٣١ الأولى .

والجواب على ذلك :

لقد صان الله دينه وحفظ وحيه من التناقض والاختلاف ، ونزه شريعته من التضاد والتباين لأنها من عند الله عز وجل وهو الحق سبحانه الذى لاتتضارب أقواله ولاتتنافر أحكامه .

يقول الإمام الشاطبى رحمه الله :

"الشريعة كلها ترجع إلى قول واحد فى فروعها وإن كثر الخلاف كما أنها فى أصلها كذلك ولايصلح فيها غير ذلك ، والدليل عليه أمور : أحدها : أدلة القرآن :

من ذلك قوله تعالى : {ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً}(١)، فنفى أن يقع فيه اختلاف البتة . ولو كان فيه مايقتضى قولين مختلفين لم يصدق عليه هذا الكلام على حال . وفى القرآن {فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول}(٢)الآية . وهذه الآية صريحة فى رفع التنازع والاختلاف فإنه رد المتنازعين إلى الشريعة وليس ذلك إلا ليرتفع الخلاف ، ولايرتفع الخلاف إلا بالرجوع إلى شىء واحد . إذ لو كان فيه مايقتضى الاختلاف لم يكن فى الرجوع إليه رفع تنازع وهذا باطل .

وقال تعالى : {ولاتكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ماجاءهم البينات}(٣)الآية . والبينات هى الشريعة فلولا أنها لاتقتضى الاختلاف ولاتقبله البتة لما قيل لهم من بعد كذا .

ولكان لهم فيها أبلغ العذر ، وهذا غير صحيح . فالشريعة لااختلاف فيها . وقال تعالى : {وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله}(٤)، فبين أن طريق الحق واحد وذلك عام فى جملة

---

(١) سورة النساء : آية ٨٢
(٢) سورة النساء : آية ٥٩
(٣) سورة آل عمران : آية ١٠٥
(٤) سورة الأنعام : آية ١٥٣

الشريعة وتفاصيلها"(١). إلى آخر ماذكر رحمه الله من أدلة تبين خلو الشريعة من الاختلاف والتناقض(٢).

وقال فى موضع آخر :

"إن كل من تحقق بأصول الشريعة فأدلتها عنده لاتكاد تتعارض كما أن كل من حقق مناط المسائل فلايكاد يقف فى متشابه . لأن الشريعة لاتعارض فيها البتة . فالمتحقق بها متحقق بما فى الأمر فيلزم ألا يكون عنده تعارض ، ولذلك لاتجد البتة دليلين أجمع المسلمون على تعارضهما بحيث وجب عليهم الوقوف ، لكن لما كان أفراد المجتهدين غير معصومين من الخطأ أمكن التعارض بين الأدلة عندهم"(٣).

ففى حقيقة الأمر لاتعارض بين أدلة الشرع على الإطلاق كما قال ابن خزيمة رحمه الله :

"لاأعرف أنه روى عن النبى صلى الله عليه وسلم حديثان بإسنادين صحيحين متضادين ، فمن كان عنده فليأتينى به لأؤلف بينهما"(٤).

ولكن قد تتعارض بعض الأحاديث عند بعض العلماء ولذا قام فن جليل وعلم هام من علوم الحديث عرف بعلم مختلف الحديث ومشكله ، وهو من أهم الأنواع،لاضطرار جميع العلماء إلى معرفته ، ولايكمل فيه إلا من دق فهمه وثقب رأيه ، ووسع علمه(٥).

وقد اعتنى علماء الحديث بهذا العلم اعتناء بالغاً ، منذ عصر الصحابة رضى الله عنهم ، فجمعوا بين الأحاديث التى ظاهرهاالتعارض فوفقوا بينها ، وأزالوا مابها من إشكال ، وكان لهم فضل كبير فى رد انتقادات الطاعنين ،

---

(١) الموافقات ٦٣/٤ .

(٢) انظر : المرجع السابق ٦٣/٤-٦٥ .

(٣) المرجع نفسه ١٧٤/٤ .

(٤) مقدمة ابن الصلاح ص١٤٣ ، معالم السنة النبوية ص١٨٨ .

(٥) انظر : التقريب مع شرحه التدريب ١٩٦/٢ أصول الحديث ص٢٨٣ ، معالم السنة النبوية ص١٨٥ .

ودحض شبهات فرق المبتدعة كالمعتزلة وغيرهم ، ونقوا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من كل شائبة وكدرة ، وأودعوا ذلك مؤلفات ، كاختلاف الحديث للشافعي ، وتأويل مختلفه لابن قتيبة ، ومشكل الآثار للطحاوى وغيرها الكثير(١).

وقد قعدوا القواعد التى تزيل الإشكال بين ماظاهره التعارض من الأحاديث وتوفق بينها . فذكروا أنه فى حالة تعارض حديثين يجمع بينهما إذا أمكن الجمع، ولايعدل عن ذلك إلى غيره ، فإن لم يمكن الجمع بينهما وعلم أن أحدهم ناسخ والآخر منسوخ عمل بالناسخ وترك المنسوخ ، وإذا لم يثبت النسخ أخذ بالراجح منهما ، وأوجه الترجيح كثيرة عدها بعضهم فزادت على المائة وجه(٢).

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله :

"خفاء ترجيح أحدهما على الآخر إنما هو بالنسبة للمعتبر فى الحالة الراهنة مع احتمال أن يظهر لغيره ماخفى عليه"(٣).

ولعل جولد زيهر يعنى بالتناقض أيضاً مايقع فى القرآن أو السنة من نسخ لبعض الأحكام .

والنسخ ثابت فى الشريعة الإسلامية، وهو مما خص الله به هذه الأمة لحكم كثيرة منها :

(١) مراعاة مصالح العباد .

(٢) تطور التشريع إلى مرتبة الكمال حسب تطور الدعوة وتطور حال الناس .

---

(١) انظر : الحديث والمحدثون ص٤٧١،٤٧٢ ، أصول الحديث ص٢٨٤ ، معالم السنة النبوية ص١٨٦،١٨٩ .

(٢) انظر : التقريب مع شرحه التدريب ١٩٨/٢ ، الباعث الحثيث ص١٧٠-١٧١ ، شرح نخبة الفكر ص٦٢ ، تيسير مصطلح الحديث ص٥٨ ، معالم السنة النبوية ص١٨٨-١٨٩ .

(٣) شرح نخبة الفكر ص٦٣ .

(٣) ابتلاء المكلف واختباره بالامتثال وعدمه .

(٤) إرادة الخير للأمة والتيسير عليها ، لأن النسخ إن كان إلى أشق ففيه زيادة الثواب ، وإن كان إلى أخف ففيه سهولة ويسر(١).

والنسخ لايكون فى القواعد الكلية كأركان الإيمان وإنما يكون فى الجزئيات الفرعية،وماوقع فيه النسخ منها قليل جداً(٢).

ومعرفة الناسخ والمنسوخ من أهم مايجب معرفته لمن يبحث فى أحكام الشريعة ، ولذا أولاه الصحابة والتابعون وأهل العلم أهمية كبرى لما يترتب على ذلك من أخذ بعض الأحكام وترك غيرها ، وقد نبغ فيه كثير من العلماء ، وأوضحوا وبينوا مانسخ من الأدلة ومالم ينسخ وألفت فى ذلك الكتب وصنفت التصانيف(٣).

وبينوا مايعرف به النسخ من أمور،منها :

(١) أن يثبت النسخ بتصريح رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٢) أن يخبر بذلك صحابى من صحابته رضى الله عنهم أجمعين .

(٣) أن يتتبع التاريخ ليعرف السابق من اللاحق .

(٤) أن يدل على ذلك الإجماع ، والإجماع لاينسخ ولاينسخ ولكن يدل على النسخ(٤).

فكل حديث ثبت نسخه فقد بينه العلماء ودونوه ، فلم يبق للمستشرقين حجة فى ذلك أبداً .

فإذا تبين هذا ، نقول لجولد زيهر من هم النقاد الذين بحثوا فى رسالة النبى صلى الله عليه وسلم وأثبتوا تناقضها؟ وأين تلك المتناقضات التى أخرجوها؟

---

(١) علوم القرآن ص٢٤٠ ، وانظر : علم أصول الفقه لعبد الوهاب خلاف ص٢٢٢-٢٢٥ ، بحوث فى أصول التفسير ص٣٢٥ .

(٢) انظر : الموافقات ٦٣/٣،٦٥،٧٠ .

(٣) انظر : الحديث والمحدثون ص٤٧٢ ، أصول الحديث ص٢٨٨،٢٨٩ .

(٤) انظر : تدريب الراوى ١٩٠/٢-١٩١ ، الحديث والمحدثون ص٤٧٣ ، تيسير مصطلح الحديث ص٦٠ ، معالم السنة النبوية ص١٩٥ .

ومامثل به من أمثلة لايدل على زعمه الباطل .

وهذا بيانه :

(أ) **حادثة السرية :**

وملخص ماحدث فى ذلك :

إن النبى صلى الله عليه وسلم بعث عبد الله بن جحش ومعه ثمانية رهط من المهاجرين ، وكتب له كتاباً وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين ، فلما سار اليومين فتح الكتاب فإذا فيه :

"إذا نظرت فى كتابى هذا فامضى حتى تنزل نخلة ، بين مكة والطائف ، فترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم" .

فمضى ومضى معه النفر حتى نزل بنخلة فمرت بهم عير لقريش تحمل تجارة لهم وفيها عمرو بن الحضرمى .

فتشاور القوم فى أمرهم وكان ذلك فى آخر يوم من رجب ، فقال بعضهم : لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن الحرم فليمتنعن منكم به ، ولئن قتلتموهم لتقتلنهم فى الشهر الحرام ، فتردد القوم ، وهابوا الإقدام عليهم ، ثم شجعوا أنفسهم عليهم ، وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم وأخذ مامعهم .

فرمى أحدهم ابن الحضرمى بسهم فقتله وأسروا منهم أسيرين ، ثم عادوا بالأسيرين والعير إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال لهم : "ماأمرتكم بقتال فى الشهر الحرام" وأوقف العير والأسيرين وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً . فسقط فى أيدى القوم وظنوا أنهم قد هلكوا ، وعنفهم إخوانهم ، وقالت قريش : قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام ، وسفكوا فيه الدم، وأخذوا فيه الأموال ، وأسروا فيه الرجال . فقال من يرد عليهم من المسلمين ممن كان بمكة "إنما أصابوا ماأصابوا فى شعبان" فلما أكثر الناس فى ذلك أنزل الله قوله : {يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ، قل قتال فيه كبير}(١)... الخ مانزل فى ذلك .

---

(١) سورة البقرة : آية ٢١٧

أى إن كنتم قتلتم أيها المسلمون فى الشهر الحرام فإن مافعله الكفار أعظم من ذلك وأكبر ، فإنهم صدوكم عن سبيل الله مع الكفر به ، وعن المسجد الحرام ، وأخرجوكم منه وأنتم أهله ، ثم هم باقون على ذلك {ولايزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا}(١).

فلما نزل القرآن بذلك ، وفرج ماكان فيه المسلمون من الشفق قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم العير والأسيرين وتجلى عن عبد الله بن جحش وأصحابه ماكانوا فيه ، وأعطوا على غزوتهم أجر المجاهدين كما قال سبحانه : {إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم}(٢)(٣).

ويمكن من هذا السياق أن نستجلى عدة أمور تبين فساد مازعمه جولدزيهر :

أولاً : إن النبى صلى الله عليه وسلم لم يبعث هذه السرية لقتال وإنما بعثهم لإرصاد أمر قريش وكشف أخبارهم .

ثانياً : لقاء السرية بالقافلة كان على غير توقع منهم .

ثالثاً : قتالهم لهم كان عن اجتهاد منهم ليس بأمر سابق، وقد دل على ذلك أيضاً قوله صلى الله عليه وسلم : "ماأمرتكم بقتال فى الشهر الحرام" . وإيقافه للعير والأسيرين .

---

(١) سورة البقرة : آية ٢١٧

(٢) سورة البقرة : آية ٢١٨

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٣٩٧-٤٠٠ بتصرف . وانظر : تفسير القرآن العظيم ١/٢٥٣-٢٥٤ ، السيرة النبوية لأبى الحسن الندوى ص٢٣٥-٢٣٨ ، فقه السيرة ص٢٢٩-٢٣٢ .

وقد روى البيهقى القصة فى سننه من طريق الزهرى عن عروة مرسلاً ، فى كتاب السير ، باب ماجاء فى نسخ العفو عن المشركين ٩/١١-١٢ ، ولكنه لم يورده بتمامه ثم ساق القصة بكاملها من طريق عروة فى الكتاب السابق ، باب قسمة الغنيمة فى دار الحرب ٩/٥٨-٥٩ .

وصحح الشيخ ناصر الدين الألبانى إسناده . انظر : فقه السيرة ص٢٣٠-٢٣١ الهامش .

رابعاً : تعنيف المسلمين لمن كان فى السرية ومؤاخذتهم لهم ، فلو كان ذلك بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ماعنفوهم .

خامساً : تخفيف الله عز وجل عن عبد الله بن جحش وأصحابه بمقارنة مافعلوه بما فعله المشركون وهو أعظم وأكبر ، ثم جعله إياهم من المهاجرين المجاهدين الذين يرجون بما فعلوا رحمة الله ومغفرته ، يدل على حسن قصدهم ورجائهم للثواب فيما صنعوا .

فليس لجولد زيهر فى هذه الحادثة من دليل يدل على تناقض النبى صلى الله عليه وسلم فى أمره ، فبطل احتجاجه .

(ب) مااستدل به على تناقض النبى صلى الله عليه وسلم فى أمر الدنيا ، ورفضه إياها أولاً ثم ميله إليها ثانياً ، لايدل على تناقض ، وقد أسلف الحديث فى هذا الشأن فيما سبق عندما تعرضت لشبهة الغنائم[1].

بعد هذا يتضح لنا أن مازعمه المستشرقون من مطاعن فى شخص النبى صلى الله عليه وسلم يريدون من خلالها الطعن فى نبوته وإبطال رسالته ، ماهى إلا أمور أوهى من خيط العنكبوت ، بل بان من خلالها كذب هؤلاء المستشرقين وتلفيقهم ، وليهم للحقائق الثابتة لكى تتجارى مع أهوائهم ، وفساد نياتهم تجاه هذا الدين ورسوله الكريم صلى الله عليه وسلم .

ولاتزيد هذه الشبه إلا قدحاً فى مصداقيتهم ، وشكاً فى بحوثهم .

---

(١) انظر ص : ٤٤٦ فما بعدها .

